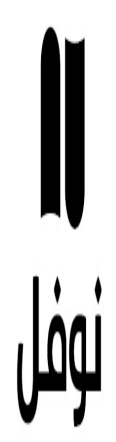

رواية
سبعة أيّام من العمر
... ثمّ اختفى
روزي والش
إلى كلّ من
انتظر اتصالًا
لم يأتِ
نوفل

رواية

...ثمّ اختفى

روزي والش

نقلتها من الإنجليزيّة ابتسام خضرا


نوفل

صدرت عام 2020 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2020
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 11-0656، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Shutterstock ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **سابين طاوقجيان**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-055-0
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-056-7

Original title:
The Man Who Didn’t Call
© Rosie Walsh Ltd., 2018

كلمة شكر

أودّ بادئ ذي بدء أن أشكر George Pagliero و Emma Stonex على ذلك اليوم الغريب القائظ، عندما توافقنا على ضرورة كتابة هذه الرواية من دون المزيد من التأخير، وأيضًا على حماستهما ودعمهما الكبيرين في الفترة التي أعقبت ذلك.

كما أوجّه شكري العميق إلى محرّرتي Pam Dorman، التي حرّرت الكتاب بحذر وإبداع، ونظرت إلى الرواية برؤية راسخة، واستوعبت حبكتها حقّ استيعاب. وأشكر أيضًا Brian Tart و Kate Stark و Lindsay Prevette و Kate Griggs و Roseanne Serra و Jeramie Orton، وباقي أفراد فريق العمل في دار Pamela Dorman Books / Viking. ويشرّفني فعلًا أن أتعامل مع هذه المجموعة الاستثنائيّة.

أودّ أيضًا التعبير عن امتناني اللّامتناهي لـ Allison Hunter، وكيلة أعمالي في الولايات المتّحدة التي لا تعرف الكلل، والتي كادت تقضي عليّ في صفّ تمارين رياضيّة، ومن ثمّ عادت وأنقذت الموقف وأمّنت لي عقدًا لنشر الكتاب لم أكن لأحلم به. كما أشكر وكيلة أعمالي في المملكة المتّحدة Lizzy Kremer التي خطّطت لتنفيذ مشروع الكتاب بطريقة رائعة، فلولاها لكنتُ شعرت بالضياع. والشكر موصول أيضًا إلى Harriet Moore و Olivia Barber.

وأتوجّه بالشكر إلى Sam Humphreys من دار Mantle في المملكة المتّحدة لأنّها أحبّت هذه القصّة منذ البداية، ولأنّها تعمّقت في تحريرها فجعلتها أفضل بكثير ممّا كان يمكن أن تكون. وأشكر المحرّرين الآخرين الذين اشتروا حقوق النشر في دول أخرى. ما زلتُ مسرورةً وممتنةً لذلك! كما أعبّر عن امتناني لـ Alice Howe من David Higham Associates ولفريقها الكبير في قسم حقوق الترجمة: Emma Jamison و Emily Randle و Camilla Dubini و Margaux Vialleron و Annabel Church.

وأشكر من أعماق قلبي فريق Old Robsonians، وهو فريق كرة قدم أصيل أكنّ له إعجابًا كبيرًا. لقد قدّم أعضاء هذا الفريق مبلغًا سخيًّا إلى جمعيّة CLIC Sargent الخيريّة الخاصّة بالأطفال مقابل ذكر اسم الفريق في هذا الكتاب.

وأقدّم الشكر أيضًا إلى Gemma Kicks والجمعيّة الخيريّة الرائعة Hearts & Minds، على المساعدة التي حصلتُ عليها عندما كنت أجري البحوث حول مؤسّسات Clowndoctor الخيريّة. إنّ الفرق الذي يحدثه هؤلاء الأطبّاء المهرّجون في حياة الأطفال، يومًا بعد يوم، لحقيقي وملموس، لقد أثاروا دهشتي وإعجابي. كما أشكر Lynne Barlow من مستشفى Bristol للأطفال.

وأشكر Emma Williams، الممرّضة في مجال الطبّ النفسيّ؛ و James Gallagher، الذي يعمل نجّارًا؛ و Victoria Bodey، والدة الصبية الصغار. والشكر موصول إلى أصدقاء كثر أجابوا عن سيل لا ينقطع من الأسئلة (كانت شخصيّة غالبًا) عبر فيسبوك.

كما وأشكر Emma Stonex، و Sue Mongredien، و Katy Regan، و Kirsty Greenwood، و Emma Holland على رأيهنّ القيّم بالمخطوطة في مراحلها المتعدّدة. وأخصّ بالشكر شريكتي العزيزة في الكتابة، Deborah O'Donoghue، التي لا أعتقد أنني كنت لولاها قادرة على تأليف هذا الكتاب. شكرًا لك شريكتي – فقد كنتِ مصدر العديد من الأفكار الرائعة الواردة في هذا الكتاب. وأنا أتطلع بشوق لرؤية روايتك الخاصة تتربع على أرفف المكتبات.

وأودّ التعبير عن الامتنان لجمعيّة SWANS – South West Authors and Novelists – على الدعم ودعوات الغداء وضحكاتنا سويًّا. وأشكر السيّدات في جمعيّة CAN للأسباب نفسها. شكرًا Lindsey Kelk على الرحلة البحثيّة إلى لوس أنجلوس وعلى النقاشات التي كانت في أغلب الأحيان خارج مجال تأليف الكتب. شكرًا لـ Rosie Mason وعائلتها على الأيّام التي لا تنسى، والتي أمضيناها في اللهو في ذلك الوادي الجميل، ولـ Ellie Tinto لأنّه أبقى على روح Margery Kempe حيّة ومتمرّدة.

أشكر Lyn و Brian و Caroline Walsh، الذين لطالما شجّعوني في كلّ ما أقوم به، والذين أصبحت مصدر فخر لهم عندما نجحت في تأليف كتب تحمل اسمي. والشكر الأكبر أتوجّه به إليك عزيزي George وإلى رجلنا الصغير المضحك الرائع الذي غيَّر إلى الأبد مفهومي عن الحبّ.

ربّما كانت حالة العشق الوحيدة تلك التي لا نعرف فيها تمامًا الشخص الذي نعشقه.

آلان دي بوتون
«مقالات في الحبّ»

الجزء الأوّل

الفصل الأوّل

غاليتي،

مضت تسع عشرة سنة مُذ وقفنا في ذلك الصباح المشرق وتبادلنا الابتسامات وعبارات الوداع. لم يكن يراودني أدنى شكّ في أنّنا سنعاود اللقاء، أو لعلّي كنت مخطئًا؟ بالنسبة إليّ كانت المسألة مسألة توقيت لا غير. بل إنّ الفكرة، في الواقع، كانت بديهيّة. ربّما بدا المستقبل آنذاك مجرّد صورة ضبابيّة، أشبه بلحظة الصحو من حلم، لكنّه كان قطعًا يضمّ كلينا، سويًّا.

ورغم كلّ اليقين، لم يحصل، وما زلت أنا أقف مصعوقًا، حتّى بعد مرور كلّ تلك السنين.

مضت تسع عشرة سنة منذ ذلك اليوم. تسع عشرة سنة بالتمام والكمال، وما زلت أبحث عنك. سأبحث عنك ما حييت.

غالبًا ما يراودني طيفك في لحظات لا أتوقّعك فيها البتّة. جلستُ صباح اليوم غارقًا في أفكار قاتمة جوفاء، كان جسدي متشنّجًا مثل قبضة حديديّة. فجأةً، شعرت بحضورك؛ مثل ورقة خريف زاهية الألوان تتراقص على مرجة رماديّة كئيبة. فرَدْتُ جسدي وتنشّقت عبير الحياة؛ شعرت بقطرات الندى على قدميّ؛ رأيت تدرّجات اللون الأخضر. حاولت الإمساك بكِ؛ حاولت الإمساك بورقة الشجر المفعمة بالحياة، التي كانت تثب وتراوغ وقد غلبها الضحك. حاولت الإمساك بيدكِ والنظر في عينيكِ، لكنّك انزلقتِ مثل بقعة ضوئيّة وتلاشيتِ بصمت بعيدًا من متناول يدي.

سأبحث عنك ما حييت.

الفصل الثاني

اليوم السابع: كلانا شعر بذلك

كان العشب رطبًا. كان رطبًا وقاتم اللون، يعجّ بحشرات صغيرة. كان يمتدّ حتّى حدود الغابة المعتمة، ويتراقص بفعل الأعداد الكبيرة من النمل والحلزون التي تسير متثاقلة، والعناكب الصغيرة التي تحوك شباكها. كانت الأرض تحتنا تحاول التشبّث بآخر شرارات الدفء.

كان إيدي مستلقيًا جانبي، يدندن لحن موسيقى فيلم «حرب النجوم»، وهو يلمس إبهامي بإبهامه لمسًا رفيقًا بحركة بطيئة ناعمة أشبه بالغيوم التي تعبر هالة القمر الرقيقة المطلّ علينا. عندما بدأ لون السماء يتحوّل من البنفسجيّ إلى الأرجوانيّ، قال لي:

– تعالي نبحث عن مخلوقات فضائيّة.

لكنّنا راوحنا مكاننا.

تناهت إلى مسامعي من بعيد نفثات القطار الأخير قبل أن يتوارى داخل النفق. ابتسمت، وتذكّرت أيّام الطفولة حين كنت أخيّم وهانا في المكان نفسه. كنّا نخيّم في حقل صغير في هذا الوادي الصغير ذاته، معزولتين عن العالم الذي كان ما زال يبدو صغيرًا.

عند ظهور أولى بوادر فصل الصيف، كانت هانا تلحّ على والدينا ليسمحا لها بنصب الخيمة.

كانا يستجيبان لطلبها، «شرط نصب الخيمة في الحديقة».

كانت الحديقة تمتدّ أمام مدخل المنزل، وكانت كلّ النوافذ تقريبًا تشرف عليها. لكنّها لم تكن كافية بالنسبة إلى هانا التي لطالما تفوّقت عليّ بروح المغامرة، رغم أنّها تصغرني بخمس سنوات. كانت تريد التخييم في الحقل الذي يمتدّ صعودًا نحو الهضبة الشديدة الانحدار الواقعة خلف منزلنا ليعود وينبسط عند قمّتها بما يكفي لنصب خيمة. لم يكن يشرف عليه سوى السماء. كان مفروشًا بأقراص صلبة من روث البقر، ومرتفعًا إلى درجة كان من الممكن رؤية مدخنة منزلنا منه.

لم يكن والدانا يتحمّسان كثيرًا لفكرة التخييم في الحقل.

كانت هانا تصرّ، وهي تقول بصوتها الناعم الذي لا يخلو من شيء من التسلّط:

– لكنّني سأكون بأمان تامّ. (كم اشتقتُ إلى ذلك الصوت!) سوف تأتي أليكس معي.

كانت أليكس، صديقتها الحميمة، تمضي معظم وقتها في منزلنا.

– ستذهب سارة أيضًا. هي تستطيع حمايتنا إذا هاجمنا أيّ مجرم.

كما لو أنّني كنتُ رجلًا قويّ البنية ذا لكمة لا تخطئ.

– إذا ذهبنا فلن تكونا مضطرّين إلى إعداد طعام العشاء أو الفطور لنا...

كانت هانا أشبه بجرّافة صغيرة تكتسح كلّ ما يقف في وجهها؛ وكانت تتمتّع بقدرة لا تضاهى على الإتيان بالحجج المفحِمة، وبالتالي، لم يكن أمام والدينا سوى الإذعان. في البداية، كانا يخيّمان في الحقل معنا، ولكن في نهاية المطاف، وبعدما أصبحت في سنوات المراهقة الصعبة المعقّدة، سمحا لهانا وأليكس بالتخييم وحدهما هناك، وعهدا إليّ بحراستهما.

كنّا نستلقي في خيمة والدي القديمة – خيمة متهالكة مصنوعة من قماش برتقاليّ، أشبه بكوخ صغير، ونصغي إلى معزوفة الأعشاب المتمايلة في الخارج. كنت أبقى مستيقظة في معظم الأوقات، بعد استسلام شقيقتي الصغرى وصديقتها للنوم، وأنا أتساءل عن نوع الحماية التي في وسعي توفيرها إذا اقتحم أحدٌ الخيمة. كان الشعور بضرورة حماية هانا، ليس فقط أثناء نومها في الخيمة، بل على الدوام، أشبه بصخرة مصهورة داخل معدتي، بركان خارج عن السيطرة. مع ذلك، ماذا كان في وسعي القيام به فعلًا؟ هل أسدّد إلى المهاجمين ضربة كاراتيه قاضية بمعصم فتاة مراهقة؟ هل أطعنهم بعود من حلوى المارشميلو؟

ذات يوم، وصفتني المدرّسة المشرفة عليّ في تقريرها على النحو التالي: «هي غالبًا متردّدة، ولا تتمتّع بثقة تامّة في نفسها».

يومذاك، قالت لي والدتي بلهجة كانت تلجأ إليها لتأنيب والدي:

– ما كتبتْه المدرّسة مفيد فعلًا. تجاهليها يا سارة. كوني متردّدة قدر ما يحلو لك! فتلك هي الغاية من سنوات المراهقة!

في النهاية، كنت أخلد إلى النوم وقد أرهقني تجاذب مشاعر الرغبة في الحماية ومشاعر العجز، وكنت أستيقظ باكرًا لتجميع مكوّنات التوليفة المقرفة التي أحضرتها هانا وأليكس لصنع «سندويش الفطور» السيّئ الذكر الذي ستتناوله الفتاتان في الصباح.

وضعت يدي على صدري؛ وأبعدت الذكريات من تفكيري. لم يكن ذلك المساء مساءً للحزن: كان مساء خاصًّا باللحظة الراهنة. خاصًّا بإيدي وبي، وبالمشاعر الرائعة التي كانت تنمو وتزهر بيننا.

ركّزت انتباهي على أصوات الغابة التي غدت واضحة بعد حلول الليل. صوت حفيف الزواحف، ووقع قوائم الحيوانات المتثاقلة. همسات الأوراق الخضراء المتراقصة مع النسيم؛ صوت أنفاس إيدي الهادئة. أصغيت لضربات قلبه المنتظمة داخل سترته، وأثارني هدوؤه. كان والدي يحبّ أن يكرّر على مسامعي: «سارة، الوقت كفيل بكشف المزيد عن الناس، عليك أن تراقبي وتنتظري». لكنّني أراقب هذا الرجل منذ أسبوع، ولم أشعر بوجود ما يثير قلقي. كان من نواحٍ عدّة، يذكّرني بالشخصيّة التي درَّبت نفسي على أن أكونها في مجال العمل: صلبة، عقلانيّة، لا تؤثّر فيها التحوّلات التي تطرأ في العمل الخيريّ. غير أنّني أمضيت سنوات في التدريب، في حين أنّ إيدي كان يبدو هكذا، ببساطة، من دون بذل أيّ مجهود.

تساءلت في نفسي عمّا إذا كان يمكنه سماع صدى مشاعر الإثارة المتأجّجة داخلي. قبل أيّام فقط، كنت قد انفصلت عن زوجي، وعلى وشك الطلاق، وقد قاربتُ الأربعين من العمر. فجأةً، أعيش تلك اللحظات. فجأةً، يظهر هو.

لمحتُ بطرف عيني حيوانًا صغيرًا يجرجر نفسه متثاقلًا في الظلام، قلت:

– انظر، حيوان الغرير. هل هو سدريك يا ترى؟

– سدريك؟

– نعم، لكنّني أعتقد أنّه ليس هو. تُرى كم يعيش الغرير؟

– أعتقد حوالى عشر سنوات، قالها وهو يبتسم.

سمعت صوت ابتسامته.

– إذًا، هو ليس سدريك قطعًا. ولكن قد يكون صغيره، أو حتّى صغير صغيره.

صمتُّ قليلًا. كنّا نحبّ سدريك.

ضحك حتّى اهتزّ جسده، وسرت عدوى الضحك إليّ.

– كنّا؟ من تقصدين؟

– أنا وشقيقتي. كنّا نخيّم في حقل قريب.

انقلب على جنبه، كان وجهه قريبًا من وجهي، فقرأتُ مشاعره في عينيه.

قال بهدوء:

– كنتِ تحبّين سدريك. وأنا...

ثمّ مرّر إصبعه على جبيني، وتابع:

– وأنا... تعجبينني. يعجبني وجودنا سويًّا. لا بل يروقني كثيرًا.

ابتسمت ونظرت في عينيه المليئتين بالحنان والصدق. ابتسمت لخطوط الضحك، وللبروز الحادّ في ذقنه. أمسكت يده وقبّلت أطراف أصابعه. كانت خشنة، فيها ندوب خلّفتها شظايا الخشب

نتيجة عشرين سنة من العمل في التجارة. كنت بدأت أشعر بأنّني أعرفه منذ سنوات. بل لطالما عرفته. بدا وكأنّ قدر ما اختارنا لنكون معًا، ربّما منذ لحظة ولادتنا، ومن ثمّ بذل المساعي ورتّب الأمور ورسم الخطط ودبّر المصادفات إلى أن التقينا في نهاية المطاف، قبل ستّة أيّام. قلت بعد صمت طويل:

– راودتني توًّا أفكار عاطفيّة للغاية.

– وأنا أيضًا، قال متنهّدًا. أشعر بأنّ الأسبوع الفائت مضى على وقع ألحان الكمان.

ضحكتُ. قبّل أنفي. تساءلتُ في سرّي كيف يمكن للمرء أن يُمضي أسابيع وشهورًا، لا بل سنوات، يعيش حياةً بطيئة، لا يتغيّر فيها شيء. وفجأةً، خلال بضع ساعات فقط، تُعاد كتابة قصّة حياته من جديد، فتتغيّر كلّيًا؟ لو أنّني خرجت في وقت لاحق من ذلك اليوم، لكنتُ ركبت الحافلة في الوقت المحدّد، وما كنتُ لأقابله قطّ، ولكان هذا الإحساس الجديد باليقين مجرّد همسة مكتومة تتحسّر على الفرص الضائعة والتوقيت الخاطئ.

– أخبريني أكثر عن نفسكِ. لا أعرف عنك ما يكفي. أريد أن أعرف كلّ شيء. أريد أن أعرف قصّة حياة سارة إيفلين ماكيه كاملة غير منقوصة، لا سيّما الأجزاء السيّئة منها.

حبستُ أنفاسي.

لا أستطيع القول أنّني لم أكن أتوقّع هذا السؤال في مرحلة ما من العلاقة، ومع ذلك لم أكن حتّى تلك اللحظة قرّرت ما سيكون ردّي إن سأل. يا للهول! قصّة حياة سارة إيفلين ماكيه كاملة غير منقوصة، لا سيّما الأجزاء السيّئة منها. الأرجح أنّه سيتحمّل سماع قصّة حياتي. كانت ثمّة درع واقية تغطّي هذا الرجل، شيء من صلابة هادئة تذكّرني بسور بحري قديم، أو ربّما بشجرة سنديان.

كان يرسم بيده منحنى خصري. فهمس:

– أحبّ هذا الخصر.

كان رجلًا مرتاحًا مع نفسه ومنسجمًا معها؛ وبالتالي، يمكن إيداعه أيّ سرّ، أيّ حقيقة، وسوف يكتمهما من دون التسبّب في أيّ ضرر.

بالطبع يمكنني أن أخبره قصّة حياتي.

– لديّ فكرة. دعنا نخيّم هنا هذه الليلة، ونتظاهر بأنّنا ما زلنا شابّين. في إمكاننا أن نوقد نارًا، ونشوي النقانق، ونروي القصص. هذا على افتراض أنّك تملك خيمة. تبدو رجلًا يملك خيمة.

قال مؤكّدًا:

– نعم، أملك خيمة.

– رائع! إذًا، فلنخيّم الليلة هنا، وسوف أخبرك بكلّ شيء. أنا...

استدرتُ لأتأمّل ظلمة الليل. كان ما تبقّى من الشموع الثخينة المعطّرة برائحة الأزهار يضيء شجرة كستناء الخيل المنتصبة عند حافّة الغابة، ضوءًا خافتًا. وكانت أزهار الحوذان تتمايل في الظلمة قرب وجهينا. كانت هانا تكره هذه الأزهار لأسباب لم تفصح عنها يومًا.

جاشت في صدري مشاعر لا أستطيع تفسيرها. فأردفت:

– ما أجمل أن أكون في هذا المكان، فهو يوقظ في نفسي الكثير من الذكريات.

ابتسم إيدي وأجاب:

– لا بأس إذًا، سوف نخيّم هنا. ولكن قبل ذلك، اقتربي منّي أرجوك.

قبّلني. شعرت للحظة أنّ أصوات العالم بكامله قد تلاشت، كما لو أن أحدًا ضغط زرًّا أو أدار مفتاحًا. ولمّا انتهت القبلة، غمرني بشدّة وأسرّ لي:

– لا أريد أن يكون غدًا آخر يوم نمضيه معًا.

شعرت بالدفء المنبعث من صدره وبطنه، وبدغدغة شعره المقصوص تحت يدي.

تنشّقت رائحة جسده النظيف، وفكّرت في أنه قد مضى وقت طويل مذ عشت حميميّة كهذه. فعندما توصّلنا أنا وروبن إلى الإقرار بانتهاء الأمور بيننا، صار كلٌّ منّا ينام على طرف من السرير، مثل مساند الكتب، وكانت شراشف السرير المشدودة والمرتّبة نتيجة عدم استخدامها، تُثني على فشلنا الزوجي الصارخ.

– إلى أن يفرّقنا الفراش، قلتُ لروبن ذات ليلة. إلّا أنّه لم يضحك.

ارخى إيدي طوق ذراعيه عني ما يكفي كي أتمكّن من رؤية وجهه، وفاتحني قائلًا:

– اسمعي... خطر لي أن يُلغي كلّ منّا مخطّطاته، إجازتي ورحلتك إلى لندن. وبذلك نتمكّن من تمضية أسبوع آخر في الحقول.

استندت إلى مرفقي، وقلتُ في سرّي: «لو تعرف كم أرغب في ذلك. أكثر ممّا تتصوّر. لقد كنتُ متزوّجة طوال سبع عشرة سنة ولم أشعر مرّة واحدة بما أشعر به الآن وأنا معك». لكنّني أجبته:

– أن نمضي أسبوعًا آخر كهذا لأمر رائع. ولكن لا داعي لإلغاء إجازتك أبدًا. سوف أكون هنا عندما تعود.

– لكنّك لن تكوني هنا، سوف تكونين في لندن.

– هل أنت حارد؟

– نعم.

وضع قبلةً في عنقي.

– لا داعي لأن تحرد. سأعود إلى غلوسترشير بعد عودتك بقليل.

بدا غير مقتنع. فتابعتُ كلامي:

– إذا كففتَ عن الحرد، فقد تجدني في انتظارك في المطار. وربّما أكون واقفة بين أولئك الأشخاص الذين يحملون لافتات صغيرة كُتب عليها اسم ما، وقد ركنوا سيّاراتهم في المرأب. بدا لحظة أنّه يدرس الفكرة، ثمّ قال:

– أتمنّى ذلك. أتمنّاه حقًّا.

– اتّفقنا إذًا.

– ثمّة أمر آخر...

توقّف لحظة عن الكلام، وبدا عليه التردّد فجأة. غير أنّه تابع:

– أعرف أنّ ما سأقوله فيه شيء من التسرُّع، ولكن، بعد أن تروي لي قصّة حياتك، وأطهو لك النقانق، التي يُحتمل ألّا تكون لذيذة، أودّ أن نناقش بجدّيّة مسألة تواجد كلٍّ منّا في بلد مختلف. فأنت تعيشين في كاليفورنيا، وأنا أعيش في إنجلترا. فترة زيارتك هذه قصيرة جدًّا.

– أعرف ذلك.

قبض بشدّة على العشب القاتم اللون. وسألني:

– بعد أن أعود من إجازتي، لن يبقى لنا سوى أسبوع واحد سويًّا قبل عودتك إلى الولايات المتّحدة، أليس كذلك؟

أومأتُ برأسي. كان الشعور بحتميّة الفراق الغيمة السوداء الوحيدة التي عكَّرت صفو الأسبوع الذي أمضيناه سويًّا.

– إذًا، أعتقد أنّه يجب علينا أن... لا أدري. علينا أن نفعل شيئًا ما. أن نتّخذ قرارًا ما. لا أستطيع التخلّي عمّا بيننا، ولا التفكير في أنّك موجودة في مكان ما من العالم من دون أن أكون معك. أعتقد أنّه يجب إعطاء العلاقة فرصة لإنجاحها.

أجبت بهدوء:

– فعلًا، هذا ما أظنّه أنا أيضًا.

دسست يدي داخل كمّه، وتابعت:

– لقد راودتني الفكرة نفسها، لكنّ الشجاعة خانتني في كلّ مرّة حاولت إثارة الموضوع.

ردّ بمزيج من الضحك والارتياح:

– حقًّا؟

أدركتُ حينذاك مدى الشجاعة التي تطلَّبها أن يثير هذا الموضوع هو ويناقشه.

– سارة، أنت إحدى أكثر النساء اللواتي قابلتهنّ ثقةً في النفس.

– حقًّا؟

– أنت فعلًا كذلك. إنّها إحدى السمات التي أحبّها فيك. إحدى السمات العديدة التي أعشقها فيك.

لقد مرّت سنوات عدّة قبل أن أتمكّن من الوثوق في نفسي، كمن يحاول تثبيت لافتة فوق باب متجر. ولكن، رغم أنّ الشعور بالثقة في النفس غدا اليوم أمرًا طبيعيًّا، ورغم أنّني أصبحت أُلقي خطابات في مؤتمرات طبيّة في كلّ أنحاء العالم، وأُجري مقابلات مع مراسلين صحافيّين إخباريّين، وأدير فريق عمل، كنت لا أزال أشعر بالاضطراب عندما يلاحظ الآخرون هذه الثقة في النفس ويثنون عليها. أشعر بالاضطراب، لا بل أشعر بأنّني مكشوفة أمام العالم كمن يقف على قمّة هضبة في عاصفة رعديّة.

قبّلني إيدي مرّة أخرى، فشعرت بأنّ كلّ شكوك الدنيا تبدّدت. أحزان الماضي، وغموض المستقبل. هذا ما كان مقدَّرًا أن يحصل لاحقًا. هذا بالضبط.

الفصل الثالث

بعد خمسة عشر يومًا

– لا بدّ أنّه تعرَّض لحادث مروّع.

– حادث من أيّ نوع؟

– الموت مثلًا. أو قد لا يكون الموت. ولكن، لمَ لا؟ فقد توفّيت جدّتي فجأةً وهي في الرابعة والأربعين.

التفتَت دجو إليّ من المقعد المجاور لمقعد السائق وقالت:

– سارة.

تفاديتُ النظر في عينيها.

نظرت دجو إلى تومي الذي كان يقود السيّارة في اتّجاه الغرب على الطريق السريع وسألتْه:

– هل سمعت ما قالتْ؟

لم يجب تومي. كان فكّه مطبقًا بإحكام؛ وكانت البشرة الشاحبة المحيطة بصدغه تنبض بشدّة، كأنّها سجن يحاول شخص ما الهروب منه.

عاودتني الفكرة نفسها: لم يكن ينبغي أن نأتي أنا ودجو برفقة تومي. غير أنّنا كنّا مقتنعتين بأنّه سيحتاج إلى دعم أقدم صديقتين له، سيّما أنّه لا يحدث في العادة أن يجد الإنسان نفسه مضطرًّا إلى الوقوف جنبًا إلى جنب من كان يتنمّر عليه أيّام المدرسة، فيما تلتقط عدسات المصوّرين الكثير من الصور. مع ذلك، كانت كلّما اجتازت السيّارة كيلومترًا آخرًا في ذلك الطقس الماطر الكئيب، بدا واضحًا أن جلّ ما قدّمناه له فعليًّا كان تفاقم مشاعر القلق والتوتّر التي كان يشعر بها.

كان أكثر ما يحتاج إليه تومي اليوم هو فسحة من الحرّية تتيح له نشر جوّ من الثقة المصطنعة حوله، من دون أن تقع عليه أنظار من يعرفونه حقّ المعرفة. كان بحاجة إلى أن يتظاهر بأنّ

الماضي قد ولّى إلى غير رجعة، وأن الأمور في خير ما يرام. كان بحاجة إلى أن يقول لمن حوله: انظروا كيف أصبحت مستشارًا ناجحًا في مجال الرياضة وكيف أُعدّ برنامجًا لمدرستي! لاحظوا مدى سعادتي لأنّني أعمل مع مدير التربية الرياضيّة – نعم، الرجل نفسه الذي لكمني يومًا في معدتي وسخر منّي ضاحكًا عندما دفنت رأسي في العشب وأجهشت بالبكاء!

ولكي يزداد الوضعُ سوءًا، كان رودي، ابن دجو، الذي يبلغ السابعة، جالسًا جواري في المقعد الخلفي. فقد استُدعي والده لإجراء مقابلة عمل، ولم يتسنَّ لدجو الوقت لتجد من يرعاه في غيابها. كان رودي يصغي باهتمام إلى حديثنا حول اختفاء إيدي.

قال، وقد حدس فحوى الحديث:

– إذًا، سارة تظنّ أنّ صديقها مات وهذا يثير حنق أمّي.

كان رودي يمرّ في تلك المرحلة التي يستطيع فيها الطفل اختزال أحاديث الكبار في جملة واحدة منمّقة، والحقّ أنّه كان بارعًا.

ردّت دجو:

– هو ليس صديقها. كلّ ما في الأمر أنّهما أمضيا سبعة أيّام سويًّا.

ساد الصمت داخل السيّارة ثانيةً. قال رودي بلكنته الروسيّة:

– سارة تظنّ أنّ صديقها، الذي أمضت معه سبعة أيّام، مات. اغتالته الاستخبارات. لكنّ أمّي لا تتّفق معها في الرأي. وهي غاضبة منها.

كان رودي قد تعرّف إلى صديق جديد في المدرسة يدعى ألكساندر، وصل حديثًا إلى لندن من مدينة على الحدود الأوكرانيّة.

– أنا لست غاضبة، قالت دجو بنزق، أنا قلقة فقط.

فكّر رودي هنيهة في ما قالته، وقال:

– أعتقد أنّك تكذبين.

لم تستطع دجو الإنكار فالتزمت الصمت. لم أرغب في إثارة غضبها، فالتزمت الصمت أنا أيضًا. أمّا تومي الذي لم يكن تفوّه بكلمة طوال ساعتين، فقد تابع التزام الصمت هو أيضًا. شعر رودي بالملل، فعاد إلى الألعاب المحمَّلة على الآيباد. لدى الكبار الكثير من المشاكل المحيّرة والعقيمة.

راقبتُ رودي وهو يحاول إسقاط ما بدا لي ثمرة ملفوف. غمرني شعور جارف بالحنين: الحنين إلى براءته، إلى رؤية طفل في السابعة للعالم. تخيّلت أرضًا يسود فيها عالم رودي، حيث الهواتف الجوّالة مجرّد أجهزة للألعاب، لا أدوات للتعذيب النفسي، وحيث اليقين بحبّ والدته أكثر رسوخًا من نبضة القلب.

إن كان هناك أيّ معنًى في تحوُّل الإنسان من طفل إلى راشد، فقد فاتني تمامًا. من منّا لا يفضّل إسقاط ثمرة ملفوف والتحدّث بلكنة روسيّة؟ من منّا لا يفضّل أن يكون في حياته شخص يحضِّر له طعام الفطور ويختار له ملابسه؟ سيّما عندما يكون البديل شعور قاتل باليأس، يثيره في النفس رجل كان كلّ شيء، وتحوَّل بطريقة ما إلى لا شيء؟ وهنا لا أقصد الرجل الذي كنت زوجته مدّة سبع عشرة سنة؛ بل رجلًا عرفته مدّة سبعة أيّام، لا أكثر. لا عجب إذًا أن يعتقد كلّ من في السيّارة أنّني فقدت عقلي.

كسرتُ الصمت قائلةً:

– أعرف أنّ الأمر يبدو أشبه بحكاية فتاة مراهقة. لا شكّ في أنّكم مستاؤون منّي. لكنّه أصيب بمكروه، أنا واثقة في ذلك.

فتحت دجو التابلوه، وأخرجت لوحًا كبيرًا من الشوكولاتة، واقتطعت منه جزءًا بشيء من الجهد. فسألها رودي:

– أمّي، ما هذا؟

كان يعرف جيّدًا الجواب عن سؤاله. أعطته دجو قطعة من لوح الشوكولاتة من دون أن تتفوّه بكلمة، فابتسم لها ابتسامةً عريضةً. بادلته الابتسامة، رغم نفاد صبرها، وقالت له، محذّرة:

– لا تطلب المزيد. سوف يسبّب لك الغثيان.

لم يجب رودي، فقد كان واثقًا في أنّها سوف تستسلم في نهاية المطاف.

استدارت دجو ثانيةً نحوي، وقالت:

– اسمعي يا سارة، لا أودّ أن أبدو قاسية، لكنّني أعتقد أنّه يجب تقبّل فكرة أنّ إيدي لم يمت، وأنّه لم يصب بأيّ مكروه، وأنّ هاتفه ليس معطّلًا، وأنّه هو شخصيًّا لا يعاني أيّ مرض يهدّد حياته.

– هل أنت متأكّدة؟ هل اتّصلت بالمستشفيات كي تتحقّقي؟ هل تحدّثت مع الطبيب الشرعي في البلدة؟

رمقتني بنظرة متفاجئة، وقالت:

– يا إلهي، سارة، قولي أنّك لم تفعلي ذلك! بحقّ السماء!

تمتم رودي متفاجئًا:

– يا إلهي!

فأنّبته دجو:

– كفّ عن ذلك.

أجاب:

– ولكن، أنت بدأت.

أعطته دجو مزيدًا من الشوكولاتة، فعاد إلى الآيباد. كان الجهاز هديّة منّي أحضرته له من أميركا، وكان أخبرني سابقًا بأنّه يحبّه أكثر من أيّ شيء في العالم. آنذاك، أضحكني قوله ومن ثمّ أبكاني، الأمر الذي أحرجه. فأنا أعرف أنّه تعلَّم هذه العبارة من والدته. وقد تبيَّن أنّ دجو أمّ رائعة. نعم، دجوانا مونك، أمّ رائعة.

قالت دجو:

– لم تجيبيني!

تنهّدت وقلت:

– بالطبع لم أتّصل بالمستشفيات. دجو أرجوك، لا تبالغي.

راقبت سربًا من الغربان التي كانت تحطّ على سلك هاتف.

– هل أنت واثقة؟

– بالطبع أنا واثقة. ما قصدته هو أنّك لا تعرفين شيئًا عن اختفاء إيدي أكثر ممّا أعرف أنا.

فقدت صوابها وانفجرت:

– لكنّ الرجال يفعلون ذلك دائمًا. أنت تعرفين ذلك!

فأجبت:

– أنا لا أعرف أيّ شيء عن مواعدة الرجال. كنت متزوّجة خلال السنوات السبع عشرة الماضية.

فأردفت بمرارة:

– إذًا، صدّقيني، لم يتغيّر شيء. ما زالوا لا يعاودون الاتّصال.

التفتت صوب تومي، لكنّها لم تلق أيّ تجاوب منه. كانت بقايا الثقة في النفس التي اختلقها لمناسبة حفل إطلاق المشروع الرياضي اليوم قد تلاشت مثل سديم الصباح، ولم يتفوّه بكلمة، إلّا نادرًا، منذ أن انطلقنا. مرّت لحظات ظهرت عليه علامات الشجاعة في استراحة محطّة Chieveley Services، إثر تلقّيه رسالة نصّيّة تؤكّد إيفاد ثلاث صحف محلّيّة مراسلين إلى الاحتفال. لكنّه سرعان ما ناداني باسم العائلة ونحن واقفان في الطابور في متجر WHSmith، في حين أنّه لم يكن يناديني «سارة» إلّا عند شعوره بقلق عميق («هارنغتون» هو الاسم الذي كان يناديني به مُذ بلغنا الثالثة عشرة، وبدأ هو يمارس تمارين الضغط ويستعمل الكولونيا بعد الحلاقة).

خيّم صمت عميق، وخسرتُ المعركة التي كنت أحاول خوضها مُذ غادرنا لندن.

بعثت برسالة نصّيّة إلى إيدي أسرع من لمح البصر: « **أنا في طريق العودة إلى غلوسترشير لأساند صديقي تومي الذي سيطلق مشروعًا رياضيًّا مهمًّا في المدرسة التي كنّا نرتادها. إذا شئت**

أن نلتقي، ففي إمكاني البقاء في منزل والدَيّ. سيكون من دواعي سروري أن نتبادل الحديث. سارة. قبلاتي.»

لم أكن فخورة بنفسي، كما لم أشعر بالخجل مما فعلت. لا أدري كيف وصلت إلى وضع تجاوزت فيه كلّ ذلك. صرت أتفقّد شاشة الهاتف كلّما مرّت بضع ثوانٍ في انتظار إشعار تسليم الرسالة.

فجأةً، ظهرت على شاشة الهاتف رسالة سريعة: **« تمّ التسليم».**

تأمّلت الشاشة بحثًا عن إطار على شكل فقّاعة، عادةً ما يطوّق النصّ. وجود هذا الإطار يعني أنّه كان يكتب ردًّا على رسالتي.

لم يكن هناك إطار نصّ.

نظرت ثانية. لم أر إطار نصّ.

عاودت النظر. أيضًا لم أر إطار نصّ. دسست هاتفي في حقيبة يدي، من دون أن يراني أحد. كنت أتصرّف كالفتاة التي تعاني لحظات العذاب الرقيقة المألوفة في مرحلة المراهقة. فتاة ما زالت في طور اكتساب حبّ الذات؛ فتاة تنتظر في حالة هستيريّة هادئة اتّصالًا من فتى قبّلته في زاوية قائظة يوم الجمعة الفائت. لم يكن ذلك تصرّف امرأة في السابعة والثلاثين. امرأة جابت العالم، وتجاوزت فاجعة كبيرة، وترأّست جمعيّة خيريّة.

خفّ هطول المطر. دخلت من النافذة المفتوحة رائحة الإسفلت الرطب والتراب الداكن المبلّل بالمطر. كدت أموت حزنًا... تأمّلت، وفي قلبي فراغ أليم، حقلًا مليئًا برزم التبن المحشورة بإحكام داخل أكياس بلاستيكيّة سوداء لامعة، كأنّها سيقان مكتنزة داخل سراويل ضيّقة. سوف أفقد صوابي قريبًا. سوف أفقد صوابي وأسقط سقوطًا حرًّا إن لم أكتشف ما حصل.

تفقّدت هاتفي. كانت قد مرّت أربع وعشرون ساعة على إخراجي الشريحة منه وإعادة تشغيله. حان وقت تكرار المحاولة.

* * *

بعد نصف ساعة، كنّا نسير على الطريق المزدوج نحو مدينة سيرينسيستر، وكان رودي يسأل والدته عن سبب تحرّك السحب في اتّجاهات مختلفة.

كنّا على مسافة بضعة كيلومترات من المكان الذي التقيته فيه. أغمضت عينيّ، وحاولت استعادة ذكرى نزهتي في ذلك الصباح الشديد الحرّ. تلك الساعات القليلة الخالية من أيّ تعقيد التي سبقت لقائي بإيدي. حلاوة زهرة البيلسان المتفتّحة. والعشب الذي لفحته حرارة الشمس. والفراشات الهائمة على غير هدًى وقد أفقدها الحرّ صوابها. كان ثمّة حقل شعير أشبه ببساط أخضر يتموّج

وينتفخ بلفحات الهواء الساخن. قفزة أرنب مذعور من حين لآخر. في ذلك اليوم، كان يخيّم على القرية ذلك الإحساس الغريب بالترقّب، والسكون الهائج، والأسرار المبعثرة هنا وهناك.

أسرعت ذاكرتي من دون استئذان إلى اللحظة التي قابلت فيها إيدي: بدا رجلًا ودودًا صريحًا يحاول كسب ودّ خروف شارد. تشابكت مشاعر التعاسة والارتباك في صدري كالأعشاب الطفيليّة لتطغى على كلّ ما عداها.

كسرت الصمت في السيّارة، وقلت:

– في إمكانكم أن تعتبروا أنّني أعيش حالة رفض الواقع. لكنّ ما حدث لم يكن علاقة عابرة. كان... كان كلّ شيء. كلانا شعر بذلك. وهذا ما جعلني واثقة في أنّ مكروهًا ألمّ به.

كادت تلك الفكرة تخنقني وتقطع أنفاسي.

قالت دجو لتومي:

– قل أيّ شيء. قل لها أيّ شيء.

– أنا أعمل في مجال الاستشارات الرياضيّة، تمتم تومي وقد احمرّ عنقه بفعل الإحراج. أنا أتعامل مع الأجساد لا مع العقول.

سأل رودي:

– من الذي يتعامل مع العقول؟

كان الصبيّ لا يزال يتابع حديثنا من كثب. فأجابته دجو بسأم:

– المعالجون النفسانيّون. المعالجون النفسانيّون وأنا.

كانت دجو قد ولدت وترعرعت في مدينة إيلفورد، وكانت امرأة لندنيّة طيّبة وصادقة. كنت أحبّها؛ أحبّ صراحتها الفظّة ومزاجها المتقلّب، وأحبّ جرأتها (أو انفلاتها من كلّ القيود، كما قد يصفها آخرون). وأحبّ، أكثر من ذلك كلّه، حبّها الجامح لابنها، حبًّا يقارب العبادة. كنت أحبّ كلّ ما يتعلّق بدجو. لكنّني اليوم تحديدًا، كنت أفضّل لو أنّني لم أكن معها في السيّارة.

سألني رودي ما إذا كنّا قاربنا الوصول. أجبته إيجابًا. سألني مشيرًا إلى منشأة ذات طابع صناعيّ:

– هل هذه مدرستك؟

– كلّا، أجبت، رغم وجود بعض التشابه من المنظار المعماريّ.

– هل هذه مدرستك؟

– كلّا، هذا متجر ويتروز.

– كم تبقّى من الوقت لنصل؟

– قاربنا الوصول.

– كم دقيقة؟

– عشرون تقريبًا.

عاد رودي ليغوص في مقعده وقد بدا عليه القنوط.

– هذا وقت طويل جدًّا. أمّي، أنا بحاجة إلى ألعاب جديدة على الآيباد. هل يمكنني شراء بعضها؟

ردّت دجو بالنفي. تجاهلها رودي، وشرع يشتري. نظرت إليه بتعجّب وهو يدخل الرمز وكلمة السرّ الخاصّين بدجو.

همستُ:

– عذرًا؟!

نظر إليّ نظرة شقيّة. كان شعره الأشقر الكثيف الأجعد يحيط بوجهه على شكل هالة في غير محلّها، وعيناه اللوزيّتان تدوران في محجريهما. مرّر يده على فمه كما لو كان يغلق سحّابًا ورفع إصبعه في وجهي، محذّرًا. ولأنّني كنت أحبّ هذا الطفل حبًّا جمًّا، فعلت ما طلبه منّي.

حوّلت والدته اهتمامها إلى الطفلة الأخرى الجالسة في المقعد الخلفي. وضعت يدها المكتنزة على ساقي. كانت أظافرها مطليّة للمناسبة.

– اسمعي، أعتقد أنّ عليك مواجهة الحقائق. أنت قابلت رجلًا، أمضيت معه أسبوعًا، ثمّ ذهب في إجازة ولم يتّصل بك ثانية.

كانت الحقائق في تلك اللحظة مؤلمة جدًّا؛ لذا، كنت أفضّل النظريّات. تابعت دجو الكلام:

– سارة، لقد مرّ خمسة عشر يومًا كان يمكنه الاتّصال بك خلالها. وقد بعثت له برسائل، واتّصلت به هاتفيًّا، وفعلت أمورًا لم أكن بصراحة أتوقّعها من امرأة مثلك... مع ذلك، لم يحرّك ساكنًا. لقد مررت أنا في هذه التجربة، أعني الحبّ، وهو مؤلم. لكنّ الألم لن يخفّ ما لم تتقبّلي الواقع وتتابعي حياتك.

– كنت لأتابع حياتي لو أنّني تأكّدت فعلًا أنّه لا يعبأ بي. لكنّني حتّى الآن لا أعلم.

تنهّدت دجو، وقالت لتومي:

– تومي أرجوك تدخّل وساعدني.

ساد صمت طويل. تساءلت في سرّي، هل هناك إذلال أكثر من هذا؟ حديث من هذا النوع وأنا امرأة تقارب «الأربعين»؟ قبل ثلاثة أسابيع فقط، كنت امرأة ناضجة، فاعلة. أترأّس اجتماع مجلس إدارة. أكتب تقارير لمستشفى أطفال كانت الجمعيّة الخيريّة على وشك بدء العمل معه. كنت يومذاك تناولت طعامي وأصلحت هندامي ورويت النوادر وتلقّيت مكالمات هاتفيّة ورددت على

الرسائل في بريدي الإلكترونيّ. وها أنا الآن لا أستطيع السيطرة على عواطفي تمامًا مثل طفل السابعة الجالس جواري.

نظرت إلى حاجبَي تومي في المرآة لأستشفّ ما إذا كان في صدد الإدلاء بأيّ ملاحظة. أصبح حاجباه أعرض من ذي قبل منذ أن فقد شعره في مطلع العشرينيّات من عمره، وصارا يعكسان أفكاره ويعبّران عنها ببلاغة أكبر من فمه. كان حاجبا تومي مقطّبين. شرح:

– الفكرة هي كالتالي.

توقّف عن الكلام ثانية. شعرت بمدى الجهد الذي يبذله لانتزاع نفسه من مشاكله الخاصّة. تابع حديثه بصوت منخفض وحذر، مثل قطّة تحوم حول مصدر خطر:

– الفكرة هي كالتالي، دجو، لقد افترضْتِ أنّني أوافقك الرأي بشأن سارة. لكنّني لست واثقًا في ذلك.

– ماذا؟

– أعتقد أنّنا سنشهد شجارًا، همس رودي.

صاغ حاجبا تومي جملته التالية:

– أنا واثق في أنّ السبب الذي يجعل الرجال في معظمهم لا يعاودون الاتّصال هو أنّهم لا يكترثون لأمر المرأة، ولكن يبدو لي هنا أنّ الأمر أبعد من ذلك. ما أودّ قوله هو أنّهما أمضيا معًا أسبوعًا كاملًا. كلّ ذلك الوقت، هل تتخيّلين؟ لو كان إيدي يسعى خلف... تعرفين ما أعني، لاختفى بعد ليلة واحدة.

– ولماذا الاختفاء بعد ليلة واحدة إذا كان في الإمكان الحصول على... تعرف ما أعني، مدّة سبعة أيّام؟ ردّت دجو بسخط.

– دجو، أرجوكِ! هذا ما يفعله صبية في الحادية والعشرين، لا رجال ناهزوا الأربعين!

– هل تقصدان الجنس؟ استوضح رودي.

– يا إلهي! وماذا تعرف أنت عن الجنس؟ أجابت دجو مصعوقة.

عاد رودي إلى ألعابه المختلسة وقد تملّكه الخوف.

نظرت دجو إليه فترة، لكنّه كان منكبًّا على شاشة الآيباد متصنّعًا الجدّ وهو يتمتم بلكنته الروسيّة.

تنفّستُ نفسًا عميقًا، وقلت:

– الفكرة التي لا تفارقني هي أنّه عرض عليّ إلغاء إجازته. ما الذي يدفعه إلى...؟

– أريد أن أتبوّل، قاطعني رودي فجأة. وأضاف قبل أن يتسنّى لدجو سؤاله:

– لا، لا أستطيع الانتظار دقيقة واحدة.

أوقف تومي السيّارة قرب المعهد الزراعي، في الجانب المقابل للطريق الآتي من المدرسة الثانوية التي ارتادها إيدي. اجتاحتني مشاعر الألم بينما كنت أتأمّل لافتة المدرسة وأحاول تخيّل إيدي وهو في الثانية عشرة من العمر يثب فوق البوّابات. وجه صغير مستدير؛ تعلوه تلك الابتسامة التي نحتت مع مرور السنوات تجاعيد الضحك الجميلة.

وقبل أن أتمكّن من السيطرة على نفسي، بعثت له برسالة نصّيّة أقول فيها: **«مررت توًّا قرب مدرستك. أتمنّى أن أعرف ما حصل لك»**.

عندما عادت دجو مع رودي إلى السيّارة، كانت تبدو مبتهجة إلى درجة تثير الشكّ. بادرتنا قائلةً:

– الطقس يتحسّن والنهار سيكون جميلًا، وأنا سعيدة لأنّني في الريف معكما.

– قلت لها أنّها تتصرّف معك بدناءة، همس رودي في أذني، ثمّ سألني:

– هل ترغبين في قطعة من الجبن؟

خضّ علبة بلاستيكيّة تحوي شرائح جبن كان قد أزالها من سندويش أعطته إيّاه دجو ليأكله في وقت سابق. عبثتُ بشعره، ثمّ أجبته همسًا:

– كلّا، لكنّني أحبّك. شكرًا.

تظاهرتْ دجو بأنّها لم تسمع الحديث. قالت بمرح:

– كنتِ تقولين أنّ إيدي عرض عليك إلغاء إجازته.

شعرتُ بقلبي يتمزّق لأنّني كنت أعرف لماذا يصعب عليها أن تتصرّف كامرأة صبور. كنت أعرف أنّ الرجال الكثر الذين منحتهم قلبها وروحها (وغالبًا جسدها) قبل أن ترزق برودي، لم يعاودوا الاتّصال بها. أمّا الرجال الذين اتّصلوا بها، فقد تبيّن لاحقًا أنّهم يواعدون نساء أخريات في الوقت نفسه. وكانت هي في كلّ مرّة تقبل أن يتلاعبوا بها لأنّها لم تكن لتفقد الأمل بأن يحبّها أحدهم يومًا. ثمّ تعرّفت إلى شون أوكيف، وحملت منه، وانتقل هو ليعيش معها، مدركًا أنّ دجو ستؤمّن له الطعام والمأوى. لم يتوظّف شون طوال ذلك الوقت. كان يختفي لياٍلٍ من دون أن يخبرها بمكانه. وكانت «مقابلة العمل» اليوم مجرّد أكذوبة.

لكنّ دجو سمحت بأن يستمرّ ذلك الوضع طوال سبع سنوات لأنّها أقنعت نفسها بطريقة ما أنّ الحبّ سوف يزهر بينهما إذا بذلا القليل من الجهد، وإذا صبرَت هي حتّى يستقرّ هو عاطفيًا. أقنعت نفسها بأنّه في استطاعتهما تكوين الأسرة التي لم تحظَ هي بها يومًا.

نعم، كانت دجو تدرك جيّدًا معنى نكران الواقع.

ولكن، يبدو أنّ وضعي كان يفوق طاقتها على الاحتمال. كانت تحاول مداراة شعوري مُذ اختفى إيدي عن وجه الأرض، وقد أجبرت نفسها على سماع نظريّاتي، وأخبرتني مرارًا بأنّه قد

يتّصل في اليوم التالي. لكنّها لم تكن تصدّق أيّ كلمة من أقوالها. أمّا اليوم فقد انهارت. كانت تحاول أن تقول لي: «لا تدعي الآخرين يستغلّونك مثلما فعلت أنا. سارة، ابتعدي الآن قبل فوات الأوان».

المشكلة أنّني لم أكن أقوى على ذلك.

كنت حاولت تقبّل فكرة عدم اكتراث إيدي لي. ظلّ هاتفي صامتًا طوال خمسة عشر يومًا. استعدت ذكرى كلّ لحظة رقيقة متوهّجة جمعتنا خلال الفترة التي أمضيناها سويًّا. بحثت عن مكامن الضعف، عن أيّ إشارة تحذير تنبئ بأنّه لم يكن واثقًا في مشاعره بقدري. لم أعثر على شيء.

آنذاك، نادرًا ما كنت أستخدم فيسبوك، لكنّني أدمنته فجأة. صرت أقلّب بعجلة اللمحة الموجزة عنه، علّني أعثر على إشارة تدلّ على أنّه ما زال في قيد الحياة. أو ما هو أسوأ: إشارة تدلّ على أنّه مع امرأة أخرى.

لم أجد شيئًا.

اتّصلت به هاتفيًّا وبعثت له برسائل نصّيّة؛ بل إنّني أرسلت إليه تغريدة قصيرة مثيرة للشفقة. حمّلت فيسبوك ماسنجر وواتساب، وصرت أتفقّدهما طوال اليوم لأرى ما إذا كان قد ظهر للعيان. لكنّني كنت أرى المعلومة نفسها في كلّ مرّة: آخر ظهور إيدي ديفيد كان قبل أكثر من أسبوعين، أي يوم غادرت منزله ليتمكّن من حزم أمتعته والسفر إلى إسبانيا.

بعد أن دمّرني الخذلان واليأس، حمّلت بضع مواقع خاصّة بالمواعدة لأعرف ما إذا كان مسجّلًا فيها.

لم يكن في أيّ منها.

كنت أتوق للسيطرة على هذا الوضع الذي لا مجال للسيطرة عليه. هجرني النوم؛ وكانت مجرّد فكرة الطعام تجعل أمعائي تتشنّج. لم يعد في استطاعتي التركيز على أيّ شيء، صرت أثب عند سماع رنين هاتفي. كان الإرهاق يعتصرني طوال اليوم: إعياء ثقيل يكتم أنفاسي أحيانًا. ومع ذلك، كنت أمضي الشطر الأكبر من الليل مستيقظة، أحدّق في الظلمة الحالكة في غرفة الضيوف في منزل تومي.

الغريب في الأمر هو أنّني كنت أدرك أنّ هذه التصرّفات لم تكن تعكس شخصيّتي. كنت أدرك أنّ تلك التصرّفات لم تكن حكيمة، وأنّ الأمور تسير نحو الأسوإ لا الأفضل. لكنّني لم أكن أمتلك الإرادة ولا القوّة لأجري أي تدخّلٍ لإنقاذ نفسي.

كتبت ذات يوم على غوغل: «لماذا لم يتّصل؟». كانت التعليقات أشبه بإعصار اجتاح شبكة الإنترنت. أغلقت الصفحة رأفة بما تبقّى لي من سلامة عقليّة.

بدل ذلك، عدت للبحث عن إيدي في غوغل، تصفّحت موقع النجارة الخاصّ به بحثًا عن... آنذاك لم أكن أدري عمّا أبحث بالضبط. لم أجد شيئًا بالطبع.

– هل تعتقدين أنّه أخبرك بكلّ شيء عن نفسه؟ سألني تومي. هل أنت واثقة في أنّه ليست له علاقة بامرأة أخرى، مثلًا؟

انحدر الطريق إلى أرض منخفضة كثيرة الأشجار، حيث تجمّعت أشجار السنديان المهيبة التي بدت أشبه بمجموعة من النبلاء في ردهة تدخين.

قلت له:

– ليست له علاقة بامرأة أخرى.

– وكيف لك أن تعرفي ذلك؟

– أعرف لأنّني... حسنًا، أعرف. كان غير مرتبط بأحد وعازبًا. ليس بالمعنى الحرفي فحسب، بل بالمعنى العاطفيّ أيضًا.

ظهر غزال واختفى بسرعة البرق داخل غابة من أشجار الزان. تابع تومي حديثه بإلحاح:

– كما تشائين. ولكن، ماذا عن كلّ إشارات التحذير الأخرى؟ هل لاحظتِ أيّ تناقض؟ هل شعرتِ بأنّه يخفي عنك شيئًا ما؟

– كلّا. توقّفتُ هنيهة عن الكلام، ثمّ أضفت: على رغم أنّه، كما أعتقد...

استدار تومي نحوي.

– تعتقدين ماذا؟

تنهّدتُ وشرحت:

– يوم التقينا، ألغى بضع مكالمات واردة. وأردفتُ بسرعة: لكنّها كانت المرّة الوحيدة التي حدث فيها شيء من هذا القبيل. بعدها، ردّ على كلّ المكالمات. لم يتّصل به أيّ شخص غريب؛ كان المتّصلون هم أصدقاءه، ووالدته، واستفسارات خاصّة بالعمل...

خطر في بالي فجأة ديريك. ماذا عن ديريك؟ لم أستطع معرفة من هو ديريك.

كان حاجبا تومي قد عُقدا بشكل مثلّث غريب. سألتُه:

– ماذا؟ ماذا يدور في ذهنك؟ تومي، كان ذلك في اليوم الأول فقط. بعد ذلك، كان يردّ على كل من اتّصل به.

– أصدّقك، قال. لكنّني غالبًا ما...

خفت صوته وصمت.

كان صمت دجو مزعجًا، لكنّني تجاهلتها.

– غالبًا ما وجدت أن المواعدة من طريق الإنترنت محفوفة بالأخطار، تابع تومي حديثه أخيرًا. أُدرك أنّك لم تتعرّفي إليه من طريق الإنترنت، لكنّ الوضع شبيه بذلك – ليس لكما أصدقاء مشتركون ولا ماضٍ مشترك. كان في إمكانه انتحال شخصيّة جديدة والتظاهر بأنّه شخص آخر.

– لكنّه أضافني إلى قائمة أصدقائه في فيسبوك، أجبت باستغراب. ما الذي يجبره على فعل ذلك إذا كان لديه ما يخفيه؟ كما أنّ لديه حساب في تويتر وإنستغرام لأغراض العمل، بالإضافة إلى موقع خاصّ بعمله يحتوي على صورة له. وقد مكثت في منزله أسبوعًا كاملًا، هل نسيت ذلك؟ كان البريد الوارد إليه يحمل اسم إيدي ديفيد. إذا لم يكن هو إيدي ديفيد، النجّار، لعرفت ذلك.

دخلنا أعماق الغابة القديمة التي تخترق حدائق قصر سيرينسستر. كانت دوائر الضوء الصغيرة تلمع على فخذَي دجو العاريين، بينما كانت هي تنظر من النافذة وتتأمّل ما يحيط بها، وبدا أنّها لا تدري ما يمكن أن تقول. كنّا على وشك الخروج من الغابة، والوصول إلى منعطف الطريق، حيث وقع الحادث.

لم أعد أقوى على التنفّس كأنّ أحدًا أفرغ السيّارة من الأوكسجين.

بعد بضع دقائق، خرجنا من الغابة ليستقبلنا الألق الذي يعقب المطر في حقول الريف. أغمضتُ عينَيّ. رغم مضي كلّ تلك السنوات، كنت ما زلت لا أستطيع النظر إلى الممرّ العشبيّ حيث مدّدها طاقم الإسعاف، كما قيل لي يومها، في محاولة لتفادي وقوع المحتوم.

حطّت دجو يدها بهدوء على ركبتي.

تنبّهت إلى ذلك رادارات رودي الهوائيّة، فأمطر والدته بالأسئلة:

– أمّي، لماذا تفعلين ذلك؟ لماذا تضعين يدك على ساق سارة؟ لما ثمّة باقة أزهار مربوطة على تلك الشجرة؟ لماذا يبدو الجميع...؟

– رودي، ما رأيك أن نلعب لعبة الأحاجي؟ قالت له دجو. أنا أرى بعينِي الصغيرة شيئًا يبدأ اسمه بالحرف «ح».

– لقد كبرت على لعبة كهذه، قالها رودي، بعدما ساد الصمت هنيهة وقد تعكّر مزاجه.

لم يكن يحبّ أن يقصيه أحد.

كنت ما زلت أغمض عينيّ بإحكام، رغم أنّني كنت أعرف أنّنا تجاوزنا تلك المنطقة.

بدأ رودي يجيب مستسلمًا:

– حوت، حرش، حاتف نقّال.

سألني تومي بعد صمت، احترامًا لمشاعري:

– هل أنت بخير، هارنغتون؟

– نعم، أجبتُ بعد أن فتحت عينَيّ.

رأيتُ حقول القمح، والجدران الحجريّة المتداعية، وممرّات المشاة المرتسمة مثل شعب الصواعق فوق العشب الذي اقطاتت منه الأحصنة.

– أنا بخير.

لم تندمل جروح الماضي يومًا، ولم تستكن مشاعر الألم. رغم أنّ السنوات التسع عشرة التي مرّت قلّلت حدّتها، ومحت أصعب اللحظات، لكنّ الجرح ظلّ مفتوحًا والألم قاتلًا.

– ما رأيكم في أن نعاود مناقشة موضوع إيدي؟ اقترحت دجو.

حاولت أن أوافقها الرأي، لكنّ صوتي خذلني.

– عندما ترين ذلك مناسبًا، قالت وهي تربّت ساقي.

بعد أن استعدت قدرتي على الكلام، قلت:

– ما زلت أعتقد أنّه تعرّض لحادث. فقد كان على وشك السفر إلى جنوب إسبانيا لممارسة رياضة ركوب الأمواج.

عقد تومي حاجبيه، وفكّر في الموضوع، وأردف:

– أعتقد أنّ هذه النظريّة ممكنة.

أشارت دجو إلى أنّني كنت في قائمة أصدقاء إيدي في فيسبوك، وأضافت:

– لو أنّه أصيب بأذًى لعلمتِ من صفحته.

قلت، وقد خفت صوتي بينما كانت منافذ الأمل تُسدّ واحدة تلو أخرى:

– ثمّ إن احتمال أن يكون هاتفه قد تعطّل وارد جدًا. كان جهازًا قديمًا، وحالته سيئة.

– عزيزتي، قاطعتني دجو بلطف. هاتفه ليس معطّلًا. فهو يرنّ عندما تتّصلين به.

أومأت برأسي بائسةً.

ركل رودي، الذي كان يأكل رقائق البطاطا، ظهْر مقعد دجو، قائلًا:

– أشعر بالملل.

– كفّ عن ذلك. أنّبته دجو. تذكّر ما اتّفقنا عليه بشأن الكلام وفي فمك طعام.

استدار رودي نحوي، من دون أن تراه دجو، وأراني رقائق البطاطا التي لم ينته بعد من مضغها. لسوء الحظّ، ولأسباب غير معروفة، كان رودي قد قرّر أن يظلّ تصرّفه هذا طرفة لا يفهمها سوانا نحن الاثنين.

دسست يدي في الجيب الجانبي لحقيبة يدي وأطبقت أصابعي على آخر بصيص أمل لديّ. قلت بحزن اليائس وقد خنقتني عبرات حارقة:

– الفأرة. لقد أعطاني هذه الفأرة.

كانت الفأرة في راحة يدي؛ ناعمة رثّة المظهر، أصغر من ثمرة الجوز. وكان إيدي قد نحتها من قطعة خشب عندما كان في التاسعة من العمر. قال لي عندما أعطاني إيّاها: لقد مررنا سويًّا بمحنٍ كثيرة. إنّها تعويذتي.

ذكّرتني الفأرة بطائر البطريق المصنوع من النحاس الذي أعطاني إيّاه والدي ليكون رفيقًا يؤنسني خلال تحضير امتحانات المرحلة الثانويّة. كان تمثالًا متجهّم الملامح يعبس في وجهي بضراوة منذ اللحظة التي أفتح فيها ورقة الامتحانات. ما زلت أحبّ ذلك البطريق. ولم أكن لأتخيّل أن أعهد به لأحد.

كانت الفأرة تعني الكثير لإيدي؛ كنت أعلم ذلك. لكنّه أعطاني إيّاها قائلًا: اعتني بها حتّى أعود، فهي تعني الكثير لي.

التفتت دجو ونظرت إليّ، ثمّ تنهّدت. كانت تعلم بأمر الفأرة. قالت بهدوء:

– الناس يتغيّرون. وربّما كان فقدان حمّالة المفاتيح أهون عليه من الاتّصال بك.

– الفأرة ليست مجرّد حمّالة مفاتيح. إنّها...

لم أكمل كلامي. استسلمت.

عندما تابعت دجو حديثها، كان صوتها أكثر لطفًا.

– سارة، اسمعي. إذا كنت واثقة في أنّ مكروهًا قد ألمّ به، فما رأيك في أن تكفّي عن كلّ تلك المراسلات الخاصّة، وتكتبي شيئًا ما على صفحته في فيسبوك؟ بحيث يمكن الجميع رؤيته؟ قولي أنّك تشعرين بالقلق. اسألي عمّا إذا كان أحد قد تلقّى منه اتّصالًا أو رسالة.

بلعت ريقي.

– ماذا تقصدين؟

– أعني تمامًا ما قلته. إلجئي إلى أصدقائه لمعرفة أيّ شيء عنه. ما الذي يمنعك؟

استدرت لأنظر من النافذة، عاجزة عن الردّ. ألحّت دجو، قائلة:

– أعتقد أنّ الشيء الوحيد الذي «قد» يمنعك هو الشعور بالخزي. وإذا كنتِ فعلًا وصدقًا وحقيقة تعتقدين أنّه أصيب بمكروه، فلن تأبهي بهذا الشعور.

كنّا نمرّ قرب القاعدة الجويّة القديمة الخاصّة بوزارة الدفاع. كان كمُّ الريح ذو اللون البرتقالي الحائل يلوح فوق المدرج الخالي. تذكّرت فجأة نوبة الضحك الصاخبة التي انتابت هانا عندما علّق والدي بالقول إن كُمّ الريح هذا يشبه عضوًا ذكريًّا ضخمًا برتقالي اللون. احتارت والدتي يومذاك بين الضحك والتأنيب، عاجزةً عن أي ردّ فعل آخر.

فتح رودي مكتبة دجو الموسيقيّة المحمّلة في الآيباد، واختار مجموعة أغانٍ جديدة.

إذا كنتُ أشعر بهذا القدر من القلق، كما كنت أدّعي، فلماذا لم أكتب شيئًا على صفحة إيدي؟ هل كانت دجو على حقّ؟

لاحت في أفق تشالفورد البيوت الحجريّة الصغيرة المألوفة في منطقة كوتسوولد، وكأنّها تتشبّث بمنحدر التلّ كما لو أنّها في انتظار من ينقذها. وبعد تشالفورد، سلكنا إلى قرية بريمسكومب، ومن ثمّ إلى قرية ثروب، وأخيرًا إلى بلدة ستراود، حيث كان حشد كبير من مدرّسين وتلاميذ وصحافيّين في انتظار تومي في المدرسة. كان عليّ أن ألملم نفسي.

– انتظري لحظة، قال تومي فجأة. خفض صوت أغاني الراب التي كان رودي يستمع إليها ونظر في المرآة إلى الخلف. هارنغتون، هل أخبرت إيدي بأنّك متزوّجة؟

– كلّا.

– كنت أعتقد أنّك أخبرته بكلّ شيء! ردّ تومي وقد عقد حاجبيه بتعجّب.

– هذا صحيح. لكنّنا لم نستعرض قائمة شركائنا العاطفيّين السابقين. كان ذلك سيبدو... لنقل مبتذلًا. أعني أنّ كلينا قارب الأربعين...

خفت صوتي والتزمت الصمت. هل كان يجب أن نفعل ذلك؟

– كان من المفترض أن يروي بعضنا لبعض قصّة حياته، إلّا أنّنا لم نفعل. لكنّنا تأكّدنا أنّ أيًّا منّا لم يكن مرتبطًا.

كان تومي يراقبني في المرآة، فسألني:

– هل حدّثت أنت وروبن موقعيكما في الإنترنت؟

قطّبت حاجبَيّ وأنا أتساءل عمّا يرمي إليه. ثمّ همست:

– يا إلهي! كلّا.

تسلّل الصقيع إلى داخلي. صرخ رودي:

– ماذا؟ عمّ تتحدّثان؟

– عن موقع الجمعيّة الخيريّة الخاصّة بسارة، شرحت له دجو. هناك صفحة كاملة تتحدّث عن سارة وروبن، كيف أنشآ جمعيّة «الأطبّاء المهرّجين» الخيريّة في تسعينيّات القرن العشرين عندما تزوّجا. وكيف ما زالا يديرانها سويًّا في الوقت الحالي.

– آه، فهمت، قال رودي. وضع الآيباد جانبًا، وقد شعر بالسرور لأنّه تمكّن أخيرًا من حلّ اللغز. قرأ صديق سارة الصفحة وانفطر قلبه! وهذا هو سبب موته، فالإنسان لا يستطيع العيش إذا انفطر قلبه.

– عفوًا، قالت دجو بهدوء. لكنني لم أقتنع بهذه الرواية. سارة، لقد أمضى معك أسبوعًا، وإذا كانت مشاعره تجاهك جدّيّة بقدر جدّيّة مشاعرك تجاهه، فلن يكون ما قلتماه كافيًا لتثبيط عزيمته.

بل إنّه كان سيواجهك بذلك. ولن ينسلَّ خلسة مثل قطّة تُنازع.
لكنّني كنت قد فتحت ماسنجر اللعين لأكتب له رسالة.

الفصل الرابع

اليوم الأوّل: يوم التقينا

كان يوم لقائي بإيدي يومًا قائظًا. كان الريف قد بدأ ينصهر ويتجمّع حول نفسه؛ وكانت الطيور مختبئة على أفنان الأشجار الساكنة، والنحل يهيم وقد أضناه الحرّ الشديد. لم يكن عصر ذلك اليوم يبدو مناسبًا لبداية قصّة حبّ مع رجلٍ غريب. بل كان أشبه بالثاني من يونيو من كلّ عام، حين أتنزّه سيرًا على الطريق نفسه. يوم هادئ، حزين، مشحون بالعواطف. يوم عاديّ ككلّ ثانٍ من يونيو.

سمعت صوت إيدي قبل أن أراه. كنت أنتظر عند موقف الحافلات، أحاول أن أتذكّر في أيّ يوم من أيّام الأسبوع كنّا، وقرّرت أنّه يوم الخميس، ما يعني أنّه عليّ الانتظار ساعة تقريبًا في ذلك الجوّ الحارّ جدًا كي أركب حافلة أُشوى فيها حتمًا. بدأت أتمشّى في الزقاق المفضي إلى القرية بحثًا عن مكان ظليل. سمعت أصوات أطفال في مدرسة ابتدائيّة تنساب مثل جدول مائج.

قاطع أصوات الأطفال ثغاء خروف آتٍ من مكان ما حيث كنت أتوجّه. تكرّر الثغاء.

جاء الجواب على ذلك الثغاء ضحكة رجل مجلجلة، انطلقت في ذلك الحرّ الخانق مثل هبّة هواء منعش. بدأتُ أبتسم قبل أن ألمح الرجل. كانت ضحكته تختزل كلّ ما كنت أشعر به تجاه الخراف، بملامح وجهها البسيطة وعيونها الساذجة الجانبيّة.

كان الاثنان قريبين منّي، على المرج المحيط بالقرية. كان الرجل جالسًا مديرًا ظهره لي، بينما وقف الخروف على مسافة بضعة أمتار وهو ينظر إليه بعينيه الجانبيتين. حاول إطلاق ثغاء آخر وتمتم الرجل بكلمات لم أسمعها.

حين بلغت المرج، كان الاثنان غارقين في حوار عميق.

وقفت أراقبهما عند طرف العشب الذي لفحته الشمس، وقد اختلجني إحساس بأنّني رأيت هذا المشهد من قبل... لم أكن على معرفة بالرجل، لكنّه كان نسخة آسرة من شبّان كثر ممّن كانوا زملائي في المدرسة: رجلًا جذّابًا ضخم البنية؛ ذا شعر قصير مرتّب وبشرة سمراء. كان يرتدي اللباس المألوف لسكّان المناطق الغربية، بنطالًا إلى فوق الركبتين وقميصًا قطنيًّا حائل اللون. كان يبدو قادرًا على تركيب الرفوف، ويمارس رياضة ركوب الأمواج لا محال، ويملك على الأرجح سيّارة غولف عتيقة أعطته إيّاها أمّه اللطيفة، ولكن المجنونة بعض الشيء.

كان الرجل من النوع الذي كنت أدوّن في مذكّراتي أيّام المراهقة أنّني سأتزوّجه يومًا ما. (كان تعبير «يومًا ما» يشير إلى زمن غير محدّد في المستقبل عندما أتخلّى عن وضعي كرفيقة لماندي وكلير، صديقة عاديّة المظهر فاشلة اجتماعيًّا، وأتحوّل، مثل فراشة خارجة من شرنقة قميئة المظهر، امرأة جميلة جريئة تملك القدرة على اجتذاب أيّ رجل يعجبها). كان ينبغي أن يكون الزوج من هذه القرية – سابرتون، أو من إحدى القرى المجاورة – ويقود سيّارة غولف تحديدًا. كانت سيّارة الغولف، ولسبب ما، تُعتبر فخمة. وكنت أحلم في أنّنا نقودها إلى كورنوول لتمضية شهر العسل، حيث كنت لأثير ذهوله عندما أتوجّه إلى البحر من دون أيّ شعور بالخوف وأنا أتأبّط لوح ركوب الأمواج.

بدل ذلك، تزوّجت مهرّجًا أميركيًّا، مهرّجًا حقيقيًّا يمتلك صناديق مليئة بالأنوف الحمراء وقيثارات الأكلال والقبّعات السخيفة. سوف يستيقظ خلال بضع ساعات، عندما تلقي شمس كاليفورنيا الساطعة نورها على شقّتنا. وقد يتثاءب ويتقلّب، ثمّ يستكين في أحضان صديقته الجديدة قبل أن يسير بخطًى هادئة ليعدّل درجة مكيّف الهواء ويعدّ لها شرابًا أخضرَ كريه المذاق.

– مرحبًا، قلت.

– أهلًا، ردّ الرجل وهو يستدير نحوي. قالها كما لو أنّه يعرفني منذ سنوات. عثرت لنفسي على خروف.

أطلق الخروف وصلة ثغاء أخرى أشبه ببوق الضباب، من دون أن يحوِّل نظره عن وجه الرجل.

– لم يمض سوى بضع دقائق على لقائنا، لكنّ مشاعرنا جدّيّة تجاه بعضنا بعضًا، أسرّ لي.

– فهمت، أجبته باسمة. ولكن هل هذا قانوني؟

– الحبّ لا يقونن، أجاب بلهجة مرحة.

خطرت في بالي فكرة غير متوقّعة: اشتقت لإنجلترا.

– كيف تقابلتما؟ سألته، وأنا أدوس العشب.

– كنت جالسًا هنا أتحسّر على نفسي، أجاب مبتسمًا للخروف، عندما ظهرت هذه الشابّة كأنّها جاءت من لا مكان. بدأنا نتحدّث. وقبل أن أدرك ما حدث، رحنا نبحث في فكرة العيش سويًّا.

– هذا «الشابّ» لا «الشابّة»، صحّحت له. أنا لا أعرف شيئًا عن الخراف، ولكن يمكنني أن أجزم أنه ليس «شابّة».

بعد لحظة، مال الرجل إلى الخلف وتفحّص الخروف.

– يا إلهي!

حدّقَ فيه الخروف طويلًا.

– أليس اسمك لوسي؟ سأله. ظلّ الخروف صامتًا. فأضاف: أخبرني أنّ اسمه لوسي.

– اسمه ليس لوسي، قلت بإصرار.

أطلق الخروف ثغاء آخر وضحك الرجل. صفّق غراب هائج بجناحيه وطار من على شجرة في الزقاق خلفنا.

ومن دون أن أدري، وجدت نفسي أقف في جوارهما تمامًا. كنّا ثلاثتنا، أنا والرجل والخروف، نقف سويًّا على العشب الذي غيّرت الشمس لونه. كان ينظر إليّ. وكانت عيناه بلون المحيطات البعيدة، ينبعث منهما الدفء والنوايا الطيّبة.

كان رجلًا وسيمًا.

«توقّعي ألّا تولد لديك مشاعر صادقة تجاه رجل آخر قبل مضي أشهر على الأقلّ». كان هذا ما قيل لي صباح ذلك اليوم. جاءتني تلك النصيحة عبر تطبيق لا يمتّ للواقع بصلة، يحمل اسم «المدرِّب على الفراق»، حمَّلتْه في هاتفي (من دون إذن منّي) صديقتي الحميمة في لوس أنجلوس، دجيني كارميكايل، في اليوم الذي أعقب الإعلان عن انفصالنا أنا وروبن. كان الموقع يرسل إليّ كلّ يوم إشعارات كئيبة ولكن مشجِّعة حول الصدمة العاطفية التي كنت أعيشها، إشعارات تخبرني بأنّ ما أشعر به طبيعيّ تمامًا.

لكنّني لم أكن أعيش صدمة عاطفيّة. حتّى عندما أخبرني روبن بأنّه آسف، ولكن علينا الانفصال بالطلاق، أجبرت نفسي على البكاء حتّى لا أجرح مشاعره. وبالتالي، عندما تحدّث التطبيق المذكور عن قلبي المحطّم وروحي المدمّرة، شعرت بأنّني أتلقّى بريد شخص آخر.

مع ذلك، لم ألغِ التطبيق لأنّه كان يسعد دجيني أن تعلم أنّني أقرأ الرسائل. كانت صحّة دجيني النفسيّة والعاطفية – وإذ أصبحت مسألة حسّاسة مع اقترابها من سنّ الأربعين وفقدانها الأمل في الإنجاب – تعتمد إلى حدّ كبير على قدرتها على رعاية من هم بحاجة إليها.

استدار الرجل صوب الخروف، وقال:

– يا للعار! كنت أعتقد أنّ لدينا فرصة في المستقبل، أعني أنا ولوسي.

رنّ هاتفه.
– هل تعتقد أنّك ستتجاوز الصدمة؟
أخرج هاتفه قليلًا من جيبه وألغى المكالمة الواردة.
– أتوقّع ذلك. أو في الأقلّ آمل ذلك.
تشاغلت بالنظر حولي بحثًا عن خروف آخر، عن مزارع، عن كلب راعٍ ودود.
– أعتقد أنّ علينا التصرّف بشأن الخروف، أليس كذلك؟
– على الأرجح، قال الرجل وقد هبّ واقفًا. سأتّصل بفرانك فهو يملك معظم الخراف في هذه المنطقة.
طلب رقمًا بهاتفه، بلعت ريقي وأنا أشعر فجأة بالتردّد. عندما ننتهي من أمر الخروف سوف يتعيّن علينا وضع حدّ لتبادل النوادر وتجاذب أطراف حديث حقيقي.
وقفت على العشب وانتظرت. كان الخروف ينقّب من دون حماسة في الأعشاب الجافّة المتناثرة حوله وهو يراقبنا. كان صوفه قد جُزَّ منذ فترة وجيزة، ورغم ذلك كان منظر معطفه المقصوص يبدو خانقًا.
تساءلت في سرّي لِمَ كنت أقف في ذلك المكان؟ لِمَ كان الرجل يتحسّر على نفسه قبل قليل؟ لِمَ كنت أمرّر يدي في خصل شعري؟ كان هو في تلك اللحظة يتحدّث مع فرانك عبر الهاتف مسترخيًا، ويطلق ضحكات خافتة.
– اتّفقنا يا صديقي. سأبذل كل ما في وسعي، قال له وهو ينظر إليّ.
كانت عيناه جميلتين فعلًا.
(كفّي عن ذلك!)
– لن يتمكّن فرانكي من المجيء إلى هنا قبل ساعة، قال لي. أخبرني بأنّ لوسي هرب من حقل قريب من الحانة. ثمّ نظر إلى الخروف، قائلًا:
– لقد اجتزتَ مسافة طويلة. أنت مذهل حقًّا!
لم يعره الخروف اهتمامًا، وتابع يرعى العشب. التفت الرجل صوبي وقال:
– سأحاول إعادته عبر الزقاق. هل يمكنك مساعدتي؟
– بالطبع. أنا متوجّهة إلى هناك في أيّ حال لتناول الغداء.
لم أكن متوجّهة إلى هناك لتناول الغداء، بل كنت أنتظر الحافلة 54 المتّجهة إلى سيرينسستر لأنني قد ألتقي فيها أناسًا بما أنّني كنت بمفردي في منزل والديّ. ففي الليلة السابقة، وردنا اتّصال من الممرّضة المسؤولة عن قسم الإسعاف في مستشفى رويال إنفيرماري في مدينة ليستر، تخبرنا بأنّ جدّي أُدخل المستشفى لإصابته بكسر في وركه. كان جدّي عدائي الطبع، يبلغ من العمر الثالثة

والتسعين، ولم يكن لديه أقارب سوى والدتي وشقيقتها ليسلي التي كانت آنذاك في جزر المالديف برفقة زوجها الثالث.

– اذهبي، قلتُ لوالدتي عندما لاحظتُ تردّدها. لم تكن تحبّ أن تخذلني. ففي شهر يونيو من كلّ عام، كانت تعدّ إخراجًا ضخمًا لزيارتي: ترتيبات مريحة، منزلًا يزخر بالزهور، طعامًا فاخرًا. كانت تفعل أيّ شيء في سبيل إقناعي بأنّ الحياة في إنجلترا توفّر لي ما لا يمكن لكاليفورنيا توفيره.

– ولكن...، قالت لي. لاحظتُ تردّدًا بسيطًا في موقفها. سوف تبقين وحدك.

– سأتدبّر أموري جيّدًا، أجبتها. ثمّ، سوف يُرمى جدّي خارج المستشفى إذا لم تكوني جانبه لكي تعتذري عن تصرّفاته.

في المرّة السابقة التي أُدخل فيها جدّي المستشفى، حصلت مواجهة بائسة بينه وبين طبيب مقيم لم يكفّ جدّي عن وصفه بأنّه «طالب طبّ أبله».

ساد الصمت هنيهة. كانت والدتي تتنازعها مشاعرُ مسؤوليّتها تجاه ابنتها ومسؤوليّتها تجاه والدها.

– دعيني لا أعق طريقك خلال الأيّام القليلة المقبلة، قلت لها. وسآتي لاحقًا إلى ليستر.

نظرتْ إلى والدي. كان كلاهما عاجزًا عن اتّخاذ قرار. تساءلت في سرّي «متى أصبح الاثنان متردّدَيْن إلى هذا الحدّ؟» في زيارتي هذه المرّة بدا الاثنان أكبر سنًّا، أصغر حجمًا، خصوصًا والدتي. كانت تبدو كما لو أنّها لم تعد تلائم جسدها. (هل كان ذلك خطإي أنا؟ هل جعلتُ جسدها يتقلّص بإصراري على العيش خارج البلد؟)

– لكنّك لا تحبّين الإقامة في منزلنا، قال لي والدي، الذي لم يجد طريقة أفضل للتعبير، هذا العجز عن قول شيء طريف – ولو مرّة واحدة – جعلني أغصّ، لا بل أختنق.

– طبعًا، أحبّ الإقامة هنا! هذا كلام لا صحّة فيه!

– كما أنّنا لا نستطيع أن نترك لك السيّارة. فكيف ستتنقّلين؟

– بحافلات النقل المشترك.

– لكنّ موقف الحافلات يبعد كيلومترات من هنا.

– أنا أحبّ المشي. اذهبا رجاء، أنا جادّة في ما أقول. سأستريح كما تنصحانني دائمًا. سأقرأ بعض الكتب. وسأتناول ما يطيب لي من كمّيات الطعام الهائلة التي أحضرتماها.

وهكذا كان. لوّحت لهما مودّعة وهما ينطلقان في السيّارة صباحًا. وجدت نفسي وحيدة فجأة في منزل لا أحبّ الإقامة فيه فعلًا، خصوصًا عندما أكون بمفردي.

ما أقصده هو أنّني لم أكن متوجّهة إلى حانة داينوي لأتناول وجبة غداء بمفردي. والواقع أنّني كنت أحاول أن أفرض على هذا الرجل الغريب عنّي تمامًا تناول كأس معي، رغم أنّ الرسالة التي وصلتني صباح ذلك اليوم من التطبيق الذي ذكرته كانت تقول أنّ مغازلة رجال آخرين لن تعود عليّ إلّا بالتعاسة والدموع. ورد في الرسالة: «لا تنسي أنّك حاليًّا ضعيفة كثيرًا»، وقد ظهرت في الرسالة صورة مشوّشة المعالم لفتاة تبكي فوق كومة كبيرة من الوسائد المريحة.

رنّ هاتف الرجل ثانية. هذه المرّة، رنّ إلى أن انقطع الرنين، ولم يردّ.

– الآن، فلنعمل على إعادتك إلى حيث يجب، قال وقد سار في اتّجاه لوسي الذي حملق فيه قبل أن يستدير ويركض. فتوجّه إليّ بالكلام قائلًا:

– اذهبي إلى هناك، وسنجبره على دخول الزقاق. آه! يا للعنة!

وثب بارتباك فوق العشب، ثمّ ركض عائدًا ليجلب الفليب فلوب خاصّته.

استدرت نحو اليسار في أسرع ما يمكن في ذلك الحرّ الدبق. انحرف لوسي نحو اليمين، حيث كان الرجل في انتظاره وهو يضحك. غمغم لوسي مدركًا أنّه حوصر وتوجّه إلى الزقاق الصغير المؤدّي إلى الحانة، وبينما كان يسير، أطلق ثغاء احتجاج.

قلت في سرّي شكرًا لله أو للوجود أو للقدر. شكرًا على هذا الخروف وهذا الرجل وسياج الأشجار الإنجليزي هذا.

كم مريح الحديثُ مع شخص لا يعرف شيئًا عن الحزن الذي يُفترض أنّني أكابده. شخص لا يميل برأسه تعاطفًا عندما يتحدّث معي. شخص يجعلني، وبكلّ بساطة، أضحك.

قام لوسي بمحاولات فرار عدّة في الطريق إلى الحانة، لكنّنا تمكّنّا سويًّا من إعادته إلى الحقل الذي هرب منه. قطع الرجل غصنًا من إحدى الأشجار وثبّته بإحكام على الفجوة الموجودة في السور التي هرب منها الخروف. ثمّ عاد إليّ وابتسم، قائلًا:

– انتهينا.

– انتهينا فعلًا، أجبته. كنّا نقف قرب الحانة. فذكّرته: أنت مدين لي بكأس.

ضحك قائلًا أنّ تلك فكرة منصفة.

وهذا ما حدث.

الفصل الخامس

بعد سبعة أيّام، ودّعنا بعضنا البعض إيدي وأنا، وتواعدنا أن نلتقي ثانيةً عند عودته. لم يكن وداعًا نهائيًا إذًا. لا بل إنّه لم يكن يمتّ للوداع بصلة. كان مجرّد «إلى اللقاء». فمتى كان الوداع النهائي ينطوي على عبارات من نوع «أعتقد أنّني وقعت في غرامك؟».

سرت مع مجرى نهر فروم، متوجّهةً نحو منزل والدَيّ. كانت السعادة تغمرني وكنت أدندن بصوت خفيض. كانت المياه تلمع صافية في ذلك اليوم، وقد رقشتها قطع الطحالب الخضراء والتموّجات السريعة فوق الحصى النظيفة، تحفّ بها على الجانبين أعواد القصب المدبّبة. عبرت المنطقة التي وقعت فيها هانا ذات يوم وهي تحاول قطف أزهار قدم الغراب، ولدهشتي، أطلقت ضحكة عالية. كان قلبي طافحًا بالسعادة، يترنّم بذكريات الأسبوع الفائت: الأحاديث المتبادلة في أوقات متأخّرة من الليل، وشطائر الجبن، والضحكات النابعة من أعماق القلب، ومناشف الحمام المبلّلة المعلّقة على الحبل. جسد إيدي الضخم، والريح التي تتسلّل بلطف عبر الأشجار لتترك ما يشبه آثار الدقيق. كنت أستعيد مرّة بعد مرّة الكلمات التي ردّدها على مسامعي عندما غادرت المكان.

وصلت مساء ذلك اليوم إلى ليستر. بينما كنت في سيّارة أجرة في طريقي إلى المستشفى، هبّت عاصفة مطريّة، فغرقت المدينة في الظلام. وكانت زخّات المطر قويّة إلى درجة أنّ أضواء قسم الطوارئ في المستشفى انعكست مياه حمراء على الزجاج الأمامي. وجدت جدّي في جناح دافئ جدًا. كان مضطربًا ونكد المزاج. أما والدَيّ فكانا مرهقين.

لم يتّصل بي إيدي تلك الليلة. ولم يبعث برسالة يخبرني فيها بتفاصيل رحلة العودة. عندما كنت أرتدي ثياب النوم، تساءلت عن السبب. قلت في نفسي: الأرجح أنّه كان في عجل. كان برفقة صديقه. وهو يحبّني. سوف يتّصل!

لكنّ إيدي ديفيد لم يتّصل. ولم يتّصل، ولم يتّصل.

بقيت يومين أقنع نفسي بأنّ الأمور على ما يرام. فمن العبث، بل من الجنون، أن يساورني الشكّ حيال ما حصل بيننا. ولكن، بينما كانت الأيّام تتوالى، استنزفني الألم إلى أن مضى أسبوع، وصرت أجد صعوبة في كبح مشاعر الذعر المتفاقم.

عندما وصلت إلى لندن لأقيم في منزل تومي كما كان مقرّرًا، كذبت وقلت له: إنّه يمضي وقتًا رائعًا في إسبانيا.

لكنّ أعصابي انهارت بعد بضعة أيّام عندما كنت أتناول الغداء مع دجو. اعترفت لها:

– لم يتّصل بي. امتلأت عيناي بدموع الذعر والإذلال. لا بدّ أنّه أصيب بمكروه. دجو، لم يكن ما حصل بيننا مجرّد علاقة عابرة؛ فقد غيَّر كلّ شيء بالنسبة إليّ.

كان تومي ودجو لطيفين معي؛ أصغيا إليّ، وقالا لي أنّني «بخير حقًّا»، لكنّني شعرت بأنّهما أصيبا بصدمة لدى تداعي صورة سارة التي يعرفانها. ألم أكن أنا تلك المرأة التي تمكّنت من تغيير مسار حياتها بعد أن فرّت إلى لوس أنجلوس في أعقاب مأساة أحاطتها بغلالة سوداء؟ والمرأة التي أنشأت جمعيّة خيريّة ناجحة جدًا للأطفال، وتزوّجت رجلًا أميركيًّا؛ وجالت العالم لإلقاء خطابات رئيسية؟

وها هي المرأة ذاتها تمضي أسبوعين تجول في شقّة تومي، وقد تحوّلت امرأة تترصّد رجلًا كانت قد أمضت معه سبعة أيّام.

في ذلك الوقت، تفجّر الوضع في بريطانيا إثر إجراء استفتاء الانسحاب من الاتحاد الأوروبّي، وخضع جدّي لعمليّتين، وأصبح والديّ سجينين في منزله. أما جمعيتي الخيريّة فقد حصلت على منحة سخيّة، وكانت دجيني قد اجتازت شوطًا لا بأس به في المرحلة الأخيرة من عمليّة التخصيب الاصطناعي التي كانت شركة التأمين ستدفع لها تكاليفها. كنت أعيش ضمن جوٍّ يشهد تقلّب الظروف البشريّة بين جيّدة وسيّئة، ومع ذلك، كنت أبذل جهدًا مضنيًا لأتذكّر أيًّا منها.

كنت قد شاهدت صديقات لي يفعلن ما فعلت. كنت أراقب بذهول كيف كانت تلك الصديقات يدَّعين أن هواتفهم معطّلة؛ أو سيقانهم مكسورة؛ أو أصيبوا «هم» بمكروه، يذوون داخل حفر من دون أن يراهم أحد. كنَّ يؤكّدن أنّ عبارة طائشة بدرت منهنّ لا بدّ أنّها «أخافتهم ودفعتهم إلى الابتعاد»، من هنا كان من الواجب «إزالة أيّ سوء تفاهم». راقبتهنّ وهنّ يبدّدن كرامتهنّ ويدمين قلوبهنّ ويتصرّفن بخبل، كلّ ذلك في سبيل رجال لا يعاودون الاتّصال بهنّ. والأسوأ من ذلك كلّه، رجال كنّ بالكاد يعرفنهم.

وها أنا اليوم، أجلس في سيّارة تومي، كرامتي مبعثرة، قلبي محطّم، صوابي مفقود. أكتب رسائل يائسة أخبره فيها بأنّني لم أعد متزوّجة. وأنّ الانفصال كان وديًّا جدًا.

أوقف تومي السيّارة قرب بوّابات مدرستنا القديمة في اللحظة التي بدأ المطر يرسم أشكالًا خفيفة على الزجاج الأمامي. أوقف السيّارة بشكل خاطئ على غير عادته، إذ كان أحد الدواليب فوق إفريز الرصيف، والأغرب أنّه لم يحاول تصحيح الوضعيّة، على غير عادته. لمحت السياج الضخم المصنوع من خشب الزان، والخطّ الأصفر المتعرّج على الطريق، واللافتة الموضوعة قرب البوّابة، وشعرت بألم عميق يسري في جسدي. وضعت الهاتف في حقيبة يدي. كان على رسالة إيدي أن تنتظر.

– ها قد وصلنا! قال تومي. لكنّ الحماسة المصطنعة جعلت صوته ينهار في منتصف الجملة مثل حبل غسيل حُمِّل فوق طاقته. علينا الإسراع، فموعد خطابي بعد خمس دقائق!

لكنّه لم يندفع خارج السيّارة، ولم يتحرّك أحد منّا. تأمّلنا رودي ثم، سأل مرتبكًا:

– لماذا لم تترجّلوا من السيّارة؟

لم يجبه أحد. بعد بضع ثوان، انطلق بسرعة البرق من المقعد الخلفي وركض نحو بوّابات المدرسة. راقبناه بصمت بينما كان يخفّف سرعته ويمشي الهوينا وهو يضع يديه في جيبيه، ويتوقّف من حين لآخر عند المدخل لتقييم إمكان اللهو في باحة المدرسة. بعد أن نظر شزرًا بعض الوقت، قفل عائدًا نحو السيّارة. لم يكن مسرورًا.

مسكين رودي. لم أعرف كيف خدعته دجو وصوّرت له حدث اليوم، لكنّني أشكّ في أنّها أخبرته بالحقيقة كاملة. كان يمكن لحفل إطلاق برنامج رياضي في ثانويّة أن يكون جذّابًا بعض الشيء بالنسبة لرودي لو كان ممكنًا استخدام الأجهزة المعروضة من باب التجربة، أو لو كان هناك أطفال من عمره يمكن اللعب معهم. لكنّ الأجهزة التقنيّة التي يتمحور حولها برنامج تومي كانت ستُعرض من قبل مجموعة من «الرياضيّين الواعدين» الذين اختارهم مدير التربية البدنيّة، والذين كان أصغرهم في الرابعة عشرة.

وقف رودي قرب السيّارة معكّر المزاج، فخرجت دجو منها لتتحدّث معه. أمّا تومي، الذي صمت فجأة، فقد انحنى ليتفقد صورته في المرآة. قلت في سرّي، وقد غمرتني موجة من التعاطف معه، إنّه «خائف».

لم يرحم الصبيان في ثانويّتنا المختلطة توماس ستينهام الصغير. بل إنّ أحدهم، وهو ماثيو مارتن، اتّهم تومي بأنّه مثليّ عندما بلغ هذا الأخير الثانية عشرة من العمر وفرضت عليه أمّه، التي كانت تحبّ البهرجة، بأن يقصّ شعره قصّة دارجة. دفع ذلك تومي إلى البكاء، ما أدّى بالطبع، إلى إلصاق التهمة به. كان ماثيو وأصدقاؤه يضعون على مقعد تومي، يوميًّا، وصفة من أجل «نزع الميول المثليّة»؛ كما كانوا يلصقون صور رجال عراة على غطاء طاولته من الداخل. عندما بدأ يواعد كارلا فرانكلين في عمر الرابعة عشرة، أطلق عليها هؤلاء اسم «اللحية». لجأ تومي إلى

تمضية ساعات في صالة الرياضة المنزليّة الخاصّة بوالدته لكنّ عضلاته الجديدة زادت الأمور سوءًا: فقد اعتاد الصبية أن يلكموه في ملعب المدرسة. وعندما هاجرت عائلته إلى الولايات المتحدة عام 1995، كان قد أضحى مدمنًا التمرينات الرياضيّة، كما أصبح يتلعثم قليلًا عند الكلام، ولم يكن له أصدقاء بين الذكور.

بعد سنوات – أي بعد فترة طويلة من عودته إلى إنجلترا – استخدمت محامية ثريّة تعمل في مجال التكنولوجيا، واسمها زويه ماركام، تومي ليكون مدرّبها الشخصي. وكانت نساء ناجحات عدّة في لندن قد أصبحن ضمن زبائنه، ومنهنّ من كنّ يعبثن معه علنًا. قال لي ذات يوم:

– أعتقد أنّه نوع من النزوات. كان تومي يشعر بشيء من الإطراء والاشمئزاز معًا. وأضاف: أنا أشبه برجل تصليحات جذّاب جنسيًّا لديه كلّ الأدوات اللازمة لتلبية النزوات. موظّف مفتول العضلات.

لكنّ زويه ماركام، في ما يبدو، كانت مختلفة. فقد سارت الأمور بينهما «على نحو رائع»، حيث ربطتهما «علاقة حقيقيّة صادقة»، والأهمّ من ذلك كلّه أن زويه كانت ترى فيه «إنسانًا كاملًا»، لا مجرّد موظّف لديها يعرف كيف يجعلها جميلة وممشوقة القوام. (كانت هي في الأصل جميلة ذات قوام نحيل.)

بعد مضي بضعة أشهر، كانا خلالها يتقابلان من حين لآخر، ساعدته زويه من طريق أحد أصدقائها القدامى، في الارتقاء إلى مجال الاستشارات الرياضيّة. اصطحبها تومي إلى العشاء ليشكرها. واصطحبته هي بعد ذلك إلى منزلها وخلعت ملابسها، قائلةً:

– أعتقد أنّ الوقت قد حان لعلاقة حقيقيّة بين شخصين، ألا تعتقد ذلك؟

كانت زويه أوّل امرأة يرتبط بها تومي بعلاقة حقيقيّة؛ وكانت بالطبع، كما تصوّر هو، مختلفة تمامًا عن مجموعة الأشخاص المحيطين به. كانت بالنسبة إليه إلهة، أعجوبة – بلسمًا لكلّ جروحه القديمة. أسرّ لي يوم دعته ليقيم معها في شقّتها في هولاند بارك:

– كم أتمنّى لو أستطيع إخبار أولئك الأوغاد في المدرسة! كم أتمنّى لو أنّني أستطيع أن أُريهم قدرتي على اجتذاب امرأة مثل زويه!

– بالطبع، ألن يكون ذلك رائعًا؟! قلت له. فلم أكن في قرارة نفسي أتصوّر إمكان حدوث ذلك. لا يمكن أن يحدث شيء من هذا القبيل في الواقع.

لكنّه في حالة تومي، حصل.

قبل عام، كان تومي قد أرسل كتابًا حول برنامجه الخاصّ بالثانويّات إلى كلّ المدرّسين الأساسيّين في مدارس المملكة المتّحدة. كان البرنامج يتضمّن منحة تضمّ تقنيّات رياضيّة يمكن ارتداؤها – صدْرات تبيّن معدّل ضربات القلب، وساعات عرض بيانات الجسم أثناء التمرينات،

وأجهزة من هذا القبيل – قدّمتها شركة متعدّدة الجنسيّات تعمل في مجال التكنولوجيا، وهي إحدى أهم زبائن زويه. كانت هذه المنحة مصدر فخر تومي وسعادته. وعندما تلقّى مكالمة هاتفيّة من مديرة مدرستنا، كان مبتهجًا جدًّا. وقد أخبرني خلال إحدى محادثاتنا عبر سكايب، قائلًا:

– طلبت منّي المجيء لمقابلة مدير التربية البدنية في المدرسة! أمر رائع، أليس كذلك؟!

لكنّ روعة الأمر خفتت قليلًا عندما اكتشف أنّ مدير التربية البدنية هو ذاك الصبي الذي كان يتنمّر عليه أيّام المراهقة، ماثيو مارتن.

مع ذلك، أكّد لي تومي أنّ الحديث الذي دار بينهما كان ممتعًا. ساد شيء من الحرج في البداية، لكن ماثيو قال شيئًا عن أنّهم كانوا جميعًا صبية حمقى مزعجين أيّام المراهقة. ثمّ ربّت على ذراع تومي وناداه: «يا صاح». في ما بعد، شأنهما شأن أيّ صديقين قديمين، شرع كلّ منهما يتباهى بما لديه: أراه ماثيو صورة أسرته، وأراه تومي – الذي لم يكن يصدّق حظّه السعيد – صورة حبيبته الجميلة الأنيقة التي تفيض صحّة واقفة في مطبخها الرائع في شقّتها في لندن.

عندما وصلت إلى شقّة تومي وزويه في لندن، مطلع شهر يونيو، كانت أعصابي قد بدأت تضطرب بشأن إيدي، وكان تومي قد سلّم البرنامج. أخبرني بأنّ أشباح الماضي قد تلاشت؛ وأنّه قد «تجاوز» ما حصل معه أيّام المدرسة؛ وأنّه كان يتطلّع فعليًّا لمقابلة ماثيو مارتن ثانية حول مأدبة الغداء التي كانت ستقام لمناسبة إطلاق البرنامج، ثمّ أضاف كأنّ الأمر كان مجرّد فكرة عرضيّة خطرت له:

– زويه سترافقني. ستكون فرصةً لأعرّفها بمات.

وددت في تلك اللحظة لو أعانقه. لو أقول له أنّه إنسان ناجح كما هو، وأنّه لا يحتاج إلى زويه لتتأبّط ذراعه لكي يرفع شأن نفسه بين الناس. لكنّني جارَيْته طبعًا، لأنّه كان بحاجة إلى من يجاريه.

اعتذرت زويه عن عدم الذهاب قبل أربعة أيّام من موعد حفل الإطلاق، قائلةً:

– آسفة تومي، ولكن يتوجّب عليّ السفر إلى هونغ كونغ من أجل أحد زبائني، الأمر مهمّ فعلًا.

لكنني أظنّ أنّها لم تكن آسفة بما يكفي. كانت تدرك ما يعنيه ذلك لتومي. أصبح وجه تومي بلون ورقة أعيد تدويرها.

– لكن... الكلّ في المدرسة يتوقّع مجيئك!

– أنا واثقة في أنّهم سيتجاوزون الأمر، أجابت وقد قطّبت حاجبيها. فهم سيتباهون أمام الصحافة المحلّيّة، لا أمامي.

– ألا تستطيعين تأجيل سفرك يومًا واحدًا؟ سأل متوسّلًا.

لم أستطع تحمّل هذا المشهد.

– كلّا، لا أستطيع، أجابت بهدوء. لكنّك ستشكرني لاحقًا لأنّني ذهبت في هذه الرحلة. سيكون هناك وفد من وزارة الثقافة والإعلام والرياضة. وأنا ما زلت أعتقد أنّ لديّ فرصة سانحة لضمّك إلى إحدى لجانها الاستشاريّة.

– لكن سبق أن قلتُ لك أن الأمر لا يهمّني.

– وأنا قلت لك يا تومي أنه يهمّك.

تطوّعنا أنا ودجو للحلول محلّها.

هل كنت أرغب فعلًا في العودة إلى المدرسة التي كنت أرتادها؟ بالطبع لا. فقد كنت آمل ألّا تطأ رجلاي ذلك المكان ثانية. لكنّني كنت أظنّ أنّ تومي بحاجة إليّ، وبدت مساعدةُ من بحاجة إلى المساعدة الطريقةَ الوحيدة اللائقة التي أعرفها لإلهاء نفسي عن معاناتي. وفضلًا عن ذلك، ما الذي كنت أخشاه؟ فقد تركت ماندي وكلير تلك المدرسة منذ التسعينيّات. ولن تكون الفتاتان، ولا أيٌّ من الأشخاص الذين هربت من مواجهتهم، موجودين في المدرسة اليوم.

استدار تومي نحوي، وقال:

– هارنغتون، أما زلت معنا؟

– آسفة. نعم، أنا معكما.

– اسمعي إذًا، هناك أمر ينبغي أن أخبرك به.

نظرت إليه بإنعام. لم يكن حاجباه يحملان أنباء سارّة.

– عندما استلمت الرسالة التي تتحدّث عن الصحافة المحلّيّة قبل قليل، أخبرني ماثيو شيئًا آخر. فهو قد... توقّف عن الكلام فجأة. أدركتُ أنّ الخبر مزعج.

– ماثيو تزوّج كلير بيدلر. لم أخبرك قبلًا لأنّني لم أكن أعتقد أنّك تودّين سماع اسمها. لكنّه حين بعث لي بالرسالة النصّيّة ليقول لي أنّ الصحافة المحلّيّة قرّرت الحضور، قال لي أيضًا...

– لا، هذا غير معقول!

– كلير قرّرت المجيء أيضًا. كما أنّها سوف...

– تحضر معها ماندي.

– تحضر معها مجموعة من الأصدقاء ممّن كانوا في صفّنا، بمن فيهم ماندي لي.

انحنيتُ إلى الأمام منهارة، وأسندت رأسي إلى ظهر مقعد تومي.

الفصل السادس

اليوم الأوّل: الكأس التي استغرقت اثنتي عشرة ساعة

– سارة ماكيه، قلت. م-ا-ك-ي-ه.

قدّم لي صاحب الحانة كأسًا.

ضحك الرجل الذي التقيته في المرج المحيط بالقرية.

– أعرف كيف أتهجّأ كلمة ماكيه. مع ذلك، شكرًا. اسمي إيدي ديفيد.

– آسفة، قلت له مبتسمة. أنا أعيش في أميركا. إنّه اسم يغلب عليه الطابع الأميركي. عندما آتي إلى هنا، غالبًا ما أضطرّ إلى تهجئته. إضافة إلى ذلك، أنا ممن يفضّلون دائمًا الوضوح.

– لاحظت ذلك.

كان يراقبني متّكئًا على البار بشكل جانبي. كان يحمل ورقة نقديّة مطويّة بين أصابعه السمراء الضخمة. أعجبتني مقاييس هذا الرجل. أعجبني أنّه أطول منّي بكثير، وأعرض منّي بكثير، وأقوى منّي بكثير. كنت أنا وروبن بالطول نفسه تقريبًا.

جلسنا في حديقة الحانة المزروعة أزهارًا وطاولات خشبيّة بمقاعد في الوادي الصغير الكائن أسفل قرية سابرتون. كان نهر فروم الضيّق يلتفّ خفية حول المرج الواقع عند حافّة موقف السيّارات التابع للحانة؛ وكانت الأزهار البرّيّة تتساقط من إحدى الشجرات. كان اثنان من هواة المشي يجلسان باسترخاء ويتناولان الشراب فيما جلس قربهما كلب لاهث من نوع كوكر سبانيول وهو ينظر إليّ. ما إن جلست تحت مظلّة كبيرة حتّى اقترب الكلب منّي واستقرّ عند قدمي، مُطلِقًا نفخة تعب.

ضحك إيدي.

انطلقت في مكان ما من الوادي طقطقة مزعجة يصدرها منشار سلسلي، ومن ثمّ توقّفت. تعالت من الغابة المطلّة على المقهى الذي نجلس فيه أصوات بضعة طيور أرهقها الحرّ. شربت جرعةً من كأسي، ووجدت المشروب لذيذًا ومنعشًا.

– رائع، قلت.

– رائع فعلًا، وافقني إيدي. عببنا كأسينا واجتاحتني موجة من البهجة. كان البقاء وحيدة صباح ذلك اليوم في منزل والدَيّ الفارغ أكثر إزعاجًا ممّا كنت أودّ الاعتراف به، ولم تفلح النزهة التي عبرت فيها ممرّ برود رايد مشيًا، في تحسين مزاجي. أمّا الآن، فكنت بصحبة رجل جذّاب، أتناول كأسًا لذيذةً. ربّما كان اليوم يومًا جميلًا.

– أحبّ هذه الحانة، اعترفت له. كان من عادتنا أن نأتي إلى هنا عندما كنت طفلة. كنت أنا وشقيقتي نلعب من دون قيود ونلهو في الجدول، بينما كان والدَيّ وأصدقاؤهما يشربون حتّى الثمالة.

عبَّ إيدي جرعة كبيرة من كأسه، ثم قال:

– لقد ترعرعتُ في سيرينسستر. لا شكّ في أنّ اللعب واللهو من دون قيود وسط المدينة أقلّ أمنًا. لكننا جئنا إلى هنا مرّة أو مرّتين.

– حقًّا؟! متى كان ذلك؟ كم عمرك؟

– إحدى وعشرون سنة، ردّ إيدي باسترخاء. ولكن يُقال أنّني أبدو أصغر سنًّا.

لم يكترث عندما ضحكت، بل أضاف:

– تسعة وثلاثون سنة. أذكر أنّني كنت أركض حول هذه الحديقة عندما كنت في العاشرة تقريبًا، ثمّ انتقلت والدتي إلى هنا في نهاية التسعينيّات، وهكذا بدأت أتردّد إلى هنا كثيرًا. كم عمرك؟ ربّما حدث أن لعبنا سويًّا من دون قيود.

كانت فكرةً بريئةً. لا بدّ أنّ تطبيق دجيني غاضب مني الآن.

– لا أعتقد. لقد انتقلت إلى لوس أنجلوس عندما كنت مراهقة.

– حقًّا؟ هذه نقلة نوعيّة.

أومأت برأسي.

– هل كان أحد والديك يعمل هناك؟

– شيء من هذا القبيل.

– وهل ما زالا يعيشان هناك؟

– كلّا. يعيشان قريبًا من هنا. قرب بلدة ستراود.

أشحت بوجهي بعيدًا، كأنّني أحاول تفادي الكذب.

– إذًا إيدي، قلّ لي ما جئت تفعل في مروج سابرتون بعد ظهر أحد أيّام الأسبوع.

– كنت أزور والدتي، قال وقد انحنى ومسّد وبر الكلب. فهي تعيش قرب المدرسة. لاحظت تغيّرًا طفيفًا في صوته. سألني:

– وأنت، ماذا كنت تفعلين؟

– كنت أتمشّى قادمة من قرية فرامبتون مانسيل. أشرت برأسي إلى قرية والدَيّ.

– لكنّك لم تأت عبر الوادي، بل من أعلى الهضبة.

– لقد... رغبت في ممارسة القليل من الرياضة، وهكذا تسلّقت الهضبة وسرت إلى قمّتها، ثمّ أضفت بسرعة: سرت على امتداد ممرّ برود رايد. الواقع أنّه تغيّر كثيرًا. (تحوّل الحديث حقلَ ألغام.) لقد غطّته النباتات كيفما اتّفق! كان في السابق مكانًا فسيحًا ذا مظهر جليل؛ كان الناس يحضرون جيادهم من كلّ المناطق لكي تعدو. أما الآن فهو يكاد يكون مجرّد ممرّ.

أومأ برأسه.

– لكنّ الجياد ما زالت تعدو فيه جيئة وذهابًا، رغم أنّ ذلك ممنوع. كاد أحد الجياد يطرحني أرضًا ذات يوم.

ابتسمت لفكرة أن يتمكّن أيّ مخلوق من أن يطرح هذا الرجل الضخم أرضًا، جوادًا كان أو أيّ مخلوق آخر. شعرت بالسرور لفكرة أنّه مشى أيضًا في ذلك الممرّ الأخضر السرّي.

– كنت أشبه بموسى آتيًا من قرية سابرتون. فقد شققت البحر الأحمر بين الزهور البرّيّة.

شرب كلّ منّا جرعةً من كأسه.

– إذًا، أنت تعيش على مقربة من هنا؟

– نعم، رغم أنّني أُكلَّف أعمالًا في لندن، أعيش هنا معظم الوقت.

فجأة، ضربني على بطن ساقي. قال بلطف، وهو ينفض الحشرة الميتة ليرميها من على راحة يده:

– ذبابة فرس. كانت تلتهم ساقك. آسف!

شربت جرعةً من كأسي، وشعرت بالاسترخاء والخفّة التي يتركها الخمر في النفس.

– هذه الحشرات مؤذية في يونيو. بل هي مؤذية طوال السنة، لكنّها في يونيو تحديدًا تزداد سوءًا.

– لسعتني إحداها صباح اليوم، قالها وهو يريني وَرَمين ملتهبين في ساعده.

– آمل أن تكون قد لسعتها أنت أيضًا انتقامًا منها.

– لم ألسعها، قال إيدي ضاحكًا. فهذه الحشرات تمضي معظم الوقت قابعة على أعضاء الخيول التناسليّة.

– نعم، بالطبع.

وقبل أن أفكّر حتّى بما كنت على وشك أن أقوم به، لمست مكان اللسعتين في جلده. وقلت بنبرةٍ أردتها عاديّة لأن شعور الحرج كان قد بدأ يستولي عليّ:

– يا للمسكين!

توقّف إيدي عن الضحك، واستدار نحوي. تقابلت نظراتنا، كان هناك سؤال في عينيه.

وكنت أنا من أشاح النظر أوّلًا.

بعد هنيهةٍ، أحسست بأنّني مسترخية ومرتاحة. كان إيدي قد دخل الحانة ليحضر لنا الكأس الثالثة، أو لعلّها كانت الرابعة. سمعت صوت صندوق المحاسبة بينما كان صاحب الحانة يسجّل الطلب، كما سمعت صوت خشخشة وتمنّيت لو كانت خشخشة كيس رقائق البطاطا. ومن السماء جاء صوت أزيز طائرة تشقّ طريقها بين الغيم ببطء.

بدأ المقعد المعلّق بالطاولة الخشبيّة القديمة المحزّز يحكّ باطن فخذي مثل ورق الزجاج. نظرت حولي بحثًا عن طاولة يكون مقعدها أملس قليلًا، لكنني لم أعثر على واحدة، فارتميت على العشب كما فعل الكلب قبل قليل. ابتسمت، كنت سعيدة ومنتشية. دغدغ العشب أذني. شعرت بأنّني لا أرغب في مغادرة المكان. جلّ ما كنت أرغب فيه، وبكلّ بساطة، هو أن أكون هنا؛ من دون هاتف، من دون مسؤوليّات. إيدي ديفيد وأنا فقط.

بينما كنت أتأمّل السماء، شعرت بدفء الأرض تحتي، وتماوجت ذكريات قديمة في ذهني. فكّرت في هدوء: هذا هو تمامًا. رائحة العشب الدافئ، صوت حفيفه وخشخشته الناعمة، الحشرات التي تئزّ داخله، ودندنة الأغاني في ثناياه. هذا ما كنت عليه يومًا. قبل أن يذهب تومي ليعيش في أميركا وقبل أن تنفجر سنوات مراهقتي تحت قدميّ مثل لغم أرضي. كان ذلك يكفيني.

قال إيدي، وهو يهبط الدرجات حاملًا كأس بيرة وكأس شراب التفاح و– الحمدلله – رقائق البطاطا:

–انتهى أمرك. لقد ادّعيتِ أنّ المشروب لا يؤثّر فيك بسهولة.

– لقد نسيت شراب التفاح، قلت من باب الاعتراف. ولكن يجب أن أنوّه بأنّني لم أفقد الوعي. كلّ ما في الأمر أنّني لم أستطع تحمّل ذلك المقعد الشائك. استندت إلى مرفقي لأعدّل جلستي، وتابعت: في أيّ حال، ليتك تفتح أكياس البطاطا بسرعة.

جلس إيدي على العشب جواري، وأخرج من جيبه حزمة مفاتيح كانت تزعجه في جلسته. كانت المفاتيح مجموعة بحلقة خشبيّة صغيرة في شكل فأر.

– ما هذا المخلوق؟ سألته.

استدار إيدي لينظر إلى حلقة المفاتيح، ثمّ ابتسم وقال:

– هذه فأرة، وقد صنعتها عندما كنت في التاسعة.

– أصنعتها بنفسك؟! من قطعة خشب؟!

– نعم.

– يا إلهي، ما أجملها!

مرّر إيدي أصابعه على الفأرة. قال وهو يبتسم:

– لقد مررنا سويًّا بالكثير. إنّها تعويذتي. في صحّتك! استند إلى مرفقيه، ومال نحو الخلف ليواجه الشمس.

– في الوقت الذي يعمل فيه الجميع، نحن جالسان هنا نستمتع بوقتنا. قلت بسعادة، وأنا أحاول وصف الوضع.

– هذا صحيح.

– نستمتع بوقتنا في وضح النهار.

– هل سنستأنف حديثنا أم إنّك ستمضين فترة بعد الظهر في الإدلاء ببيانات؟

ضحكت وأجبت:

– سبق وأخبرتك إيدي: الوضوح. الوضوح يجعلني أسير دائمًا على الطريق القويم.

– افعلي ما تشائين إذًا، أمّا أنا فسأتناول بعض رقائق البطاطا وأشرب البيرة. أخبريني عندما تفرَغين.

فتح كيس البطاطا، وقدّمه إليّ.

فكّرتُ: هذا الرجل يعجبني.

مُذ جئنا إلى هذه الحديقة السرّيّة، أمضينا وقتنا أنا وإيدي في استعادة تفاصيل ذكريات سنوات الطفولة، واكتشفنا وجود مئات النقاط المشتركة من الماضي. كنّا مشينا على الهضاب نفسها وتردّدنا على النوادي الليليّة ذاتها القائظة؛ وجلسنا في الممرّ عينه المحاذي للقناة عند الغروب، وأحصينا عدد اليعاسيب التي كانت تتراقص فوق مساكب أعواد القصب في قناة ستراود القديمة.

لم يكن من فارق في العمر بيننا سوى سنتين. تخيّلت نفسي وأنا في السادسة عشرة أقابل إيدي البالغ الثامنة عشرة، وتساءلت عمّا إذا كنت سأحظى بإعجابه آنذاك؟ تساءلت عمّا إذا كنت أعجبه اليوم؟

كنت حدّثته عن جمعيّتي الخيريّة، وكان مسرورًا لسماع ما رويته وطرح عليّ الكثير من الأسئلة. فَهِم إيدي فورًا الفرق بين برنامج الأطبّاء المهرّجين في الجمعيّة، والفنّانين الذين يزورون الأطفال في المستشفيات بانتظام لتقديم عروض. كما فَهِم أنّني كنت أفعل ذلك لأنّني لا أستطيع أن أتوقّف عنه مهما قلّ التمويل، ورغم أن أعضاء فريق العمل خاصتنا كانوا يعاملون وكأنّهم مجرّد

مهرّجي حفلات. أريته فيديو يُظهِر اثنين من العاملين في البرنامج يشجّعان طفلًا كان خائفًا من إجراء جراحة. فقال لي:

– هذا مدهش! كان صادقًا في انفعاله، وأضاف: شيء لا يصدّق. أنا... سارة، أنت تؤدّين عملًا رائعًا.

أراني صور الأثاث والقطع الخشبيّة التي يصنعها في ورشته الكائنة على حافّة غابة سيكاريدج. كانت تلك مهنته. كان الناس يكلّفونه صنع قطع جميلة من الخشب لاستخدامها في بيوتهم: مطابخ، خزائن، طاولات، مقاعد. قال لي أنّه يحبّ الخشب مثلما يحبّ الأثاث. يحبّ رائحة الشمع المستخدم لصقل سطح الخشب، وصوت طقطقة الوصلة المؤلّفة من طبقات عدّة عندما تُشدّ داخل ملزمة؛ كان توقّف عن محاولة إجبار نفسه على القيام بعمل يدرّ له ربحًا كبيرًا.

أراني صورة مخزنٍ قديمٍ، هو كناية عن مبنى صغير من الحجر، سقفه منحدر قليلًا، يقع في فسحة داخل غابة تصلح لتكون مسرحًا لإحدى قصص هانس كريستيان أندرسن.

– هذه ورشتي. وهي أيضًا بيتي. أنا ناسك حقيقي؛ فأنا أعيش في بيتٍ وسط غابة.

– رائع! لطالما تمنّيت أن أقابل ناسكًا! أأنا أوّل كائن بشري تتحدّث إليه منذ أسابيع؟

– نعم! أجابني، ثمّ استدرك: كلّا.

لمحت في عينيه تعبيرًا لم أستطع فهمه. فتابع:

– أنا لست ناسكًا فعليًّا. لديّ أصدقاء وعائلة وحياة ناشطة. لم أكن مضطرًّا إلى قول ذلك. صمت لحظة، وابتسم. هل كنت مضطرًّا في رأيك؟

– لا أظنّ ذلك.

أزال صورة البيت من شاشة هاتفه لحظة رنّ جرسه. هذه المرّة أطفأ الجهاز، ولكن من دون أن يبدو عليه أي انزعاج. وأردف:

– في أيّ حال، هذا عملي، وأنا أحبّه. رغم مرور سنوات لم أكسب فيها شيئًا. لم تكن سنوات سعيدة بالنسبة إليّ. زحف عنكبوت صغير على إحدى ذراعيه، راقبه ودفعه بعيدًا بلطف عندما حاول دخول كمّ قميصه القطني. وتابع حديثه: قبل بضع سنين، فكّرت في إيجاد عمل لائق يؤمّن لي دخلًا مضمونًا. لكنّني لا أحتمل فكرة الوظيفة من التاسعة صباحًا حتّى الخامسة بعد الظهر. أظنّها عملًا شاقًّا بالنسبة إليّ. قد أموت. وقد يحصل لي مكروه؛ لن أتمكّن من تجاوز أمر كهذا!

فكّرت في ما قال.

– أشعر بالانزعاج عندما يقول الناس أشياء من هذا النوع، أسرّيت له بعد قليل. أعتقد أنّ قلّة من الناس فقط تختار الجلوس في مكتب من التاسعة صباحًا وحتّى الخامسة بعد الظهر. ولكن، لا

تنسَ أنّ الناس في معظمهم لا يملكون خيارًا آخر. أنت محظوظ، لأنّك تستطيع أن تعمل نجّارًا في ورشة في منطقة كوتسولدز.

– هذا صحيح، ردّ إيدي. وأنا أفهم بالطبع ماذا تقصدين، لكنّني لست واثقًا في أنّني أوافقك الرأي. في اعتقادي أنّ كلّ شخص يملك خيارًا، في كلّ شيء. إلى حدّ ما.

كنت أراقبه وهو يتكلّم.

– أنا لواثق أننا نملك خيار ما نفعل وما نشعر به وما نقوله. في أيّامنا هذه، أصبح مفهوم عدم امتلاك الخيار مقبولًا وسائدًا. وهذا يسري على كلّ الأصعدة: العمل، العلاقات، السعادة. كلّها صارت خارج نطاق سيطرتنا. أعاد العنكبوت الصغير إلى العشب، وتابع حديثه: إنّه لأمر يثير الإحباط عندما ترين الجميع يشكون من مشاكلهم ولا يرغبون في مناقشة الحلول. يلازمهم الاعتقاد بأنّهم ضحايا الآخرين، ضحايا أنفسهم، ضحايا العالم.

عاد ذلك التغيُّر الطفيف ليشوب صوته.

التفت إليّ بعد قليل مبتسمًا، وقال:

– لا بدّ أنني أبدو وغدًا.

– قليلًا.

– لم أقصد أن ألّا أتعاطف مع غيري. ما كنت أقصده فحسب هو...

– لا مشكلة. فهمتُ ما تعنيه. وهذه فكرة مثيرة للاهتمام.

– ربّما كانت فكرة مثيرة للاهتمام، لكنّ طريقة التعبير لم تكن موفّقة. آسف! الواقع أنّني... صمت قليلًا، ثمّ تابع: الواقع أنّ والدتي ترهقني مؤخّرًا. أنا أحبّها بالطبع، لكنّني أتساءل أحيانًا عمّا إذا كانت هي «ترغب» في أن تكون سعيدة. ثمّ أشعر بأنّني إنسان بغيض لأنّني أعرف أنّ للأمر علاقة بكيمياء الدماغ، فهي بالطبع ترغب في أن تكون سعيدة.

حكّ قصبة ساقه.

– أنت أوّل شخص أتحدّث معه منذ أيّام لا يتحسّر على نفسه. أعتقد أنّني انجرفت في حديثي. آسف. شكرًا لك. النهاية.

ضحكتُ، مال إلى الوراء وترك إحدى ركبتيه تلمس جانب ساقي. قال:

– أعتقد أنّني أمضي معك وقتًا أفضل ممّا كنت سأمضيه مع الخروف لوسي. شكرًا لك سارة ماكيه. شكرًا لأنّك ضحّيت بعصر يوم الخميس لتناول كأس معي.

شعرت بدوّامة من المتعة تجتاحني. تركت نفسي أستمتع بها لأنّ السعادة شعور رائع.

ذهب إيدي إلى الحمّام. ألغيت تطبيق دجيني من هاتفي. ربّما كان ذلك ردّ فعل متسرّع قليلًا، لكنّني لم أشعر بسعادة كهذه بصحبة رجل، أو بصحبة أي أحد للحقيقة منذ وقت طويل.

– ثمّة شيء ما في هذا الوادي، أليس كذلك؟ سأل إيدي لاحقًا.

حتّى هو بدت عليه أمارات الاسترخاء. كان صاحب الحانة قد أقفلها فترة الاستراحة بعد الظهر ورحّب ببقائنا في الحديقة قدر ما نشاء.

قلت وأنا أحرّك المروحة أمام وجهي:

– هل نحن في فرن؟ غريب أن أشعر بالقيظ إلى هذا الحدّ، فأنا أعيش في جنوب كاليفورنيا. أين المحيط الهادئ حين نحتاج إليه؟ أما من حوض سباحة، أو حتّى مكيّف هواء في الأقلّ؟

ضحك إيدي ومال برأسه نحوي، سألني:

– هل في منزلك حوض سباحة؟

– حاشا وكلّا! أنا أدير جمعيّة خيريّة.

– أنا واثق في أنّ هناك مديرين لجمعيّات خيريّة يخصّصون لأنفسهم مرتّبات تكفي لاقتناء أحواض سباحة.

– هذه المديرة ليست منهم. أنا لا أملك شقّة حتّى.

عاد بنظره إلى السماء الحارّة، ثمّ قال بعد تفكير:

– صحيح، نحن في فرن هنا. لكنّ ثمّة شيئًا آخر، ألا تعتقدين ذلك؟ شيئًا قديمًا أو سرّيًّا. لطالما أشعرني هذا الوادي الصغير بأنّه أشبه بجيب البنطال الخلفي. مكان نخبّئ فيه شتّى أنواع القصص والذكريات، تمامًا مثلما نحتفظ بمجموعة من الطوابع القديمة.

أطرقتُ أفكّر. ما قاله صحيح تمامًا. كانت لديّ ذكريات قديمة ومخفيّة في هذا الوادي أكثر ممّا أجرؤ أن أتخيّل. ولم يكن للسنوات التي أمضيتها بعيدًا من هذا المكان أيّ أثر عليها: فقد وجدتُ الذكريات حيّة في كلّ مرّة عدت فيها للزيارة. كان صدى صوت أختي يتردّد عند كلّ انعطافة لنهر فروم الضيق؛ مقاطع قصيرة من أغنية تترددّ بين أشجار الزان العتيقة؛ الإحساس بيدها وهي تمسك يدي. كان سكون سطح البحيرة الصقيل كالمرآة، هو نفسه كما كان يوم عدنا من المستشفى. كان كلّ ذلك ما زال هنا. خفيًّا عن الأنظار، لكنّه حيّ في الفكر.

بقينا ممدّدين على الأرض لساعات نتبادل الحديث، وطوال الوقت، كان جزء من جسده يلامس جزءًا من جسدي. كان قلبي كالمعدن المصهور.

كان شيء ما على وشك الحدوث. كان شيء ما قد حدث. كلانا أدرك ذلك.

ثمّ وصل فرانك ليأخذ خروفه ويصلح السور. قدّم لنا زجاجة كولا وعلبة جبن تشيدر من مشترياته. قال لإيدي:

– أنا مدين لك، ثمّ غمزه ظنًّا منه أنّني لم أراه.

شربنا زجاجة الكولا كلّها، ولم يبقَ من علبة الجبن سوى الفتات. تساءلت في سرّي عمّا إذا كانت صديقة روبن الجديدة – التي في ما يبدو اصطحبته في موعد غراميّ إلى محلّ لبيع العصير – سبق لها أن شربت كؤوسًا عدّة من مشروب التفّاح، واسترخت في حديقة حانة مع رجل غريب، ثمّ تناولت وجبة خفيفة من الكولا والتشيدر. ثمّ استدركتُ أن الجواب لا يهمّني البتّة.

شعرت بأنّني في مكان مألوف حميم. ليس لأنّني مع إيدي فقط، ولكن لأنّي هنا في هذا الوادي، حيث ترعرعت. شعرت، ولأوّل مرّة مذ كنت شابّة، بأنّني موجودة حيث أنتمي.

أخيرًا، برد جوّ وادينا السرّي عندما مالت الشمس الحارقة وغابت عن العالم. عبَر ثعلب موقف السيّارات في ضوء الغروب. كانت مجموعات صغيرة من الناس تأتي وتذهب، وكان حفيف الأشجار الكسول يكاد يخفي قرقعة الكؤوس الهادئة وأدوات الموائد. تألّقت النجوم اللامعة في السماء القاتمة بلون الحبر.

كان إيدي يمسك يدي. وكنّا عدنا للجلوس إلى طاولتنا. تناولنا طعامًا لا أذكره، هل كان طبق لازانيا؟ كان يحدّثني عن والدته، وعن الكآبة التي تتسبّب بتدهور صحّتها. كان هو ذاهبًا مع صديق له في إجازة مدّة أسبوع إلى إسبانيا لممارسة رياضة ركوب الأمواج، وكان قلقًا لأنّه سيتركها وحدها، رغم تأكيدها له بأنّها ستكون على ما يرام.

– يبدو أنّك تهتمّ بها جيّدًا، قلت له. لم يجب، لكنّه رفع يدينا المتشابكتين وقبّل أحد أصابعي.

اقترب موعد إقفال الحانة للمرّة الثانية، ولكن، ورغم أنّنا لم نناقش الأمر، وأنّني كنت عمليًّا ما زلت متزوّجة ويُفترَض أنّني أعاني صدمة عاطفيّة عميقة، ورغم أنّني لم يسبق لي الذهاب مع رجل غريب إلى منزله – خصوصًا إذا كان المنزل يقع وسط مكان مجهول – فقد كان من الواضح، وضوح تلك الليلة الصافية، أنّني كنت ذاهبة معه إلى منزله.

سرنا يدًا بيد على ضوء هاتفي، فقد كان هاتفه معطوبًا إلى درجة أنّ مصباحه لم يعد يعمل، على طول الممرّ الصامت المحاذي للقناة، مارَّيْن بمعدّات منسيّة وبرك ماء ذات سطح أسود صقيل.

أدخلني المخزن الذي حوّل جزءًا منه إلى ورشة نجارة، وجزءًا آخر إلى مسكن له. كان يقع وسط فسحة داخل الغابة، تحفّ به أشجار الكستناء القديمة والأزهار البرّيّة التي كانت تلمع بخفوت. كانت سيّارة لاند روفر عسكريّة قديمة مركونة أمامه، ومرجة صغيرة تغمرها الظلمة؛ حدّق فيها إيدي بنظرة مشكّكة وهو يخرج مفاتيحه من جيبه. خيّل إليّ أنّني سمعته يهمس: «ستيف؟». لم أسأله.

فتح الباب وقال لي: «تفضّلي.» لم يجرؤ أحدنا على النظر إلى الآخر، لأنّ الأهم كان يحدث في تلك اللحظة بالذات، وكان كلانا يدرك أنّ الأمر كان أكبر من أن يُحصر في الساعات القليلة

الآتية فقط.

فيما كنّا نسير بين الآلات الساكنة في ورشته، شممت رائحة الخشب المقطوع حديثًا، وتخيّلت إيدي يعمل هنا: يسحج الخشب بفأرة ويضربه بمطرقة ويثبّته بالغراء وينشره. تخيّلته يصنع قطعًا جميلة من موادّ جميلة بتينك اليدين السمراوين الكبيرتين. تخيّلت يديه وهما تتحسّسان بشرتي وشعرت بالارتباك.

عبرنا بابين محكمَيْن، شرح لي أنّهما ضروريّان لمنع دخول نشارة الخشب إلى الجزء الذي يسكن فيه. ثمّ صعدنا بضع درجات أخذتنا إلى مساحة مفتوحة ترتكز على دعامات ظليلة. كانت مصابيح قديمة تملأ المكان، فيما يرافق صرير خافت كلّ خطوةٍ يخطوانها. في الخارج، كانت الأشجار تتحرّك ببطء، هالات سوداء تتمايل في الليل الحالك، وقد عبرت سحابة رقيقة أمام القمر المنير.

كنتُ في مطبخه أشرب كوبًا من الماء عندما سمعت وقع قدميه خلفي. راوحت مكاني لبعض الوقت، وأغمضت عينَيّ مستسلمةً للذّة الشعور بأنفاسه تداعب كتفي العارية. ولمّا لم أعد أقوى على الانتظار، استدرت واستندت إلى الحوض وهو يقبّلني.

الفصل السابع

أيّها الغالي،

أودّ مصارحتك بأنّني متزوّجة. لديّ شعور رهيب يدفعني إلى الظنّ بأنّك تعرف ذلك.

لم أكن أكذب عليك عندما قلت لك أنّني غير مرتبطة. والمؤكّد أنّني لم أكذب بشأن إحساسي تجاهك.

انفصلت عن روبن قبل ثلاثة أشهر. كان عجزي عن إنجاب طفل هو السبب القاطع لإنهاء العلاقة، لكنّني أعتقد أنّ كلينا كان يدرك قبل ذلك أنّنا وصلنا إلى نهاية علاقتنا. إنّها قصّة طويلة – لا تمكن روايتها في فيسبوك ماسنجر – والأمر كان صعبًا بالنسبة إليه.

شعرت بارتياح كبير عندما طلب منّي روبن الجلوس؛ كنت أعرف ما سيقوله. كلّ ما تمنّيته لو أنّ الشجاعة واتتني قبل سنوات لأقول له ذلك بنفسي. جلست في مواجهته أحمل شاحن هاتف ألفّ شريطه حول أصابعي إلى أن أخذه من يدي، ثمّ بكيت لأنّني كنت أعلم أنّه بحاجة لأن أبكي.

إيدي، هل هذه هي المشكلة؟ هل زواجي هو سبب عدم اتّصالك بي؟ إذا كان ذلك هو السبب، تذكّر أرجوك المشاعر التي جمعتنا. كنت صادقة في كلّ شيء. في كلّ قبلة، في كلّ كلمة، في كلّ شيء.

قرأت الرسالة ثلاث مرّات، ثمّ محوتها بكاملها وكتبت:

عزيزي إيدي،

لديّ شعور بأنّك اكتشفت أنّني متزوّجة. كم أودّ أن تعطيني فرصة لأشرح لك فيها القصّة بكاملها، وجهًا لوجه. أمّا الآن، أريدك فقط أن تعلم أنّني لم أعد متزوّجة. كلّ ما في الأمر أن روبن وأنا لم نحدّث الموقع الإلكترونيّ خاصّتنا. كنت – وما زلت – غير مرتبطة. أريد أن أراك، أن أعتذر، أن أشرح لك الأمر.
سارة

كان تومي ودجو وردي قد غادروا السيّارة منذ فترة. وكنت قد أمضيت قرابة نصف ساعة جاثمة في المقعد الخلفي.

أصبحتُ الآن مضطرّة إلى الترجّل منها.

الفصل الثامن

كان تومي يقف على منصّة صغيرة بائسة المظهر يتحدّث من خلال مكبّر للصوت، متظاهرًا بأنّه يجد طرافة في أصوات التجشّؤ التي كانت الأجهزة تصدرها كلّما توقّف عن الكلام.

جلت بنظري في الحضور. لماذا جاءت ماندي وكلير إلى الاحتفال اليوم؟ أليست لديهما أمور أهمّ للقيام بها؟ أليس لديهما عمل؟ أحسّست بصدري يضيق على رئتي ويحبس أنفاسي. وشعرت بأنّني لا أستطيع تحمّل رؤيتهما. ليس في هذه الفترة. ليس في الوضع النفسي الذي أنا عليه.

ظهرت دجو فجأة، وسألتني:

– كيف تسير الأمور؟

– عظيمة!

– ستجري الأمور على خير ما يرام، قالت بهدوء. حتّى وإن اضطرّ تومي لتبادل أطراف الحديث مع الحضور قليلًا، سوف ينتهي الأمر خلال ساعة في أبعد تقدير. ولن أدعك تغيبي عن نظري.

أصغينا إلى تومي بصمت بينما كان يتحدّث عن ماثيو مارتن، معتبرًا أنّه ملهم حقيقي لطلّابه... وكيف عمل من دون كلل لإعداد البرنامج... وأنّ العمل مع أشخاص مثل ماثيو مارتن يحدث كلّ الفرق...

– دجو، أنا... هل هما هنا؟

– سارة، لا أعرف، ردّت دجو بعدما تأبّطت ذراعي. فأنا لا أعرف شكليهما.

أومأت برأسي، وحاولت أن أتنفّس بعمق.

– وأنت؟ ماذا كنت تفعلين كلّ هذا الوقت؟ هل كنت مختبئة في السيّارة؟

– نعم، على الأرجح. وبعثت برسالة إلى إيدي شرحت فيها مسألة زواجي، ثمّ طليتُ وجهي بمساحيق التجميل. وها أنا الآن هنا.

تعالت موجة قصيرة من التصفيق، واستدرنا لنرى تومي يسلّم الميكروفون إلى ماثيو مارتن. كان ماثيو من أولئك الرجال الذين يمضون وقتًا طويلًا في التدريب البدني إلى درجة أنّه كان يضطرّ إلى المشي وذراعاه الضخمتان تشكّلان زاوية مع جسده. مثل طائر البطريق. عندما تبادل الرجلان موقعيهما، ربّت كلّ منهما ظهر الآخر.

– أعتقد أنّه من الأفضل أن أذهب لأنتظره، قالت دجو. فبعد خطاب ماثيو سيحين وقت تبادل أطراف الحديث مع الحضور. راقبتها تسير مبتعدة من دون أن أفلح في ردعها.

بعد بضع دقائق، جاء رودي يسير الهوينا، وهو يحمل كأس شمبانيا. قال:

– أشعر بالملل «الشديد» يا سارة.

– أعرف.

– تومي يتصرّف بغرابة.

– لأنه متوتّر بعض الشيء. أخذت منه كأس الشمبانيا، قائلة: ألا يمكنك أن تتصرّف جيّدًا ولو مرّة واحدة؟

– كلّا، أجاب مبتسمًا.

ثمّ أشار إلى مضمار للجري لم يكن موجودًا عندما كنتُ في المدرسة. كانت الحواجز مرتّبة في المسارات القريبة منّا.

– هل أستطيع القفز فوق تلك الحواجز؟ سألني.

–إذا وعدتني أنّك ستقفز فوق الحواجز المنخفضة فقط.

– رائع! ركض مبتعدًا.

بينما كنت أجول بنظري ثانية في المكان، شعرت بالذكريات البائسة تتصبّب عبر مسام جلدي كالعرق. كم كنت «أكره» ذلك المكان. كنت أكره ماثيو مارتن مهما بدت تصرّفاته صبيانيّة. لم يكن يعنيني أنّه كان مراهقًا آنذاك، فقد دفع صبيًّا إلى البكاء مرارًا وتكرارًا، وتلذّذ بالنتيجة. كان يتحدّث في تلك اللحظة وكأنّه هو من صمّم البرنامج اللعين، لا تومي.

كنت قد شربت نصف كأس الشمبانيا التي أخذتها من رودي عندما لمحت ماندي وكلير خلف الحشد. كانتا تبعدان عشرة أمتار أو أقلّ تقريبًا منّي. أشحت بنظري سريعًا عنهما قبل أن تلمحاني، لكنّني رأيت بعض التفاصيل المتفرّقة: ثوبًا باللونين الأزرق والأصفر، مزدانًا بشراريب، شريط حمالة الصدر محشورًا وسط الدهون المكدسة على الظهر. شربت ما تبقّى في الكأس، كانت ذراعاي تتحرّكان كذراعَيْ مخلوق آليّ في فيلم بدائيّ من أفلام الرسوم المتحرّكة. شعرت بأنّ حمرة متّقدة كست وجهي.

عندذاك، سمعت صوتًا يهمس قرب كتفي اليسرى:

– سارة هارنغتون، أهذه أنت؟

استدرت لأجد نفسي وجهًا لوجه مع مدرسة اللغة الإنكليزيّة، السيّدة راشبي. كان شعرها قد شاب، لكنّه ما زال معقوصًا بتلك اللفّة الأنيقة التي كنّا جميعًا نحاول تقليدها أحيانًا في سنوات الدراسة.

– آه، مرحبًا! همستُ.

كان صوتي يشي بالهستيريا. ومن دون سابق إنذار، عانقتني بحرارة.

– كنت أودّ فعل ذلك منذ سنوات، لكنّك غادرتنا إلى أميركا. كيف أحوالك سارة؟ وما أخبارك؟

– عظيمة! كذبت. وأنت؟

– أحوالي جيّدة، شكرًا. ثمّ أضافت: لقد سررت جدًّا عندما سمعت أنّ أحوالك جيّدة. كنت فعلًا أتمنّى أن تحقّقي نجاحًا في كاليفورنيا.

تأثّرت لسماع ذلك. ليس لأنّها كانت تتمنّى لي السعادة فحسب، بل لأنّها كانت تتذكّرني أصلًا. لكنّني تذكّرت أيضًا أنّني لم أكن طالبة عاديّة عندما غادرت المدرسة.

بفضل السيّدة راشبي، شعرتُ ببصيص ثقة فصلني عن الحشد. ورحت أروي لها بعض النوادر، وفرحت بشكل مثير للشفقة عندما ضحكَت هي. تساءلت هل يفقد الإنسان رغبته في إثارة إعجاب مدرّسته المفضّلة؟ مرّ أكثر من تسع عشرة سنة مُذ كنت في صفّها أدرس اللغة الإنكليزيّة، ومع ذلك، ها أنا ذا أحاول إبداء ملاحظات طريفة ذكيّة حول مآسي الانتقام.

غيّرت السيّدة راشبي الموضوع مشكورة، عندما اكتشفت أنّني لم أستطع أن أتذكّر اسم جون وبستر. أخبرتني بأنّها شاهدت تقريرًا إخباريًّا حول الجمعيّة الخيريّة التي كنت أديرها عندما ذهبت مع عائلتها إلى كاليفورنيا لتمضية عطلة. «كان التقرير حول الترفيه عن الأطفال في المستشفيات، أليس كذلك؟ مهرّجون؟»

شعرت بالاسترخاء عند انتقال الحديث إلى مجال أعرف عنه أكثر: العمل. شرحت لها، كما سبق لي أن فعلت آلاف المرّات، أنّ البرنامج اسمه «الأطبّاء المهرّجون». وهم ليسوا بمهرّجين. بل أشخاص تدرّبوا على دعم الأطفال، وعلى تحويل تجربتهم في المستشفيات أمرًا عاديًّا، وعلى جعْل جَوّ المستشفيات يبدو أقلّ رهبة.

بينما كنت أتحدّث، ألقيت نظرة على ماندي وكلير خلف الحشد. كانت كلير هي صاحبة الثوب الأزرق والأصفر المزيّن بالأهداب؛ أمّا الظهر المكتنز فقد كان ظهر ماندي. كان جسدها الصغير النحيل قد اكتسب ثلاثين كيلوغرامًا في الأقلّ منذ أيّام المدرسة، وهو أمر كنت في تلك الأيّام أصلّي لكي يحصل. أمّا في تلك اللحظة فلم أشعر بشيء. نظرتْ إليّ متفحّصة، ثمّ أشاحت بنظرها عنّي بسرعة.

اعتذرت منّي السيدة راشبي وذهبت لإعطاء شيء ما لمدرِّسة أخرى. شربت ما تبقّى من كأس الشمبانيا التي أحضرها رودي. في تلك اللحظة، انطلق جرس الإنذار عند تقاطع السكّة الحديد – الصوت الذي لم أسمعه منذ سنوات – من مسافة بعيدة. شعرت ثانية بأنّني أعود إلى منتصف التسعينيّات. مراهقة تشقّ طريقها بصعوبة بين القلق والغرور العاطفي، وقد استنفد قواها الجهد الذي تبذله لمجرّد العيش. كانت تسعى جاهدة، بجوربيها المنسولين والمحاولة الواهية لرسم ابتسامة العارف على وجهها، لكسب ودّ ماندي لي وكلير بيدلر.

كانت السيّدة راشبي لا تزال منشغلة، وأحسست بأنّني أصبحت مكشوفة، فلجأت إلى تفقّد الرسائل في فيسبوك خاصّتي. تظاهرت بأنّني مشغولة ومستغرقة في التفكير، كأنّني أردّ على بريد إلكترونيّ مهمّ خاصّ بالعمل.

لم أجد أيّ رسالة من إيدي.

أعدت هاتفي إلى مكانه، وشرعت أراقب رودي الذي كان يتفحّص حاجزًا بعيدًا ضخمًا. ناديته، محذّرة: «رودي، إيّاك!» قلّدت حركة الذبح على رقبتي.

– أستطيع القفز فوقه، أجابني بصوتٍ عالٍ.

– كلّا.

– بل أستطيع.

– رودي أوكيف، إذا اقتربت مترًا واحدًا إضافيًّا من ذلك الحاجز، فسأخبر والدتك بأنّك تستخدم كلمة السرّ الخاصّة بها.

حدّق فيّ من دون أن يصدّق حرفًا مما قلت. مستحيل أن تتصرّف الخالة سارة بهذا القدر من الدناءة.

لكنّني أصررتُ على موقفي. الخالة سارة ستتصرّف بمنتهى الدناءة من دون أيّ شكّ.

عاد غاضبًا إلى الحواجز الصغيرة، ولاحظت أنّ شخصًا ما كان يراقبه من بقعة العشب الموجودة وسط المضمار، شخصًا نحيلًا ذا هيئة صبيانيّة، يرتدي بنطال جينز فضفاضًا ومعطفًا مطريًّا بلون الكاكي. كانت طاقيّة المعطف تلفّ رأسه، رغم أنّ السماء لم تكن تمطر. هل كان طالبًا في الصف السادس؟ مصوّرًا؟ بعد ثوان، لاحظت أنّ نظره لم يكن موجَّهًا نحو رودي، بل نحو الجزء الذي أقف فيه أنا من الملعب. والواقع أنّه بدا، للغرابة، أنّه ينظر «إليّ»، فقد استدرت، ولم يكن قربي سوى السيّدة راشبي ومدرِّسة أخرى.

أنعمتُ النظر، هل كان رجلًا أم امرأة؟ لم أستطع أن أميّز. راودتني للحظة فكرة أنّه ربّما كان إيدي، لكنّ إيدي كان أضخم من هذا الشخص وأطول قامة منه بكثير.

استدرت ثانية لأتأكّد من عدم وجود أي شخص يمكن مراقبته. لم يكن هناك أحد. فجأة بدأ الشخص يسير مبتعدًا في اتّجاه بوّابة جديدة تقود إلى الطريق العام.

عادت السيّدة راشبي، وقالت لي:

– آسفة سارة! أخبريني الآن، كيف حال زوجك؟ أتذكّر أنّني رأيته في التقرير التلفزيوني. بدا لي آنذاك شخصًا موهوبًا جدًّا.

نظرت خلفي مرّة أخيرة، رأيت الشخص ذا المعطف الكاكي يفعل الشيء ذاته. كان ينظر إليّ أنا! أنا بالتحديد. بعد أقلّ من ثانية أدار رأسه، وسار مغادرًا حرم المدرسة.

تصاعد أنين حافلة كهربائية تعبر الشارع الرئيسي. وبرزت من خلف الغيوم أشعّة الشمس الشاحبة. دهمني شعور بعدم الارتياح. من كان هذا الشخص؟

لاحظت الحزن على ملامح السيّدة راشبي، عندما أخبرتها أنّني انفصلت عن روبن أخيرًا. فكّرتْ في أنّ الناس سيستغرقون بعض الوقت للاعتياد على الفكرة. فقلت لها:

– على رغم انفصالنا، ما زلنا ندير الشركة سويًّا. كان انفصالًا وديًّا بين شخصين ناضجين.

– أنا آسفة، بادرتني وقد شبكت ذراعيها بخجل. ما كان ينبغي لي السؤال.

– لا أبدًا، لا داعي للأسف.

تمنّيت لو كان في وسعي أن أشرح لها كم كان الحديث عن روبن سهلًا بالنسبة إليّ، إلى حدّ يثير الحرج. لماذا كان ذلك الشخص الذي يعتمر الطاقيّة يراقبني؟ هذا ما كنت أودّ معرفته.

– سارة، أنا واثقة في أنّك ستجدين السعادة مع شخص آخر، قالت السيّدة راشبي.

– آمل ذلك. ثمّ وجدت نفسي، ولشدّة ذعري، أضيف: في الواقع، هناك شخص آخر، لكن... الوضع معقّد.

كان واضحًا أنّ السيّدة راشبي جفلت لدى سماعها ذلك. قالت بعد أن صمتت قليلًا:

– حسنًا. يا إلهي.

ماذا دهاني؟ كانت تلك أوّل تجربة لي في حوار عادي منذ أسابيع! تنهّدتُ وقلت:

– أنا آسفة. أبدو أشبه بأحد طلّابك في المرحلة الثانويّة.

– الحبّ لا يعرف عمرًا يا سارة. قالتها بلطف وقد ابتسمتْ. لا أذكر لمن هذا القول، لكنّني أجده تمامًا على حقّ.

لم أعرف ما أقول لها، فاعتذرتُ ثانية.

– سارة، لو لم تكن لدينا كتابات عمرها آلاف السنين تتحدّث عن عذابات الحبّ وما ينتج عنه من شكّ في الذات وفقدانها، لكنتُ أنا الآن عاطلة من العمل.

فكّرت بتعاسة أن الأمر صحيح. تلك كانت الفكرة. فقدان الذات. كيف يمكنني أن أعترف بأنّني أفضّل فكرة موت إيدي على احتمال أن يكون قد بدّل رأيه بكلّ بساطة؟ وحده شخص غير متّزن يمكن أن يفكّر هكذا.

اشتقت إلى سارة ماكيه. كانت إنسانة «سويّة». كانت...

– آه!

استدرت بسرعة. لا بدّ أنّ رودي جرّب القفز فوق الحاجز العالي. كان مكوّمًا على الأرض، وهو يمسك ساقه بشدّة.

قالت دجو وسط الصمت الذي أعقب ذلك:

– اللعنة!

ركضتْ نحوه. وفجأةً، أصبح كلّ الآباء والأمّهات، وكلّ المدّرسين والصحافيّين المحلّيّين، وكلّ الفريق الرياضي الخاصّ بماثيو المؤلَّف من أحداث – وحتّى ماثيو نفسه – جبهة واحدة تطلق سهام اللوم المسمومة إلى أرض الملعب. من هي تلك المرأة التي حضرت مع تومي؟ لماذا لم يكن ابنها في المدرسة؟ ولماذا كانت تتفوّه بالشتائم البذيئة؟

– جميل حقًا.

قالتها إحدى النساء الموجودات. كانت ماندي لي. أستطيع تمييز صوتها من بين مئات الأصوات.

هرعت إلى حيث كان رودي مكوّمًا وهو يصرخ من الألم، وساعدت دجو على فحص ساقه.

– ماما، قال باكيًا. لم أسمعه منذ سنوات يناديها ماما. حاوطته دجو بجسدها وهي تقبّله وتعده بأنه سيكون بخير. اقترب منها رجل طويل القامة ذو ملامح حادّة، وقدّم نفسه بأنّه مُسعِف.

– اسمحي لي بفحصه رجاءً.

علا عويل رودي يصمّ الآذان. لم يكن هذا الصبيّ يتعرّض لحوادث بسيطة.

بعد أن نقلت دجو ابنها في سيّارة أجرة إلى وحدة الإسعاف في مستشفى ستراود، ذهبتُ خلسة إلى الحمّامات في محاولة بائسة لأتمالك أعصابي.

تحسّست جدار مقصورة المرحاض، وأنا أعلم أنّ اسمي كان محفورًا عليه، تحت طبقات الطلاء الكثيرة، إلى جانب اسمَيْ ماندي وكلير وبعض الكلمات المعبّرة التي تؤكّد أنّه لا يمكن أحدًا أن يفرّق بيننا أو يدمّر صداقتنا. والواقع أنّ الأمر كان مثيرًا للسخرية، إذ إنّه لم تمضِ بضعة أيّام من تدوين التزامنا هذا على جدار المرحاض، حتّى قرّرت الفتاتان طردي من المجموعة في ذلك اليوم، وانتهى بي الأمر إلى تناول غدائي في المقصورة نفسها. كان الجوّ ماطرًا في الخارج؛ ولم

يكن لدي مكان آخر أذهب إليه. تذكّرت التعاسة التي اجتاحتني عندما أحدثَ كيس الرقّاقات خشخشة وانحنت فتاة – لم تكشف نفسها قطّ – تتلصّص من تحت الباب لمعرفة ما كنت أفعل.

ضغطت زرّ خزّان المرحاض وتدفّقت المياه. كنت أفكّر في الشخص الذي كان يراقبني قبل قليل من تحت طاقيّة معطفه. من كان يعرف أنّني في ستراود اليوم، عدا إيدي؟ هل كان – أو هل كانت – تراقبني فعلًا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا؟

تفقّدت ماسنجر قبل مغادرة الحمّام، لم أجد رسالة من إيدي. ما زال غائبًا لم يسجّل حضورًا في الشبكة منذ لقائنا الأول. خطر لي أنّه ربّما كانت دجو على حقّ. ربّما يجب أن أكتب رسالة في صفحته موجَّهة إلى جميع أصدقائه فيها. كان الأمر الوحيد الذي يمنعني هو الخوف ممّا قد يظنّه الناس بي. ممّا قد يظنّه إيدي بي. ولكن، إذا كنت واثقة إلى الحدّ الذي أدّعيه في أنّه أصيب بمكروه، فإنّ هذا الاعتبار يجب أن يكون آخر همّي.

بدأت الفكرة تروق لي.

لكنّ الجواب كان: كلّا! الأمر ليس بهذه البساطة. السبب الذي يمنعني من الكتابة في صفحته هو...

هو «ماذا»؟

كان عليّ أن أكتب شيئًا. إذا كان إيدي يذوي داخل حفرة ما، وإذا كان فعلًا قد غرق في مياه مضيق جبل طارق، فإنّني كنت أتصرّف بلا مبالاة.

فتحت صفحته في فيسبوك، أخذت نفسًا عميقًا، وكتبت:

هل رأى أحدكم إيدي مؤخّرًا؟ أحاول الاتّصال به منذ فترة من دون جدوى. بدأ القلق ينتابني. الرجاء إعلامي إذا وصلتكم أخبار عنه. شكرًا.

وقبل أن تُتاح لي فرصة التوقّف، ضغطت زرّ الإرسال.

فجأةً، امتلأ الحمّام بأصوات لم تكن قد غابت عن ذاكرتي. ثرثرة صاخبة، أصوات فتح حقائب مستحضرات تجميل، أعواد مسكرة وهي تدخل وتخرج من الأنابيب. نساء يتكلّمن وأفواههنّ معوجّة بفعل وضع أحمر الشفاه. كنّ يطلقن ضحكات عالية لأنّهنّ يتبرّجن أمام مرايا الحمّام نفسه بعد مضي كلّ تلك السنوات. ابتسمت أنا رغمًا عنّي.

– هل رأيتنّ سارة هارنغتون؟ سألت إحداهنّ. وجودها مفاجئ.

ثمّ سمعت صوت ماندي تقول:

– أعرف أنّها مفاجأة. مجرّد حضورها إلى هنا، هكذا بكلّ بساطة، يتطلّب شجاعة كبيرة.

تمتمت الأخريات موافقات.

– هل يمكنني استعارة المسكرة؟ لقد تكتّل محتوى الأنبوب خاصتي.

أصوات فتح الصنابير وإغلاقها؛ صوت مجفّف الأيدي المعطّل كما كان دائمًا.

– إن شئتنّ الصدق، قالت كلير، لقد خاب أملي لدى رؤيتها. صمتت الباقيات. كنت أرغب في تمضية يوم لطيف، أدعم فيه ماثيو، تفهمن ما أقصد؟

«تفهمن ما أقصد». لقد ردّدت هذه العبارة كثيرًا لكي أشعر بالانتماء إلى هذه المجموعة في فترة ما من حياتي.

– طبعًا، لديها الحقّ في المجيء إلى هنا كأيّ شخص آخر، أردفت ماندي. لكنّ الأمر يبدو... صعبًا. بالنسبة إلينا في الأقلّ.

وافقتها كلير الرأي.

– تظاهرَتْ في البداية أنّها لم ترني، أسرّت لهنّ ماندي. وفعلت أنا الشيء نفسه. وهذا ما ينبغي عليك القيام به كلير إذا كان الموقف يوتّر أعصابك.

هكذا كانت ماندي تتصرّف أيّام المدرسة لتكرّس شعبيّتها. «فلنتجاهل كلير غدًا. فلنزوّر بعض بطاقات الهويّة. إلّا بطاقتك يا سارة، فأنت لا تبدين في سنّ تؤهّلك لذلك.» تابعتْ كلامها:

– لديّ ما يكفيني من المشاكل حاليًّا، لا يوجد متّسع في تفكيري لسارة هارنغتون.

المزيد من تمتمات الموافقة. بعد ذلك، قالت كلير باستخفاف:

– يبدو تومي ستينهام على ما يرام. ألا تعتقدن ذلك؟

كانت بارعة في ذلك. تذكر اسم شخص عادي في سياق الحديث – بلهجة ظاهرها بريء وباطنها جهنّمي – ثمّ تنتظر أن تستلم ماندي زمام تهشيمه.

– فعلًا، وافقتها ماندي. يبدو في حالٍ جيّدة، رغم أنّني غير واثقة في أنّ صديقته تعجبني.

كان صوتها يخفي ضحكة تهكّم.

حاولتُ أن أتنفّس بهدوء.

– هذه ليست صديقته، صحّحت كلير. صديقته محامية. رأى ماثيو صورتها. وهي في ما يبدو أجمل بكثير من تلك المرأة أمّ الطفل.

– المفاجأة الحقيقيّة هي أن يكون لديه صديقة في الأصل، أجابتها ماندي.

تعالت ضحكات متقطّعة حاقدة. فُتحت صنابير أخرى. سُحِبت مناديل أخرى، ثمّ شرعن يسردن، بسرور آثم، كلّ ما كان الصبية يقولونه عن تومي، من دون أن ينكرن خلال نوبات الضحك أنّ ذلك كان تصرّفًا بالغ القسوة، ثمّ انتقلن إلى الحديث عن طول ثوب دجو ومدى مناسبته الحدث، وعن مقاييس جسدها الضخمة، وعن الموقف المحرج الذي تسبّب فيه رودي. بدأت أغلي من الداخل. كان سماعهنّ يتحدّثن عنّي مؤلمًا بما يكفي، لكنّني كنت أتوقّعه. ولكن أن يتكلّمن عن تومي ودجو؟ كان الأمر يتخطّى طاقتي على الاحتمال.

فتحت باب المقصورة بعنف وواجهتهنّ: هذا الصفّ من النساء اللواتي بلغن السابعة والثلاثين، بشعورهنّ المصفّفة بعناية وعطورهنّ وثيابهنّ التي لن يعترفن مطلقًا بأنهنّ اشترينها خصّيصًا للمناسبة. استدرن كلّهنّ نحوي، في أيديهنّ المسكرة، وعلى شفاههنّ حمرة لمّاعة تثير الغثيان. حدّقن جميعهنّ فيّ، وحدّقت أنا فيهنّ.

لم أقل شيئًا. سارة ماكيه، تلك التي تلقي خطابات بالغة الأهميّة، وتنظّم حملات للضغط... وقفَتْ في ذلك المكان صامتة في مواجهة زميلاتها القديمات، ثمّ ولّت هاربة.

الفصل التاسع

اليوم الثامن: يوم غادرت

– كان هذا الأسبوع أفضل أسبوع في حياتي، قال لي إيدي يوم غادرت منزله.

أحببت هذا الجانب من شخصيّته. لم يكن يكتم ما يفكّر فيه؛ كان يعبّر عن أفكاره كما تخطر له من دون تنميق. وكانت تلك تجربة غير مألوفة بالنسبة إليّ، لأنّني عندما عدت إلى إنجلترا لاحظت أنّ الجميع ينمّق أفكاره قبل التعبير عنها.

أحاط وجهي بيديه الكبيرتين وقبّلني مبتسمًا. أحسست بأنّ قلبي يتّسع للعالم بأسره، وأنّ حياتي تبدأ من جديد. لم أكن قد شعرت قبل تلك اللحظة بهذه الدرجة من اليقين حيال أيّ شيء.

– أريد أن أقابل والديك، لأنّهما يبدوان طيّبين، ولأنّهما أنجباك. لكنّني مسرور أنّهما اضطرّا إلى الذهاب.

– أوافقك الرأي. مرّرت إصبعي على ذراعه.

– يبدو الأمر أشبه بمعجزة إلهيّة خارقة: كنتُ جالسًا في مرج القرية أتحدّث مع خروف، ودخلتِ أنت حياتي من دون مقدّمات، وكأنّك كنت واقفة خلف ستار المسرح في انتظار إشارة، ثمّ رافقتِني إلى الحانة، ومن ثمّ... أُعجبتِ بي. ابتسم وأضاف: أو في الأقلّ، هذا ما أظنّه.

– أُعجبتُ بك جدًّا. مددت يدي، وأدخلتها في جيب بنطاله. فعلًا، أعجبتُ بك حقًّا.

تناهى تغريد شحرور يقف على غصن شجرة خارج المنزل إلى مسامعنا. استدرنا لنستمع إليه.

– أسألك للمرّة الأخيرة، قالها وهو يقدّم لي برعم زهرة زعرور قطفها من الأصيص الموجود على حافّة نافذته. كان الربيع قد تأخّر هذا العام، وكانت الزهور المبعثرة بين الأشجار أشبه بالكريمة المخفوقة. ردّد ثانية: للمرّة الأخيرة. هل أُلغي إجازتي؟

– لا، لا تلغيها، أجبرتُ نفسي على الردّ. فتلت ساق الزهرة الهشّة بين أصابعي. وتابعتُ: اذهب وامضِ وقتًا ممتعًا. أرسل إليّ تفاصيل رحلتك، وسأكون في انتظارك في مطار غاتوِك بعد أسبوع من الآن.

– أنتِ على حقّ. يجب أن أذهب في هذه الإجازة، ويجب أن أستمتع بها فعلًا. في العادة، كنت أحلّق من السعادة لمجرّد فكرة تمضية أسبوع في مدينة ظريفة. ولكن، أستطيع الاتّصال بك، أليس كذلك؟ أعني من إسبانيا؟ لا أكترث للتكاليف. أعطني رقم هاتفك النقّال وأرقام هواتف كلّ من يمكن أن تكوني في جوارهم إلى أن أراكِ ثانية لدى عودتي. يمكننا أيضًا التواصل عبر فيستايم أو سكايب، وتبادل الحديث.

ضحكتُ، ودقّقت النظر بين شقوق هاتفه لأضيف رقمي في ذلك الجهاز المعطوب. قلت وأنا أضع ساق الزهرة الصغيرة على حافّة النافذة:

– يبدو هاتفك وكأنّ جرّارًا زراعيًّا مرّ فوقه.

– أضيفي أيضًا رقم الهاتف الأرضي في منزل والديك، ورقم الهاتف الأرضي في الشقّة التي تقيمين فيها في لندن. ما اسم صديقك؟ تومي؟ أضيفي عنوانه أيضًا لكي أرسل إليك بطاقة بريديّة. رغم أنّك ستذهبين أوّلًا إلى ليستر لزيارة جدّك، أليس كذلك؟

أومأت بالإيجاب.

– إذًا، أعطني رقم هاتفه وعنوانه أيضًا.

– صدّقني، ليس في مصلحتك أن تجد نفسك تتحدّث بالهاتف مع جدّي، أجبته وأنا أضحك.

أعدت الهاتف له.

– سأضيفك إلى قائمة أصدقائي في فيسبوك أيضًا. فتح صفحة فيسبوك الخاصّة به، وأضاف اسمي. سألني: هل هذه صورتك وأنت واقفة على شاطئ البحر؟

– نعم، هذه أنا.

– تبدين امرأة كاليفورنيّة حقيقيّة. نظر إليّ، شعرت بمعدتي تغور. فأردف: سارة ماكيه، أنت امرأة جميلة.

انحنى وقبّل كتفي بهدوء. انتقل ببطء إلى ثنية مرفقي وقبّلها. عاد إلى أسفل عنقي وقبّل ضربات نبضي المتسارعة. رفع شعري وقبّل فقرات ظهري، الواحدة تلوَ الأخرى.

– تفقدينني صوابي، همس في أذني.

أغمضت عينيّ وتنشّقت رائحته. رائحة جسمه، رائحة ثيابه، الصابون الذي كنّا نستحمّ به. لم أستطع أن أتخيّل العيش من دون كلّ ذلك سبعة أيّام. وعلى الرغم من حبّي السابق لروبن، لم أشعر مطلقًا بأنّ انفصالي عنه سيكون يومًا مسألة حياة أو موت.

ضممته بقوّة، واعترفت له:

– هذا شعوري نحوك أيضًا. أعتقد أنّك تدرك ذلك. سوف أشتاق إليك. كثيرًا.

أزاح شعري عن وجهي وقبّلني مجدّدًا. قال:

– سوف أشتاق إليك أنا أيضًا. عندما أعود، سأعرّفك إلى أصدقائي وإلى والدتي.

– رائع.

– وأودّ مقابلة والديك، وأصدقائك البريطانيّين، وجدّك المخيف، إذا قُدِّر له أن يأتي للإقامة هنا.

– بالطبع.

– وسوف نقرّر ما سنفعل بعد ذلك، سنتوصّل إلى قرار يجمع بيننا بطريقة ما، في مكان ما.

– طبعًا، أنا وأنت والفأرة. دسست يدي ثانية في جيبه، وعثرت على حمّالة المفاتيح الخشبيّة الصغيرة.

صمت هنيهة، ثم اقترح:

– خذيها. سحب منها المفاتيح. قال: حافظي عليها حتّى أعود. أشعر دائمًا بالخشية من أن أفقدها على شاطئ البحر. فهي تعني الكثير بالنسبة إليّ.

– كلّا، لا يمكنني أخذ فأرتك الجميلة! لا تكن أحمق!

– خذيها، أصرّ قائلًا، هكذا نعاود رؤية بعضنا البعض على الأكيد.

وضع الفأرة في راحة يدي. نظرت إلى عينيها الفاحمتين، ثمّ إلى عيني إيدي.

أطبقتُ أصابعي على الفأرة وقلت:

– سآخذها إذًا، طالما أنّك واثق في ما تقول.

– أنا واثق.

– سوف أعتني بها جيّدًا.

تبادلنا قبلة طويلة. كان إيدي يستند إلى عمود الدرج العلوي وهو يضمّني بقوّة إلى صدره، وأنا ممسكة بالفأرة. كنّا اتّفقنا على ألّا يرافقني إلى الباب ليودّعني. كان الفراق سيبدو نهائيًّا هكذا، أشبه بفراق حقيقي.

– سأتّصل بكِ في وقت لاحق اليوم. لا أدري في أي وقت، لكنّني سأتّصل. أعدك بذلك.

ابتسمت. كانت بادرة لطيفة منه أن يعي وجود ذلك الخوف الدفين المقرف الذي يثيره انتظار مكالمة لا تأتي. لكنّني كنت أشعر بأنّه سيتّصل. كنت واثقة في أنّه سيفعل كلّ ما وعدني به.

– وداعًا! قال وهو يقبّلني مرّة أخيرة. أخذت ساق الزهرة ونزلت الدرج، التفتُّ إليه عندما بلغت أسفله.

– لا تنظر إليّ وأنا ذاهبة. دع الأمر يبدو أنّني غادرت فجأة لشراء حليب أو أيّ شيء آخر.
ابتسم وقال:
– كما تشائين. وداعًا سارة ماكيه. أراك إذًا بعد بضع دقائق، مع الحليب أو مع أيّ شيء آخر.
وقفنا هنيهة نتبادل النظرات. ضحكت لسبب واحد: كنت سعيدة فعلًا. ثمّ خطر لي: هيّا قوليها. قوليها حتّى لو بدا الأمر جنونيًّا، وإن لم تتعارفا إّلا منذ أسبوع فقط. قوليها!
كان هو من قالها. انحنى فوق عمود الدرج وشبك ذراعيه واعترف لي:
– سارة، أعتقد أنّني وقعت في غرامك. هل تجاوزت حدود المقبول؟
– قطّ. إنّما هذا رائع، همست.
كلانا ابتسم. كنّا قد عبرنا لحظة اللاعودة.
بعد لحظات بدت ساعات، أرسلتُ إليه قبلة في الهواء وخرجتُ بهدوء لأواجه ضوء الصباح المشرق.

الفصل العاشر

غاليتي،

كم افتقدتك اليوم يا شقيقتي الصغيرة.

أفتقد ابتسامتك الشقّيّة والحلويات المصنوعة بالحليب التي كنت تبتاعينها من مصروفك. أفتقد لوحة المفاتيح التي كانت لديك عندما كنتِ صغيرة، اللوحة التي كانت تبدأ بعزف ذلك اللحن الذي يبعث الجنون عندما تضغطين الزرّ الأصفر. كنت تتظاهرين بأنّك تعزفين اللحن بنفسك وتضحكين طويلًا ضحكات صاخبة ظنًّا منك أنّك تخدعينني.

أفتقد العثور على دليل يُشعِرني بأنّك قد عبثتِ بمحتويات غرفتي عندما كنت غائبًا. أفتقد الطريقة التي كنت تمرغين بها حوافّ الخبز بالمربّى كي تشعري بطعمه في كلّ لقمة تقضمينها.

أفتقد غطيط نومك. كنت أحيانًا أُوقِف انشغالي بشؤون المراهقة المقلِقة وأنصت أمام باب غرفتك لأسمع صوت أنفاسك تتردّد بهدوء بينما النجوم التي تكسو سقف غرفتك، وأستمع لحفيف غطاء سريرك الذي رُسِمت عليه مركبة فضائيّة، والذي أصررتِ على شرائه رغم قول البائع في المتجر أنّه للصبيان.

آه يا قنفذتي، كم أفتقدك.

أموري ليست على ما يرام في هذه الأيّام. لا أدري ما أفعل بنفسي، أشعر بأنّني أفقد عقلي.

آمل ألّا أفقده، ما رأيك؟

في أيّ حال، أنا أحبّك. دائمًا. آسف لأنّني لم أجد شيئًا أكثر بهجة لأقوله لك.

أنا

أعانقك وأقبّلك

الفصل الحادي عشر

«إذا تعذّر عليكم الاتّصال بي على هاتفي الجوّال، قد أكون في ورشتي في غلوسترشير». كان هذا هو النصّ المكتوب في صفحة إيدي الإلكترونيّة.

«ديكور الورشة بسيط: هناك مدفأة تعمل على الحطب، وغلّاية ماء هوائيّة المزاج، وطاولة مكتب. هذا كلّ ما لديّ من وسائل الرفاهية. ولكن لديّ هاتف للاستعمال في حال تعرّضي لهجوم من دببة أو لصوص. حاوِلوا الاتّصال بي على الرقم 01285...

وضعتُ إشارة على الرقم. ظهرت رسالة على هاتفي: هل أتّصل؟.

سمعت صوت دجو آتية من المطبخ:

– سارة، هل يمكنك تذوّق هذا الحساء؟

– أنا آتية! قلت وأنا أضغط زرّ «اتّصال».

راح الهاتف يرنّ، فارتفع مستوى الأدرينالين في جسدي بجنون وصار يضغط على جلدي كالغاز داخل بالون منفوخ إلى حدّ الانفجار. استندت إلى الجدار متمنّية لو أنّه لا يجيب، لو أنّه يجيب. كنت أتساءل ماذا سأقول له إذا تسنّى لنا أن نتحدّث، وأتساءل ماذا سأفعل إذا لم يتسنّ لنا ذلك.

«مرحبًا. إيدي ديفيد النجّار يتكلّم. آسف أنا لست هنا لأردّ على مكالمتكم. الرجاء ترك رسالة وسأعاود الاتّصال بكم في أسرع وقت ممكن، أو يمكنكم محاولة الاتّصال عبر هاتفي الجوّال. وداعًا!»

أقفلت الخطّ. ضغطت زرّ خزّان المرحاض فتدفّق الماء. تساءلت عمّا إذا كان سيتوقّف عن الجريان.

* * *

اعتدت تمضية شهر يونيو في إنجلترا منذ تسع عشرة سنة. وكنت عادةً أمضي ثلاثة أسابيع في غلوسترشير مع والدَيّ، وأسبوعًا في لندن مع تومي. كانت لندن قريبة من غلوسترشير، حيث كان هذا الترتيب ملائمًا. ولكن، تبيّن أنّ هذه المرّة كانت الرحلة مختلفة تمامًا. فقد منع عجزُ جدّي التامّ عن الحركة والدي ووالدتي عن العودة. كان الاثنان عالقين في ليستر التي تبعد ثلاث ساعات، يقسّمان وقتيهما بين العناية بجدّي، ومحاولة عدم قتله، والبحث عن شخص يعتني به من دون أن يقتله. كانا يمضيان كلّ لحظة فراغ في الحديث معي بالهاتف. قالت لي أمّي ذات يوم بصوت ينمّ عن تعاسة:

– نحن حزينان لأنّنا نقيم في مكانين متباعدين. هل يمكنك البقاء مدّة أطول قليلًا؟

وافقت على البقاء مدّة أسبوعين إضافيّين، وأجّلت رحلتي إلى الثاني عشر من يوليو. كنت وعدت روبن أنّني سأبدأ العمل من بُعد فور انتهاء إجازتي، ولكي أجبر نفسي على الوفاء بوعدي، قبلت دعوة لإلقاء خطاب في مؤتمر حول طرائق رعاية المرضى وتهدئة مخاوفهم، نظّمه المؤتمن البريطاني الوحيد في جمعيّتنا.

ظللت أقيم في لندن إلى حين استئنفت العمل. فقد كانت فكرة الإقامة في منزل والدَيّ الخالي – الذي يبعد كيلومترًا ونصف فقط من بيت إيدي – أفظع من أن تخطر في بالي. كانت زويه غائبة معظم الوقت، وبالتالي كنت وحدي مع تومي: وهذا تمامًا ما كنت بحاجة إليه.

لكنّ سيّدة المنزل عادت بعدما شاركت في طاولة مستديرة حول قوانين التكنولوجيّات نظّمها الاتّحاد الأوروبي. بدت مرهقة ولكن نظيفة ومرتّبة، وهي تقف في قميص حريري من دون أكمام أمام طنجرة المعكرونة، تحرّك ما أعددتُه لها لمناسبة عودتها إلى بيتها.

كنت أنظر إليها وأنا أحوم مرتبكة عند الباب. كانت واحدة من أولئك النساء اللواتي لا يحتجن إلى ارتداء مئزر داخل المطبخ، حتّى عندما يرتدين الحرير. كانت زويه ماركام امرأة تتّسم بالدقّة والاقتصاد. لم تكن تقتصد في كلامها فحسب، بل في حركة جسدها أيضًا. فقد كانت لا تشغل سوى حيّز ضئيل من المكان. والواقع أنّه لولا تصرّفاتها مع تومي خلال السنة الأولى من علاقتهما، لما كنت استطعت أن أصدّق أنّنا ننتمي إلى النوع البشري نفسه. فقد كانت آنذاك تتصرّف كما يتصرّف كلّ الناس بشكل يبعث على الطمأنينة؛ كانت لا تكفّ عن لمسه، وتجبره دومًا على التقاط صور عاطفيّة معًا بالهاتف، بل إنّها استأجرت مصوّرًا محترفًا لالتقاط صور لهما خلال تمارينهما الرياضيّة سويًّا.

رفعت نظرها عن الإناء وقالت:

– سارة، أنت هنا؟ لقد أنقذتُ العشاء. ابتسمت لي ابتسامة ذكّرتني بالكريم البارد الخاص بتنظيف البشرة.

دار في خلدي في تلك اللحظة أنّه لا يمكننا معرفة ما يفَعَل الآخرون خلف الأبواب المغلقة، لكنّ فكرة اختباء زويه في الحمّام للاتّصال هاتفيًّا بورشة رجل في الساعة الثامنة مساء، رغم أنّه يتجاهلها منذ ثلاثة أسابيع، دفعتني فجأة إلى الضحك.

ورغم أنّ تومي لم تكن لديه أدنى فكرة عن السبب الذي دفعني إلى الضحك، إلّا أنّه شاركني فيه، فقد كان في تلك الأمسية متوتّر المزاج.

جلست زويه هادئة كتمثال رخاميّ بينما كنت أقدّم الطعام. كانت تراقبني بنظرة فارغة. كانت تلك إحدى الخصال التي تُشعرني بالاضطراب الشديد في حضورها. الصمت. «المراقبة» اللعينة طوال الوقت! (أخبرني تومي ذات يوم بأنّ هذه السمة تجعل منها محامية ناجحة. قال لي: «لا تفوتها شاردة ولا واردة»، وكأنّ هذه الخصلة ينبغي الاحتفاء بها في الحياة الواقعيّة.)

– سمعت أنّك تعانين بسبب رجل، قالت.

– لا أعتقد أنّ كلمة معاناة هي التعبير المناسب، ردّت دجو بسرعة. فهي لنقل... مشوّشة الفكر بعض الشيء.

حدجت زويه دجو بنظراتها، وظلّت صامتة.

والواقع أنّني فوجئت بقدوم دجو تلك الليلة. فهي لم تكن تحبّ زويه، ولم تكن في وارد التظاهر بعكس ذلك. (لم أكن أنا أيضًا أحبّ زويه، لكنّني أقنعت نفسي بالاستمرار في المحاولة. فزويه كانت قد فقدت والديها في حريق محطّة كينغز كروس العام 1987، وبالتالي تتوجّب علينا مسامحة الأشخاص ممّن لديهم عذر من هذا النوع.)

وضعت زويه خصلة من شعرها الأشقر الفاتح خلف أذنها، وقالت:

– إذًا، ما الذي يحصل؟

– القصّة كما رواها لك تومي على الأرجح، شرحتُ لها. أمضينا أسبوعًا معًا. كان أسبوعًا... لنقل، أسبوعًا مميّزًا. ذهب في إجازة، قال لي أنّه سيتّصل بي قبل أن تقلع طائرته، لكنّه لم يتّصل، ولم أتلقّ منه أيّ خبر منذ ذلك اليوم. وفي اعتقادي أنّه أصيب بمكروه.

قطّبت حاجبيها قليلًا، وسألتني:

– مكروه من أيّ نوع؟

ارتسمت على وجهي ابتسامة واهية، وقلت:

– لقد دفعت بتومي ودجو إلى الجنون بسبب نظريّاتي. ولا داعي لتكرارها ثانية.

– لا أبدًا هارنغتون، أردف تومي. نحن مثلك نشعر بالحيرة.

وافقتْه دجو الرأي، رغم أنّها لم تكن محتارة على الإطلاق، ولكنّها لم تستطع إجبار نفسها على مجاراة زويه.

– هذا لغز محيّر، بادرت دجو. كتبت سارة رسالة في صفحته في فيسبوك تسأل عمّا إذا كان أحد ممّن يعرفونه تلقّى منه اتّصالًا، مع ذلك لم يجبها أحد. لم يظهر في تطبيق واتساب أو ماسنجر منذ أسابيع، الصمت يلفّ وسيلات التواصل الاجتماعيّة خاصّته.

قالت زويه وهي تبتسم:

– وسائل. جمع وسيلة هو وسائل. وبحركة صغيرة بارعة من معصمها رفعت لفّة من المعكرونة من المرق في طبقها. مضغت طعامها لحظة، وهي تبدو مستغرقة في التفكير، ثمّ قالت بلهجة حاسمة: دعيه يذهب. يبدو أنّه رجل ضعيف. سارة، أنت تستحقّين رجلًا أفضل من هذا الرجل الضعيف.

تحوّل الحديث إلى التفجيرات التي وقعت في تركيا، لكنّني اكتشفت أنّ تفكيري عاد بعد بضع دقائق ليتركّز على إيدي. تساءلت في سرّي بيأس ماذا دهاني؟ ما نوع المرأة التي تحوّلتُ إليها؟ مهما فعلت، ومهما كانت خطورة الأحداث التي تدور حولي، لم أعد قادرة على التركيز إلّا على موضوع واحد.

كانت الفكرة التي تدور في ذهني من دون توقّف، هي أنّه ربّما كان عليّ بدء نسيانه. ربّما كان عليّ تقبّل فكرة أنّه غيّر رأيه بكلّ بساطة. كانت الفكرة تشلّ كياني وتبلِّد أحاسيسي التي ترفض الاستسلام. مع ذلك، كانت قد مضت ثلاثة أسابيع مُذ تبادلنا عبارات الوداع من دون أن أتلقّى منه أيّ اتّصال. لم يردّ أحد على الرسالة التي كتبتها في صفحته في فيسبوك أطلب فيها إعطائي أيّ معلومة، بل إنّ أحدًا لم يرسل إليّ «إشعارًا باستلام الرسالة».

– ها قد شردت ثانية، قالت زويه.

– لا، لا أبدًا، كنت أفكّر في ما حدث في تركيا، كذبت وقد احمرّ وجهي خجلًا.

– كلّنا أحببنا وفارقنا من نحبّ. في الأقلّ فقدت بعض الوزن.

– ماذا؟ هل هذا صحيح؟ سألت بارتباك.

كان ذلك ممكنًا. فقد فقدت شهيّتي، إضافةً إلى أنّني أمارس رياضة الجري كلّ يوم، لأنّ هذه الرياضة تسبّب لي نوعًا آخر من الألم في الصدر أنشغل به.

– في إمكاني أن أنظر إلى أيّ امرأة على الأرض وأعرف مؤشّر كتلة جسمها، قالت زويه مبتسمةً.

لم أجرؤ على النظر إلى دجو، لكنّني كنت واثقة في أنّ الجملة الأخيرة التي قالتها زويه ستعاود الظهور في أحاديثنا لاحقًا.

– إحدى الفوائد الرئيسيّة للقلب المحطّم بسبب الحبّ هي أنّ جسمك يصبح أكثر نحولًا وقوّة. تبدين في مظهر رائع!

شبكت ساقيها الرشيقتين الممشوقتين، وتناولت قريدس من طبقها.

عندما انتهيت من جمع الأطباق، كان قد تملّكني الإرهاق. كنت مرهقة إلى درجة لم أستطع نزع الغلاف عن حبّات الشوكولاته التي أحضرتها، وكنت أنوي التظاهر بأنّني أعددتها بنفسي. مرهقة إلى درجة لم أكترث لوجود أحد، وتفقّدت صفحة إيدي في فيسبوك بينما كنت أعدّ القهوة.

وجدت نفسي في النهاية أحدّق بنظرة جوفاء في صفحته فترة وجيزة قبل أن أدرك أنّ شخصًا ما أجابني أخيرًا على طلب الحصول على معلومات. شخصان في الواقع. قرأت ما كتباه مرّة ومرّتين وثلاثًا، ثمّ خرجت من المطبخ، ووضعت هاتفي أمام تومي ليقرأ ما كُتِب.

قرأ تومي الرسائل الواردة بضع مرّات قبل أن يمرّر الهاتف إلى زويه التي قرأتها مرّة واحدة ولم تقل شيئًا، ثمّ أعطت الهاتف لدجو.

بدأت الأفكار تموج في ذهني كالإعصار.

– أعتقد أنّنا مدينون لك باعتذار هارنغتون، أعلن تومي. نظر إلى زويه التي لم تكن على الأرجح قد اعتذرت لأحد في حياتها.

شعرت بأنّ الجوّ شديد الحرارة. خلعت سترتي وأوقعتها على الأرض. شعرت بطنين في رأسي عندما انحنيت لالتقاطها. كان الحرّ شديدًا.

– هذا غريب، قالت دجو، وهي ترفع نظرها عن الهاتف. ربّما كنتِ على حقّ.

– دعكم من ذلك! الرسالتان لا تعنيان شيئًا! قالت زويه وهي تضحك.

أوّل مرّة منذ زمن طويل، احتجّ تومي على قولها.

– أنا لا أوافقك الرأي. أعتقد أنّهما تُغيّران كلّ شيء.

كان شخص لا أعرفه اسمه آلان، ولا أذكر اسم عائلته، قد ردّ على رسالتي بعد الظهر، قائلًا:

سارة، تفقّدت صفحته توًّا للسبب نفسه، وقرأت رسالتك. لقد غاب من دون إبداء الأسباب بعد أن ألغى إجازة كان من المقرّر أن نذهب فيها سويًّا قبل فترة. هل بعث لك أحد برسالة في هذا الشأن؟ أخبريني إذا عرفت أيّ شيء.

وكتب شخص آخر، اسمه مارتن، لم يذكر اسم عائلته:

كانت تراودني التساؤلات نفسها. لم يأت للعب كرة القدم منذ أسابيع عدّة. ورغم أنني أعرف بأنّه لا يمكن الاعتماد عليه للحضور، لكنّ هذا يتجاوز كلّ حدّ. يؤسفني أن أخبرك بأنّنا خسرنا الليلة 8-1. وهذا فصل مخزٍ في تاريخنا الطويل المجيد. نحن بحاجة إلى عودته.

بعد ثوان، وضع الشخص الثاني، مارتن، صورة لإيدي وكتب:

اعثروا على هذا الرجل. WheresWally#

وكتب في النهاية:

لا أستوعب أنّه لا يمكنني استخدام علامات الوقف في الهاشتاغ.

تأمّلت صورة إيدي وأنا أحمل كأسًا في يدي. همست في خوف:

– أين أنت؟ ماذا حصل؟

وسط الصمت الذي ساد، رنّ هاتفي.

كان الثلاثة يراقبونني.

تناولت الهاتف. كان رقمًا محجوبًا.

– آلو؟

كان هناك صمت. صمت بشري. ثمّ أُقفل الخطّ.

– أُقفل الخطّ، قلت للموجودين في الغرفة.

قالت دجو بعد صمت طويل:

– أعتقد أنّك على حقّ. ثمّة أمر غريب يحدث.

الفصل الثاني عشر

اليوم الثاني: الصباح التالي

كان من المفترض أن أكون تحت تأثير اختلاف التوقيت. أن أكون منهكة القوى أعاني صداعًا أليمًا؛ ألّا أودّ الاستيقاظ قبل الظهر. لكنّني بدل ذلك، استيقظت في السابعة صباحًا، وأنا أشعر بالقدرة على مواجهة العالم برمّته.

كان هنا. مستغرقًا في النوم قربي. إيدي ديفيد. بسط ذراعه ليطالني، وحطّ يده على بطني. كان يحلم. فقد كانت يده ترتجف من حين لآخر مثل ورقة شجرة في مهبّ ريح خفيفة.

كانت أهداب الستائر تتمايل مع ضوء الصباح المتسلّل بصمت عبر النافذة المفتوحة. تنشّقت نفسًا عميقًا من الهواء الآتي مباشرةً من الوادي، منعشًا مثل مياه النبع المتدفّقة. جُلْت بنظري في الغرفة. كانت الفأرة الخشبيّة تجلس جانب مفاتيح إيدي فوق خزانة خشبيّة قديمة ذات أدراج.

بالكاد كنت أعرف هذا الرجل. فقد قابلته منذ أقلّ من أربع وعشرين ساعة. لم أكن أعرف كيف يحبّ أن يأكل البيض؟ ماذا يغنّي وهو يستحمّ؟ هل يستطيع عزف الغيتار أو التحدّث بالإيطاليّة أو رسم صور كاريكاتوريّة؟ لم أكن أعلم أيّ فرقة موسيقيّة كان يفضّل أيّام المراهقة، أو لمصلحة من يمكن أن يصوّت في الانتخابات.

لم أكن أعرف إيدي ديفيد جيّدًا. مع ذلك شعرت بأنّني أعرفه منذ سنوات. شعرت بأنّه كان معي عندما كنت أركض في الحقول بصحبة تومي وهانا وصديقتها أليكس، نبني الأكواخ والأحلام. كانت مغامرة التعرّف إلى جسده ليلة أمس أشبه بالعودة إلى هذا الوادي؛ حيث كلّ شيء مألوف وصحيح. تمامًا كما تركته آخر مرّة.

قبل هذه الليلة، كان روبن الرجل الوحيد الذي عاشرته. وكان لقاؤنا الأوّل مربكًا وقصيرًا ومليئًا بالأمل. كان بمثابة ارتباط روحين ضالّتين داخل غرفة ضيوف، يعلو فيها هدير مكيّف

الهواء وصوت موسيقى اختيرت بعناية صادرة من جهاز تشغيل الأقراص. لقد كان ذلك كلّ شيء بالنسبة لنا في تلك اللحظة. لكنّنا خلال السنوات التالية، كنّا نبتسم بأسًى عندما نتذكّر كم كان ذلك اللقاء فاشلًا. أمّا ليلة أمس، فقد خلت من ذلك الشعور بالإحراج. لم تُطرح أسئلة خجولة خرقاء في غير موضعها. عضضت على شفتيّ، وأنا أبتسم بحياء لرؤية وجه إيدي النائم.

تنفّس إيدي بصوت مسموع وتمطّى، ثمّ تقلّب واقترب منّي. لم يستيقظ. مدّ ذراعه فحسب، وغمرني. أغمضت عينيّ. استرجعت في ذاكرتي ملمس بشرته على بشرتي، ثقل يده اللطيف.

بدا العالم ومشاكله المستعصية بعيدين جدًّا عنّا.

استغرقت في النوم ثانية.

عندما استيقظت، كان الوقت ظهرًا وكانت رائحة الخبز الساخن تعبق في المكان.

ارتديت إحدى كنزات إيدي وتسلّلت بهدوء من غرفة نومه إلى المساحة المفتوحة التي يمضي فيها وقته. كانت خيوط الضوء تخترق الكوى والنوافذ المغبّرة، لتلتقي ومن ثمّ تحدّد مساراتها عبر شبكة الدعامات القديمة المليئة بالمسامير والأثار والكلّابات الصدئة.

كان إيدي يجول المطبخ في الجهة المقابلة للغرفة وهو يتحدّث مع شخص بالهاتف. كانت ذرّات الطحين تتطاير فوق طاولة المطبخ التي كان يمسحها بيده الأخرى، لتتحوّل الذرّات غيمة مشرقة بفعل الضوء المنبعث من السقف. سمعته يقول:

– اتّفقنا ديريك، شكرًا لك. وأنت أيضًا. أتّصل بك قريبًا، اتّفقنا؟ وداعًا.

بعد لحظة من السكون، شغّل مذياعًا محجوبًا خلف صفّ من الزجاجات على حافّة النافذة. رنّ هاتفه ثانية.

قال، وهو يغسل فوطةً ليمسح بها طاولة المطبخ:

– أهلًا أمّي، هل وصلَتْ؟ رائع! جيّد. نعم أنا. توقّف قليلًا عن الكلام واستند إلى الطاولة، وتابع: هذا جيّد! أتمنّى لك وقتًا طيّبًا، اتّفقنا؟ سأمرّ لأراك في طريقي إلى المطار، إذا لم يُتَح لك الاتّصال بي قبل ذلك الوقت. توقّف عن الكلام ثانية. ومن ثمّ: بالطبع أمّي، اتّفقنا. وداعًا.

وضع الهاتف من يده، وذهب في اتّجاه الفرن ليتفقّد الخبز من الباب الزجاجي.

– مرحبًا، قلت في النهاية.

– آه! مرحبًا! استدار، ثم قال: سيجهز الخبز قريبًا! كان ينظر إليّ وقد أشرق وجهه بابتسامة، تساءلت في سرّي عمّا إذا كان ذلك مجرّد حلم تحت تأثير مخدّر، أو محاولة يائسة للهروب من الإرهاق المبتذل الذي تسبّبه إجراءات الطلاق والتبعات المتأتّية منه. هذا الرجل الوسيم الذي يضجّ حيويّة يجتاح عالمًا كنت بدأت أخشاه، ويلوّن كلّ شيء بألوان زاهية.

لكنّه لم يكن حلمًا؛ ولا يمكن أن يكون كذلك، لأنّ الإرباك الجميل الذي شعرت به كان يفوق طاقتي على التحمّل. كان الأمر حقيقيًّا لا محالة. هل كنّا سنتبادل القبل؟ هل كنّا سنتعانق كأنّنا نعرف بعضنا بعضًا من سنين؟

كان هناك ما يشبه البار لتناول الفطور، يفصل المطبخ عن باقي الغرفة، وهو عبارة عن لوح عريض مصقول مصنوع من مادّة جميلة. جلست على مقعد قرب تلك الطاولة وابتسم إيدي. وضع فوطة المطبخ على كتفه وسار في اتجاهي. انحنى على البار وقبّلني، مجيبًا بذلك عن تساؤلي. ثمّ قال بإعجاب:

– يروقني مظهرك وأنت ترتدين كنزتي.

نظرت إلى الكنزة. كان لونها رماديًّا، وكانت رثّة وبالية عند المعصمين. كانت رائحته تعبق فيها.

– يروقني أنّك تتقن المخبوزات. الرائحة شهيّة جدًّا. قطّبت حاجبيّ، ثمّ تابعت: انتظر لحظة. لا تقل لي أنك من أولئك الأشخاص المرعبين الذين يتمتّعون بمئات المهارات؟

– أنا شخص يستطيع القيام بالكثير من الأمور من دون إتقانها فعليًا ولكن بحماسة كبيرة. يمكن إن شئتِ أن تسمّي ذلك مهارة. أصدقائي يطلقون عليها أسماء أخرى. جذب كرسيًّا من دون ظهر وجلس في الجهة المقابلة لي، ودفع في اتّجاهي كوبًا من عصير البرتقال.

شعرت بضغط ركبتيه على ركبتيّ.

– اذكر لي بعض الأمور التي لا تتقنها.

– أعزف البانجو، وأعزف قيثارة الأُكلال، قال ضاحكًا. وأعلّم نفسي عزف الماندولين، وهو أصعب ممّا توقّعت. تعلّمت أخيرًا رميَ الفأس. كان ذلك رائعًا.

قلّد حركة رمي الفأس، وقلّد صوت ضربة عنيفة. ابتسمت.

– أحيانًا... أتحدّى نفسي، وأحاول صنع بعض الأشياء من أحجار كلسيّة أعثر عليها في الغابة، لكنّني أُمنى دائمًا بفشل ذريع. أعدّ الخبز من حين لآخر، لكنّني لا أتمتّع بمهارة كبيرة في هذا المجال.

بدأت أضحك.

– هل هناك شيء آخر؟

مرّر إصبعه على أحد مفاصل أصابعي.

– سارة، لا تختلقي قصصًا خياليّة أكون أنا بطلها، رجلًا سجلّه مليء بإنجازات عظيمة، لأنّني لست كذلك في الواقع.

رنّ منبّه الفرن، وذهب ليتفقّد الخبز. خطر لي أنّ شخص إيدي يملأ المكان بقوّة. تخيّلته يجوب الغابة القريبة بحثًا عن موادّ ينحتها. بدا أنّه جزءٌ من الوادي، مثل شجرة سنديان. تتناثر قطع منه إلى العالم الرحب عند تغيّر الفصول أو في العواصف، لكنّ جوهره الصلب يظلّ داخل الأرض. في هذه الأرض، في هذا الوادي.

خطر لي فجأة أنّني لم أكن أشعر بانتماء كهذا تجاه لوس أنجلوس. كنت أحبّ المدينة: كانت وطني. كنت أحبّ ما تؤمّنه لي من دفء ومستوى حياة وطموح، إضافة إلى الإحساس بأنّ لا أحد يعرفني هناك. لكنّني لم أشعر يومًا بأنّني رمل صحرائها أو موج محيطها.

قال إيدي بعد أن عاد وجلس ثانية:

– الخبز ما زال يحتاج إلى بعض الوقت. ما الذي يدور في رأسك؟

– كنت أفكّر في أنّك مثل شجرة وفي أنّني مثل صحراء.

– أي أنّنا لسنا متناغمين كثيرًا؟ سأل ممازحًا.

– لم يكن هذا ما قصدت. كان... انسَ ما قلت. كانت فكرة غريبة.

– ما نوع الشجرة التي كنتُها؟

– اخترت شجرة السنديان. سنديانة قديمة.

– السنديان اختيار موفّق. كما أنّني سأبلغ الأربعين في سبتمبر، وبالتالي، فكرة الشجرة القديمة منطقيّة.

– وكنت أفكّر كم تبدو متجذّرًا بعمق هنا. فمع أنّك تقول أنك ما زلتَ تعمل في لندن أغلب الأحيان، يبدو الأمر... لا أعلم. تبدو أنّك جزء من طبيعة المكان.

نظر إيدي خارج النافذة. كانت أزهار الخزامى الملتفّة حول بعضها بعضًا عند أسفل النافذة تتمايل مع النسيم.

– لم يسبق لي أن فكّرت في الأمر بهذه الطريقة. لكنّك على حقّ. فمهما ذهبت إلى لندن لتركيب مطابخ، أو لممارسة لعبة كرة القدم، أو لزيارة أصدقائي، إلا أنني أجد نفسي أفكّر أنّني أحبّ هذه المدينة – ودائمًا أعود إلى هذا الوادي. لا أستطيع ألّا أعود. هل تشعرين بهذا الإحساس المفاجئ بالأسى عندما تغادرين لوس أنجلوس؟

– كلّا، ليس تمامًا. لكنّها المدينة التي اخترت الإقامة فيها.

– أجل. لاحظت مسحة خفيفة من خيبة الأمل تشوب صوته.

– لكنّ الطريف في الأمر هو أنّني عندما أسمعك تتحدّث عن كلّ الأمور التي تفعلها، والهوايات التي تمارسها، أدرك كم أشتاق إلى كلّ ذلك. في لوس أنجلوس، في إمكانك الحصول على أيّ شيء وكلّ شيء، في أيّ ساعة من الليل، ثمّة من يوصله إليك، بل ويسلّمك إيّاه... أعني

أنّهم يتحدّثون حاليًّا عن إيصال الطلبات «بالطائرات المسيّرة». لا حدود لما هو ممكن هناك. ولكن، رغم كلّ ذلك، أنا لا أذكر آخرّ مرّة قمت فيها بأيّ شيء، عدا ترتيب سريري. فنادرًا ما أمارس الرياضة، ولا أعزف على آلة موسيقيّة، ولا أحضر دورات مسائيّة.

كم كنت أبدو ضئيلة. مخلوقًا سطحيًّا لا غير.

كان إيدي ينظر إليّ غارقًا في تفكير عميق.

لفّ خصلة من شعري على أصابعه، وقال:

– ولكن، من يأبه بالهوايات إذا كنت تمضين كلّ وقتك في أداء عمل تحبّينه؟

– هذا صحيح. أنا أحبّ عملي فعلًا، لكنّه تحدٍّ لا ينتهي. حتّى عندما أعود إلى المملكة المتّحدة لأمضي إجازتي، لا أتوقّف عن العمل.

ابتسم إيدي.

– الخيار. ستذكّرني بأنّ لديّ خيارًا.

هزّ كتفيه وأردف:

– اسمعي، ليسوا كثرًا الذين يستطيعون إنشاء مؤسّسات خيريّة للأطفال من لا شيء. لكنّ كلّ الناس بحاجة إلى التوقّف أحيانًا عن العمل. إلى وقت يتوقّفون فيه عن التفكير. هذا يجعلنا نحافظ على إنسانيّتنا.

كان على حقّ، بالطبع. فنادرًا ما كنت أوكل مهمّات إلى أشخاص آخرين. كنت أتمسّك بعملي، أحيط نفسي به: كنت دائمًا أفعل ذلك؛ كانت تلك هي المنهجيّة الوحيدة التي أعرفها. ولكن، رغم كلّ ذلك النشاط، ورغم كلّ تلك المثابرة، هل كنتُ «موجودة» فعلًا؟ هل كنتُ حاضرة في حياتي، مثلما يبدو إيدي حاضرًا في حياته؟

قلت في سرّي أن هذه ليست المحادثة التي يمكن إجراؤها مع رجل لم يمض على معرفتي به أربع وعشرون ساعة، لكنّني شعرت بأنّني عاجزة عن التوقّف. لم يسبق لي إجراء مثل هذه المحادثة مع أيٍّ كان، ولا حتّى مع نفسي. بدا الأمر كأنّني فتحت صنبورًا وفقدت السيطرة على الأمور.

– قد لا تكون للأمر علاقة بالعيش في المدينة أو حتّى بالعمل. ربّما كان الأمر يتعلّق بي فحسب. أحيانًا، أنظر إلى الآخرين، وأتساءل لماذا لا أجد الوقت للقيام بكلّ الأمور التي يبدو أنّهم يقومون بها خارج أوقات العمل. نزعت نسرة جلد ميت من حول أحد أظافري. في حين أنّك... لا، انسَ ما قلت. ذهني مشتّت، لهذا أنتقل من موضوع إلى آخر. كلّ ما في الأمر أنّ وجودي هنا يبدو طبيعيًّا جدًّا... وهذا مربك في حدّ ذاته، لأنّني في العادة عندما آتي إلى وطني، لا أصدّق متى أغادر.

– لماذا؟

– سأخبرك في وقت آخر.

– بالطبع، وسأعلّمك عزف البانجو. أنا لا أجيده البتّة، وبالتالي، ستكونين بصحبة رائعة. قَلَب راحة يده ووضع يدي فيها.

– لا تهمّني هواياتك. لا يهمّني مدى الجهد الذي تبذلينه في العمل. في إمكاني التحدّث معك طوال اليوم. هذا كلّ ما أعرفه.

– أنت رائع، قلت له بدهشة، أريدك أن تعرف ذلك.

تأمّلنا بعضنا طويلًا، ثمّ انحنى إيدي وقبّلني قبلة طويلة بطيئة دافئة، أشبه بذكرى تعيدها الموسيقى إلى البال.

– هل تودّين البقاء بعض الوقت؟ أعني إن لم تكوني مشغولة؟ سأُريك ورشتي في الطابق الأسفل من المنزل، وسيكون في وسعك نحتَ فأرة خاصّة بك. ويمكننا أيضًا أن نجلس من دون أن نفعل شيئًا سوى تبادل القبل. أو في إمكاننا التصويب على ستيف، السنجاب الصغير الوغد الذي يعيش في المرجة حول منزلي. وضع يديه على ساقي. الفكرة أنّني... لا أريدك أن تذهبي، هذا كلّ شيء.

– موافقة، قلت ببطء. ثمّ ابتسمت وأردفت: تبدو الفكرة رائعة. ولكن، ماذا عن والدتك؟ أعتقد أنّك تشعر بالقلق عليها، أليس كذلك؟

– أنا قلق، نعم. في الواقع، هي لا تعاني من حالات انهيار عصبيّ عنيفة فقط، بل من تراجع تدرّجي. جاءت خالتي للإقامة معها لأنّني ذاهب في إجازة يوم الخميس. سوف تراقبها من كثب.

– هل أنت متأكّد؟ لا مانع لديّ إذا كنت مضطرًّا إلى الذهاب لزيارتها.

– متأكّد تمامًا. اتّصلتْ بي قبل قليل، وقالت أنّهما ذاهبتان إلى الحديقة. بدت في حالة جيّدة. ثمّ أضاف، عندما لاحظ أنّني لم أصدّقه: ثقي في أنّ الأمور إذا بدت أنّها تقارب مرحلة الخطر، فسأكون هناك. أنا أستطيع تمييز الإشارات المهمّة.

تخيّلت إيدي يراقب والدته، كلّ أسبوعين، مثل صيّاد سمك يراقب السماء.

– موافقة إذًا. أعتقد أنّك يجب أن تبدأ الحديث عن ستيف.

ضحك ضحكة خافتة، ثمّ نقر بإصبعه كسرة خبز، أو حشرة، عن شعري، ثمّ أخبرني:

– ستيف يرعبني ويرعب كلّ الحيوانات البرّيّة التي تحاول العيش هنا. لا أدري ما مشكلته تحديدًا. يبدو أنّه يمضي كلّ وقته تقريبًا مختبئًا داخل الأعشاب يتجسّس عليّ، بدل أن يكون فوق شجرة ما، حيث موطنه الطبيعي. ولا يدب فيه النشاط إلّا حين أشتري علبة لإطعام الطيور. وأيًّا يكن المكان الذي أعلّقها فيه، فإنّه يتدبّر أمر اقتحامها والتهام كلّ ما فيها.

– يبدو أنّه مخلوق عظيم، قلت ضاحكةً.

– هو كذلك فعلًا. أنا أحبّه، لكنّني أكرهه أيضًا. لديّ مسدّس مائيّ ضخم – في إمكاننا أن نتسلّى بالتصويب عليه في وقت لاحق إذا شئتِ.

ابتسمت. لعلّ تمضية يوم كامل مع هذا الرجل وسنجابه، في زاويته السرّيّة هذه، في منطقة كوتسولدز التي تذكّرني بأجمل فترات طفولتي، ولا تذكّرني بأيّ من الفترات البشعة منها، سيكون ممتعًا.

نظرت حولي إلى الأشياء التي تتكوّن منها حياة هذا الرجل. كتب، خرائط، مقاعد من دون ظهور يدويّة الصنع. إناء زجاجيّ مليء بقطع نقديّة ومفاتيح، آلة تصوير قديمة من نوع روليفلكس. على الرفّ العلويّ من مجموعة رفوف للكتب، كانت ثمّة مجموعة من الكؤوس التذكاريّة لرياضة كرة القدم، مزخرفة بذوق سقيم.

اقتربت من الكؤوس لأقرأ أسماء الفرق، قرأت على الكأس القريبة «ذا إلمز، باترسي مندي»، كانت هناك كأس كُتب عليها «أولد روبسونيانز-تشامبيونز، الفئة الأولى».

– هل هذه الكؤوس لك؟

اقترب منّي.

– نعم، هي لي. أخذ الكأس الأخيرة؛ ومرّرَ إصبعًا سمراء على حافّتها العليا. انزلق عن الحافّة شريط من الغبار الكثيف. وقال: أنا ألعب مع فريق في لندن. قد يبدو ذلك غريبًا لأنّني أعيش هنا، لكنّني أمضي وقتًا طويلًا في لندن، حيث أركّب مطابخ. لم أستطع التوقّف عن اللعب في ذلك الفريق.

– لماذا؟

– لقد التحقت بالفريق منذ سنوات، عندما فكّرت في اختبار الحياة في لندن. الواقع أنّ الفريق... ضحك ضحكة خافتة، وتابع: فريق مسلّ فعلًا. عندما عدت إلى غلوسترشير، لم أستطع التوقّف عن اللعب. لا أحد يستطيع. نحن جميعًا نحبّ الفريق كثيرًا.

ابتسمت، ونظرت ثانية نحو ذلك الخليط من الكؤوس التذكاريّة والرياضيّة. كان تاريخ إحداها يعود إلى أكثر من عشرين سنة. راقني أنّه يحتفظ بذكريات قديمة بهذا الشكل.

– غير معقول! سحبت كتابًا من أحد الرفوف السفليّة: كان كتاب «الطيور» الذي نشرته دار كولنز جِم، وهو الطبعة نفسها التي كانت لديّ في طفولتي. كنت أمضي ساعات أنعم النظر في صفحات الكتاب الصغير. كنت أجلس بين الأغصان المتشعّبة لشجرة الإجاص في حديقتنا، آملة أن تأتي الطيور وتحطّ قربي إذا أمضيت وقتًا كافيًا هناك.

– كان لديّ الكتاب ذاته. كنت أعرف اسم كلّ طائر فيه عن ظهر قلب!

– حقًّا؟! تعجّب وقد اقترب منّي. كنت أحبّ هذا الكتاب. فتح الكتاب على صفحة في وسطه تقريبًا، غطّى الاسم بيده، وسألني: ما اسم هذا الطائر؟

كان ذا صدر بلون الذهب، وكان يغطّي عينيه ما يشبه قناع اللصوص. فصحتُ:

– يا إلهي! لا، انتظر. هذا خازن الجوز! خازن الجوز الأوراسي!

أراني آخر.

– هذا القليعي.

– يا إلهي! قال إيدي. أنت المرأة الكاملة بالنسبة إليّ.

– كان لديّ أيضًا كتاب حول الأزهار البرّيّة. وكتاب عن الفراشات وحشرات العثّ. كنت عالمة طبيعيّة صغيرة هاوية.

وضع الكتاب جانبًا، وسألني:

– سارة، هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالًا؟

– بالطبع. أحببت وقع اسمي وهو يلفظه.

– لماذا تعيشين في المدينة إذا كنت تحبّين الطبيعة بهذا الشكل؟

صمتُّ هنيهة.

– لا أستطيع العيش في الريف.

لا بدّ أنّ تعبيرًا ما في وجهي نصحه بألّا يسترسل في الاستطلاع أكثر من ذلك، لأنّه، وبعد أن تأمّلني بضع ثوان، سار متمهّلًا لإخراج الخبز من الفرن. قال، وهو يجيل نظره باحثًا عن كفّ الفرن:

– كان لديّ كتاب عن الأشجار. استقرّ رأيه أخيرًا على استخدام فوطة المطبخ التي كانت على كتفه. اشتراه لي والدي. كان هو من وجّهني نحو النجارة، في الواقع، رغم أنّه بالطبع لم يكن ليدور في رأسه إطلاقًا أنّني سأتّخذها مهنة. كان يصحبني في الخريف لأعاونه في جلب الحطب من عند الحطّاب. وكان يسمح لي بتقطيع بعضها عيدانًا لإضرام النار.

توقّف عن الكلام لحظة مبتسمًا، ثمّ تابع:

– كانت رائحة الخشب في البداية هي التي جعلتني أحبّه، لكنّ ما سحرني في ما بعد هو السرعة التي كان يمكن بها تحويل كتلة خشنة من الخشب شيئًا مختلفًا تمامًا. بدأت، في أحد الأيّام الشتويّة، تشذيب قطع من العيدان لأصنع منها أشكالًا بشريّة، ثمّ صنعت حاملة أوراق مرحاض، وبعد ذلك، جاءت أسوأ مطرقة خشبيّة في التاريخ.

ضحك ضحكة خافتة، وأضاف:

– ثمّ جاءت الفأرة. فتح الفرن؛ أخرج الصينيّة، وتابع الحديث: كانت الفأرة محطّ فخري وسعادتي. لم يكن والدي شديد الإعجاب بها، لكنّ والدتي قالت أنّها الفأرة الصغيرة الأجمل بين الفئران التي رأتها.

وضع رغيفًا زكيّ الرائحة على سلك، وأغلق باب الفرن. وأردف:

– تركنا والدي عندما كنت في التاسعة. ولديه حاليًّا أسرة يعيشون عند الحدود الاسكتلنديّة، في مكان ما شمال كارلايل.

جلست ثانية.

– لا بدّ أنّها كانت تجربة قاسية.

هزّ كتفيه من دون اكتراث.

– مضى على ذلك وقت طويل.

ساد صمت بينما كان يخرج من الثلّاجة الزبدة والعسل وإناء المربى المنزليّ الصنع. ناولني صحنًا فيه شقّ عميق طويل (آسف!) وسكّينًا.

سألته عندما شرع يقطّع الخبز:

– هل تعلم والدتك أنّني هنا؟

صرخ من الألم بينما كان يبعد يده من الرغيف.

– لماذا أنا شره وقليل الصبر هكذا؟ فهو لا يزال ساخنًا جدًّا ولا يمكن أكله.

ضحكت لأنّني كنت أنوي أن أبدأ أنا بتقطيع الرغيف لو لم يبادر هو إلى ذلك.

قال، وهو يلفّ يده هذه المرّة بفوطة المطبخ:

– كلّا، والدتي لا تعرف أنّك هنا. لا أودّ أن تظنّ أنّ ابنها الوحيد رجل عجوز خليع غارق في الملذّات.

– أنا من رأيك.

رمى قطعة خبز ساخنة جدًّا في اتّجاه صحني، واقترح:

– إذا كنت فعلًا خليعًا، فبإمكاننا الغوص في المزيد من الملذّات.

أجبته، وأنا أغرز سكّيني في الزبدة:

– بالطبع. كانت الزبدة مليئة بفتات الخبز. لا بدّ أنّ روبن كان سيكره هذا المنظر، هو الذي يحبّ تقديم الزبدة بأسلوب متحذلق، أي على قطعة من الإردواز، أو على صخرة سخيفة.

– أنت حبيب رائع!

لم أخجل ممّا قلت.

– أتعتقدين ذلك فعلًا؟ سألني وقد احمرّ وجهه.

لم يكن لديّ أيّ خيار آخر سوى أن وقفت، ودرت حول البار الخشبيّ الفاصل بين المطبخ والغرفة، وأحطته بذراعيّ وقبّلته بقوّة.

– نعم، أعتقد ذلك. الخبز ساخن، حتّى أنا لن أتمكّن من أكله. لنعد إلى السرير.

الفصل الثالث عشر

عزيزي آلان،

اعذرني رجاءً على رسالتي غير المتوقّعة هذه.

سبق أن رددت على الرسالة التي كتبتها في صفحة فيسبوك الخاصّة بإيدي ديفيد. يساورني بعض القلق، وأودّ مشاركتك معلومات قليلة متوفّرة لديّ.

قبل موعد إجازتك التي كانت مقرّرة مع إيدي، أمضيتُ معه أسبوعًا في سابرتون. غادرتُ يوم الخميس الواقع في التاسع من يونيو، لكي يتسنّى له توضيب حقيبته، وقال لي أنّه سيتّصل بي من المطار.

لم يصلني منه أيّ شيء منذ ذلك اليوم. بعد أن حاولتُ الاتّصال به مرّات عدّة، تملّكني اليأس وتوقّفت عن المحاولة، مفترضة أنّه قد غيّر رأيه بشأن علاقتنا. لكنّني لم أقتنع بهذه الفكرة، وعندما رددتَ أنت على رسالتي، أدركتُ أنّني لم أكن مخطئة. تجد في أسفل الرسالة رقم هاتفي. وسأكون ممتنّة لو تشاركني أيّ فكرة أو معلومة قد تصلك. أنا لا أنوي ترصّد تحرّكاته. كلّ ما أريده هو أن أعرف أنّه بخير.

أفضل التمنّيات

سارة ماكيه

حلّ منتصف الليل بهدوء. طنّ هاتفي. استويت جالسة ونظرت إليه. كانت رسالة من دجو تخبرني فيها بأنّها وصلت إلى بيتها سالمة. لم تصلني إجابة من آلان. استلقيت في الفراش ثانية، وشعرت بأنّ شيئًا يعتصر قلبي. كان شعورًا «مؤلمًا». ألمًا حقيقيًّا. لماذا لم يقل لي أحد أنّ تعبير «قلب محطّم» لم يكن مجرّد استعارة مجازيّة؟

حلّت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ثمّ الساعة الثانية، ثم الثالثة. تخيّلت تومي وزوجه في فراشهما الضخم في غرفتهما، تساءلت عمّا إذا كانا ينامان متعانقين. تذكّرت جسد إيدي وهو

يضمّني، شعرت بحنين جارف كاد يثقب جلدي. مرّت عليّ لحظات كرهت فيها نفسي لأنّ العالم وأخباره لم يعودا يعنيانني. في إسطنبول، ثمّة جثث ممدّدة داخل أكياس، أمّا أنا فأفكّر في إيدي، الذي هو على الأرجح مجرّد رجل لم يعاود الاتّصال.

في الرابعة فجرًا، وبعد أن وجدت نفسي أفتّش في الإنترنت عن إعلانات الوفيّات في المنطقة التي يعيش فيها إيدي، غادرت شقّة تومي خلسةً. كان الفجر يلطّخ السماء باللون الرماديّ، وكان عامل النظافة وحيدًا يكنس أمام مدخل شقّة زويه ذات الطراز الجورجي الأنيق. كان الوقت مبكرًا، فالحركة في المدينة لن تصل إلى ذروتها قبل بضع ساعات، لكنّني لم أعد أتحمّل، ولو دقيقة، ذلك الصمت الخانق، والاحتمالات القاتمة التي كانت تراودني، كلّ واحدة منها تبدو مروّعة أكثر من سابقتها.

بدأت الجري عند جادّة هولاند بارك. ركضت بسهولة فترة وجيزة وعبرت محطّات لوقوف الحافلات يقبع فيها مهاجرون تبدو عليهم علامات التعب وهم في طريقهم إلى العمل، وواجهات المقاهي المغلقة، ورجل ثمل يترنّح عائدًا من منطقة نوتينغ هيل. تجاهلت أنين الحافلات وسيّارات الأجرة الليليّة، ولم أعد أسمع سوى صوت ارتطام حذائي الرياضي بالأرض وألحان الفجر المعتادة.

لم تطلْ فترة الركض السهل. عندما بدأ الشارع يصعد في اتّجاه نوتينغ هيل، شعرت بأنّ رئتَيّ على وشك الانفجار، كالعادة، ولم تعد ساقاي تسعفانني. سرت على مهل إلى الطريق الجانبيّة المؤدية إلى منعطف بورتوبيللو.

عندما أجبرت نفسي على الجري ثانية، خطر لي أنّ ما أفعله ليس فيه أيّ شيء جنونيّ. كانت لندن قد استيقظت. فقد كان أحد المقاهي يعجّ بالعمّال الذين يرتدون الثياب الدالّة على مهنهم؛ وكان هناك رجل يهمّ بفتح عربة لبيع القهوة في شارع ويستبورن غروف. كانت لندن قد بدأت تشهد حركة. لماذا إذًا لا أبدأ أنا أيضًا؟ ما من سوء في الموضوع.

لكنّ الأمر لم يكن كذلك، بالطبع، لأنّ جسدي صار يئنّ من التعب والتعاسة، ولأنّني لم أصادف شخصًا آخر يعدو طوال ذلك الوقت، ولأنّ الساعة كانت لم تتجاوز الرابعة والخامسة والأربعين فجرًا عندما عدت أدراجي إلى شقّة تومي.

استحممت ودلفت إلى الفراش. حاولت ألّا أتحقّق من هاتفي مدّة خمس دقائق.

وسرعان ما عدلتُ عن المحاولة ونظرت إلى الهاتف، فوجدت ملاحظة بورود مكالمة لم يُردّ عليها. استويت جالسة. كان الرقم محجوبًا، وكانت المكالمة قد وردت في الرابعة والدقيقة التاسعة عشرة. كما كانت هناك رسالة صوتية.

كانت الرسالة عبارة عن ثانيتين من الصمت، تبعها صوت شخص يضغط أحد الأزرار خطأ. بعد فترة قصيرة، سمعت فيها صوت خربشة، ثمّ نجح المتّصل في إقفال الخطّ.

تساءلت لحظة ما إذا كان المتّصل هو آلان، صديق إيدي، لكنّ صفحة فيسبوك كانت تفيد بأنّه لم يقرأ رسالتي بعد.

من المتّصل إذًا؟

إيدي؟

لا يمكن! إيدي ليس من هذا النوع من الأشخاص. إيدي يحبّ الحديث. يحب التواصل. هو ليس شخصًا غامضًا غريب الأطوار يجري مكالمات هاتفيّة الساعة الرابعة فجرًا!

عندما استيقظت في الظهيرة، كان آلان قد قرأ رسالتي. لكنّه لم يجب.

حدّقت في الهاتف كالمخبولة، وأنا أعيد تشغيله مرّة بعد مرّة. لا يحقّ له تجاهلي بهذه البساطة. لا أحد يفعل ذلك!

لكنّه كان قد قرأ رسالتي وتجاهلها. مضى اليوم؛ ولم يصلني شيء. شعرت بالخوف. لكن مع مرور الأيّام، بدأت مشاعر الخوف على إيدي تتراجع أمام تنامي مشاعر الخوف على نفسي.

الفصل الرابع عشر

كان رودي هادئًا تمامًا.

وقف يحدّق في سرقاطين اقتربا من السور، كانا يحدّقان فيه أيضًا، وقد وضع كلّ منهما مخلبيه على بطنه الطري. ومن دون أن يعي رودي، جلَّس ظهره ووضع يديه الصغيرتين على بطنه هو أيضًا. همس بإجلال:

– مرحبًا أيّها السرقاطاين.

– السرقاطين، صحّحتُ.

– سارة، اصمتي، قد تثيرين فزعهما!

نبّه تومي رودي إلى اقتراب سرقاط آخر، فاستدار بسرعة، ناسيًا وجودي بلمح البصر.

– مرحبًا أيّها السرقاط الثالث. هل أنتم جميعًا أسرة واحدة أم أصدقاء؟

شرع اثنان منهما ينقّبان في الرمل. أمّا الثالث فقد سار متثاقلًا نحو التلّ الرملي ليحتضن فردًا آخر في القبيلة. كادت الدهشة تعصف برودي.

التقطتْ دجو صورة لابنها. كانت قبل خمس دقائق فقط تؤنّبه على أمر ما؛ أمّا في تلك اللحظة فكانت تبتسم له ابتسامة الحبّ المطلق. بينما كنت أراقبها، محاولة أن أتخيّل هذا النوع من التفاني المفرط الذي يتحدّى كلّ المقاييس، دهمني الشعور المرير نفسه مرّة جديدة. كان شعورًا أشبه بضربة حادّة من كتلة ثقيلة من المشاعر كنت أسعى لإخفائها في زاوية قصيّة. لن أصبح أمًّا بالطبع، هذا أكيد، لكن ألَم الفرصة الضائعة كان يتركني أحيانًا في حزن عميق.

أخرجت نظّارتي الشمسيّة من حقيبة يدي.

كان والديّ قد وجدا شخصًا للاعتناء بجدّي، وكان من المقرّر أن يعودا إلى غلوسترشير في اليوم التالي. ورغب رودي في تنظيم حفلة شاي وداعيّة في حديقة الحيوانات الخاصّة بالأطفال قبل

ذهابي لرؤيتهما، رغم أنّني كنت أشكّ في أن الفكرة قد خطرت له نتيجة مشاهدته أخيرًا برنامجًا تلفزيونيًّا حول حيوان السرقاط، أكثر من كونها نابعة من رغبته في وداع الخالة سارة.

تفقّدت هاتفي، وهي حركة تحوّلت طبيعيّة أشبه بالتنفّس. بعد المكالمة الصامتة التي وردت منتصف تلك الليلة في الأسبوع الماضي، تلقّيت مكالمة أخرى قبل بضعة أيّام، دامت هذه المرّة خمس عشرة ثانية كاملة. وعندما لم يتفوّه المتّصل بكلمة، هدّجت بأنني سوف أتّصل بالشرطة. أقفل المتّصل الخطّ فورًا. ولم أتلقّ أيّ مكالمة منذ تلك اللحظة، لكنّني كنت متأكدة أنّ للأمر علاقة باختفاء إيدي.

كان نومي مضطرّبًا.

فتح تومي رزمة الشطائر التي أعدّها، وجاء رودي مسرعًا لكي يأكل، وهو يروي نادرة لم يكن يتذكّرها جيّدًا حول شطائر البيض. أنّبته دجو لأنّه يتكلّم وفمه مليء بالطعام. كان طفل بالقرب منّا ينتحب لأنّه فوّت فرصة إطعام حيوان القُوَطيّ. جلست وسط كلّ ذلك، عاجزة عن تناول شطيرتي، وأنا أشعر باضطراب مزعج في معدتي.

عندما درست في نهاية الصفّ السادس رواية «السيّدة دالووي» في المرحلة الأولى من صفّ مادة اللغة الإنكليزيّة، كان التلاميذ يتناوبون على قراءة الكتاب، لاكتشاف أسلوب الكاتبة وولف الروائي الفريد، كما كانت تصفه السيّدة راشبي.

عندما حان دوري، قرأت بصوت عالٍ: «رفع العالَم سوطه؛ أين سينزل به؟».

توقّفت برهة متعجّبة، ثمّ أعدت قراءة العبارة. ورغم أنّ زملائي في الصفّ كانوا يراقبونني، ورغم أنّ السيّدة راشبي كانت تراقبني، وضعتُ ثلاثة خطوط تحت تلك الكلمات قبل أن أستأنف القراءة، فقد كانت تلك الكلمات تصف تمامًا ما أشعر به معظم الوقت، إلى درجة أنّني تعجّبت لأنّ إنسانًا آخر غيري تمكّن من كتابة عبارة كهذه.

«رفع العالَم سوطه؛ أين سينزل به؟»

هذا هو وضعي، قد خطر لي وأنا ابنة السابعة عشرة. وضْع التيقّظ الدائم ذاك! أتهدّج في السماء، أتنشّق الهواء، استعدّ للكارثة. هذه أنا. ومع ذلك، ها أنا الآن، بعد تسع عشرة سنة، أشعر بالإحساس ذاته. هل تغيّر شيء فعليًّا؟ هل كانت حياتي المريحة في كاليفورنيا مجرّد وهم؟

نظرت مجدّدًا إلى شطيرة البيض في يدي، لكنّها أشعرتني بالغثيان.

ـ ماذا يحدث؟ قالت دجو، وهي تنظر إليّ.

ـ لا شيء. أنا أستمتع بشطيرتي.

ـ أمر غريب فعلًا، فأنت لا تأكلينها.

صمتُّ برهة، ثمّ اعتذرت. قلت لهم أعرف أنّني أبدو مخبولة. وقلت أنّني أحاول بكلّ جهدي استجماع قواي، لكنّ الحظّ لا يحالفني. سألني رودي:

– هل حطّم قلبك، أعني ذلك الرجل؟

صمت الجميع. لم يجرؤ تومي ولا دجو على النظر إليّ. لكنّ رودي كان ينظر، بعينيه اللوزيتيّن الصغيرتين وبفهْمه الطفوليّ الحرفي للعالم.

– سارة، هل حطّم قلبك؟

– أنا... أعني، نعم، أخشى أن يكون قد حطّم قلبي، أجبته عندما تمكّنت من الكلام.

تأرجح رودي على كعبيه وهو يراقبني، ثمّ ردّ بعد طول تفكير:

– إنه وغد، تافه.

– هو كذلك، وافقته الرأي.

عانقني رودي، وشعرت بعينيّ تغرورقان بالدموع.

كان تومي يمسك هاتفي، ويتأمّل بإنعام في صفحة فيسبوك الخاصّة بإيدي. وأعلن بعد صمت طويل:

– هذا الرجل يحيّرني فعلًا.

– ويحيّرني أنا أيضًا تومي.

– هاشتاغ أين والي #WheresWally، بداية، ألا يبدو غريبًا؟ فاسمه إيدي.

فتحت دجو علبة فواكه مجفّفة ومكسّرات وأعطت رودي إيّاها، قائلة:

– كلها ببطء. ثمّ التفتت إلى تومي.

– أين والي هي سلسلة كتب أيّها الأحمق. ألا تذكر؟ كانت مليئة بصور حشود من البشر اختفى وسطها والي، ألا تذكر؟

بدأ رودي يأكل الزبيب ويرمي المكسّرات.

– أعرف معنى أين والي، أجاب تومي. كلّ ما في الأمر هو أنّني أستغرب استخدام هذا التعبير للبحث عن شخص اسمه إيدي.

– هذا ما يقال عادة عندما تبحث عن شخص وسط الحشود، هززتُ رأسي قائلةً. شيء يوازي تعبير البحث عن إبرة في كومة قشّ.

– ربّما كان ذلك صحيحًا، وربّما لا. وربّما كان شخصًا آخر تمامًا.

ابتهج رودي، وسأله:

– هل تعتقد أنّ إيدي قاتل؟

– كلّا.

– مصّاص دماء؟
– كلّا.
– عامل تمديدات غاز؟
كانت دجو شرحت له أخيرًا معنى «خطر الغرباء».
بدا تومي مستغرقًا في التفكير، وهو يتأمّل هاتفي.
– لا أدري، لكنّ ثمة ما يثير الشكّ في شأن هذا الرجل.
فجأةً، عدّل جلسته وصاح:
– سارة، انظري!
أخذت الهاتف من يده، فلاحظت أنّه قد فتح صفحة ماسنجر الخاصّة بي. اندفع كلّ شيء إلى الأمام ليسقط سقوطًا حرًّا، مثل مياه مندفعة من سدّ. كان إيدي موجودًا ضمن الشبكة. وكان قرأ رسالتَيْ كلتيهما! كان موجودًا ضمن الشبكة في تلك اللحظة.
لم يكن ميتًا. كان في مكان ما. سألت تومي باستهجان:
– ماذا كنت تفعل في صفحة رسائلي؟
– تملّكني الفضول. كنت أريد معرفة ما كتبتِ له، ولكن لا أهمّيّة لذلك. لقد قرأ رسالتَيْك. وهو موجود ضمن الشبكة.
حاول رودي خطف جهاز الهاتف، وهو يسأل:
– ماذا قال؟ سارة، ماذا قال لك؟
أخذت دجو الهاتف منه، وتفحّصتْه جيّدًا.
– لا أريد أن أضايقك بقولي هذا، لكنّه قرأ رسالتَيْك قبل ثلاث ساعات.
– لماذا لم يجب؟ سأل رودي.
كان سؤالًا وجيهًا.
– سارة، لقد مللت صديقَك. أعتقد أنّه رجل فظيع، أضاف رودي.
ساد الصمت فترة طويلة. ثمّ قالت دجو لابنها:
– فلنذهب إلى خندق السرقاط.
نظر رودي إليّ، ثمّ إلى الحيوانات التي كانت تبعد عشرة أمتار تقريبًا، وقد اعتبرها مسافة بعيدة.
– اذهب إلى أصدقائك، قلت له، أنا بخير.
وبينما كان رودي يركض إلى الحيوانات، كرّرت لي دجو ما قالت سابقًا:

– سارة، حاولي نسيان الأمر. بدا عليها الإرهاق فجأة. الحياة أقصر من أن تتمحور حول شخص يسبّب لك التعاسة.

ذهبت لتلحق برودي. نظرنا أنا وتومي إلى شاشة الهاتف مليًّا. ومن دون أن أفكّر، كتبت «مرحبًا».

بعد ثوان، هبطت صورة إيدي لتتموضع جانب رسالتي. فقال تومي:

– هذا يعني أنّه قرأها.

ثمّ كتبت «لن أؤذيك».

قرأ إيدي الرسالة، ثمّ – وبكلّ بساطة – أقفل التطبيق.

وقفت. يجب أن أراه. أن أتحدّث معه. أن أفعل «أيّ شيء». رجوت تومي قائلةً:

– ساعدني. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

بعد لحظة، وقف تومي، ووضع ذراعيه حول كتفي. لو أنّني أغلقت عينيّ في تلك اللحظة، لتخيّلت أنّني عدت في الزمن إلى العام 1997، في مطار لوس أنجلوس، عندما كنت منهارة وأنا أستند إليه في صالة الوافدين، وكان هو يحمل مفاتيح سيّارة كبيرة مكيّفة، ويقول لي مطمئنًا أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

قلت له، وأنا أشعر باليأس:

– ربّما تردّت حالة الكآبة لدى والدته. أخبرني عندما كنّا سويًّا أنّ وضعها يسوء بسرعة. ربّما أصبح وضعها مخيفًا فعلًا.

– ربّما. ولكن هارنغتون، لو كان جادًّا في ما يتعلّق بعلاقتكما، لكان بعث لك برسالة. قدّم شرحًا. طلب منك الانتظار بضعة أسابيع.

لم أناقشه، لم أكن قادرة على مناقشته.

قال، وهو يمسك كتفي بقوّة:

– انتظري لنرى إن كان سيجيب. ولكن، إن لم يفعل بسرعة، وإن لم يكن عذره استثنائيًّا، أعتقد أنّ عليك التفكير بصورة جدّيّة في ألّا تريه ثانية. إنّها لقسوة منه أن يجعلك تعانين كلّ تلك المعاناة.

قبّل جانب رأسي، كان مرتبكًا ولكن بالغ الرقّة.

– ربّما كانت دجو على حقّ. ربّما ينبغي نسيان الأمر.

كان أقدم صديق لي يلفّ كتفي بذراعه. الرجل الذي ساعدني في الماضي على التماسك من جديد، طوال كلّ تلك السنوات، الرجل الذي شاهدني وأنا أخسر كلّ شيء وأعيد بناء حياتي بطريقة ما. في تلك اللحظة، كنّا على أعتاب الأربعين، وكان كلّ ذلك يحدث من جديد.

قلت، وقد تبلّد إحساسي:
– إنّها فعلًا على حقّ. كلاكما على حقّ. ينبغي أن أحاول نسيان الأمر.
كنت أعني ما أقول. لكنّ المشكلة أنّني لم أكن أدري كيف.

الفصل الخامس عشر

كنت واقفة في وقت لاحق من تلك الليلة في مطبخ تومي وزويه، مرتدية ثياب النوم أتناول رقائق البطاطا. خطر في بالي أنّ ما أعانيه ليس مجرّد قلب محطّم، بل ألم يذهب إلى أبعد من ذلك.

ولكن، ما هو؟

هل هو الحادث؟ هل هو شيء يتعلّق بالحادث؟

كانت هناك أجزاء فارغة كثيرة في ذكرياتي حول ذلك اليوم الرهيب. فقد ساعدتني المسافة أو الصدمة، أو ربّما الاختلاف الكبير بين حياتي في إنجلترا وحياتي في أميركا، في تناسي الكثير ممّا حدث في ذلك اليوم. مع ذلك، كنت أدرك المشاعر التي انتابتني تلك اللحظة. كانت أشبه بالأصدقاء القدامى المزعجين.

في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، قرّرت استغلال هذه الموجة من الطاقة لمحاولة أداء بعض الأعمال المترتّبة عليّ. لا شكّ في أنّ زملائي يتمتّعون بقدر كبير من التهذيب لم يسمح لهم بتوجيه أيّ ملاحظة لي، لكنّني كنت أعلم أنّ ثمّة شخصًا سيتّصل بي هاتفيًّا إذا لم أنجز العمل المتراكم سريعًا.

عدت إلى فراشي وفتحت صفحة بريدي الإلكتروني. شعرت بدماغي يتوقّد أخيرًا. اتّخذت قرارات مهمّة؛ واتّخذت قرارات عاديّة. وافقت على بعض الإنفاقات، وأرسلت تقريرًا إلى مؤتمنينا. تفقّدت بريد الجمعيّة في الشبكة، لأنّه ليس هناك من يتذكّر أن يتفقّده. وجدت فيه رسالة من فتاة صغيرة تسأل عمّا إذا كان في إمكان فريق الأطبّاء المهرّجين زيارة أختها التوأم المريضة في أحد مستشفيات سان دييغو، وهي تعاني مرضًا عضالًا. أجبت: بالطبع!، ثمّ حوّلت الرسالة إلى روبن وكيت، نائبتي. كتبت لهما: الرجاء إرسال الفريق! نحن نعرف المستشفى! ليكن أعضاء الفريق هناك قبل يوم الجمعة، الرجاء تنظيم الأمور.

في حلول الثالثة فجرًا، أدركت أنّ دماغي كان يعمل بسرعة محمومة لم ترق لي.

في حلول الساعة الرابعة فجرًا، شعرت بأنّني أصبت بمسّ.

في الساعة الرابعة والربع، قرّرت أن أتّصل بدجيني. دجيني كارميكايل، فهي تعرف كيفيّة تصريف الأمور.

– سارة ماكيه! بادرتني، وقد علا صوت الكمان من فيلم عاطفيّ قديم. لماذا أنت صاحية في هذا الوقت؟

أغمضت عينيّ، وقلت في سرّي: «شكرًا. شكرًا يا إلهي على وجود دجيني كارميكايل العزيزة».

كان يوم زواجي بروبن مصدرًا للإحراج. فقد كان الجانب الذي يجلس فيه مدعوّوه في القاعة ممتلئًا. في حين كان الجانب المخصّص للمدعوّين من قبلي لا يضمّ سوى والدي ووالدتي وتومي ودجو، واثنين من العاملين في مقهى فونتان، حيث عقدنا أنا وروبن الاجتماعات الأولى الخاصّة بجمعيّتنا الخيريّة. لم تكن هانا موجودة. كان هناك فراغ صامت في المقعد المجاور لأمّي. ولم يحضر أيّ من أصدقائي، فلم يكن في إنجلترا من يعرف ما يمكن أن يُقال لي، ناهيك بوجود الرغبة في السفر لمجرّد متعة عدم معرفة ما يمكن أن يُقال.

كنت قد أخبرت أسرة روبن بأنّه لم يتمكّن أيّ من أصدقائي البريطانيين من المجيء، وقد غمرني الخذلان يومذاك مثلما تغمر البيرة كأسًا طافحة.

أمضيت مع روبن شهر عسل رائعًا في منطقة يوسيميتي. كنّا معزولين بالحبّ عن كلّ العالم المحيط بنا، وكنّا نرفل بالسعادة. ولكن، عندما ذهبنا في نهاية الرحلة في زيارة إلى سان فرانسيسكو، حيث أحاطت بنا مجموعات من الشبّان المرحين، عادت طبيعتي المنزوية لتدهمني ثانية.

ثمّ ظهرت دجيني في حياتي، كما لو أنّها قد أُرسلت خصوصًا لأجلي. كانت دجيني من كارولاينا الجنوبيّة. ولم تكن تعير صناعة الأفلام اهتمامًا، بعكس معظم الآتين من خارج المدينة. كانت فقط «تريد أن تحاول القيام بشيء جديد». وبينما كنت أنا وروبن نجول شمال كاليفورنيا كعروسين، عُيِّنت دجيني مديرة لمبنى المكاتب حيث كنا قد استأجرنا أنا وروبن مكتبًا، وهو عبارة عن مبنى إسمنتيّ رماديّ اللون على طريق هوليوود.

جاءت دجيني بعد عودتنا لتسألني ما إذا كنّا ننوي دفع إيجار المكتب المستحقّ منذ مدّة. قدّمت لها المبلغ والاعتذارات في اليوم نفسه، وظللت أحوم حولها وهي تعدّ الأوراق النقديّة وقد غمرني الشعور بالذنب. لاحظتُ وجود نصف كيك على طاولة مكتبها ملفوف بورق تغليف شفّاف، كما لاحظتُ وجود جهاز تشغيل أقراص صغير، كانت تستمع إلى ما يشبه مجموعة من «أجمل أغاني الحبّ». نظرتْ إليّ وابتسمتْ وهي تقلّب الأوراق النقديّة بإبهامها، وقالت لي:

– لا أجيد عالم الأرقام. أنا أعدّ النقود لأظهر بمظهر الموظّفة الكفوء.

عدّت النقود مرّتين قبل أن تكفّ عن المحاولة. قالت لي وهي تضع النقود في الصندوق المخصّص لها:

– أنا أثق فيك. يبدو عليك الأمانة والصدق. هل ترغبين بقطعة كيك؟ أعددتها بنفسي الليلة الماضية. أخشى أن أتناولها كلّها إذا ظللت آكل بهذا الشكل.

كان الكيك رائعًا، وبينما كنت أتناوله وأنا واقفة قرب طاولة مكتبها، حدّثتني عن مقابلتها مع الرجل الغريب الذي يملك البناء. كان تقليدها إيّاه متقنًا إلى حدّ الكمال. شعرت بأنّني «أريدها أن تكون صديقتي». كانت لا تشبهني في شيء، ولا تشبه أيًّا ممّن عرفتهم في حياتي، وهذا ما جعلني أحبّها أكثر.

لقد حققت ما أريد. وجدت أصدقاء في نهاية المطاف. كنت لا أزال أحمل جروح الماضي، لكنّ شخصيّة سارة ماكيه بدأت تتبلور كمديرة جمعيّة خيريّة، لطيفة، يمكن الاعتماد عليها إلى درجة فائقة، ذكيّة أحيانًا. لكنّ دجيني كارميكايل كانت هي المعْبَر لكلّ ذلك: فمن طريقها بدأت أتعرف إلى الناس، لكي أقتنع أنّ في إمكاني الانتماء إلى هذه المدينة التي كنت بحاجة لأن أعتبرها وطنًا لي.

بعد ثلاث سنوات، لم تصبح دجيني مجرّد صديقة حميمة، بل أصبحت أيضًا قيمة مضافة ثمينة بالنسبة إلى جمعيّتنا الخيريّة. عندما استأجرنا أنا وروبن مبنى في فيرمونت، عل بعد مبنيين فقط من مستشفى الأطفال، تركت دجيني وظيفتها وانتقلت للعمل معنا. لم يكن مقرّنا الرئيسي الجديد يتميّز بجمال المنظر، بل كان محاطًا بعيادات طبيّة مشبوهة، وبصالات الغسيل العموميّة، ومطاعم الوجبات السريعة، لكن الإيجار كان منخفضًا، كما أنّه كان يضمّ ساحة كبيرة مفتوحة استخدمت كمدرسة كان روبن يدرب فيها الأشخاص الجدد ممّن سيعملون في مجال الترفيه عن الأطفال. عملت دجيني أوّلًا مديرة لمكتبنا، ثمّ أصبحت «واحدة من الذين يساعدون في الحصول على هبات». وفي نهاية المطاف، وبعد سنوات عدّة، احتلّت منصب نائبة الرئيس المسؤول عن جمع التبرّعات.

بعد مرور عام تقريبًا على لقائنا، بدأت دجيني تعيش قصّة حبّ مثاليّة، وهي ترفل حاليًّا بالسعادة، وتسكن في أطراف حيّ ويست ليك في منطقة هيستوريك فيليبينو تاون مع رجل يدعى خافيير كان يعمل في إصلاح السيّارات الرياضيّة التي يملكها الأثرياء، ويشتري لها الزهور كلّ أسبوع. كانت دجيني تعيش لأجل إجازاتهما الرومانسيّة وتتحدّث عن خافيير كما لو أنّه كان إلهًا.

ظلّ خافيير ودجيني يحاولان إنجاب طفل مدّة إحدى عشرة سنة. لم تكن دجيني تشكو، فلم يكن لديها الوقت لتضيّعه في الشكوى، لكنّ الموضوع كان شديد الوطأة عليها. كان يدمّر روح صديقتي ببطء. ومن أجلها، صلّيت لربّ لم أكن أؤمن به: أرجوك امنحها طفلًا. هذا جلّ ما تتمنّاه.

إذا لم تنجح محاولة التلقيح الاصطناعيّ الأخيرة، فلا أدري ما يمكن أن تفعل. لم يكن خافيير ودجيني يملكان المال الكافي لدفع تكاليف العلاج عندما تتوقّف شركة التأمين عن التغطية. وعندما عانقتها مودِّعة في مطار لوس أنجلوس، قالت لي بشجاعة: هذه المحاولة الأخيرة!

أصيبت دجيني بصدمة لدى انفصالي عن روبن. فقد بدّد ذلك كلّ معتقداتها حول الحبّ: لا شكّ في أنّ ثمّة أشخاصًا ينفصلون بالطلاق، ولكن ليس الأشخاص الموجودين في حياتها بشكل مباشر. تجاوزت الصدمة من طريق لعب دور المنقذ، وهو دور يلائم طبيعتها. حمّلت تطبيقات في هاتفي، ودعتني إلى الإقامة في غرفة الضيوف في شقّتها، وأعدّت لي عددًا هائلًا من قوالب الحلوى.

– إذًا، إيدي حاول الاتّصال بك، أليس كذلك؟ هل عادت الأمور إلى طبيعتها؟

– كلّا، بل أن ما حدث فعليًّا هو العكس. لقد عاود الظهور في العالم – على افتراض أنّه غادر إلى مكان ما – لكنّه لم يردّ على أيّ من رسائلي، بل تجاهلني تمامًا.

– عزيزتي، انتظري لحظة. توقّف صوت الموسيقى من حولها.

– لقد أوقفت الفيلم. خافيير، سأكمل هذه المكالمة على الشرفة. سمعت صوت إغلاق باب الشرفة خلفها.

– آسفة سارة. هل لك أن تعيدي ما قلتِه رجاء؟

أعدت كلّ ما قلته. كانت دجيني في ما يبدو بحاجة لبضع لحظات كي تستوعب أنّ محاولتي الثانية لأعيش قصّة حبّ قد منيت بالفشل الذريع.

لم يكن من عادة دجيني إطلاق اللعنات، لكنّها تفوهت بشتيمة بذيئة، وسألتني:

– هل حصل ذلك فعلًا؟

– نعم، لقد حصل فعلًا. حياتي حاليًّا مشوّشة. ولا شكّ في أنّك أدركت ذلك لأنّني أتّصل بك والساعة الآن قاربت الرابعة فجرًا.

كرّرتِ الشتيمة البذيئة. أطلقت أنا ضحكة فاترة. فطلبت مني:

– أخبريني كلّ ما حدث منذ أن تراسلنا آخر مرّة. وابتعدي من الحاسوب أيضًا. فقد أرسلتِ بعض الرسائل المخبولة خلال الساعات القليلة الماضية.

أخبرتها بكلّ ما حصل. عندما انتهيت من الكلام، قلت لها:

– هذه هي القصة. وأعتقد أنّني سأحاول أن أنساه.

قالت دجيني بشيء من الحدّة:

– كلّا! كانت لا تحبّ رؤية أحد يصدّ مشاعر الحبّ، ثمّ أضافت: إيّاك أن تستسلمي. سارة، أعرف أنّ الناس في معظمهم يطلبون منك ترك هذا الرجل وشأنه، ولكن... أنا لم أصل بعد إلى مرحلة اليأس منه. وأنا واثقة، بقدر ما أنت واثقة، في أنّ ثمّة تفسيرًا لما حصل.

ابتسمتُ ابتسامة سريعة، وسألتها:

– تفسير من أيّ نوع؟

– لا أعرف. قالت بهدوء. لكنّني مصمّمة على حلّ هذا اللغز.

– وهكذا كنت أنا أيضًا.

– سنحاول فهْم ما حصل، قالت ضاحكةً. أمّا الآن فاصمدي، اتّفقنا؟ وبالمناسبة، ما شعورك بشأن يوم غد؟

– يوم غد؟

– أعني لقاءك مع روبن وكايا. في مكان ما لعرض الأفلام قرب شاطئ نهر التايمز، أليس كذلك؟

– روبن في لندن؟ مع صديقته الجديدة؟

– ... نعم، أخبرني أنّه بعث لك برسالة إلى بريدك الإلكترونيّ لترتيب موعد لارتشاف القهوة غدًا، ولكي يعرِّفك إلى كايا حتّى لا تتقابلا أوّل مرّة لدى عودتك إلى كاليفورنيا.

– ولكن، لماذا جاءت هي إلى لندن؟ ولماذا كلاهما في لندن؟ المفترض أنّني ذاهبة إلى غلوسترشير غدًا! أنا – ماذا؟

– كايا هي التي رغبت في المجيء، قالت دجيني، وما في يدها حيلة. فهي لم تزر لندن منذ سنوات. وكان روبن يملك البطاقة التي اشتراها من أجل إجازتكما معًا...

غُصْت في فراشي منهارة. بالطبع، كنّا قد حجزنا أنا وروبن بطاقتين للمجيء إلى المملكة المتّحدة، وكان ذلك في شهر يناير عندما كنّا لا نزال نلعب تلك اللعبة الكئيبة، لعبة الزوج والزوجة. فقد كان من عادتي العودة إلى وطني كلّ عام في ذكرى الحادث، وغالبًا ما صحبني روبن – رغم أنّه لم يفعل ذلك منذ سنوات. آنذاك، وعدني بمرافقتي.

– سوف أذهب معك هذا العام. أنا أعرف كم تفتقدين شقيقتك. سارة، سأكون إلى جانبك هذا العام.

وهكذا حجزنا البطاقتين. بعد ذلك، طلب منّي الطلاق. وأخبرني بعد بضعة أيّام:

– لقد أجّلت بطاقتي إلى تاريخ لاحق. كان يراقبني، وقد بدا على وجهه تعبير يشي بالشعور بالذنب وبالحزن، ثمّ أضاف: لم أتوقّع أن ترغبي في رفقتي.

– بالطبع، هذه فكرة جيّدة؛ شكرًا لأنّك فكّرت في مشاعري. لم يدر في رأسي أن أسأل متى قرّر السفر. والحقيقة أنّني قلّما كنت أفكّر في أيّ شيء خلال تلك الفترة؛ كلّ ما كان يعنيني آنذاك هو مَدُّ أطرافي بحذر وتدريب عضلاتي الجديدة الصغيرة. كنت أجرّب، بفضول، نوع الحياة في

عالم لا يوجد فيه روبن. وكان الشعور بالسهولة والسلاسة وبوجود مستقبل وفضاء رحب في هذا العالم الجديد الجريء، يملأني خذلانًا. أين غاب الشعور بالفجيعة؟

قالت دجيني التي لم تكن راغبة في المضيّ في هذا الحديث:

– لقد حجز بطاقة لكايا. أنا آسفة، لكنّه قال أنّه سيبعث لك برسالة في البريد الإلكترونيّ.

– لا شكّ أنّه فعل. لكنّني لم أستلمها إلى الآن. أغمضت عينيّ، ثمّ تابعت: كم سيكون الجوّ حميمًا. أنا وروبن وصديقته الجديدة.

أطلقت دجيني ضحكة فاترة. قلت بعد لحظة:

– آسفة، لم أكن أقصد أن ألومك بقولي؛ كلّ ما في الأمر أنّني أصبت بصدمة. لكنّ الخطأ خطإي في أيّ حال. كان يجب أن أطّلع على بريدي الإلكترونيّ.

سمعت ابتسامتها. كانت دجيني تشعر بالذنب نوعًا ما. فطمأنتني:

– عزيزتي، أنت تتصرّفين بشكل رائع، في ما عدا الاستيقاظ في منتصف الليل. يمكن تعديل ذلك ببعض الجهد.

– يا إلهي! قلت لها وقد أغمضت عينيّ. لم أسألك حتّى عن وضع التلقيح الاصطناعيّ. في أي مرحلة أصبحت؟ هل تمّ سحب البويضات؟

– نعم، سحبوها وانتهى الأمر، قالت دجيني بعد صمت. ذهبت الأسبوع الماضي، وأُخِذ منّي ما أُخذ حتّى أُنهكت قواي. بعثت لك برسالة في هذا الخصوص، على واتساب. زُرع ثلاثة أجنّة لأنّ هذه هي فرصتي الأخيرة. سأعرف النتيجة الأسبوع المقبل.

أخذت نفسًا كأنّها تهمّ بإضافة شيء آخر، لكنّها توقّفت. كان صمتها ينوء بحمل مرهق من اليأس.

– دجيني، أنا آسفة للغاية، قلت لها بلطف. كنت أظنّ أنّك ما زلت في مرحلة تحفيز المبيض. أنا... يا إلهي، أنا آسفة. أعرف أنّ هذا ليس بعذر، لكنّني لست في وضع طبيعي حاليًّا.

– أعرف، ردّت بلهجة مرحة. لا تشعري بالذنب. لقد كنتِ إلى جانبي في كلّ مرّة تلقّيت تلقيحًا اصطناعيًّا. ولك الحقّ في ارتكاب خطإ ما.

كان هناك مرح مبالغ فيه في صوتها، أدركت أنّني خذلتها. في العتمة الحالكة التي كانت تغمر غرفة الضيوف في شقّة زويه، شعرت بالدم يندفع إلى وجهي بفعل ازدراء الذات.

سمعت دجيني تجيب خافيير عن شيء قاله بصوت مرتفع، ثمّ أخبرتني أنّها مضطرّة إلى إنهاء المكالمة.

– سارة، اسمعي اقتراحي. أعتقد أنّ عليك البدء من جديد مع إيدي، كأنّك قابلته توًّا. لماذا لا تبعثين له برسالة تخبرينه فيها بكلّ شيء عنك، كأنّكما في موعدكما الأوّل؟ أخبريه بكلّ الأمور

التي لم يتسنّ لك إخباره بها. مثلًا... هل يعرف بأمر الحادث؟ هل يعرف بأمر شقيقتك؟

– دجيني، فلنتكلّم عنك. لقد دار الكثير من الأحاديث حولي وحول حياتي المثيرة للشفقة.

– عزيزتي، أنا أعتني بنفسي جيّدًا. فأنا أستحضر صورًا إيجابيّة في خيالي وأغنّي وأمارس رقصات الخصوبة وأتناول كلّ أنواع الطعام الصحّي الدسم. إنه كلّ ما أستطيع فعله. لكنّ هناك الكثير ممّا تستطيعين أنت فعله. صمتت قليلًا، ثمّ تابعت: سارة، لن أنسى في حياتي يوم رويت لي كيف وقع الحادث. كان أمرًا مروّعًا لم أسمع بمثله في حياتي، لقد جعلني ذلك أحبّك سارة. أحبّك فعلًا. أعتقد أنّ عليك إخبار إيدي.

– لا أستطيع أن أرسل إليه قصّة تثير البكاء لكي أدفعه إلى تغيير رأيه.

– أنا لا أعني ذلك. أنا أعتقد فقط... ثم تنهّدت وتابعت: أعتقد أنّ عليك أن تعرّفيه إلى نفسك بشكل صحيح. دعيه يعرف كلّ جوانب شخصيّتك، حتّى الجوانب التي لا ترغبين في أن يعرفها الناس. دعيه يدرك أنّك امرأة استثنائيّة.

لذتُ بالصمت. شعرت بحرارة الهاتف على وجنتي.

– دجيني، أنا محظوظة لأنّ ردّ فعلك جاء على هذا النحو. قلّة من الناس قد يكون ردّ فعلها مماثلًا.

– أنا لا أوافقك الرأي.

استويت جالسة واستندت إلى الوسائد. وأردفت:

– إذًا... يتجاهلني هو تمامًا أكثر من شهر، وفجأة أبعث له برسالة أتحدّث فيها عن طفولتي؟ سيتراءى له أنّني أصبت بالجنون. هذا أكيد.

ضحكتْ ضحكة خافتة، ثمّ أجابت:

– لن يظنّ ذلك. كما قلت لك، سوف يحبّك، مثلما أحببتك أنا.

عدت للاسترخاء في جلستي.

– دجيني، من ترانا نخدع؟ «ينبغي» أن أنساه.

انفجرتْ ضاحكة.

– لماذا تضحكين؟

– لأنّك لا تنوين نسيانه.

– بل أنوي نسيانه.

– لا، أنت لا تنوين. ضحكتْ ثانية. لو كنت تودّين نسيانه، لو كنت فعلًا تودّين ذلك، سارة ماكيه، لكنت أنا آخر إنسانة على وجه الأرض تتّصلين بها طلبًا للنصيحة.

الفصل السادس عشر

اليوم الخامس: شجرة زان، حذاء طويل الساق

كان إيدي يتحدّث بالهاتف مع ديريك ثانية. لم أكن أعرف ديريك، ولكن خطر لي أنّه قد يكون شخصًا يتعامل معه: فقد كان إيدي يتحدّث معه بطريقة رسميّة أكثر من الطريقة التي تحدّث بها عندما اتّصل به أحد أصدقائه في اليوم السابق. كانت محادثته مع ديريك عصر ذلك اليوم موجزة، وكان إيدي يكرّر: «صحيح» أو «اتّفقنا» أو «تبدو الفكرة جيّدة». انتهت المكالمة بعد بضع دقائق. عاد إلى الداخل ليعيد جهاز الهاتف إلى مكانه.

كنت جالسة على مقعد طويل خارج البيت، أقرأ طبعة قديمة من كتاب «رجلنا في هافانا» عثرت عليها على رفّ كتبه. اكتشفت أنّني ما زلت أحبّ المطالعة. أحببت فكرة أن يخترع روائيّ يتلقّى راتبًا من جهاز الاستخبارات البريطاني، شخصيّة بائع مكانس كهربائيّة تعيس الحظّ، تجنَّد في جهاز الاستخبارات لكي يفي بمتطلّبات الحياة الباذخة لابنته الجميلة. أحببت أن أتمكّن من القراءة عن هذا الرجل ساعات من دون التوقّف لحظة لإعادة النظر في حياتي. أحببت أن أجلس لقراءة كتابًا من دون أن أكون مضطرة للذهاب إلى أي مكان، أو لأداء أي عمل. شعرت بأني سارة القديمة التي كنت قد نسيتها كليًا.

لم يكن الحرّ قد خف بعد، لكن الوهج كان قد بدأ بالتلاشي. كان الهواء لا يزال ساكنًا ثقيل الوطء، يحوم مثل طير ضارٍ قبل الانقضاض على فريسته. كانت ثيابي منشورة على حبل غسيل فوق شجيرة كثيفة من زهور الدفلى، لا تحرّكها ولا حتى نسمة هواء صغيرة. تثاءبت وأنا أتساءل إن كان يفترض بي أن أذهب إلى منزل والدَيّ للاطمئنان بأن كل شيء على ما يرام.

كنت أعلم أنني لن أذهب. بعد الليلة الثانية التي قضيناها سويًا، بدا واضحًا أننا سنبقى في مكاننا، في هذا العالم المعلَّق، إلى أن يعود والداي من ليستر أو يذهب إيدي في إجازته. لم أكن

أرغب في مفارقته ساعة واحدة، وإن كانت لأذهب إلى منزل والدَيّ والعودة منه. ففي تلك اللحظة، كان الكون الذي أعرفه قد توقّف، ولم تكن فيّ رغبة في إعادة عجلته إلى الدوران.

كان السنجاب ستيف يراقبني من على خطّ المرجة المحيطة بالبيت. قال له إيدي عندما عاد من الداخل: مرحبًا أيّها المجرم! نظر إلى السنجاب وقلّد حركة تصويب بندقية. لم يُبدِ ستيف أيّ حركة.

جلس إيدي جانبي، ابتسم وقال:

– أحبّ منظرك وأنت ترتدين ملابسي.

سحب الحبل المطّاطيّ في سرواله العريض الذي كنت أرتديه وتركه ليضرب خاصرتي. كنت ألبس السروال مع أحد قمصانه القطنيّة، وكان مهترئًا عند الكتفين. كانت رائحة إيدي تفوح منه. تثاءبتُ ثانية، ومددت يدي وجذبت الحبل المطّاطيّ في السروال الذي كان يلبسه هو. كان وبر ساقي ظاهرًا. لكنّني لم أكن أكترث لأيّ شيء. كانت السعادة قد حولتني امرأة بلهاء.

– هل تودّين الذهاب في نزهة مشيًا؟ سألني.

– لمَ لا؟

لكّننا بقينا جالسَيْن على المقعد فترة، نتبادل القبل، ونجذب الحبال المطّاطيّة ونفلتها، ونضحك من دون سبب.

عندما انطلقنا في نزهتنا، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل. وكنت قد ارتديت ثيابي العابقة بضوء الشمس وبرائحة مسحوق الغسيل الذي يستعمله إيدي.

بعد بضعة أمتار من سيرنا مع مجرى النهر، انحرف إيدي عن الممرّ وبدأ يتسلّق الهضبة بخطى واسعة، متّجهًا إلى قلب الغابة. غاصت أقدامنا في الطبقة اللزجة التي تغطي أرض الغابة، والتي لم يكن أحد وطأها. قال لي إيدي:

– أريد أن أريكِ شيئًا هناك في الأعلى. شيئًا سخيفًا، لكنّني أحبّ المجيء إلى هنا من حين لآخر لأتأكّد أنّه ما زال موجودًا.

– ويمكن هذه النزهة أن تكون النشاط الأبرز في يومنا، قلت مبتسمة.

لم ننجز الكثير من الأمور المهمّة مُذ بدأت علاقتنا. نمنا كثيرًا، مارسنا الحبّ كثيرًا، أكلنا كثيرًا، تحدّثنا ساعات. صمتنا ساعات. قرأنا كتبًا، راقبنا طيورًا كثيرة، اخترعنا رواية طويلة حول كلب كان يشتمّ الفسحة أمام بيت إيدي بينما كنّا في أحد الأيّام جالسين على المقعد الطويل، نتناول رقاقات دقيق الذرة الإسبانيّة.

في اختصار، رغم أنّ كلّ شيء كان يحدث، لم يكن يحدث أيّ شيء.

ضغطت على يده بينما كنّا نتسلّق الهضبة وسط أشجار الغابة، فقد دهمني ثانية الشعور بالذهول من بساطة كلّ شيء. كان هناك تغريد الطيور، وصوت أنفاسنا، والإحساس بأنّنا نغوص

في لزوجة الأرض. وما عدا الشعور بالرضا، لم يكن هناك أيّ شعور آخر: لا حزن ولا ندم ولا تساؤلات.

سرنا إلى أن اقتربنا من القمّة، عندما توقّف إيدي. قال لي وهو يشير إلى شجرة زان:

– انظري هناك إلى الأعلى. لغز الحذاء ذي الساق الطويلة.

تطلّب الأمر بعض الوقت قبل أن أراه، ولكن عندما رأيته أخيرًا، ضحكت وسألته:

– كيف فعلت ذلك؟

– أنا لم أفعل. لقد اكتشفت وجوده ذات يوم. وليست لديّ أدنى فكرة كيف وصل إلى ذلك المكان، أو من وضعه. فطوال السنوات التي عشتها هنا، لم أصادف أحدًا في هذا الجزء من الغابة.

على ارتفاع عالٍ – يتجاوز عشرين مترًا – كان هناك غصن مرتفع إلى السماء، ويبدو أنّه قد انكسر. على الجزء المتبقّي منه على الشجرة، وُضِع حذاء طويل الساق. وكانت قد نمت، منذ ذلك الوقت، بعض الأغصان الصغيرة الخضراء تحت الغصن المكسور، لكنّ جذع الشجرة كان ناعمًا في بقيّة أجزائه: لا يمكن تسلّقه.

تأملت الحذاء مليًّا، وأنا اشعر بالحيرة حيال وجوده، وبالسرور لأنّ إيدي رغب في أن أراه. أحطت خصره بذراعيّ وابتسمت. شعرت بأنفاسه وبضربات قلبه وبقميصه القطني الذي أصبح رطبًا بفعل تسلّق الهضبة في ذاك الجوّ الحارّ.

– إنه لغز بالفعل. أعجبني.

قلّد إيدي حركة رمي الحذاء على الشجرة مرّات عدّة، ثمّ تخلّى عن المحاولة. كان أمرًا عصيًّا على الفهم.

– لا أدري كيف تمكّن شخص من وضعه هناك. لكنّني معجب بما فعله.

استدار وقبّلني، ثم تابع:

– إنه لأمر سخيف، لكن عرفت أنّك ستحبّينه.

ضمّني بذراعيه بقوّة. قبّلته أنا ثانية، بقوّة أكبر. لم أكن أرغب في أيّ شيء سوى تقبيله.

تساءلت في سرّي كيف سأتمكّن من العودة إلى لوس أنجلوس في حين كانت سعادة بهذا القدر موجودة هنا. هنا في المكان الذي كنت أدعوه يومًا وطني.

في نهاية المطاف، وجدنا أنفسنا مستلقيين فوق أوراق الأشجار.

دخلتْ في شعري موادّ لزجة، وربّما حشرات أيضًا، لكنّني لم أشعر سوى بالبهجة. بهجة عميقة تشعّ في كلّ أنحاء جسمي.

الفصل السابع عشر

عزيزي إيدي،

تأنّيت طويلًا قبل أن أكتب هذه الرسالة. فلماذا أحاول الاتّصال بك – مجدّدًا – بعد أن أظهرتَ وبوضوح أنّك حيّ ترزق لكنّك غير راغب في التواصل معي؟ كيف يمكن لي أن أكون يائسة إلى هذا الحدّ، وألّا أحترم صمتك؟

لكنّني تذكّرت ليلة أمس يومَ تسلّقنا الهضبة لرؤية الحذاء الطويل الساق. كم كان تصرّفًا سخيفًا وممتعًا؛ كيف وقفنا نتأمّل الحذاء في أعلى الشجرة ونضحك. بعد استعادة تلك الذكرى، خطر لي أنّني لست مستعدّة للتخلّي عنك. للتخلّي عنّا. ليس بعد.

الموضوع كالتالي: هذه محاولة أخيرة يائسة لمعرفة ما حصل. لإدراك أين أخطأتُ في تقديراتي.

إيدي، هل تذكر ليلتنا الأخيرة سويًّا؟ عندما كنّا خارج البيت جالسين على العشب قبل أن نسحب خيمتك الكبيرة إلى الخارج، ونمضي ساعات في محاولة نصبها؟ هل تذكر أنّني كنت أنوي أن أروي لك قصّة حياتي قبل أن نرتمي، وقد استولى علينا الإرهاق، داخل تلك الخيمة اللعينة؟

سأبدأ الآن رواية قصّة حياتي منذ بدايتها. أو في الأقلّ رواية الأحداث المهمّة فيها. لعلّ ذلك يذكّرك بالسبب الذي جعلك تحبّني. لأنّه، ومهما كانت الأمور التي ربّما تمكّنتَ من إخفائها عنّي، فإنّ شعورك بالحبّ نحوي لم يكن أمرًا مختلَقًا. وأنا واثقة في ذلك تمام الثقة.

سأبدأ إذًا. أنا سارة إيفلين هارنغتون. ولدت في غلوسيستر رويال، الساعة الرابعة والدقيقة الثالثة عشرة بعد ظهر يوم الثامن عشر من فبراير، العام 1980. كانت والدتي مدرّسة رياضيّات في إحدى الثانويّات في مدينة تشيلتنهام، وكان والدي مهندس صوت. قام والدي بالكثير من الجولات مع مختلف الفرق الموسيقيّة إلى أن بدأ يشتاق إلينا كثيرًا. بعد ذلك، عمل في مجال الصوتيّات في مدينتنا. وما زال حتّى الآن يعمل في هذا المجال، فهو لا يستطيع التوقّف عن العمل.

قبل عام تقريبًا من ولادتي، اشترى والداي بيتًا صغيرًا مهدّمًا في الوادي الواقع أسفل قرية فرامبتون مانسيل، وهما يعيشان فيه إلى الآن. يبعد البيت مسافة خمس عشرة دقيقة تقريبًا في الممرّ المؤدّي إلى البيت الذي تعيش فيه أنت. والأرجح أنّك تعرفه. خلال فصل الصيف الذي انتقلا خلاله للعيش فيه، أعاد والدي وأحد أصدقائه فتح الممرّ القديم. تطلّب الأمر رجلين ومنشارين سِلسليّين وبضع زجاجات من البيرة.

لكنّ وجودي في ذلك الوادي معك جعل المكان يبدو مختلفًا تمامًا. ذكّرني بنفسي التي كنت قد نسيتها. وكما أخبرتك صباح اليوم الذي التقينا فيه أوّل مرّة، هناك سبب وجيه لذلك النسيان.

ولد تومي، صديقي، بعد بضعة أشهر من ولادتي لأب وأمّ «مخبولين نوعًا ما» (كما كان والدي يقول) يعيشان في نهاية الشارع الذي نقطن فيه. أصبحت وإيّاه صديقين حميمين وكنّا نلعب سويًّا كلّ يوم إلى أن حلّت لحظة المراهقة الغريبة التعيسة التي لا يعود فيها اللعب كافيًا. لكنّنا، حتّى تلك اللحظة، كنّا نخوض الجداول، ونأكل توت العلّيق حتّى التخمة، ونبني الأنفاق داخل النباتات البرّيّة الكثيفة.

عندما بلغت الخامسة، رزق والداي بطفلة ثانية – وهي هانا – وبعد بضع سنوات، انضمّت إلينا في مغامراتنا. كانت شقيقتي جريئة – أكثر جرأة منّا أنا وتومي، رغم أنّها كانت تصغرنا بسنوات. كانت صديقتها الحميمة، وهي فتاة صغيرة تدعى أليكس، تشعر بالرهبة منها، بالمعنى الحرفيّ للكلمة.

اليوم فقط، وبعد أن أصبحتُ امرأة راشدة، أدرك كم كنت أحبّ شقيقتي. وكيف كنت معجبة بها أيضًا.

كان تومي يمضي وقتًا طويلًا في منزلنا لأنّ والدته – بحسب تعبيره – «مجنونة». ولدى استرجاع الماضي، لا أعتقد أنّ هذا الوصف كان منصفًا في حقّها، رغم أنّها كانت، من دون شكّ، تنشغل بعمق في الأمور السطحيّة. نقلت الوالدةُ أسرتَها إلى لوس أنجلوس عندما كنت في الخامسة عشرة، وانفطر قلبي يومذاك حزنًا. فمن دون تومي، لم أعد أعرف نفسي. من الأشخاص الذين يمكنني اعتبارهم أصدقائي؟ من هي مجموعة الأصدقاء التي أنتمي إليها؟ كلّ ما كنت أعرفه هو أنّه كان يجب أن أصبح رفيقة أيًا كان وسريعًا قبل أن أصبح حديث المدرسة، وبذلك يتكرّس وضعي كشخص انعزالي.

هكذا صادقت فتاتين، ماندي وكلير، وكانت دائمًا علاقتي وديّة بهما – إن لم نقل صداقة – لكنّ العلاقة غدت أكثر انفعاليّة مع الوقت. فغالبًا ما تكون الفتيات في مقتبل العمر شرّيرات جدًّا.

بعد سنتين، كنت أتحدّث مع تومي بالهاتف الساعة الخامسة صباحًا، وكنت أرجوه أن يدعني آتي إليه لأبقى عنده. سوف أعود إلى هذا الموضوع لاحقًا.

سأتوقّف هنا. لا أريد إغراقك بتفاصيل حياتي، فقد تكون غير راغب في سماعها. وحتّى لو كنتَ كذلك، لا أريد أن أبدو وكأنّني الشخص الوحيد على كوكب الأرض الذي لديه ماضٍ.

إيدي، أنا مشتاقة إليك. لم أكن لأتصوّر أن يشتاق المرء لشخص لم يعرفه سوى سبعة أيّام، لكنّني مشتاقة إليك. مشتاقة إلى درجة لم يعد في إمكاني أن أفكّر بصواب.

سارة

الفصل الثامن عشر

كان روبن واقفًا قرب إحدى الطاولات في مقهى المعهد البريطاني للأفلام، يتحدّث إلى صديقته الجديدة التي لم أتمكّن من رؤية وجهها. كان قرب يده فنجان قهوة وفي أسفله يرقد التفل، وكان كلّ ما فيه يوحي برباطة الجأش وبإحساس جديد بالذكورة.

تذكّرت الفتى النحيل الخجول الذي وجدته واقفًا يرتجف خارج مطعم مكسيكي منذ سنوات. كان شعره غارقًا بجلّ ملمّع، وكانت تفوح من عنقه رائحة عطر رخيص يستخدمه الرجال بعد الحلاقة. تذكّرت صوته المتردّد الخافت وهو يدعوني إلى الخروج معه بعد بضع ساعات. كم يبدو مختلفًا الآن! رجلًا عريض المنكبين، قويّ البنية، البطل التقليدي الآتي من كاليفورنيا، ببنطاله القصير الدارج، ونظّارته الشمسيّة، وتسريحة شعره غير المصفّفة عمدًا. لم أتمالك نفسي، فابتسمت. قلت عندما وصلت إلى طاولتهما:

– مرحبًا.

– آه! أهلًا، قال روبن. ولوهلة رأيت الشابّ الذي تزوجت. الرجل الذي ظننت يومذاك أنّني سأبقى معه إلى الأبد، لأنّ الحياة الدائمة بقربه، في تلك المدينة البهيجة المشرقة بضوء الشمس، كانت، كم ظننت آنذاك، كلّ ما أحتاج إليه.

وقفَت كايا وقالت:

– مرحبًا! لا بدّ أنّك سارة.

– مرحبًا. مددت يدي لمصافحتها. يسعدني أن ألتقي بك.

كانت كايا نحيلة القوام صافية العينين. تبدو عند أسفل فكّها آثار قديمة لحبّ الشباب، تتلاشى تدرّجًا لتختفي عند خدّيها الناعمين؛ وكان شعرها الأسود ينساب على ظهرها من دون تكلّف.

تجاهلتْ يدي الممدودة وقبّلتني على وجنتي، وهي تحضن كتفي وتبتسم بحرارة، أدركتُ في تلك اللحظة أنّ القياد سيكون لها اليوم. كانت تلك امرأة كاملة، وأنا لم أكن كذلك.

– تمكّنّا أخيرًا من ترتيب هذا اللقاء، قالت، وهذا رائع. كنت أتطلّع منذ فترة طويلة للتعرّف إليك، فأنا لا أعرف سوى اسمك.

لا شكّ في أنّ كايا كانت امرأة من نوع خاصّ، إذ إنّها لم تتقصَّ عنّي في محرّك البحث غوغل. ولكن أنا لم أكن امرأة من نوع خاصّ، إذ بحثت عن صورتها في غوغل لحظة عرفت اسمها الكامل، لكنّ كايا، بالطبع، لم يكن لها أيّ أثر في الشبكة. كانت نقيّة أكثر ممّا ينبغي.

جلست كايا، وهي تبتسم بينما كنت أبحث عن مكان لحقيبة يدي تحت الطاولة، وأخلع السترة التي كانت تجعل العرق يتفصّد من جبيني. خطر لي، وأنا أحرّر ذراعي من السترة، أنّ كايا كانت من النساء اللواتي أراهنّ أحيانًا جالسات على الشاطئ وقت الغروب يمارسن اليوغا. كنّ لطيفات وراسخات يغطّي الملح بشراتهنّ وتتلاعب الريح بشعورهنّ.

قال روبن، وهو يجلس:

– إذًا... ها نحن الآن هنا، أليس كذلك؟ أخذ نفسًا ثمّ أغلق فمه، مدركًا أنّه لا يجد ما يقوله.

نظرت إليه كايا ورقّت ملامحها. فكّرت بسذاجة أنّ تلك هي نظرتي. هكذا كنت أنظر إليه عندما أشعر بأنّه في حيرة، فيعدّل مزاجه. كانت ترتدي ثوبًا طويلًا عليه نقش آسيويّ فولكلوري وتتسوّر بمجموعة من الأساور الفضّيّة، وكانت تبدو، إلى حدّ ما، أكثر الحاضرات أناقة. بادرتني وهي تستدير نحوي:

– سارة، سمعت عنك الكثير. ولا شكّ في أنّ شخصيّتك تتمتّع بمزايا أكثر ممّا تشي به ملابسك.

ترى، هل كانت تقرأ أفكاري؟

– ولكن، يجب أن أعترف بأنّ تنّورتك جميلة.

مسّدت تنّورتي. كانت من أفضل قطع الثياب التي أملكها، فعليًّا، لكنّني شعرت بالخجل وأنا أرتديها اليوم. وكأنّه مجرّد يوم جمعة عاديّ وقد تأنّقتُ أكثر ممّا ينبغي.

– شكرًا.

حاولتُ من دون جدوى التفكير في شيء ما أقوله لها، لكي أبرهن أنّ شخصيّتي تنطوي على مزايا أكثر من ثيابي.

أخرجت حافظة نقودها، واقترحت:

– سأحضر بعض المشروبات. ماذا تريدين أن تشربي؟

– هذا لطف منك.

نظرت إلى ساعتي، واكتشفت لخيبة أملي أنّ الظهر لم يكن قد حان بعد. طلبت عصير ليمون مع الصودا، رغم أنّني لم أكن راغبة في شيء.

قامت عن كرسيّها برشاقة، ووقف روبن أيضًا، قائلًا:

– سأساعدك.

– لديّ فكرة، قالت. اجلسا سويًّا وتبادلا الحديث عن آخر أخباركما.

أصرّ روبن على الذهاب معها، وهكذا، وجدت نفسي وحيدة.

بدأت أفكّر، وأنا أمسح العرق عن جبيني. هكذا هو الوضع إذًا. هذا هو مستقبلي. إدارة الجمعيّة مع زوجي السابق الذي يواعد حاليًّا فتاة تمارس اليوغا. وهي فتاة لطيفة أيضًا. راقبتهما يسيران نحو البار. أحاط روبن خصرها بذراعه ثمّ التفت، كمن يشعر بالذنب، ليتأكّد أنّني لم أره.

هذا هو مستقبلي.

كان روبن قد جاء إلى المكتب بعد ستّة أسابيع من انفصالنا، وبدا واضحًا أنّه كان على وشك الإصابة بانهيار عصبيّ. سألته، وأنا أراقبه من خلف حاسوبي، وهو يصطدم بإحدى خزانات المعدّات الخاصّة بالعروض:

– هل أنت على ما يرام؟

استدار بسرعة، كانت في عينيه نظرة جامحة. وقال بشكل مفاجئ، وهو منكمش داخل باب الخزانة:

– لقد قابلت فتاة.

سقط عن الرفّ خلفه كيس كبير مليء بالأنوف الحمراء، التقطها وضمّها إلى صدره. همس:

– أنا آسف! لم أخطّط لذلك.

اقترب منّي وكأنّه فنّي متخصّص في تعطيل متفجّرات يقترب من جهاز ما. كان وجهه يتأمّل وجهي بشكل محموم. كانت الأنوف الحمراء تتساقط على الأرض قربه أثناء سيره، لكنّه لم يلاحظ.

– آسف جدًّا لأنّني أخبرك بذلك بعد انفصالنا بفترة وجيزة. هل تودّين الجلوس؟

أومأت إليه بأنّي جالسة أصلًا.

أذهلتني قلّة اكتراثي للأمر. كان غريبًا بالطبع، لكنّني وجدت نفسي أشعر بالفضول أكثر من الغيرة. روبن يواعد فتاة! روبن الذي أعرفه! ألحّ بالسؤال:

– هل أنت مصرّة على معرفة ما حصل؟

تمكّنت فقط من معرفة أنّ كايا كانت تعمل دوامًا جزئيًّا في بار لبيع العصير في فندق غليندل، وأنّها كانت معلّمة يوغا ومتدرّبة في مجال المعالجة الطبيعيّة، وأنّ روبن كان مأخوذًا فيها بالكامل.

راقبتها وهي تطلب المشروب. لم تكن جميلة بالمفهوم الغربي الواضح، ما يجعل الوضع أسوأ بطريقة ما. كانت متألّقة فحسب، كان تألّقها بطيئًا وثابتًا وآمنًا. شعرت بأنّها امرأة طيّبة. لطيفة

وطيّبة، على النقيض تمامًا من شخصيّتي المهووسة الكئيبة. ضغط روبن أرنبة أنفها وضحك. كان من عادته أن يفعل ذلك معي.

خطرت في بالي فكرة فظّة. كان الأمر سيبدو أسهل بكثير لو أنّ علاقتي بإيدي نجحت. وحتّى لو ركع روبن على ركبة واحدة وعرض الزواج على كايا، هنا في البار، لكنت صفّقت وأطلقت صيحات الابتهاج، ولرّبما كنت على الأرجح قد عرضت عليهما تنظيم حفل زفافهما.

لو أنّ إيدي اتّصل بي.

شعرت بقبضة تعتصر معدتي، تحقّقت من هاتفي كما لو أنّ تلك الحركة كانت ستفيد بشيء.

تجمّدت في جلستي فجأة.

هل كان... هل كان ذلك؟

إطار رسالة. كان هناك إطار رسالة رماديّ صغير، ما يعني أنّ إيدي – الحقيقي، الحيّ، الذي يتنفّس، في مكان ما من العالم – كان يكتب ردًّا على رسائلي. جلست، ساكنة تمامًا، أراقب الإطار، تلاشت منطقة ساوث بانك بالكامل.

أفادت كايا وهي تحضِر لي كأسي:

– ما أجمل أن يكون المرء في لندن.

لا! ليس الآن! ابتعدي منّي!

– نسيت كم أحبّ هذه المدينة! تابعت كايا.

نظرتُ إلى الهاتف. كان الإطار ما زال موجودًا. كان إيدي ما زال يكتب. شعرت بوخز في كلّ أنحاء جسمي. شعرت بخوف، بسرور. ثمّ خوف وسرور. رسمتُ ابتسامة مصطنعة على وجهي. كانت كايا تتختّم بخاتم من النوع الذي يصل إلى منتصف الإصبع. كنت قد اشتريت خاتمًا مشابهًا قبل سنوات وسقط من يدي في مرحاض عام على شاطئ إل ماتادور.

سألتها، وأنا أجبر نفسي على الكلام:

– أنت تعرفين لندن إذًا؟

الإطار ما زال في مكانه.

– جئت بضع مرّات في مهمّات عمل، أجابتني. كنت صحافيّة، كان ذلك في حياة أخرى.

ارتجفتْ قليلًا، وانتظرت آملة بأن تستمرّ في الكلام. لم يكن لديّ ما أقول. بالمعنى الحرفي للكلمة. لا شيء.

(تلك اللحظة! كانت تلك اللحظة إحدى اللحظات التي تحدّثتُ عنها مع السيّدة راشبي. الفقدان الكامل للذات. فقدان الآداب الاجتماعيّة، والقدرة على التواصل الاجتماعي مع الناس، والسيطرة على النفس.)

إطار الرسالة: ما زال موجودًا.
تابعت كايا الكلام:
– لكنّني اكتشفت أنّني لم أكن سعيدة في حياتي فعليًّا. صمتت قليلًا وهي تتذكّر الفترة التي لم تكن فيها سعيدة في حياتها. هكذا، بحثت في أعماقي عما كنت أحبّ فعلًا، فكانت النتيجة مجال التغذية والعيش في الهواء الطلق والحفاظ على هدوء جسدي وقوّته. تركتُ مجالًا كنت أحقّق فيه النجاح وبدأت التدرّب لأصبح معلّمة يوغا. كانت تلك الخطوة من أفضل الخطوات في حياتي.
– عظيم، أحيّيك على هذا الإنجاز.
أمسكت كايا يد روبن تحت الطاولة. وتابعت حديثها:
– ثمّ تعرّضت لصدمة كبيرة قبل سنتين، وفي تلك الفترة حصل التغيير العميق في حياتي...
إطار الرسالة: ما زال موجودًا.
– وعندما بدأت أتخلّص من أثار الصدمة، أدركت أنّه لا يكفي أن أكون صادقة تجاه نفسي وتجاه حاجاتي. كان عليّ أن أوسِّع نطاق رؤيتي؛ كان عليّ مساعدة الآخرين. أن أمنح من ذاتي من دون حساب، أرجو ألّا يبدو لك ذلك ورعًا مبالغًا فيه.
احمرّت وجنتاها. ضحكت وقالت:
– يا إلهي، أبدو شديدة الورع.
فتذكّرتُ أنّ الوضع بالنسبة إليها لم يكن أسهل ممّا هو بالنسبة إليّ. كان روبن ينظر إليها كأنّ السيّدة مريم كانت جالسة على المقعد في جواره. قال:
– لا أعتقد أنّك تبدين ورعة على الإطلاق. أليس كذلك سارة؟
تركت هاتفي على الطاولة هنيهة وتأمّلته. هل كان يطلب منّي جديًّا أن أجعل صديقته الجديدة تشعر بمزيد من الرضا عن نفسها؟
تابعت هي كلامها بسرعة:
– حتّى لا أطيل الحديث، وقّعت عقدًا لأعمل مساعِدة في مستشفى الأطفال. كانت راغبة في التوقّف عن الحديث عن نفسها. مساعِدة لجمع التبرّعات. أعمل هناك يومًا في الأسبوع في الأقل، وغالبًا أكثر من يوم. وهذه قصّتي.
أسرّيت لها، وأنا أشعر بالسرور لأنّنا وجدنا أخيرًا شيئًا مشتركًا:
– أنا أخصّص وقتًا طويلًا لجامعي التبرّعات من أجل مستشفى الأطفال في لوس أنجلوس. هم أشخاص رائعون، وأصدقاء مخلصون لجمعيّتنا. أعتقد أنّ هذا هو المجال الذي جمع بينكما، أليس كذلك؟

نظرت كايا إلى روبن الذي أومأ برأسه بتردّد. وددت لو أقول له أنّ الوضع طبيعي. أن أقول أنّني أغار من صديقتك، هذا صحيح، لكنّني أغار منها فقط لأنّها تمكّنت من تنظيم حياتها بهذا الشكل الناجح، وليس لأنّني ما زلت أرغب في أن أكون معك.

خطر لي بينما كنت ألتقط هاتفي ثانية (إطار الرسالة: ما زال موجودًا) أنّ الأسوأ هو أنّ مشاعري نحو إيدي – الذي عرفته سبعة أيّام فقط – كانت أعمق بكثير من مشاعري نحو روبن، الذي تزوّجته سبع عشرة سنة. كان عليّ أن أشعر أنا بالخجل وليس روبن.

وضعت هاتفي على الطاولة، وجهه إلى الأسفل، في انتظار وصول رسالة إيدي، وقد اجتاحتني موجة ارتياح مشوبة بالفزع. انتهى وقت الانتظار. خلال دقائق سأعرف كلّ شيء.

بدا واضحًا أنّ روبن لم تكن لديه أدنى فكرة عمّا يمكن أن يضيفه إلى الحديث، رغم السنوات التي أمضاها في عمل علّمه كيفيّة التواصل في ظروف شبه مستحيلة. تصنّع السعال، ثمّ بدأ الحديث حول ماء الحنفيّة في المكان الذي كنّا فيه، وكيف أنّه خال من طعم الكلور، وحول أمور سخيفة أخرى من هذا النوع.

انبعث صوت رجّاج هاتفي، اختطفت الجهاز. أخيرًا. أخيرًا.

كانت رسالة من والدي.

عزيزتي، إذا لم تتوجّهي بعد إلى غلوسترشير، فابقِ حيث أنت. لقد استقال الأشخاص الجدد الذين كانوا يعتنون بجدّك. ونحن استسلمنا وسنحضره إلى منزلنا لنعتني به بنفسنا. سنعطيه غرفة هانا. أرجو ألّا تلغي رحلتك. نحن نحبّك (ونحتاج إليك...) ولكن إذا كان في وسعك التأجيل حتّى الغد، فسنكون ممتنّين. والدك. قبلاتي.

عدت مباشرة إلى ماسنجر، وقد نسيت أمر روبن وكايا والناس أجمعين.

لم أجد أيّ رسالة. كان إيدي ما زال ضمن الشبكة، لكنّ إطار الرسالة كان قد اختفى.

شعرتُ بأن قسمات وجهي انهارت، بأنّ قلبي انهار.

أجبرت نفسي على النظر إلى كايا التي كانت توجّه الحديث إليّ.

– لقد شاهدت اثنين من الأطبّاء المهرّجين التابعين لجمعيّتكم في جناح للأورام قبل بضع سنوات.

هذا لا يمكن أن يحدث. أين الرسالة؟!

– كان هناك صبي حالته المرَضيّة صعبة وكان حزينًا ومستاء بشأن برنامج العلاج الكيميائي، رفض رؤية المجموعة عندما حضروا. أدار وجهه نحو الجدار، متظاهرًا بأنّه لا يشعر بوجودهم.

– شرحت لها أنّ أمورًا من هذا النوع تحصل غالبًا، علّق روبن بفخر. وهذا ما يجعل أفراد المجموعة يعملون فرقًا مؤلّفة من شخصين.

قالت كايا، وقد أشرق وجهها بابتسامة:

– فكرة ذكيّة! فهما يتوجّهان بالعرض إلى بعضهما بعضًا، ليتسنّى للطفل أن يقرّر ما إذا كان يرغب في المشاركة أم لا. أليس كذلك؟

– صحيح، صاح روبن. وبذلك يكون الأطفال في موقع القرار.

يا إلهي. من الذي يقدّم هذا العرض المزدوج المملّ، وأين هي رسالتي؟

– وهكذا رفض الصبي النظر إليهما، وعندما ارتجلا الحوار الدائر بينهما، لم يستطع مقاومتهما. لقد جعلاني أضحك كما لم أضحك في حياتي. وعندما غادرا الجناح كان الصبي يضحك من دون أن يستطيع التوقّف.

أومأت برأسي وأنا أتميّز غيظًا. لقد رأيت من تلك العروض ما يكفي.

أحسست بحاجة ماسة إلى شيء ما – أيّ شيء – أركّز عليه أفكاري غير إيدي، فبدأت أتحدّث عن المرّة الأولى التي شاهدت فيها روبن يقدّم عروضًا للأطفال بعد أن تدرّب ليكون طبيبًا مهرّجًا. كانت كايا تراقبني، وأنا ماضية في حديث مفكّك مسهب، وقد أسندت ذقنها الأسمر الصغير إلى يدها السمراء الصغيرة، ممسكة يد روبن بيدها الأخرى. توقّفتُ أخيرًا عن الكلام، ونظرتُ إلى هاتفي، وأنا أتخيّل شكل جوابه وطول الرسالة والإطار المستطيل الذي يضمّها.

ولكن لم تكن هناك رسالة. لم تكن هناك رسالة، وكان إيدي قد أصبح خارج الشبكة ثانية.

سحبت حافظة النقود من حقيبتي وسألتهما:

– هل أستطيع أن أقدّم لكما كأسًا؟ ما رأيكما بالنبيذ؟ نظرت إلى ساعتي، وتابعت: إنّها الساعة الثانية عشرة والربع ظهرًا، أي يمكننا حتمًا شرب كأس.

بينما كنت أنتظر عند البار، لففت ذراعي حول جسمي بقوّة، لكنّني لم أعرف هل فعلت ذلك لأشعر بالراحة أو لأهدّئ روعي؟

بعد عشرين دقيقة، أي عندما بدأ تأثير كأس النبيذ يسري ويُشعِرني بخدر خفيف، اعتذرت كايا لتذهب إلى الحمّام. راقبت ساقيها الرشيقتين تتحرّكان تحت تنّورتها وحاولت أن أتخيّلها آتية لاصطحاب روبن بعد انتهاء العمل كي يذهبا للعشاء، أو ربّما لنزهة مسائيّة في غريفيث بارك. تخيّلت كايا آتية إلى حفل عيد الميلاد الذي ننظّمه، أو إلى وليمة شواء صيفيّة؛ تخيّلتها تتناول الغداء مع والدَيْ روبن اللطيفين العصبيّين في منزلهما في باسادينا. فكلّ ذلك سوف يحدث بالتأكيد (تخيّلت والدة روبن وهي تقول: هذا الاختيار أفضل بكثير! كانت والدته تخشى أن أعود في نهاية المطاف إلى إنجلترا مصطحبة ابنها).

قلت لروبن:

– إنّها جميلة.

استدار نحوي بامتنان، وقال:

– شكرًا. شكرًا لك لأنّك كنت ودودةً. هذا يعني الكثير بالنسبة إليّ.

قلت له بعد صمت قصير:

– كنّا بحاجة إلى بعضنا بعضًا في الماضي. دُهِش كلانا من قولي هذا. تابعت: الآن، لم نعد كذلك. روبن، لقد تعرّفتَ إلى فتاة لطيفة، وأنا سعيدة لأجلك. وأنا أعني ما أقول.

– صحيح، أجابني.

شعرت بالفرح الذي يغمر أعماق قلبه. بدا أنّ روبن قد تنفّس نفسًا عميقًا، شبيهًا بطريقة التنفّس التي يبدأ بها صفّ اليوغا، لكنّه لم يستطع العودة إلى إيقاع أنفاسه العادي.

بدأ الحديث، وقد بدا عليه الحرج:

– سارة، اسمعي، أنا... يجب أن أقول لك أنّ رسائلك الإلكترونيّة أمس لم تكن بالشكل المناسب. بدوتِ أنّك... لا تتصرّفين كسيّدة أعمال. أرسلتِ تلك الوثائق إلى المؤتمنين في الجمعيّة من دون أن تستشيري أحدًا منّا. ناهيك بالاتفاق مع طفلة على إرسال الأطبّاء المهرّجين إلى شقيقتها من دون أن تتّصلي بالمستشفى المعني. لقد أشعرتِني بالحيرة.

راقبت كايا وهي تشقّ طريقها وسط الزحام قادمة إلى الطاولة. قلت له:

– أعلم ذلك. كنت قد أمضيت يومًا تعيسًا. لن يتكرّر ذلك.

– هل أنت على ما يرام؟ سألني بعدما نظر إليّ بإنعام.

– أنا على خير ما يرام. كلّ ما في الأمر أنّني تعبة.

هزّ رأسه ببطء، ثمّ قال:

– إذًا، عندما تحتاجين إليّ، اتّصلي بي. نحن نرتكب الأخطاء عندما لا نلتزم بقواعد السلوك المتّبعة.

– أعلم ذلك. اسمع، علينا أن نتحدّث بشأن ملعب المأوى.

– طبعًا، تعنين الآن؟

– لا نستطيع الحديث بشأنه في وجود كايا.

قطّب حاجبيه وقال:

– كايا لن تمانع.

– أنا أمانع. روبن، هذا شأن يتعلّق بالعمل.

– كلّا، قال روبن بلطف. هذا شأن يتعلّق بالأعمال الخيريّة. لا بالعمل. وكايا تتفهّم ذلك. سارة، هي صديقة لا عدوّة.

رسمت ابتسامة مصطنعة. كان على حقّ. يبدو أنّ الجميع، سواي، على حقّ هذه الأيّام.

غادر روبن وكايا المكان بعد أربعين دقيقة. أصرّ روبن على وضع خطّة من أجل ملعب المأوى، رغم ما قلته. وافقته أنا على الخطّة، وكيف لي ألّا أوافق؟ في الأقل عرضت كايا أن تذهب وتجلس في الخارج أثناء حديثنا. (قال لها روبن: لا، هذا الموضوع ليس سرًّا.)

قبّلتني كايا، ثمّ احتضنتني وقالت:

– كان اللقاء بك رائعًا جدًّا، رائعًا جدًّا!

كرّرت أنا ما قالت، لأنّ تلك المرأة كانت، في الواقع، لطيفة على الصعد كافة.

بعد أن غادرا، أطفأت هاتفي وشغّلت حاسوبي المحمول، وبدأت العمل. كان الناس يجيئون ويذهبون؛ دارت أطباق سلطة التونة ورقائق البطاطا التي تتراقص فوقها أكوام المايونيز؛ وكؤوس النبيذ الملطّخة بأحمر الشفاه وكؤوس الجعّة الطافحة. في الخارج، كانت السحب الرماديّة تغطي الشمس. هطل المطر، هبّت الريح، ثمّ عادت الشمس لتشرق من جديد. اضطرب الجوّ في ساوث بانك؛ بدأت المظلّات تهتزّ.

كنّا في اليوم الخامس من علاقتنا عندما نظرت إلى إيدي ديفيد، وقلت في سرّي أنني أستطيع أن أمضي ما تبقّى من حياتي معك. سألتزم بذلك الآن، وأعرف أنّني لن أندم على هذا الالتزام.

انفجر الطقس الذي كان يتململ أخيرًا، وهبّت عاصفة هوجاء على كلّ الريف. كانت السماء تومض وتجأر وتضرب سقف بيت إيدي بعنف. كنّا مستلقيين على سريره وفوقنا كوّة في السقف، قال أنه ينظر منها معظم الوقت ليتأمّل النجوم ويراقب الطقس. كان رأسه عند قدمي، بدأ يدلّك قدمي شاردًا، وهو يتأمّل السماء المكفهرّة فوقنا.

– أتساءل ما رأي الخروف لوسي في ما يحصل.

ضحكت وأنا أتخيّل لوسي واقفًا تحت شجرة يثغو مسحوق الفؤاد.

– العواصف في لوس أنجلوس بالغة العنف، أخبرته. هي أشبه بالمعركة الأخيرة الفاصلة بين الخير والشرّ.

صمت قليلًا، وسألني:

– ما شعورك بشأن العودة إلى هناك؟

– لا أدري.

– لماذا؟

رفعت رأسي قليلًا، لأتمكّن من رؤيته.

– لماذا في رأيك؟

وضع قدمي تحت رأسه مسرورًا، وقال:

– تلك هي المسألة. أنا لست واثقًا في أنّني أرغب في السماح لك بالعودة.

بادلته الابتسامة. قلت في سرّي، إذا طلبت منّي البقاء، إذا قلت لي أنّنا سنبدأ حياة جديدة معًا هنا فسأبقى. ورغم أنّني لم أعرفك سوى بضعة أيّام، ورغم أنّني أقسمت أنّني لن أعود إلى هنا. من أجلك، سأبقى.

عندما بدأت أجمع أغراضي لأغادر المكان، كانت الساعة قد قاربت الرابعة. أعدت تشغيل هاتفي، رغم أنّني كنت لا أتوقّع شيئًا في تلك اللحظة. ولكن، كانت هناك رسالة من رقم لا أعرفه.

كان نصّ الرسالة: **ابتعدي من إيدي.**

لم يكن هناك أيّ علامة ترقيم، أيّ تحيّة، أيّ حرف كبير في بداية الكلمات: «ابتعدي»، فقط!

عاودت الجلوس. قرأت الرسالة مرّات عدّة. كانت قد أُرسلت الساعة الثالثة تمامًا.

بعد بضع دقائق، قرّرت الاتّصال بدجو. قالت لي فورًا:

– عزيزتي، تعالي إلى منزلي مباشرة. رودي في منزل جدّه. سوف أقدّم لك كأسًا من النبيذ وسنتّصل بهذا الشخص، بهذا الإنسان الغريب الأطوار، ونكتشف ما يحصل. اتّفقنا؟

عاود المطر الهطول. كان ينهمر بعنف على نهر التايمز مثل نوبة غضب رماديّة، تضرب بقوّة ومن دون هوادة، تمامًا كالعاصفة التي راقبناها أنا وإيدي من سريره. انتظرت بضع دقائق قبل أن أستسلم وأغادر المكان، من دون معطف، متّجهة صوب محطّة واترلو.

الفصل التاسع عشر

أيّها الغالي،

لقد بدأتَ الكتابة إليّ منذ قليل. ماذا كنتَ تريد أن تقول؟ ولماذا غيّرتَ رأيك؟ ألا تستطيع أن تحمل نفسك على الحديث معي؟

سأستأنف من حيث توقّفت.

بعد بضعة أشهر من بلوغي السابعة عشرة، تعرّضت لحادث سيّارة مروّع على طريق سيرينسستر. في ذلك اليوم، فقدت شقيقتي، وفقدت حياتي – أو في الأقلّ فقدت الحياة كما كنت أعرفها، حيث إنّني أدركت بعد أسبوعين أنّني لم أعد أقوى على العيش هناك. لم أعد أستطيع العيش في فرامبتون مانسيل. ولا في غلوسترشير، ولا حتّى في إنجلترا بكاملها. كانت فترة قاتمة من حياتي.

كنت يائسة ومدمَّرة. اتّصلت بتومي. كان قد انتقل للعيش في لوس أنجلوس قبل عامين. قال لي: «اركبي أوّل طائرة وتعالي»، وهذا ما فعلته حرفيًّا: سافرت في اليوم التالي. كان موقف والدَيّ متفهّمًا، خاليًا من أيّ مشاعر أنانيّة، حيث تركاني أسافر في فترة كتلك. ولكن، هل كانا سيكونان بهذا التفهّم لو أنّهما عرفا آنذاك تأثير سفري في حياتنا العائليّة؟ لا أعلم. ولكن، بغضّ النظر عن أيّ شيء، كرّس والداي حاجاتي في المقام الأوّل، وفي صباح اليوم التالي، كنت في مطار هيثرو.

كانت أسرة تومي تعيش في شارع سكني يسمّى ساوث بيدفورد درايف. كان شارعًا عريضًا بعرض الطريق السريع. أمّا منزل تومي فكان غريب الشكل ذا لون رماديّ داكن، كان مزيجًا من بيت إسباني وقصر على الطراز الجورجي. وقفت أمام المنزل في اليوم الأوّل من وصولي، وأنا أشعر بالغثيان والدوار بسبب الحرّ والاختلاف الكبير في التوقيت، وتساءلت عمّا إذا كنت قد نزلت على سطح القمر.

والواقع أنّه تبيّن لي أنّني حططت الرحال في بيفرلي هيلز.

بينما كان تومي يجول بي في المنزل، قال لي متجهّمًا:

– لا يستطيعان تحمّل تكاليف العيش هنا.

كان هناك حوض سباحة. توزّعت على السطح المجاور له مقاعد وطاولات ونباتات معروشة وورود وأزهار استوائيّة تتدلّى كغيوم ورديّة.

أضاف تومي:

– الإيجار هنا باهظ. لا أرى كيف سيتمكّنان من الاستمرار في نمط الحياة هذا، لكنّ والدتي تحبّ إخبار الناس في إنجلترا بأنّها تتسوّق يوميًّا من متجر ساكس.

ورغم التغيير الذي طرأ على مظهر والدة تومي إلى درجة يصعب التعرّف إليها، ورغم تزايد انشغالها بأمور من نوع الثياب وجلسات التجميل وتناول الغداء في أماكن لا تستطيع فيها بالتأكيد تناول أيّ شيء، فإنّها كانت لطيفة، حيث أدركت أنّني بحاجة إلى فترة راحة. قالت لي أنّ في إمكاني البقاء قدر ما أشاء، وأرشدتني إلى المكان الذي أجد فيه اللبن المثلّج ذي الطعم الخيالي الذي أخبرني عنه تومي في رسائله. وأضافت:

– ولكن، لا تتناولي منه الكثير، فلا يمكن أن أسمح لك بأن تصبحي بدينة.

خلف مساحات الأعشاب المشذّبة بأناقة في حديقة المنزل المحاط بسور عالٍ، كانت تمتدّ مدينة أذهلتني. لن أنسى قطّ المرّة الأولى التي رأيت فيها شارعًا تصطفّ على جانبيه أشجار نخيل تبلغ عنان السماء؛ ولا أسماء الشوارع التي كُتبت بأحرف ضخمة تتدلّى فوق شارات المرور؛ ولا الكيلومترات المتتالية من الأبنية المنخفضة العلو، التي تتخلّلها مساحات من الأزهار المتنوّعة، والمصمّمة لمقاومة الزلازل. لن أنسى الهدير المتواصل للطائرات، ولا صالونات العناية بالأظافر، ولا الجبال المملوءة بالأخاديد، ولا خدمة ركن السيّارات، ولا المتاجر العامرة بالثياب المذهلة بجمالها وارتفاع أسعارها. سحرني كلّ ذلك. أمضيت أسابيع لا أفعل شيئًا سوى تأمّل ما حولي. أتأمّل الناس، حبال الأضواء الباهرة، المساحات الفسيحة من الرمال الذهبيّة، أمواج المحيط الهادئ وهي تتكسّر على شاطئ سانتا مونيكا. كان كلّ ذلك أشبه بمعجزة. شعرت بأنّني على كوكب المرّيخ. وهذا ما جعل كلّ شيء يبدو مثاليًا.

أدركتُ بعد وصولي بفترة وجيزة، أنّ دعوة تومي للإقامة عنده لم تكن من باب المشاعر الإنسانيّة فقط. كان تومي يشعر بالوحدة. صحيح أنّه نجا من الهمجيّة الفظّة التي كان زملاؤه في الصفّ يعاملونه بها، ولكن لم يكن قد تحسَّن أيّ شيء في ما يتّصل بأسرته أو بعلاقته بنفسه أو بثقته في الإنسانيّة ككلّ. فقد كانت تلك الإشارات المبكرة، الدالّة على هوسه بالصورة التي يراه فيها الآخرون، التي كانت تصدر منه عندما غادر إنجلترا، قد تطوّرت إلى شيء أكثر قتامة. كان لا يأكل شيئًا أو يأكل كلّ شيء، كان يمارس التمارين الرياضيّة مرّتين أو ثلاث مرّات باليوم أحيانًا، وكانت غرفة نومه مليئة بثياب لم يُزِل عنها ملصقات العلامة التجاريّة والسعر. شعر بالحرج عندما دخلت الغرفة، كأنّ جزءًا منه تذكَّر الشخص الذي كان عليه من قبل.

سألته ذات يوم بصراحة ما إذا كان بالفعل مثليًّا. كنّا في سوق المزارعين واقفين في الطابور لشراء شطائر التاكو، وكان تومي قد بدأ يختلق أكاذيب بأنّه لا يشعر بالجوع. أتذكّر أنّني كنت واقفة هناك أروّح وجهي ببطاقة موقف سيّارات. خرج السؤال من فمي بصورة مفاجئة ومن دون أن أعي ذلك.

لم يكن كلانا يتوقّع السؤال. نظر إليّ بإنعام بضع ثوان، ثمّ قال:

– كلّا هارنغتون، أنا لست مثليًّا. وهل لهذا علاقة بشطائر التاكو؟

سمعت صوت ضحكة هادئة آتية من الخلف. انكمش تومي على نفسه؛ استدرت فرأيت فتاة تكبرني بسنتين تقريبًا، تضحك من دون أن تداري ضحكتها. قالت بلكنة لندنيّة:

– أنا آسفة! سمعت حديثكما رغمًا عنّي. وأنت يا صديقتي (أشارت إليّ من دون أن توقف الضحك) عليك أن تبذلي بعض الجهد لتكوني أكثر لباقة في التعامل مع الآخرين.

وافقها تومي.

وافقتها أنا أيضًا.

كانت الساعة التي أمضيناها ثلاثتنا جالسين إلى طاولة متداعية نتناول شطائر التاكو، كفيلة بجعلنا أصدقاء مدى العمر. كانت الفتاة هي دجو، تعمل أخصائيّة تجميل متنقّلة، تعيش في منطقة قريبة في شقّة مزرية تتشارك فيها المرافق مع بقيّة السكّان. وخلال الشهور القليلة التي تلت، وقبل أن تنضب نقودها وتضطرّ إلى العودة إلى إنجلترا، أعادتنا دجو بالقوّة إلى ما يشبه السعادة والفاعليّة اللتين مكّنتانا من المضي قدمًا في الحياة. جعلتنا نتحدّث – وهو أمر كنت أخفق فيه إلى درجة مخزية – وكانت تجبرنا من دون كلل على ارتياد الحفلات والذهاب إلى الشاطئ وإلى الحفلات الموسيقيّة المجّانيّة. تتميّز دجو مونك بطبع حادّ مثل حيوان شائك، لكنّ قلبها يضمّ مخزونًا لا ينضب من الحنان والشجاعة. كم أفتقدها عندما أكون خارج إنجلترا!

حلّ شهر سبتمبر، وكان عليّ العودة إلى إنجلترا لإنهاء المراحل الأولى من العام الدراسي. لكنّني لم أكن أقوى على العودة. كنت أبدأ بالبكاء عندما أتحدّث مع والدَيّ بالهاتف وأتيا على فكرة عودتي. كانت والدتي تلتزم الصمت، فيرفع والدي السمّاعة الأخرى قرب الحمّام في الطابق السفلي ويشرع ينكّت. كانت والدتي تبذل أقصى جهدها لتبدو مرنة – بل ومرحة – لكنّ الأمر خرج عن نطاق السيطرة ذات يوم، فقد همسَت كأنّها تتجاهل صوتها: اشتقت إليك، مشاعر الشوق تؤلمني، أريد أن ألمّ شمل أسرتي.

في تلك اللحظة، كدت أختنق بمشاعر ازدراء النفس إلى درجة لم أتمكّن من الردّ عليها.

وافق والداي في النهاية على تأجيل الدراسة الثانويّة إلى العام التالي لأتمكّن من البقاء مدّة أطول. جاءا لزيارتي، ورغم أنّني شعرت بالارتياح لرؤيتهما، فقد اعتصر قلبي ألمًا لأنّ هانا لم تكن معهما. كانا يرغبان بالاستمرار في الحديث عنها، ولم أكن لأتحمّل ذلكَ. شعرت بالارتياح لدى عودتهما إلى بلدهما.

بعد ذلك، قابلت روبن ووجدت عملًا، وقرّرت أن الوقت قد حان لأصبح جديرة بالاحترام. سأخبرك عن ذلك في المرة المقبلة.

سارة

ملاحظة: أنا ذاهبة غدًا لزيارة والدَيّ. جدّي يقيم في منزلهما فترة. إذا كنتَ في غلوسترشير، وعلى استعداد للحديث معي، اتّصل بي.

الفصل العشرون

قال والدي وهو يضمّني بقوّة وأمارات الإرهاق بادية عليه:

– سارة، شكرًا لله لأنّك هنا! أنت بالنسبة إلينا صوت السكون الهادئ الهامس.

قدّم لي كأسًا من النبيذ، لكنّني رفضته. فبعد لقائي أمس مع كايا وروبن، في ساوث بانك، واستلامي الرسالة التحذيريّة بشأن الابتعاد من إيدي، ذهبت إلى منزل دجو وشربت أكثر ممّا ينبغي. شعرت صباح اليوم بأنّ جسمي لن يحتمل أيّ مشروب روحي لبعض الوقت.

عانقتني والدتي، قائلة:

– سارة، أنا آسفة بشأن الأسابيع الماضية، آسفة فعلًا.

كانت والدتي تمضي وقتًا طويلًا في الاعتذار عن تقصيرها، رغم أنّها لم تفعل شيئًا مُذ وُلِدتُ سوى إغداق الحبّ والرعاية عليّ.

– لا تقولي ذلك. لقد أمضيت وقتًا ممتعًا. رأيتِني في ليستر. ألم أكن سعيدة آنذاك؟

– سعيدة بما يكفي، في ما أعتقد.

لا أعرف بالضبط لماذا لم أخبرهما عن إيدي. ربّما كان السبب فرضيّة المجيء إلى إنجلترا لمناسبة ذكرى الحادث، لا لأقيم علاقة حميميّة مع رجل غريب جذّاب. أو ربّما لأنّني عندما وصلت إلى ليستر، كان القلق بدأ يغزو أفكاري.

خطر لي، وأنا أقدّم الأزهار لوالدتي أنّ السبب قد يكون أن جزءًا منّي كان يدرك سلفًا أنّ تلك العلاقة لن يكتب لها النجاح. الجزء ذاته الذي وقف في مواجهة روبن يوم زفافنا، وهو يفكّر في أنّ روبن سوف يُنتَزَع منّي في نهاية المطاف. مثلما انتُزِعت هانا.

وضعت والدتي الأزهار في إناء، ثمّ استبدلته بإناء آخر، ثمّ بإناء ثالث. قالت لي عندما رأتني أراقبها:

– اهتمي بشؤونك. أنا الآن امرأة متقاعدة يا سارة، وأتمتّع بالحقّ في اتّخاذ القرار الذي يروقني حول تنسيق الأزهار.

ابتسمت وشعرت بالارتياح. عندما رأيت والدتي المرّة الماضية، كانت كأنّها تتلاشى. كانت مهروسة مثل علبة من الكرتون سُحِقت لإعادة تدويرها. لم يُشعِرني منظرها بالراحة آنذاك، لأنّها كانت خلال السنوات التي أعقبت الحادث تبدو قويّة بشكل مذهل، في ما عدا الحالات القليلة التي كانت تحسّ فيها بالهبوط. والواقع أنّ ثباتها وجلَدها وحدهما هما ما لطّفا شعوري بالذنب لابتعادي منهما وتركهما في غمرة كلّ ذلك الألم والفوضى.

أمّا اليوم فكانت والدتي – ووالدي أيضًا – كما كنت أتخيّلهما دائمًا: حنونين وراسخين وواثقين. وعندما ملأتْ والدتي كأسًا من النبيذ لتشربه، رغم أنّنا كنّا سنذهب بعد قليل إلى الحانة، تذكّرت أنهما مدمنين أيضًا نوعًا ما. قلت في سرّي: لا ترسمي لهما صورة مثاليّة. كلّ ما هنالك أنّهما تعاملا مع الأمور بشكل مختلف قليلًا.

نظرتُ إلى السقف وقلت بصوت خفيض:

– كيف جرت الأمور؟ كيف هو الآن؟

قالت أمّي بحدّة:

– إنّه وغد عجوز نتن. ويحقّ لي قول ذلك، لأنّه والدي ولأنّني أحبّه وأعرف أنّه عانى أوقاتًا صعبة. ولكن لا يمكننا إنكار أنّه وغد عجوز نتن.

سلّم والدي بما قالته:

– إنّه كذلك بالفعل. نحن نحتفظ بسجلّ للشكاوى التي صدرت منه اليوم. بلغت حتّى الآن ثلاثًا وثلاثين شكوى، وما زالت الساعة الواحدة إلّا ربعًا. لماذا لا تشربين؟

– أشعر بصداع بسبب إسرافي في الشرب.

انتاب والدتي الضعف فجأة.

– يغمرني شعور فظيع عندما أتحدّث عنه بلؤم. لكنّه إنسان يستحيل العيش معه، إنّه يدفعنا إلى الجنون. مع ذلك، أشعر بالشفقة عليه في أعماق نفسي. لقد أمضى زمنًا طويلًا وحده. عاش حياةً شنيعة، سجينًا في ذلك المنزل وحده، لا أحد معه يبادله الحديث.

كانت جدّتي، وهي امرأة ممتلئة الجسم إلى درجة تبدو في الصور مكوّرة الشكل، قد توفّيت بسبب نوبة قلبيّة عندما كانت في الرابعة والأربعين. ولم تُكتَب لي رؤيتها.

– لديه في الأقل أنتما الاثنان، أجبتها. وأنا واثقة في أنّه يقدِّر صحبتكما، ولو تظاهر بالعكس.

– إنّه يتصرّف كما لو أنّه مختطف لدى إرهابيّين، قالت والدتي وهي تتنهّد. قال لي صباح اليوم وأنا أعطيه الدواء: لا أصدق أنّكما أحضرتماني بالقوّة إلى هذا المكان المهجور. كنت

لحظتذاك على وشك إنهاء معاناته!

ضحك والدي وأردف:

– أنت تتصرّفين معه كالملاك.

قبّلها بلطف. أشحت بنظري بشيء من الاشمئزاز، رغم أنّني تأثّرت كثيرًا، وفي الواقع، أحسست بالغيرة إلى حدّ ما. ما زال والداي سعيدين سويًّا. ظلّ يصطحبها في نزهات كلّ يوم إلى أن رضيت بالزواج به؛ كان يتّصل بها هاتفيًّا، يكتب لها الرسائل، يرسل إليها الهدايا. كان يأخذها إلى الحفلات ويسمح لها بالجلوس إلى طاولة مفاتيح الصوت معه. لم يتركها قطّ تنتظر بقلق. لم يكن يتخلّف عن الاتّصال بها.

سألتهما عمّا إذا كان في إمكاني الصعود إلى الطابق العلوي لإلقاء التحيّة قبل أن نذهب لتناول الغداء في الحانة. قالت والدتي:

– من حسن حظّك أنّه نائم. لكنّه يرغب في رؤيتك من دون شكّ.

رفعتُ أحد حاجبَيّ.

– أكثر ممّا يرغب في رؤية أيّ شخص آخر.

جلسنا في حديقة حانة كراون رغم أنّ الطقس لم يكن دافئًا. كانت هبّات الريح القويّة تعبث بشعر والدتي وتجعله أشبه باللهب الأحمر، أمّا والدي فقد بدا هامدًا أو ربّما ثملًا، لأنّ طرف الطاولة الذي جلس إليه كان منحدرًا مع انحدار الهضبة. وفي الحقل الذي كان يرتفع بانحدار شديد فوق الممرّ الضيّق، جثم خروف على ركبتيه ليرعى وسط نبات القراص الشائك. ضحكت من منظره، ثمّ توقّفت عن الضحك. تساءلت عمّا إذا كنت سأرى أيّ طرافة في الخراف بعد اليوم.

قلت لوالدي لكي أحثّه على الحديث:

– أخبرني بقصّة آلة التشيلّو.

كانت والدتي أخبرتني أثناء صعودنا الهضبة أنّه يتلقّى دروسًا في العزف على التشيلّو.

– كنت في أحد أيّام الخريف الماضي أشرب كأسًا مع بول وايز، قال لي أنّه قرأ في إحدى الصحف أنّ في إمكان الإنسان الحفاظ على حدّة ذهنه خلال مرحلة الشيخوخة من طريق العزف على آلة موسيقيّة.

– ذهب فورًا إلى بريستول واشترى آلة تشيلّو، قاطعته والدتي. كان عزفه مريعًا بادئ الأمر. سارة، كان فظيعًا. جاء بول واستمع لعزفه.

– وقف الوغد وشرع يضحك، أكمل والدي. وهكذا صرت أتدرّب كالمجنون، ثمّ عثرت على مدرّس في بيسلي، وسوف أنتقل إلى المرحلة الثانية خلال فترة قصيرة. وسوف يتراجع بول عن كلّ ما قال.

رفعت كأسي لأقترح شرب نخب والدي. في تلك اللحظة بدأ طائر نقّار الخشب يضرب بمنقاره الصلب جذع إحدى الأشجار. هبطت يدي على الطاولة. ذكّرني الصوت بإيدي بشدّة، وبالوقت الذي أمضيناه سويًّا، شعرت بأنّني لا أقوى على الكلام.

عاد شعور الغثيان إلى معدتي.

كان والداي يتبادلان الحديث عن جدّي، بينما كنت أراقب أسرة أخرى تجلس قرب شجيرة من أزهار الدلفينيون المتوهّجة اللون في الحديقة. كان الوالدان يشبهان والدَيّ: في بداية طور الشيخوخة؛ أكثر شيبًا وتجاعيد، ولكن أكثر رسوخًا في حياتهما، لا يلتفتان إلى الماضي. كانت ابنتاهما تشبهاننا أنا وهانا كما تخيّلتُها أن تكون لو أنّها كانت معنا الآن. كانت الصغرى في ما يظهر تشرح وجهة نظرها حول موضوع ما بشيء من الحدّة. تسمّرت في جلستي وأنا أتخيّل شقيقتي الصغرى امرأة راشدة. خطر لي أنّ هانا، المرأة الراشدة، ستكون مليئة بالأفكار، مولعة بالجدال المفحم، لا تهاب الصدام – امرأة من النوع الذي يترأّس اللجان، ويشعر باقي الأهل في المدرسة بالغيرة منها في سرّهم. سألتني والدتي، وهي تراقبني:

– سارة، هل أنت على ما يرام؟

– على ما يرام تمامًا. وأضفت: تلك الأسرة الجالسة هناك.

نظر الاثنان إلى حيث أشرت. قال والدي:

– أعتقد أنّ الزوج صديق لأحد جيراننا. أظنّ أنّ اسمه باتريك؟ بيتر؟ اسم يبدأ بحرف الباء.

لم تتفوّه والدتي بكلمة، كانت تدرك ما أفكر فيه. قلت بهدوء:

– لا أريد سوى ذلك. أن أكون قادرة على الجلوس إلى هذه الطاولة بصحبتكما وبصحبة هانا. أنا مستعدّة للتخلي عن كلّ ما أملك مقابل جلوسنا هنا سويًّا. نتحدّث ونأكل.

أطرقت والدتي رأسها، والتزم والدي الهدوء، كما يفعل دائمًا عندما أتكلّم عن هانا. قالت والدتي:

– نحن نودّ ذلك أيضًا، على رغم أنّنا لا نعبّر. لكنّنا، كما أعتقد، تعلّمنا من خلال المعاناة أنّه من الأفضل التركيز على ما هو متاح أمامنا، بدل التركيز على غير المتاح.

غطّت سحابة وجه الشمس، شعرت بجسمي يرتجف. كانت تلك إحدى عاداتي مؤخرًا: أن أشعر والدَيّ بالضيق والانزعاج، وتذكيرهما بما كان يمكن أن تؤول إليه الأمور.

في حلول الساعة السادسة، كان قلبي يدقّ بعنف وأفكاري تتطاير مثل شعيرات زهرة الداندليون البرّيّة. قلت لوالدَيّ اللذين تملّكهما الذعر، وإن لم يُظهِرا ذلك أدبيًا، إنّني سأخرج لممارسة رياضة الجري.

قلت لهما، وأنا أبتسم، آملة أن يتغاضيا عن هذه الكذبة:

– أنا أتّبع الآن نظامًا جديدًا للتمارين الرياضيّة.

صعدت إلى الطابق العلوي لأغيّر ملابسي، وأنا أشعر بالاشمئزاز من نفسي. لم أستطع أن أحدّد الأسوأ: هل هو حالة تنبّه الأعصاب التي غدت أمرًا عاديًّا بالنسبة إليّ، أم كوني لا أستطيع إيجاد حلّ لها سوى إجهاد نفسي إلى حدّ الانهيار والكذب على من يحبّونني ويخافون عليّ.

قبل أن أغادر المنزل بعث لي تومي برسالة يقول فيها:

– هل لك أن تذكّريني بموعد عودتك إلى لوس أنجلوس؟

– سأذهب إلى مطار هيثرو يوم الثلاثاء في السادسة والربع صباحًا. لن أصدر أيّ ضجّة وسأكون هادئة مثل فأرة.

– إذًا، ستكونين في ضيافتنا يوم الإثنين مساء، أليس كذلك؟

– إذا لم يضايقكما ذلك. يجب أن أحضر مؤتمرًا في ريتشموند يوم الإثنين؛ من المفترض أن أصل إلى منزلكما في حدود السابعة والنصف مساء. إذا كان الوضع غير موات، يمكنني، وفي كلّ سهولة، تمضية الليل على أريكة دجو. أعتقد أنّك وزويه صبرتما عليّ بما يكفي.

– لا، الأمر عادي. زويه عادت إلى مانشستر. إذًا، لن تكوني في ضيافتنا يوم الأحد مساء؟

– كلّا، لماذا؟ هل ستستضيف امرأة أخرى؟

– كلّا.

– رائع! سأراك إذًا يوم الإثنين مساء. تومي، هل أمورك على ما يرام؟

– كلّ شيء على ما يرام. صباح يوم الإثنين: هل ستذهبين مباشرة إلى المؤتمر أم إنّك ستأتين إلى منزلنا أوّلًا؟

قطّبت حاجبيّ. كان تومي وزويه في غاية الكرم معي، فقد قدّما لي غرفة الضيوف في زيارتي هذه وفي كلّ زياراتي، وأعطياني المفتاح وقالا أنّ في إمكاني اعتبار الشقّة لي. وفي ما عدا تلك الفترة القصيرة التي كنّا فيها نعدّ العشاء، لا أتذكّر أنّ تومي سألني يومًا عن أوقات مجيئي وذهابي. كتبت له:

– كنت أنوي المجيء إلى شقّتكما أوّلًا، ولكن في إمكاني الذهاب مباشرة إلى ريتشموند إذا كنت تفضّل ذلك.

– لا أبدًا. لا مشكلة. سأراك إذًا كما اتّفقنا. إيّاك أن تحاولي تعقّب أخبار إيدي وأنت هناك، اتّفقنا؟ لا تبحثي عنه، لا تركضي أمام باب بيته، لا تذهبي للجلوس في تلك الحانة. هل فهمت؟

– فهمت. أتمنّى لك عطلة نهاية أسبوع سعيدة مع امرأتك السرّيّة. قبلاتي.

– انتبهي. هارنغتون، أنا أعني ما أقول. لا تبحثي عن الرجل، هل فهمت؟

تساءلت في لحظة عمّا إذا كان تومي يبعث لي بتلك الرسائل، لأنّه كان «هو» يقابل إيدي. فكّرت في هذا الاحتمال بضع دقائق قبل أن أدرك مدى سخافته.

هل أركض إلى أن أبلغ قرية سابرتون على أمل رؤية إيدي؟ كانت هذه الفكرة تتبلور في ذهني على مهل أيّامًا، رغم أنّني لا أعرف ما إذا كان هنا في غلوسترشير أو في لندن. أو في الفضاء الخارجي ربّما. وماذا أفعل إذا رأيته فعلًا؟

لكنّني كنت أعرف أنّني سأركض حتّى سابرتون، وكنت أعرف أنّ هذا سيزيد آلامي، كنت إمّا عاجزة عن، أو غير راغبة في كبح نفسي.

كانت نزهة الجري تمامًا مثلما كنت أتخيّل أن يكون وضع الانهيار العصبي. كان إيدي في كلّ مكان نظرت إليه: يراقبني عبر أغصان الشجر، يجلس على السدّ القديم، يسير في المروج بين فروع النهر. وقبل أن يمضي وقت طويل، كانت هانا انضمّت إليه مرتدية الثياب نفسها التي كانت ترتديها في ذلك اليوم البغيض.

بينما كنت أقترب من جسر المشاة الصغير، لمحت امرأة تسير في اتّجاهي آتية من سابرتون. كانت، في الأقلّ، تبدو شخصًا حقيقيًّا: ترتدي معطف مطر وتنتعل حذاء رياضيًّا للمشي وتربط شعرها إلى الخلف. توقّفتْ عن السير فجأة وأخذت تتأمّلني.

توقّفت أيضًا عن الركض، لأسباب لم أفهمها، وتأمّلتها. كان في هيئتها شيء مألوف، لكنّني كنت واثقة في أنّني لم أرها من قبل. كانت بعيدة مني، حيث لم أتمكّن من تقدير عمرها، لكنّها كانت تبدو، من المكان الذي أقف فيه، أكبر منّي سنًّا بكثير.

هل يمكن أن تكون والدة إيدي؟ هل يمكن ذلك؟ حدّقت فيها مليًّا، لكنّني لم ألاحظ أيّ شبه واضح بينهما. كان إيدي عريض المنكبين، مستدير الوجه، طويل القامة، في حين كانت المرأة شديدة النحول قصيرة القامة، ذات ذقن حادّ بارز. وحتّى لو كانت والدة إيدي، ما الذي يجعلها تقف وسط الممرّ وتنظر إليّ مليًّا؟ قال إيدي أنّها تعاني من هبوط نفسي، ولم يقل أنّها مجنونة. أضف إلى ذلك أنّها لم تكن تعلم بوجودي.

بعد بضع لحظات، استدارت إلى الخلف وعادت من حيث أتت. كانت تسير بسرعة، لكنّ حركاتها كانت متشنّجة وغير منتظمة كشخص لا يستطيع الحراك بسهولة. كنت قد شاهدت الكثير من الحالات المشابهة بين الأطفال الذين يتعافون من إصابات مؤذية.

ظللت واقفة فترة طويلة بعد اختفائها عن النظر.

هل كان تصرّفها شكلًا من أشكال المواجهة، أم إنّ المرأة قرّرت وفي كلّ بساطة إنهاء نزهتها والعودة إلى منزلها؟ فلم يكن هناك طريق يمكن من خلاله الدوران للعودة من ذلك الجزء من الممرّ: كان هناك احتمالان، إمّا المشي في مسار دائريّ أطول ببضعة كيلومترات عبر قرية فرامبتون مانسيل، أو الاستدارة للعودة إلى سابرتون مباشرة.

استدرت لأعود إلى المنزل. دهمني، مرّات عدّة، شعور أكيد بأنّ إيدي كان يسير خلفي. لكنّ الممرّ كان خاليًا في كلّ مرّة نظرت فيها. حتّى العصافير لزمت الصمت.

عندما بلغت مدخل منزل والدَيّ بعد بضع دقائق، كنت أفكّر: لا أستطيع تحمُّل ذلك! كيف وجدت نفسي هنا ثانية؟ أهيم على وجهي في الوادي بحثًا عن إنسان فقدته فعلًا؟

قرب مشجب المعاطف خلف الباب الأمامي، كانت صورة داخل إطار أظهر فيها أنا وهانا في الحقل خلف منزلنا. كنت أنا جالسة على صندوق كرتون، وكانت هانا واقفة جانب الصندوق وهي تحمل بيدها الصغيرة باقة أزهار. كانت آثار الطين وجذور الزهور تلطّخ ثوبها القطني، وكانت هي تقف عابسة أمام عدسة آلة التصوير بطريقة مضحكة جعلت قلبي ينفطر حزنًا. تأمّلتها، هانا الصغيرة الغالية. أطبق شعور الفقدان على صدري كالصمغ.

همست وأنا ألمس زجاج الإطار البارد: أنا مشتاقة إليك. مشتاقة إليك بشدّة.

تخيّلتها تمدّ لسانها لي، كنت أبكي عندما وجدت جدّي أمامي وقد بلغت أعلى السلّم.

تسمّرتُ في مكاني.

– جدّي!

ظلّ صامتًا.

– ذهبت لأمارس رياضة الجري. جئت لرؤيتك بعد الغداء، لكنّك كنتَ نائمًا، لهذا فكّرت في أنّني...

لم أستطع إكمال الكذبة. لم أستطع الكلام، ولا حتّى لاسترضاء جدّي. وقفت أمامه في ثياب الجري، وكان هو مرتديًا روب المنزل الذي لم يتمكّن من إحكام ربطه بسبب ضعفه، كان يرتدي بيجامته القطنيّة الزرقاء المهترئة، ذات الحوافّ المزيّنة بشريط كحلي اللون. كان قلبي ينفطر حزنًا. وكان التعب العميق يفوح من جدّي. كنت أبكي بصمت، وقد تغضّن وجهي حول فمي المنتحب. فقدت هانا، والآن إيدي: كنت أدرك ذلك. لم أعد أقوى على التظاهر أكثر من ذلك، وها هو جدّي المسكين الذي أمضى خمسين سنة من عمره وحيدًا، مُذ أصيبت جدّتي بالنوبة القلبيّة، وتوفّيت وهي جالسة على كرسيّها أمامها شطيرة. الآن، لا بدّ أنّ جدي يقوم بتمرينه اليومي فقد كان يضع جهاز المساعدة على المشي أمامه. لم يكن أيّ منّا يعرف ما يقول للآخر. لم يكن أيّ منّا يعرف كيف يبدأ الحديث. قال جدّي في نهاية الأمر:

– تعالي إلى غرفتي.

استغرق وصول جدّي إلى المقعد المريح الذي أحضره والداي له، وجلوسه عليه، وقتًا طويلًا. انتهزتُ تلك الفرصة لأحاول تنظيف وجهي، ثمّ جلست على حافّة سرير هانا القديم.

ظننتُ أوّل وهلة أنّه يخطّط للحديث معي، لسؤالي عمّا يحزنني. لكنّه كان، بالطبع، جدّي، بالتالي لم يفعل ذلك. رأى حزني، وأراد مساعدتي، لكنّه لم يستطع. هكذا جلس ينظر من النافذة، ويحدّق من حين لآخر في بقعة على الجدار قرب وجهي، إلى أن بدأت أنا الحديث.

أخبرته عن الأسرة التي رأيتها في الحانة ساعة الغداء، وعن الإحساس بالرعب الذي بعثه في نفسي وجودي في الوادي، حتّى بعد كلّ تلك السنين.

– لا يمرّ يوم من دون أن أفكّر في هانا. أتمنّى أن أراها ثانية، ولو دقائق. أريد أن أضمّها، هل تعرف ذلك؟

أومأ برأسه إيماءة مقتضبة. لاحظت أنّه سوّى أغطية سريره ووسادته قبل أن يخرج للمشي عند منبسط الدرج. تأثّرت. كانت الحاجة إلى النظام، حتّى وسط الفوضى العارمة، أمرًا أقدّره تمامًا.

– ثمّ ظننت أنّ شيئًا ما كان يتغيّر في حياتي، يا جدّي. قابلت رجلًا، هنا في غلوسترشير، عندما كان والدي ووالدتي يرعاينك.

لم أكن مخطئة، لاحظت أنّه رفع حاجبيه بحركة لا تكاد تظهر.

قال بعد فترة شعرت بأنّها دهرًا:

– تابعي حديثك رجاء.

توقّفت لحظة، وقلت:

– أعتقد أنّك تعلم أنّني انفصلت عن زوجي.

إيماءة مقتضبة مرّة أخرى. وأجاب:

– على رغم أنّني كنت مضطرًّا إلى انتزاع الكلام عنوة من والدتك. ثمّة شيء في تجاوز الثمانين من العمر، يجعل الناس واثقين في أنّ المرء سيموت بسبب صدمة إذا نقلوا له خبرًا سيّئًا. سكت، ثمّ عاود الكلام: أعني، ومَن في جيلكم لا ينتهي به المطاف إلى الطلاق هذه الأيّام؟ ما يدهشني هو أنّكم تكلّفون أنفسكم عناء الزواج.

دار قرقف أزرق صغير حول وعاء إطعام الطيور المعلّق خارج نافذة غرفة الضيوف، نقر داخل الثقب الذي يحتوي ثمرة جوز، ثمّ دار بسرعة وطار بعيدًا. كانت الدوائر ذات الألوان المتعدّدة التي ترسمها شمس المغيب تتراقص على عتبة النافذة، حيث كانت هانا تحتفظ بمجموعتها من القنافذ. كانت الغرفة دافئة وهادئة.

– أكملي حديثك.

كدت أجيب أنني لم أقل شيئًا، ولكن كان هناك شيء ما في وضعيّة جلوسه، في عينيه، جعلني أدرك أنّه يريد أن يعرف. وأنّه ربّما كان مهتمّ فعلًا. وإذا اخترت أن أتحدّث إليه، كان عليّ أن أتوقّع أنه سينفجر في وجهي.

وهكذا أخبرته بكلّ شيء. بدءًا باللحظة التي سمعت فيها ضحكة إيدي في المرج المحيط بالقرية، إلى النزهة التي قمت بها اليوم على امتداد مسار القناة. أخبرته بكلّ الأمور اليائسة المخزية التي فعلتها منذ لحظة اختفاء إيدي قلت له:

– من حسن حظّك أنّك نشأتَ في زمن مختلف، فقد جنّبك ذلك مهانة ترصُّد تحرّكات الأشخاص في الإنترنت. إنّها ليست تجربة سارّة، فهي لا تقدّم لك ما تأمل به. اتّخذ هذا الحديث مع شخص صامت طابعًا علاجيًّا مفرطًا؛ ولم أعد أستطيع التوقّف عن الكلام. أضفت: وهي لا تجعلك سيّد الموقف.

صمت جدّي طويلًا، ثمّ أجاب:

– لا أستطيع أن أغفر لك أفعالك. فهي تبدو غبيّة وانهزاميّة بالكامل.

– أوافقك الرأي.

– سارة، لكنّني أتفهّم ما فعلتِه.

نظرت إليه؛ فإذا به يصوّب نظره إليّ مباشرة.

– أُغرمتُ بامرأة كنت مستعدًّا لتدمير كلّ شيء من أجلها، لو استطعت. ظللت أحبّها إلى يوم مماتها. وظللت أحبّها، بعد سنوات من مماتها. ولا يزال حبّها يؤلمني إلى الآن.

– تعني جدّتي؟

حوّل نظره عنّي، وردّ:

– كلّا.

ساد صمت عميق. في الطابق الأسفل، كان والدي ووالدتي يضحكان؛ عندما غاب صوت الضجيج الخافت، علا صوت باتسي كلاين من مكبّرات الصوت الخاصّة بوالدي. وفي النهاية، روى لي جدّي قائلًا:

– كان اسمها روبي ميريفيلد. كانت حبّ حياتي. كلّ من حولي قالوا لي أنّه لا يمكنني الزواج بها، وهكذا كان. كان لديها حبيب مُذ كانت صغيرة، رزقت منه طفلًا. أُعطي الطفل لعائلة تبنّته. فطر ذلك قلبها. لم يعلم أحد ما حصل سوى والدَيّ بالطبع، لأنّ والدي كان طبيبها. منعني من الزواج بها. خضتُ معركة شجاعة، سارة، ولكن كان عليّ أن أستسلم في نهاية الأمر لأنّني كنت أدرس الطبّ وكنت بحاجة إلى دعم والدي.

رفع يديه المرتجفتين، وتابع:

– وهكذا لم أعد أتصل بها، وتزوّجت جدّتك بعد عام، وعشت أنا وديانا حياة لا بأس بها. لكنّني كنت أفكّر في روبي كلّ يوم. كنت أشتاق إليها. كتبت لها رسائل لم أجرؤ على إرسالها. عندما بلغني خبر وفاتها إثر إصابتها بالأنفلونزا، ذهبت في رحلة لصيد السمك غبت فيها أيّامًا عدّة وقد أسقمني الحزن. ذهبتُ إلى منطقة قرب كانوك. كانت المنطقة جميلة جدًّا. وددت لو أنّني ذهبت إلى مكان بشع.

اغرورقت عينا جدي بالدموع. ولكنّه مضى في حديثه:

– كان لضحكتها صوت طائر صغير في البداية، ثمّ تتحوّل ضحكة لا تليق بسيّدة. كانت ترى بهجة الحياة أينما ذهبَتْ.

ضغط جدي عينيه بظهر يديه المتغضّنتين المغطّاتين ببقع بنّيّة. كان الضوء يخفت في الغرفة بسرعة.

– لم يكن يجدر بي أن أتخلّى عنها مطلقًا.

عاد العصفور الأزرق، وجلسنا نراقبه صامتَيْن. تابع الحديث:

– أنا لست نادمًا على قراري. كما قلت لك، كانت ديانا تعني الكثير بالنسبة إليّ. وقد سبّب لي موتها حزنًا شديدًا. ولولا ديانا لما كنت رُزقت والدتك وشقيقتها، رغم أنّ خالتك، يعلم الله، امرأة يصعب التعامل معها.

كان اسم زوج خالتي الأخير «جاز».

– ولكن، لو أتيحت لي الفرصة ثانية، لما كنت تخلّيت عن روبي. أنا لا أعتقد أن الحبّ يجب أن يكون بالضرورة أشبه بالانفجار. ولا ينبغي بالضرورة أن يكون شيئًا دراماتيكيًّا أو مشاعر عنيفة، أو أيًّا من تلك التعابير السخيفة التي ينسبها إليه الكتّاب والموسيقيّون. لكنّني أؤمن بأنّ المرء عندما يدرك أنّه عاشق، فهو يعرف. وأنا عرفت، وتركت حبّي يضيع من دون أيّ مقاومة حقيقيّة، ولن أغفر لنفسي أبدًا ما فعلت.

أغمض عينيه وأضاف:

– أنا بحاجة إلى النوم الآن. ولست بحاجة إلى مساعدتك. هل تستطيعين إغلاق الباب عند خروجك، رجاء؟ شكرًا سارة.

الفصل الحادي والعشرون

عزيزي إيدي،

بما أنّك لا تطلب منّي التوقّف عن الكتابة، فسأستمرّ في مراسلتك.

اتّفقنا على أن أبقى في لوس أنجلوس بضعة أشهر أخرى، ولو كان ذلك يعني خسارة سنة دراسيّة. لم أكترث: لم أكن أستطيع العودة.

أصبح لديّ صديقان، وكنت أعيش في «جناح الضيوف» في منزل في بيفرلي هيلز فيه حوض سباحة وتدير شؤونه مدبّرة منزل بدوام كامل. كان الشيء الوحيد الذي يذكّرني بالوطن، ولو بشكل مبهم، هو صفّ من أشجار الدلب التي تحفّ بشارع ساوث بيدفورد درايف. غير أنّ تلك الأشجار لم تكن شبيهة تمامًا بمثيلاتها في وطني، فقد كان الصيف حارًّا أكثر من المعتاد، وبالتالي، عندما حلّ شهر سبتمبر، كانت الأشجار محترقة وهشّة مثل لحم مقدّد.

سعت لي والدة تومي إلى العمل في تنظيف منازل بعض صديقاتها لكي أحصل على شيء من المال: كان ذلك هو الخيار الوحيد أمامي نظرًا لأنني لم أكن أملك تأشيرة دخول. نظّفت منازل عائلات شتاين وتايسون وغاروين، وفي عصر كلّ يوم أربعاء كنت أتسوّق البقالة للسيّدة غارسيا التي كانت تتوسّل إليّ لكي أعتني بأطفالها مقابل الإقامة والطعام. شعرتُ بالارتباك الشديد لأنّني رفضت. لم تستطع السيّدة غارسيا أن تفهم سبب رفضي الاعتناء بأطفالها، رغم انسجامي الشديد معهم، ولم أجد في نفسي الشجاعة لأخبرها السبب.

كنت ظننت أنّ نموّ جسمي قد اكتمل، لكنّ جسمي عاد ينمو ثانية، طولًا وعرضًا. أصبح لي صدر وخصر ومؤخّرة. بدأ جسمي يتحوّل ليتّخذ شكلي الحالي، كما أعتقد، وبدأتُ أفكر في نوع المرأة التي كنت أودّ أن أكونها. قرّرت أنّني سأكون امرأة قويّة. قويّة وديناميكيّة وناجحة. فقد أمضيت سنوات كنت فيها شخصيّة ضعيفة ومنعزلة ومهلهلة.

في أحد الأيّام، أصيبت كايسي، ابنة السيّدة غارسيا، بكسر في يدها في روضة الأطفال. ظلّت الفتاة التي وظّفتها السيّدة غارسيا للعناية بأطفالها مع شقيق كايسي في المنزل، وطُلِبَ منّي اصطحاب الطفلة إلى المستشفى في سيّارة أجرة، بينما كانت السيّدة غارسيا تنهب الأرض في طريق عودتها من مؤتمر في مقاطعة أورانج. كانت قد أصرّت على أن أصطحب كايسي إلى مستشفى الأطفال في لوس أنجلوس، رغم أنّه يبعد كيلومترات، فقد كانت تعرف العاملين هناك، وقالت لي أنّها تريد أن ترى كايسي وجهًا مألوفًا أثناء انتظارها والدتها.

كانت كايسي المسكينة تشعر بخوف شديد بسبب الألم؛ عندما اجتزنا المدينة آتيتين من بيفرلي هيلز، كانت أسنانها تصطكّ. رفضت الحديث مع الأطبّاء. لم أستطع أن أتحمّل الوضع.

في اللحظة التي وصلت السيّدة غارسيا، غادرتُ أنا المستشفى، وذهبت أبحث عن متجر لبيع الإكسسوار المضحك، كان قد ذكره شخص أمامي، قرب تقاطع فيرمونت وهوليوود. كنت أريد إحضار شيء ما يجعل كايسي تضحك. قبل أن أصل إلى هناك، واجهني صخب فتية خارجين من مطعم مكسيكي عند ناصية الطريق. كانوا يحملون بالونات وكانت وجوههم مصبوغة، بدوا في تلك اللحظة أشدّ البعد عن حالة كايسي المؤلمة.

لكنّهم سرعان ما عادوا إلى الداخل تطاردهم والدة يبدو عليها الإرهاق، وخرج من المكان مهرّج، واستند إلى جدار منهارًا. بدا متلف الأعصاب. أخرج علبة سجائر وزجاجة بيرة ملفوفة بكيس ورقي من جيبه. ضحكتُ بينما كان يفتح الزجاجة ويعبّ منها جرعة طويلة. كان نوعًا طريفًا من المهرّجين، لا طلاء على الوجه ولا شعر اصطناعيّ، كان مجرّد شاب له أنف أحمر وفي ثياب غريبة. وزجاجة بيرة مهرّبة. عندما رآني قال:

– لا تغرنّك المظاهر. عادةً، أنا لا أشرب ولا أدخّن على باب صالة لاحتفال خاص بالأطفال.

قلت له ألا يقلق، وسألته عن الطريق إلى محل الإكسسوار. أشار إلى اتّجاه هوليوود نحو متجر تغطّيه كتابات ولوحات جداريّة. سألني المهرّج:

– هل أستطيع المجيء معك؟ أشعر بأنّني مدمَّر نفسيًّا. لقد تدرّبت على يد فيليب غولييه في فرنسا. كان من المفروض أن أصبح فنّانًا أؤدّي فقرات على المسرح، لا أن أعمل في تسلية الأطفال.

سألته عن الفرق. وتبيّن لي أنّ الفرق كان كبيرًا. وقفت على درج المتجر وقلت له:

– اسمع، إذا وعدتك بأنّي لن أخبر أحدًا بأنّك كنت تشرب الكحول وتدخّن على باب صالة لاحتفال خاص بالأطفال، فهل تسدي إليّ معروفًا؟ معروفًا كبيرًا؟

تبعني المسكين، الذي كانت تفوح منه رائحة السجائر والكحول، إلى مستشفى الأطفال وزار كايسي.

بينما كنّا نقترب من حجرة كايسي في قسم إسعاف الطوارئ، لاحظت تغيّرًا في تصرّفه. منذ هذه اللحظة، سيصبح اسمي فرانك فروماج. لا تنادِني باسمي المعروف. وكأنّني كنت أعرف اسمه «اسمه المعروف» هذا.

اقترب فرانك فروماج من سرير كايسي، وأخرج قيثارة أُكُلال. غنّى أغنية عن ذراعها وكيف أصيبت بكسر، ورغم ما كان يعتري كايسي من خوف واضطراب، لم تتمالك نفسها فضحكت، ثمّ طلب منها مساعدته في تأليف أبيات تالية. ركّزت تفكيرها حول هذا الموضوع إلى درجة أنستْها أين كانت ومدى الخوف الذي تشعر به. بعد وقت قصير، وافقت على السماح للأطبّاء بتجبير ذراعها.

أخبرني السيّد فروماج بأنّه استمتع كثيرًا بتلك الزيارة. شعر بفورة من النشاط، وبدأ يستخدم كلّ أنواع التعابير المسرحيّة والتعاليم الخاصّة بعلم النفس التي لم أفهمها. أنقذتني ممرّضة سألت فرانك فروماج عمّا إذا كان سيأتي مرّة أخرى، ورجته أن يأتي لأنّ جميع الأطفال الآخرين يريدون رؤية الرجل ذي الأنف الأحمر الذي يعزف على قيثارة أُكُلال.

عندما غادرنا المستشفى، أعطاني رقم هاتفه وقال لي – والخوف بادٍ عليه – أنّني مدينة له بكأس، ثمّ قال بجرأة:

– اسمي روبن. روبن ماكيه.

اتّصلت به، وذهبنا لشرب كأس. قال روبن أنّه قرأ الكثير عن موضوع الترفيه عن الأطفال في المستشفيات مُذ قابلني، وبدا له أنّ الموضوع كان حقيقيًّا وله منهج ودراسات. وأضاف أنّ شخصًا في نيويورك كان قد أسّس أوّل جمعيّة خيريّة من هذا النوع في الثمانينيّات. وقال أنّه يرغب في التدرّب لديه.

– أريد استغلال مهاراتي في مساعدة الناس فعليًّا، لا لإضحاكهم فقط.

لم يحدث بيننا شيء في تلك الأمسية. كان كلانا يشعر بالحياء، إضافة إلى أنّ تومي ودجو كانا يراقباننا من طاولة في المقهى المقابل، تحسّبًا، فقد يكون أحد أولئك المهرّجين الذين يقتلون الناس، على حدّ قول دجو.

بعد ذلك، طلبت منّي السيّدة غارسيا إحضار فرانك فروماج إلى المستشفى ثانية، لأنّ الأطبّاء كانوا سينزعون الجبيرة عن ذراع كايسي. وافق هو، بشرط أن أدعوه إلى شرب كأس أخرى.

لم يكتفِ روبن بمساعدة كايسي خلال إزالة الجبيرة، بل أمضى أيضًا ساعات عدّة مع الأطفال الآخرين في جناح جراحة العظم. لم يتوقّف إلى أن أحسّ بيديه ترتجفان من شدّة الجوع. رجته إحدى الممرّضات أن يأتي ثانيةً.

كانت المشكلة أنّه لا يستطيع أن يعمل من دون أجر. قال لي أنّه يعيش في شقّة صغيرة مشتركة في كورياتاون، وأنّه لا يستطيع أن يفوّت على نفسه فرصة كسب أيّ مبلغ مهما كان زهيدًا.

في تلك اللحظة، اقترحت عليه فكرةً:

– ما رأيك في أن أجمع لك التبرّعات لتفعل ذلك مرّة في الشهر؟

أخبرته بأنّني أعمل لدى كلّ أولئك الناس الأثرياء، الذين أصبحوا على علم بما يفعله في المستشفى.

هكذا بدأ الأمر. علاقتي بمهرّج وتأسيس شركتنا. ذهب إلى نيويورك ليتدرّب لدى أطبّاء نفسانيّين وعلماء نفس أطفال ويتدرّب على فنون الأداء المسرحي، ثمّ عاد وانطلقت أعمالنا. كان يزور الأطفال المرضى، وكنت دائمًا في الظلّ أجمع التبرّعات وأنظّم الزيارات، وكان ذلك يناسبني تمامًا. كنت أرغب في الانخراط في هذا المجال – أرغب أكثر ممّا كان يعلم – ولكن ليس في الصفّ الأوّل.

كنت ماهرة في ما أفعل. وكان هو بارعًا في ما يفعل. كان الناس يشاهدون ويسمعون ما كنّا نفعله ويطلبون منّا زيارة أطفالهم المرضى. وظّفنا ثلاثة أشخاص؛ درّبهم روبن. وفي وقت لاحق، أنشأنا أكاديميّتنا الصغيرة للتدريب. تزوّجنا واستأجرنا شقّة في لوس فيليز، قرب مستشفى الأطفال. بعد سنوات، انضمّ إلينا أشخاص يحبّون هذا المجال أيضًا، وشعر روبن بأنّه أصبح في الموقع المناسب له.

وفي ما يتعلّق بي، أصبح لديّ هدف وتوجُّه محدّد. لم يكن ليتوفر لديّ الوقت للتفكير في الحياة التي خلّفتها ورائي. كان لديّ رجل يحتاج إلى أن أكون قويّة عندما يضعف هو، والعكس صحيح. كان حبّنا يستند إلى الحاجة والقوّة المتبادلة، وقد نجح الأمر تمامًا.

ظللت مدّة طويلة أعتقد أنّ ذلك النوع من الحبّ هو كلّ ما أحتاج إليه. عندما تعهّدت لروبن بأنّني سأحبّه وأحترمه إلى الأبد، كنت أعني ذلك بصدق. لكنّني تغيّرت، بالطبع. فمع مرور السنوات، لم أعد أحتاج إليه. هكذا اختلّ التوازن الذي كان قائمًا بيننا. إيدي، صحيح أنّ علاقة وثيقة كانت تربطنا، ولكن من دون توازن الحاجة لا يمكن الميزان أن يستقرّ. أمّا القشّة التي قصمت ظهر البعير، فكانت عجزي عن إنجاب طفل. فبعد حادث السيّارة لم أعد أحتمل الاقتراب من الأطفال؛ لم أعد أحتمل فكرة عذاب طفل. كانت مجرّد فكرة إنجاب طفل إلى العالم – طفل لا حول له ولا قوّة، مثلما كانت شقيقتي الصغرى – تبعث في نفسي رعبًا لا يُعرف مداه.

هكذا التزمت مساعدة الأطفال المرضى من خلف الستار. كان الأمر ممكنًا وآمنًا. كنت أقدّم أفضل ما لديّ، لكنّ ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة إلى روبن. قال لي أنّه يريد أن يحمل طفله بين ذراعيه. لم يستطع أن يتخيّل مستقبلًا لا ينطوي على هذا الاحتمال.

عندما أزفت اللحظة التي امتلك فيها روبن الشجاعة لإنهاء علاقتنا، أدركتُ أنّني لم أكن أمتلك أدنى فكرة عن شعور الحبّ الحقيقي. ولكن عندما قابلتك، عرفت أخيرًا كيف ينبغي أن يكون الحبّ. لم تكن الأيّام القليلة التي أمضيناها سويًّا مجرّد علاقة عابرة بالنسبة إليّ، ولا أعتقد أنّها كانت كذلك بالنسبة إليك.

اكتب لي، أرجوك.

سارة

الفصل الثاني والعشرون

ملفّ المسوّدات:

سارة، أنت على حقّ. لم يكن ما بيننا مجرّد علاقة عابرة. ولم تكن قصّة لأسبوع واحد؛ كانت قصّة العمر بكامله.

كلّ ما شعرتِ به بشأني وشأنك، شعرت به أنا أيضًا. ولكن، عليك التوقّف عن مراسلتي. لستُ الشخص الذي تظنّين. أو بالأحرى ربّما كنتُ الشخص الذي لا تظنّينه.

يا إلهي! ما هذه الفوضى؟ ما هذه الفوضى الرهيبة.

إيدي

حُذِفت في الساعة 00:12 صباحًا.

الفصل الثالث والعشرون

بعد مضي أربعة أيّام فقط مع والدَيّ في غلوسترشير، عدت إلى لندن. كان من المقرّر أن أتناول الغداء في ضاحية ريتشموند مع تشارلز، المؤتمن في جمعيّتنا؛ ثمّ ألقي خطابًا في مؤتمر حول رعاية المرضى وتهدئة مخاوفهم، كان تشارلز قد ساعد في تنظيمه. بعد ذلك، سأمضي الليل في منزل تومي، ومن ثمّ أبدأ رحلة الطيران، التي سأجتاز فيها خمسة آلاف وخمسمئة ميل، عائدة إلى لوس أنجلوس في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي.

جلست هادئة في القطار المتّجه إلى لندن، من دون أن أعرف ما إذا كنت مخدّرة أو مستسلمة. كنت قد تحدّثت كما يجب مع تشارلز أثناء تناول الغداء، وتحدّثت بدقّة في المؤتمر، ولكن من دون أيّ حماسة. سألني تشارلز، وأنا أودّعه ما إذا كنت على ما يرام. كنت على وشك البكاء، عندما رأيت اهتمامه بي. أخبرته بانفصالي عن روبن. رجوته، قائلة:

– لا تخبر أحدًا لو سمحت. نريد أن نعلن الانفصال بصورة لائقة في اجتماع مجلس الإدارة المقبل.

– بالطبع، قال تشارلز بهدوء. آسف لما حدث سارة.

شعرت بأنّني محتالة بغيضة.

بينما كنت عائدة إلى وسط لندن بالقطار، قطعت وعدًا لنفسي. قلت، «غدًا»، سأعاود الإمساك بزمام الأمور. غدًا، سأركب الطائرة عائدة إلى لوس أنجلوس، حيث سأشعر ثانية بالفرح الذي يبعثه ضوء الشمس في الجسم، سأشعر ثانية بالثّقة، وأستعيد أفضل ما في شخصيّتي. غدًا.

توقّف القطار في محطّة باترسي بارك، أسندت رأسي إلى زجاج النافذة الأملس، وبدأت أراقب الناس المتهافتين على الرصيف المقابل. كانوا يحشرون أنفسهم داخل القطار قبل أن يتسنّى للركّاب الترجّل منه. كانت الأكتاف ترتطم بالأكتاف والشفاه مزمومة والعيون تنظر إلى الأسفل. بدا الجميع غاضبًا.

راقبت رجلًا يرتدي زيّ لاعبي كرة القدم باللونين الأحمر والأبيض، يشقّ طريقه بصعوبة، محاولًا الترجّل من القطار، كان يحمل سترة رياضيّة مطويّة على ذراعه. سار في اتّجاه المقاعد الخالية خارج قطاري. تأمّلته ساهمة بينما كان يطوي السترة بعناية ليضعها داخل حقيبة. بعد قليل، وقف ونظر إلى ساعته. ألقى عليّ نظرة سريعة، ثمّ جذب الحقيبة فوق كتفه.

عندذاك، وبينما بدأ قطاري يتحرّك لمغادرة الرصيف، أدرت وجهي إلى ظهره وهو يسير في اتّجاه سلّم الخروج، لاحظت بسرعة الاسم المكتوب على ظهر قميصه: أولد روبسونيانز. تأسس العام 1996.

كنت في وقت سابق، وأنا آمل بالوصول إلى إيدي عبر مسار آخر في محرّك غوغل، حاولت مرّات عدّة أن أتذكّر اسم الفريق الذي يلعب معه، لكنّ ذهني لم يسعفني إلّا بكلمة «أولد». بدأ قطاري يسرع، أغمضت عينيّ، وركّزت بشدّة على محاولة تذكُّر ما كتِب على الكؤوس التي حازها إيدي مع فريقه لكرة القدم. أولد روبسونيانز؟ هل كان هو الاسم المكتوب؟

تذكّرت كيف أزال إيدي بإصبعه طبقة كثيفة من الغبار من على أعلى إحدى الكؤوس. نعم! كان مكتوبًا على الكؤوس أولد روبسونيانز، ذا إلمز، باترسي ماندي. كنت متأكّدة.

نظرت ثانية عبر النافذة إلى الخلف، رغم أنّ المحطّة كانت اختفت عن مرمى البصر منذ فترة. خلف أنابيب الغاز القديمة، كان هيكل مبنى ضخم قيد الإنشاء تشرف عليه رافعات شاهقة العلوّ.

الرجل الذي رأيته يلعب مع فريق إيدي لكرة القدم.

كتبت الاسم خطأ، لكنّ غوغل أدرك ما كنت أبحث عنه. فتح لي موقعًا. كانت هناك صور لرجال لا أعرفهم، وروابط تظهِر مواعيد مباريات الفريق؛ وتقارير حول المباريات؛ ومقالة حول جولاتهم في الولايات المتّحدة. هل كان إيدي هناك؟ في الولايات المتحدة؟

قرأت في زاوية الصفحة ما كتبه أعضاء الفريق في موقع تويتر: نتائج المباريات، وتعليقات المزاح في ما بينهم، والمزيد من الصور لرجال لا أعرفهم. وفجأة، ظهرت صورة رجل أعرفه بالتأكيد. كان تاريخها يعود إلى أسبوع مضى. كان إيدي في خلفيّة الصورة التي التُقطت في حانة بعد انتهاء المباراة، كان يشرب كأسًا ويتحدّث إلى رجل يرتدي سترة رياضيّة. إيدي.

بعد أن تأمّلت الصورة مليًّا، ضغطت رابط «معلومات عنّا».

فريق أولد روبسونيانز يلعب في ملعب يغطيه العشب الأخضر الاصطناعي قرب محطّة القطارات في باترسي بارك كلّ يوم الإثنين. كانت مباراتهم تبدأ الساعة الثامنة مساء.

نظرت إلى ساعتي، لم تكن الساعة قد بلغت السابعة. لماذا إذًا كان الرجل يبدو مستعجلًا؟

وقفت في باب القطار متردّدة في محطّة فوكسهول، لا أدري ما أفعل. لم يكن هناك ما يضمن وجود إيدي في لندن، أو مشاركته في المباراة هذه الليلة. وطبقًا للموقع، كان الملعب ضمن حرم مدرسة. كنت بين خيارين، إمّا متابعة السير إلى حدود الملعب لأواجهه بجرأة، أو لا أذهب أبدًا. فلا يمكن أن أسير إلى هناك كمن يتنزّه عرَضًا.

أُغلقت أبواب القطار، وبقيت على متنه.

في محطّة فكتوريا، ترجّلت من القطار ووقفت في باحة القطارات المزدحمة لا أقوى على الحركة. كان الناس ينطلقون حولي مسرعين ويصطدمون بي، ومن ثمّ يبتعدون منّي؛ بل إن إحدى النساء طلبت منّي بصراحة ألّا «أقف هناك كالحمقاء». لم أتحرّك، بل إنّني بالكاد كنت ألاحظ ما حولي: كلّ ما كنت أفكّر فيه هو احتمال أن يكون إيدي، خلال أقلّ من نصف ساعة، يلعب مباراة كرة قدم على بعد دقائق من المكان الذي كنت أقف فيه.

الفصل الرابع والعشرون

غاليتي،

اليوم هو الحادي عشر من يوليو – عيد ميلادك! مضت اثنتان وثلاثون سنة على خروجك إلى الوضوح المشرق للعالم، وقبضتاك المذهولتان تتحرّكان في الهواء مثل مجسّات لمس صغيرة.

خرجتِ إلى ضياء الحبّ الغامض الدافئ. بكيتُ عندما سمحوا لي بزيارتك: إنّها صغيرة جدًّا. شعرت بأضلاعك الهشّة المحيطة بقلبك الصغير النابض. قلت: إنّها صغيرة جدًّا. كيف ستتمكن من البقاء في قيد الحياة؟

لكنّك، يا قنفذتي، نجحت في البقاء في قيد الحياة. ما زلت حتّى الآن أعيش اللحظة التي شعرت فيها بتلك الجرعة الهائلة الطافحة بالحبّ، التي لم أكن مهيّأ لها تمامًا. لم أكن أبالي بتمضية والدينا طوال الوقت في رعايتك. بل كنت أريدهما أن يفعلا ذلك. كنت أريد أن تنمو أضلاعك لتصبح أقوى كي تحمي شعلة الحياة الصغيرة داخل صدرك. كنت أودّ لو تبقين في المستشفى أشهرًا، لا أيّامًا فحسب. كان والدانا يكرّران دائمًا على مسامعي: إنّها في صحّة جيّدة. أعدّ لي والدي يومًا فطيرة لذيذة لأنّ خوفي عليك دفعني إلى البكاء. لكنّك كنت في صحّة جيّدة، استمرّ قلبك يخفق، ليلًا ونهارًا، ومع توالي الفصول، وكبرتِ شيئًا فشيئًا.

هل تعلمين أنّ عيد ميلادك اليوم يا قنفذتي؟ هل أخبرك أحد بذلك؟ هل أعدّ لك أحد كعكة مغطّاة بنجوم من الشوكولاته، كما تحبّينها؟ هل غنّى لك أحد؟

إذا لم يفعل أحد ذلك، فأنا قد فعلت. ربّما سمعتني. وربّما كنتِ معي الآن، وأنا أكتب لك هذه الرسالة، تطلقين ضحكات خافتة لأنّ خطّك أجمل من خطّي، رغم أنّك أصغر منّي. ربّما كنتِ في الخارج تلعبين في بيتك الصغير فوق الشجرة أو تقرئين مجلّات الفتيات داخل مخبئك في ممرّ برود رايد.

ربّما كنتِ في كلّ مكان. وهذا هو الاحتمال الذي أفضّله. هناك بعيدًا فوق الغيوم الورديّة. وهنا في رطوبة انبلاج الفجر.

حيثما ذهبت، أبحث عنك. وأينما ذهبت، أراك.

أنا أضمّك وأقبّلك

الفصل الخامس والعشرون

في ليلتي الأخيرة في لندن إذًا، وجدت نفسي في مباراة لكرة القدم بتشكيلة ستّة لاعبين في باترسي، يحدوني الأمل بالعثور على رجل قابلته ذات يوم. رجل لم يعاود الاتّصال بي.

ما فعلته في تلك الليلة تجاوز الحدود الفاصلة للسلامة العقليّة. ولكن، بينما كنت أقف في ساحة محطّة فكتوريا أحاول إقناع نفسي بالمنطق، أدركت أنّني كنت أرغب في رؤية إيدي أكثر من اهتمامي بالتبعات.

هكذا انحشرت في زاوية خانقة من القطار المتّجه إلى جسر لندن عبر كريستال بالاس، كانت محطّته الأولى هي باترسي بارك. خلال أقلّ من دقيقتين من السير من المحطّة، كنت سأجد ملعب مغطى بالعشب الأخضر الاصطناعي، وهناك – شعرت بمعدتي تنقلب مثل فطيرة داخل مقلاة – سأجد إيدي ديفيد. لا بدّ أنّه في هذه اللحظة يرتدي زيّ اللعب ويهيّئ نفسه لمباراة الساعة الثامنة. يمرّر الكرة للاعب آخر في الفريق. يمطّ عضلاته.

جسده. جسده الفعلي. أغمضت عينيّ، وحاولت إخماد دفق من الحنين.

كان القطار بدأ يتمهّل. تعالى صرير المكابح الحادّ، ودفعتني أمواج المسافرين لنزول الدرجات، ثمّ وجدت نفسي – في صورة مفاجئة، صادمة – في شارع باترسي بارك. سمعت خلفي صراخ بائعي البطاقات وصوت غيتار أحد عازفي الشوارع. فوق رأسي، انبعث صرير جسور القطارات وسرحت غيوم بيضاء كثيفة. وفي مكان ما في آخر زقاق غير معبّد، كان إيدي ديفيد يقف أمامي.

وقفت في المكان بعض الوقت، أحاول التنفّس بهدوء. اندفعتْ حولي موجة أخرى من الركّاب. كان أحدهم يرتدي قميص لاعبي كرة القدم باللونين الأحمر والأبيض، كُتب على ظهره باللون الأسود باليرو، كان يركض في أقصى سرعته في الزقاق المفضي إلى الملاعب، محاولًا أثناء

الركض إرسال رسالة نصّيّة وتثبيت لبّادات الحماية فوق ساقيه. كانت حقيبته الخضراء تتأرجح حوله وتضرب وجهه، لكنّه تابع الركض.

قلت في سرّي، هذا الرجل يعرف إيدي. والأرجح أنّه يعرفه منذ سنوات.

عندما رأيت الملاعب، تأكّد لي كلّ ما رأيته على الشبكة. كانت الملاعب محاطة من الجوانب كافّة بأسيجة من الأسلاك وبجسورٍ قطارات وبأبنية. لا يوجد مكان للاختباء. ومع ذلك ها أنذا، بكامل طولي، أسير بخطوات واسعة متّجهة نحو المكان، وأنا أرتدي البلوزة الأنيقة التي كنت أرتديها في المؤتمر.

كان ذلك أكثر شيء مروّع سأرتكبه طوال حياتي.

لكنّ ساقيَّ تابعتا السير.

كان اللاعبون الأقرب إليّ الموجودون داخل الملعب يتهيّأون للعب. ركض الحكَم إلى وسط الملعب وصفّارته في فمه. كان كلّ شيء يتحرّك في بطء، كأنّه فيلم فيديو قديم بدأ يخرب. كانت تعبق في المكان رائحة المطّاط المشحَّم ودخان العوادم.

تابعت ساقاي السير.

همست لنفسي بصوت مسموع:

ــ استديري واركضي، استديري واركضي، وسنتناسى كلّ ما حصل.

تابعتْ ساقاي السير.

أدركت في تلك اللحظة أنه، وفي ما عدا الرجل المكتوب على قميصه باليرو، لم يكن هناك لاعبون يرتدون لباس فريق أولد روبسونيانز. كان هناك فريقان يرتدي أفراد أحدهما لباس باللون الأزرق ويرتدي أفراد الآخر لباس باللون البرتقالي، يتباريان في الملعب القريب منّي، وفي الملعب الآخر، كان لاعبون يرتدون لباس باللونين الأبيض والأسود يلعبون ضد فريق يرتدي أعضاؤه لباس باللون الأخضر.

كان باليرو يعيد لبّادات حماية ساقيه إلى حقيبته. بعد لحظة، وقف ولاحظ وجودي.

ــ هل أنت أحد أعضاء فريق أولد روبسونيانز؟

ــ نعم، لكنّني تأخّرت كثيرًا. هل تبحثين عن أحد؟

ــ نعم، أبحث عنهم جميعًا، على ما أعتقد.

بدت ابتسامة باليرو أشبه بابتسامة صبيّ شقيّ.

ــ تعدّل وقت المباراة إلى السابعة مساء. لقد نسيت. لعبوا المباراة وانتهى الأمر.

ــ يا إلهي.

التقط حقيبته. قال وهو يشير إلى ما يشبه حاوية شحن:

– لكنّهم في الداخل حاليًّا يشربون البيرة احتفالًا بانتهاء المباراة. هل تودّين الانضمام إلينا؟

تأمّلتها مليًّا. كانت «فعلًا» حاوية شحن. لا تجد شيئًا كهذا إلّا في لندن. بار للبيرة خاصّ بالفريق داخل حاوية شحن من دون نوافذ. كرّر الرجل دعوته:

– تعالي وانضمّي إلينا رجاء، نحن نحبّ الضيوف.

كان مظهر بالبيرو لا يوحي بأنّه مغتصِبًا أو قاتلًا. سرت جانبه بخطوات كبيرة أبادله حديثًا لا معنى له، لم أكن أفهمه أنا نفسي. كنت فقدت السيطرة على تفكيري، لهذا بدا الوضع طبيعيًّا.

قال بالبيرو، وهو يُشرِع بابًا فُتِح في أحد جوانب الحاوية:

– تفضّلي.

مرّت دقائق طويلة وأنا أحدّق في ظهر رجل عارٍ قبل أن أدرك ما يحصل. قبل أن أدرك أنّني كنت فعليًّا أحدّق في ظهر رجل عار يلفّ منشفة حول عنقه موليًا الباب ظهره، وهو يدندن لحنًا بحماسة كبيرة، ومن دون أيّ التزام بالإيقاع. كان ثمّة رجال آخرون، يرتدون ثيابًا ولو قليلة، وهم يجلسون على المقاعد يتناقشون في شأن المباراة. تناثرت حول الرجال قمصان كرة قدم تحمل أسماء مختلفة.

عند الباب المفضي إلى ما تصوّرت أنّه الحمّام، لبس الرجل العاري سروالًا داخليًّا.

صدر من أعماقي صوت يقول: «يا إلهي، كلّا!»، لكنّه لم يصل إلى شفتيّ. سمعت خلفي صوت رجل يضحك، متّجهًا صوب بالبيرو:

– بال! لقد تأخّرت ساعة! ثمّ أردف: آسف. مرحبًا بكِ.

استعدت الوعي.

– آسفة جدًّا. ثمّ استدرت لأغادر المكان. أفسح بالبيرو الطريق أمامي وهو يضحك.

قال أحدهم كان يقف خلفي مباشرة:

– أهلًا وسهلًا!

خرجت وأنا أترنّح مصعوقة، أتساءل كيف يمكنني تجاوز هذا الموقف. كنت قد دخلت غرفةً لتغيير الملابس تعجّ برجال شبه عراة.

تبعني الرجل، وألقى عليّ التحيّة. كان في الأقلّ مرتديًا كامل ملابسه.

كان يضع نظّارة. داخل الحاوية تحوّل صمت الذهول أصواتَ ضحكات خلْتُها لن تتوقّف.

نظر في اتّجاه الباب وهزّ رأسه كمن يقول تجاهليهم.

– أنا مارتن. كابتن الفريق ومديره. لقد دخلتِ غرفتنا الخاصّة بتغيير الملابس، ورغم أنّ ما فعلتِه غير مستحبّ، فإنّي أعتقد أنّك بحاجة إلى مساعدة.

همست، وأنا أضم حقيبة يدي بشدّة إلى صدري:

– نعم، أنا بحاجة إلى مساعدة. لا بدّ أنّ الرجل كان مارتن الذي كتب في صفحة فيسبوك الخاصّة بإيدي. أعتقد أنّني بحاجة ماسّة إلى المساعدة، لكنّني لا أظنّ أنّك تستطيع تقديمها لي.

– قد يواجه أيّ منا موقفًا حرجًا هكذا، أجاب مارتن بلطف.

– كلّا، لا يمكن، أكّدت له.

فكّر في ما قلته، وأجاب:

– أعتقد أنّك على حقّ. فلم يسبق لامرأة أن دخلت غرفة تغيير الملابس خاصتنا خلال العشرين سنة الماضية. لكنّ فريق أولد روبسونيانز هو فريق عصري، ويتقبّل أعضاؤه الابتكار والتجديد. ما من شكّ في أنّ الاستحمام بعد كلّ مباراة يعتبر أحد أقدم الطقوس لدى فريقنا، ولكن لا يوجد ما يمنعنا من تحديثه – إدخال الضيوف مثلًا، أو فرقة موسيقيّة، أمور من هذا النوع.

انطلقت من داخل الحاوية ضحكات عالية وأصوات رجال يتحدّثون. تصاعد بخار الاستحمام ببطء في الجوّ المسائي. كان مارتن، كابتن الفريق، يسخر منّي وإن غلّف سخريته باللطف.

تنفّست نفسًا عميقًا.

– كان خطأ فظيعًا. كنت أبحث عن... توقّفت عن الكلام فجأة. ففي غمرة الرعب الذي اجتاحني، نسيت تمامًا سبب مجيئي في المقام الأوّل.

يا إلهي! لقد دخلت غرفة يغيّر فيها الرجال ملابسهم يحدوني الأمل برؤية إيدي.

كتّفت ذراعيّ بإحكام، كما لو كنت أحاول لملمة أجزاء ذاتي المبعثرة. ما عساني أقول؟ ما عساني أفعل؟ ثمّة احتمال أن يكون هو هناك في تلك اللحظة، يجفّف جسده بعد الاستحمام، وهو يصغي ويستوعب تدرّجًا ما حصل، ويشعر بالصدمة بينما يخبره زملاؤه كيف اقتحمت الفتاةُ الطويلة التي لوّحتها الشمس غرفتهم.

شعرت بالغثيان. أدركت أنّني لست على ما يرام. أنا لست على ما يرام فعلًا. الناس الطبيعيّون لا يفعلون ذلك.

– عمّن تبحثين؟ سألني الرجل. هل هو أحد أعضاء فريق أولد روبسونيانز؟ أم إنّه ينتمي إلى فريق آخر؟

أجابه باليبرو، وهو يخرج من الحاوية:

– قالت أنّها تبحث عن أحد اللاعبين في الفريق. ثمّ أضاف: آسف! للمناسبة، كان ذلك خطأ فادحًا من جانبي. رغم أنّك أدخلتِ البهجة إلى قلوب الرجال الليلة. أتى اليوم لزيارتنا أحد مؤسّسي الفريق من مدينة سينسِناتي – وهو يعتقد أنّنا أتينا بك خصوصًا للترحيب به.

نظرت طويلًا إلى الأرض، وهمست:

– كانت طرفة رائعة. لا داعي للاعتذار. لقد فهمت الموضوع على نحو خاطئ. لم أكن أبحث عن شخص من أعضاء فريق أولد روبسونيانز، كنت...

– كنتِ تبحثين عن شخص من أعضاء فريق أولد روبسونيانز. قال مارتن. من هو؟ كلّ الرجال في الداخل متزوّجون! في ما عدا والي، لكنّه... توقّف عن الكلام، ثمّ رمقني بنظرة حادّة. وقبل أن يتفوّه بكلمة، أدركت ما سيقول. سألني بهدوء:

– هل أنت سارة؟

– كلّا.

خرج رجلان من الحاوية. باشر أحدهما الكلام:

– هل صحيح أنّ... وعندما رآني قال: صحيح إذًا.

قال مارتن من دون أن تفارق عيناه وجهي:

– هذان السيّدان هما إدواردز وفونغ-أون. سأقرّر من منهما سيكون نجم المباراة. ثمّ أضاف فجأة: سوف أساعدك في الوصول إلى الطريق العام. دفعني إلى السير في اتّجاه الزقاق المفضي إلى الطريق العام.

قال بالييرو:

– وداعًا!

ثمّ حيّاني إدواردز وفونغ-أون، سيكون أحدهما نجم المباراة. سمعت ضحكات الرجال الثلاثة وهم يعودون أدراجهم نحو الحاوية.

عندما ذهبوا، استوقفني مارتن ووقف قبالتي. قال لي في النهاية:

– ليس هنا الليلة. فهو لا يلعب معنا كلّ أسبوع. يمضي معظم وقته غرب البلاد.

– من؟ آسفة، أنا...

بدا مارتن متعاطفًا معي، أدركت أنّه يعرف تمامًا من أنا، وأنّه يعرف تمامًا لماذا لم يتّصل إيدي بي. سألته بسرعة:

– إذًا، هل هو في غلوسترشير؟

ترقرقت في عينيّ دموع حارّة تفضح الإحساس بالمهانة.

أومأ مارتن برأسه نافيًا.

– هو، ثمّ توقّف فجأة عن الكلام، وبدا كمن تذكّر مسؤوليّته تجاه زميله في الفريق. آسف، لا ينبغي لي الحديث عن إيدي.

– لا مشكلة، قلت له.

كنت واقفة هناك، منهارة بسبب ما أشعر به من خزي. كنت أريد الذهاب، لكنّ الإحساس بازدراء النفس وبالصدمة جعلني عاجزة عن تحريك ساقيّ.

قال مارتن بهدوء، وهو يمسح وجهه بيده:

– صحيح أنّه لا شأن لي بالموضوع، لكنّ إيدي صديقي منذ سنوات، وهو... توقّفي عن محاولة العثور عليه، اتّفقنا؟ أنا واثق في أنّك امرأة في غاية اللطف، وإذا كان ما سأقول يشعرك بالراحة، فإنّني لا أعتقد أنّك مخبولة، ولا حتّى هو يعتقد ذلك، ولكن... توقّفي.

– هل قال ذلك؟ هو لا يعتقد أنّني مخبولة؟ ماذا قال عنّي أيضًا؟

انهمرت الدموع من عينيّ وتساقطت على الأرض الخرسانيّة الباردة. كان وجودي في وضع كهذا أمرًا يصعب تصديقه. أنا، هنا مع هذا الرجل. هذا الرجل الغريب كليًّا، أتوسّل إليه بغية الحصول على فتات المعلومات.

– ليس في مصلحتك العثور عليه. ثقي فيّ رجاء. ليس في مصلحتك العثور على إيدي ديفيد.

استدار، وعاد إلى الحاوية، وهو يقول لي من دون أن يدير رأسه أنّه مسرور بمقابلتي، وأنّه يأمل بأنّ ما رأيته هناك لن يظلّ مبعث خوف لي مدى الحياة.

هدر قطار فوق الجسر المحاذي للملاعب، ارتعش جسمي. يجب أن أعود إلى وطني.

المشكلة أنّني لم أعد أعرف أين وطني. والواقع أنّني لم أعد أعرف أيّ شيء، سوى أنّني أريد أن أعثر على إيدي ديفيد، على رغم كلّ ما قاله هذا الرجل.

الفصل السادس والعشرون

جذبت بنطال الجري فوق ساقَيّ. كانت الساعة الثالثة والدقيقة التاسعة فجرًا، أي بعد سبع ساعات تمامًا من خروجي متعثّرة الخطى من ملعب كرة القدم. كان جوّ الغرفة العابق بالأرق مؤلمًا.

ارتديت حمالة الصدر الرياضيّة وقميص الجري. كانت يداي ترتعشان، فقد كان الأدرينالين ما زال يفور في عروقي، ويختلط بإرهاق جسمي إلى حدّ يدفع إلى الغثيان.

كان تومي قد سدّ فتحة الباب ومنعني من الخروج عندما رآني مرتدية ملابس الجري وأهمّ بالخروج بعد عودتي من ملعب كرة القدم. بدل ذلك، أعدّ لي مشروبًا ساخنًا، وأمرني أن آوي إلى الفراش. قال لي بحدّة:

– لا أريد حتّى أن أفكّر في ما حصل في ملعب كرة القدم.

لكنّه عاد وعدل عن قراره خلال خمس دقائق وقرع بابي، راجيًا أن أخبره بما حصل. عندما انتهيت من روايتي، قال بلطف:

– آسف، ولكن، يُشهد لك اعترافك بأنّك... تصرّفت على نحو خاطئ. فذلك يتطلّب شجاعة.

– تومي، تلك الرسائل، كلّ تلك الرسائل التي أرسلتها له عبر فيسبوك. واتّصالي هاتفيًّا بورشته، والرسائل إلى صديقه آلان. ماذا دهاني؟

– الهاتف الصامت يُخرج أسوأ ما فينا، كلّنا.

جلسنا سويًّا على سريري وقتًا طويلًا. لم نتكلّم كثيرًا، لكن مجرّد وجوده معي هدّأ روعي، وبدأت أفكّر في محاولة النوم.

قلت له، قبل أن يذهب إلى سريره:

– أنا آسفة. أصبحتُ ثانية عبئًا عليك. لستَ مضطرًا إلى تمضية حياتك في محاولة إنقاذي.

– لم أنقذك يومذاك، ولست أنقذك الآن. هارنغتون، أنا موجود بجانبك – أنت تعلمين ذلك جيّدًا – لكنّني واثق أيضًا في أنّك قادرة على الخروج من هذا المأزق. أنت من الأشخاص الذين

يصمدون في وجه المحن. كائن يستمرّ في البقاء، رغم كلّ شيء.

ابتسمت وإن بصعوبة.

الآن، وبعد ثلاث ساعات، كنت أحاول مرّة بعد مرّة ربط شريط حذائي من دون أن أتمكّن من التحكّم في حركات يدَيّ. لم يكن أيّ شيء يسير على ما يرام.

كان موعد قدوم سيّارة الأجرة التي ستنقلني إلى المطار في الخامسة. لم أكن قد نمت، ولم أكن قادرة على النوم. كان هناك متّسع من الوقت للجري، ومن ثمّ للاستحمام وتغليف شجرة الليمون الصغيرة التي اشتريتها لتوم وزويه لأشكرهما على استضافتي. كنت أنوي الجري فترة وجيزة؛ أي ما يكفي لمساعدتي على النوم في الطائرة.

تسلّلت من باب غرفة نومي، مطمئنةً بأنّ زويه كانت مسافرة. عندما يأوي تومي إلى فراشه، يظلّ هناك، لكنّ زويه غالبًا ما تستيقظ باكرًا لتردّ على البريد الإلكتروني الوارد من آسيا، وهي ترتدي كيمونو أنيقًا من الحرير الرمادي. وقد ضبطتني أكثر من مرّة وأنا أتسلّل ذاهبة للجري قبل شروق الشمس.

لكنّني كنت أعلم عندما نظرت إلى ساعتي، وكانت تشير إلى الثالثة والدقيقة الثالثة عشرة فجرًا أنّ ما أفعله ليس رياضة جري. بل هو مرض.

لمحت نفسي في المرآة الكبيرة المثبّتة في مدخل منزل زويه، والمؤطّرة بخشب من شجرة كانت في حديقة منزل والديها المتوفّين في بيركشاير. كانت زويه على حقّ. لقد فقدت بعضًا من وزني. كانت ذراعاي نحيلتين، ووجهي هزيلًا، كأنّني نزعت سدّادة وسمحت لبعض الوزن بالتسرب.

أشحت بوجهي عن المرآة، فقد أربكتني رؤية نفسي فيها، بل وأفزعتني أيضًا. كنت دائمًا أتساءل عن مستوى الوعي الذي يحتفظ به المرضى النفسانيّون عندما يبدأ وضعهم يتدهور. هل يدركون بسهولة أنّ التدهور قد بدأ؟ ما درجة وضوح الخطّ الفاصل بين الواقع والخيال، قبل أن يتلاشى تمامًا؟

هل كنت مريضة؟

توقّفت في المطبخ لأشرب قليلًا من الماء. بدأت عضلات ساقي تنتفض بعصبيّة. طمأنْتُها بأنّنا سنذهب للجري سريعًا.

عند باب المطبخ، وقفت من دون حراك. ماذا؟ زويه؟ لكنّها كانت في...

صرختْ المرأة الموجودة في المطبخ:

– يا إلهي!

جمدت في مكاني. كانت المرأة عارية. ها هو إنسان غريب عارٍ آخر بعد مضي سبع ساعات فقط من رؤيتي إنسان غريب آخر عاريًا. كانت مصابيح الشارع البرتقاليّة ترسم نقوشًا على ثديي المرأة وبطنها وهي تذهب إلى هنا وهناك محاولة ستر نفسها. وقد تدفّق من فمها سيل من اللعنات.

استدرت إلى الوراء وأنا أغطّي عينيّ، ثمّ عدت لأستدير اتّجاهها ثانية. فقد كان عقلي بدأ يحلّ اللغز: لم تكن المرأة غريبة. قالت بحدّة:

– توقّفي عن النظر إليّ. رغم أنّ لهجتها غدت أهدأ قليلًا، شعرت بقسمات وجهي تسترخي من شدّة الذهول، عندما أدركت أخيرًا أنّها أقدم صديقاتي.

– يا إلهي، قلت بوهن.

– يا إلهي، ردّت دجو موافقة، وهي تختطف مكبّر صوت من فوق اللوح الخاصّ بإعداد الطعام في مطبخ زويه، لتستر عريها.

– دجو؟ لا. لا، لا. قولي لي أرجوك أنّ الأمر ليس كما يبدو.

– الأمر ليس كما يبدو، تمتمت دجو.

استبدلت مكبّر الصوت بكتاب للطبخ، ثمّ عدلت تمامًا عن محاولة التستّر.

– طلبتُ منك ألّا تنظري إليّ.

ونزلت خلف الطاولة الموجودة وسط المطبخ.

وقفتُ كمن أصيب بالشلل إلى أن سمعت صوتًا غاضبًا صادرًا من الجهة الأخرى من المطبخ يقول لي:

– سارة، هل لك أن تحضري لي شيئًا أرتديه رجاء؟

ذهبت من دون أن أتفوّه بكلمة إلى المدخل، ونزعت معطفًا كان معلّقًا على المشجب. أعطيتها إيّاه، وجلست منهارة على أحد مقاعد المطبخ.

– ما الذي يحدث؟ سألتها.

وقفت دجو، وهي تلفّ جسدها بالمعطف الذي تبيَّن أنّه جاكيت كبير للتزلج. بدت ساخطة، وهي تطوي الكمّين إلى الأعلى لتستطيع إخراج يديها.

– هل تريدين بنطالًا للتزلّج؟ عِصيًّا للتزلج؟ خوذة لحماية الرأس عند السقوط؟ دجو، ما هذا؟ قالت، وهي تقطّب حاجبيها تعبيرًا عن نفورها من المعطف:

– في إمكاني أن أسألك السؤال ذاته. وأضافت، وهي تقصد في ما يبدو كلّ من يحب التزلّج: أولئك الأثرياء المزعجون. وأنتِ، ماذا تفعلين هنا؟

– أنا مقيمة هنا، كما تعلمين. كنت خارجة لأجري، ثمّ سأتوجّه إلى المطار.

– إنّها الثالثة والربع فجرًا! لا أحد يخرج للجري في وقت كهذا! قالت باستهجان.

– أنت عارية في مطبخ تومي! لا تبدئي! أجبتها باستهجان مماثل.

أغلقت دجو سحّاب المعطف. كان كلّ ما استطاعت قوله هو:

– شيء لا يصدّق.

تنفّستُ نفسًا عميقًا. قلت قبل أن تحاول مقاطعتي:

– دجو، هل أنت على علاقة حميمة بتومي؟ هل هناك علاقة بين أقدم صديقين لي؟ سنتطرّق إلى موضوعي لاحقًا.

– كنت أزوره. وقال لي أنّ في إمكاني النوم على الأريكة، قالت في نهاية المطاف.

– جرّبي كذبة أخرى، دجو مونك، حاولي مرّة أخرى. لقد أوى تومي إلى فراشه في منتصف الليل، أو في وقت قريب من منتصف الليل. لم تكوني هنا في تلك اللحظة. لكنّك الآن هنا، وعارية، وأنا أعرف جيّدًا مدى حبّك لارتداء ملابس النوم.

– اللعنة! تمتم أحدهم.

كان تومي يقف عند الباب، وهو يرتدي روبه المنزلي.

– لقد قلت لك إنّها فكرة حمقاء.

– كنت أريد أن أشرب! أنا لا أشرب من صنابير الحمّام، تومي، أنت تعرف ذلك.

بدا صوتها متحّفزًا، ما يعني أنّها كانت مذعورة. أردفت وهي تومئ برأسها نحوي:

– كان من المفترض أن تكون نائمة، لا أن تتسلّل لتجري.

ثنيت مرفقَيّ فوق طاولة المطبخ.

– حسنًا. والآن أريد أن أعرف بالضبط ما يحصل هنا، ومنذ متى. وكيف يمكن تبرير ذلك في الوقت الذي يعيش فيه تومي علاقة جدّية. توقّفت قليلًا وتابعت: هذا ينطبق عليك أنت أيضًا دجو، رغم أنّ عليك أن تسامحيني لأنّني لا أكترث لشأن شون بالمقدار نفسه.

سار تومي بخطوات بطيئة، ودخل المطبخ ليجلس فوق طاولته، بعيدًا منّي ومن دجو. بادرني قائلًا:

– أريدك أن تعلمي...

ثمّ توقّف.

تحوّل توقُّف تومي عن الكلام صمتًا علق في جوّ الغرفة كالضباب. تأمّل يديه. اقتلع نسرة من الجلد الميت من جانب أحد أظافره. رفع يده إلى فمه، وبدأ يقضم إبهامه.

– وأريد أن أعرف أيضًا لماذا لم أعلم بذلك إلّا الآن.

– تجمعنا علاقة جنسيّة، صرّحت دجو بعد أن جلست فجأة. كان صوتها أعلى قليلًا من اللازم.

جفل تومي، لكنّه لم ينكر ما قالت. تابعت دجو كلامها:

– سارة، أنا لا أصدّق أنّك تكترثين إلى هذا الحدّ لشأن زويه، ولكن، إذا كان الأمر يهمّك، زويه تقيم علاقة جنسية مع أحد زبائنها. هو مدير الشركة التي تمثّلها، الشركة التي تصنع الساعات التي تعرض بيانات الجسم أثناء التمرينات. وهذا هو سبب سفرها إلى هونغ كونغ. ذهبتْ تلبية لدعوته. ثمّ أضافت بحزم: تومي لا يأبه كثيرًا للأمر. زارني في شقّتي ليلة أخبرته زويه بالأمر، أسرفنا في الشرب، ولا داعي للشرح.

نظر تومي إلى دجو كأنّه كان على وشك القول: هل حدث ذلك حقًّا؟، ثمّ هزّ كتفيه من دون اكتراث وأومأ برأسه كمن يؤكّد ما قالت. اصطبغ وجهه باللون الأحمر القاني بفعل الحرج.

مرّة أخرى، ساد صمت طويل.

– آسفة، لكن ما قلتِه لا يبدو كافيًا. ماذا تقصدين بقولك «أسرفنا في الشرب ولا داعي للشرح»؟ الثمالة وممارسة الجنس لا يرتبط بعضهما ببعض بالضرورة كما تعلمين.

– لا تحاولي توبيخي بكلماتك الرنّانة، تمتمت دجو.

– تأدّبي رجاء.

تنهّدتْ. قالت، وهي تتفادى النظر في عينيّ:

– كان ذلك ليلة جئنا إلى هنا لتناول العشاء. يوم أعددت أنت الطعام. بعد أن أويتِ إلى فراشك، وأنت تشعرين بالانزعاج بسبب إيدي، ذهبت أنا إلى المنزل. يومذاك، أخبرتْ زويه تومي بالأمر فخرج من المنزل، لكنّه أدرك بعد بضع دقائق أنّه لا يوجد لديه مكان ليذهب إليه. هكذا اتّصل بي، بدل أن يعود إلى المنزل. استقل سيّارة أجرة وأتى إليّ.

أضاء وجهها ابتسامة لم أعهدها سابقًا. نظرَتْ إليه، تتنازعها ضرورة احترام خصوصيّته، والرغبة في التصريح بذلك. في تأكيد وجود علاقة. نظرْتُ إلى تومي، وقلت:

– إذًا، ركبت سيّارة أجرة إلى إيلفورد، و... أعني كنت تنوي أن...

خَفَت صوتي وتوقّفت عن الكلام. لم أستطع التلفّظ بالكلمة.

– لا مطلقًا، لا، أجاب بسرعة. لكنّه أضاف عندما تلاشت الابتسامة عن وجه دجو: لكنّ هذا لا يعني أنّني نادم على ما حصل.

– فهمت. إذًا، هل الأمر مجرّد علاقة عابرة؟ أم مشاعر حبّ حقيقيّ؟

ساد صمت طويل، ثمّ قالت دجو:

– أنا أحبّه. لكنّني لا أستطيع أن أتكلّم نيابة عنه.

رفع تومي رأسه بحدّة، وقال:

– عفوًا؟

– سمعتَ ما قلتُ، ردّت بنزق. كانت تغلق سحّاب أحد جيوب جاكيت تومي وتفتحه. لكنّ هذا موضوع ثانويّ. سارة، السبب الذي منعنا من إخبارك هو أنّنا لم نخبر أحدًا. زويه أخبرت تومي أنّه في إمكانه البقاء في المنزل المدّة التي يحتاج إليها – إلى أن يجد مكانًا يعيش فيه. وهي تمضي الليل في منزل الحبيب الجديد كي يتسنّى لتومي إخبارك في الوقت الذي يراه مناسبًا. في رأي تومي أنّ زويه تتصرّف في أريحيّة حقيقيّة؛ أمّا أنا فأعتقد أنّها لا تتحمّل أن تظهر بمظهر الشخص الشرّير.

بعد هنيهة تفكير، ابتسمتُ. كان قولها هذا، في الأقل، يبدو صحيحًا.

توقفتْ عن فتح السحّاب وإغلاقه.

– لكنّ زويه ليست هي المشكلة هنا. إنّه شون. شون هو المشكلة الحقيقيّة.

– لماذا؟ ماذا فعل؟

قال تومي عندما أدرك أنّ دجو تعيش صراعًا داخليًّا:

– المشكلة هي في ما يمكن أن يفعل. دجو قلقة من أنّ يحوّل مسألة الحضانة كابوسًا إذا اكتشف أنّها على علاقة برجل آخر. بالتالي، ستنفصل أوّلًا عنه، ومن ثمّ تسوّي مسألة الحضانة، من دون أن تذكرني. وعندئذ، سوف... سوف نرى ما سيحصل بالنسبة إلينا، وفق ما أعتقد.

لم يبدُ على وجه دجو أيّ تعبير، لكنّني فهمت رغم الصدمة التي كنت أشعر بها، حقيقة مشاعرها. كانت تحبّه فعلًا، ومنذ وقت طويل. كانت تخشى أن يكون الأمر بالنسبة إليه مجرّد علاقة عابرة. مجرّد ردّ فعل في أعقاب صدمة. كانت المسكينة تتحاشى النظر في عينيه. لم تكن عبارة «سوف نرى ما سيحصل بالنسبة إلينا» هي ما تودّ سماعه قطّ.

أدرك تومي الشيء ذاته، فدار حول طاولة المطبخ وجلس جانبها. رأيتها تطرق نحو الأسفل، وهو يضع يده بحذر على ساقها، أحسست بألم موجع كاد يخنقني. قالت دجو بهدوء:

– شون رجل حقود.

كان التحدّث عن شون أسهل من التطرّق إلى عواطفها نحو تومي. لا أستطيع أن أسمح له باكتشاف ما يحصل.

– أنا شخصيًّا، قال تومي، لا أفهم كيف يمكنه الحصول على الحضانة. فهو حاليًّا أسوأ من أيّ وقت مضى، لا يحضر مطلقًا في الموعد المحدّد لاصطحاب رودي من المدرسة، وهو يعيش تحت تأثير المخدّرات معظم الوقت، بل إنّه ترك رودي وحده في المنزل قبل أسبوعين وكاد الطفل يحرق المنزل عندما حاول أن يعدّ لنفسه الشاي. رودي الليلة مع والد دجو. ونظر إلى دجو ثانية، لكنّها كانت قد انغلقت على نفسها، كعادتها عندما تكون قد كشفت عن مشاعرها أكثر ممّا ينبغي.

نظرت إلى ساعة زويه الجداريّة الأنيقة، كانت الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين فجرًا.

قالت دجو التي لم تعد تحتمل الصمت:

– انتهى الموضوع إذًا. وضعت يديها على لوح إعداد الطعام، يدين صغيرتين خشنتين، وأضافت: لقد كشفت كلّ مشاعري خلال هذا النقاش. آسفة، ثمّ التفتت نحو تومي نصف التفاتة وأردفت: عزيزي، أنا فعلًا لا أهتمّ بما إذا كان الموضوع بالنسبة إليك مجرّد علاقة جنسيّة. انسَ ما قلتُ عن الحبّ. كان سخف من قبلي. أنا أبالغ في كلّ ما أقوله، ولا أخفي شيئًا، أنت تعرف طبيعتي.

ساد صمت محرج.

– سوف أترككما وحدكما قليلًا.

– لا، ابقي! صرخت دجو.

– شكرًا لك، قال تومي في اللحظة ذاتها.

تردّدتُ بعد أن كدت أقوم من المقعد.

– أنا لست بارعة في مواقف كهذه. كان وجهها بلون القرميد. لا ينبغي أن أُترَك لأتصرّف على هواي. إذا ذهبتِ، فسينتهي بي الأمر إلى التفوّه بالمزيد من الحماقات.

عاودتُ الجلوس وأنا أبتسم لتومي ابتسامة اعتذار، لكنّه كان غارقًا في أفكاره، كان حاجباه مشغولين بأمر يتجاوز قدرتي على التفسير. أشحت بنظري. استعرضت مجموعة زويه من كتب الطبخ التي وضعت خصوصًا للنساء المتصنّعات. نظرت إلى صورة تجمعها بتومي وهما يمارسان التمارين الرياضيّة في حديقة في كينسنغتون في بداية علاقتهما، عندما كانت لا تستطيع إبعاد يديها منه.

في نهاية الشارع، علا هدير الحافلة الليليّة المتّجهة إلى شارع هولاند بارك. تساءلت في سرّي عمّن يكون هذا الرجل الجديد. أين يعيش؟ كانت زويه تبدو ثريّة إلى درجة لا تصدّق بالنسبة إلى امرأة فقيرة مثلي، لكنّ رجلًا كهذا لا شكّ في أنه سيطيحها وشقّتها التي تضمّ غرفتَي نوم في شارع هولاند بارك. فهو لا بدّ أن يكون فاحش الثراء، تربطه صلات بأشخاص مهمّين. وفوق كلّ شيء، لا بدّ أن يكون مناسبًا لزويه، مناسبًا على نحو لم يكن في وسع تومي أن يكونه على الإطلاق، رغم جميع محاولاتها لدفعه قسرًا إلى الارتقاء في مهنته.

في نهاية المطاف، تنفّس تومي نفسًا طويلًا. استدار نحو دجو، وقال بهدوء:

– دجو، اسمعي، أنا أحبّك فعلًا، أنا أحبّك فعلًا. لكنّني كنت أتخيّل نفسي وأنا أعترف بحبّي لك في... في ظروف مختلفة.

لم تتفوّه دجو، التي شككتُ في لحظة أنّها فقدت القدرة على التنفّس، بكلمة. مرّر تومي إصبعه على حافّة طاولة المطبخ.

– أنتِ الشخص الوحيد الذي أكون معه على طبيعتي. الشخص الوحيد الذي أستطيع التحدّث إليه عن أيّ شيء، وفي كلّ الأوقات. أنا أشتاق إليك ما إن تغادرين الغرفة. رغم أنّك غالبًا ما تصفينني بأنّني «شخص مزعج يتمتّع بامتيازات»، رغم أنّك امرأة من النّوع الذي يدفع المرء إلى الشعور بالغيظ، وإلى قول أشياء كهذه في حضور سارة.

ارتسمت شبه ابتسامة على وجه دجو، لكنّها كانت لا تزال عاجزة عن النظر إليه.

– كنت أظنّ أنّني سعيد عندما انتقلت إلى هذه الشقّة، لكنّني لم أكن سعيدًا. لم أكن سعيدًا على الإطلاق، ولم أشعر بالسعادة سنوات. ولغاية شهر مضى، كنت قادرًا على إقناع نفسي بأنّ هذا...

– أجال بصره في مطبخ زويه النظيف المرتّب – هذا ما أريد. لكنّه ليس كذلك. ما أريده فعلًا هو أن أكون على سجيّتي. أن أكون مرتاحًا، أن أضحك، ضحكًا حقيقيًّا. معك، أنا أضحك حتّى تنهمر دموعي، ومرّات عدّة في الأسبوع. هذا لم يحدث قطّ وأنا مع زويه.

ظلّت دجو صامتة.

– ما أقصد قوله، انظري مثلًا إلى مهنتي. لم يكن عملي مدرّبًا شخصيًّا كافيًا لإرضائها. وأنا واثق في أنّها كانت تدعم عملي لأنّها كانت فحسب تريد إخبار الناس بأنّ صديقها يدير مؤسّسة للاستشارات الرياضيّة.

كانت دجو تسحب الخيطان من المعطف إلى أن انحنى تومي وأوقفها.

– اسمعيني.

– أسمعك، قالت دجو بصوت أجشّ.

ضحك تومي بعد لحظة، وقال:

– لا أصدّق أنّنا نجري هذه المحادثة، في وجود هارنغتون في الغرفة. هذا... وأنا لا أقصد الإساءة هارنغتون، هذا شنيع.

– لم أشعر بأيّ إساءة. وإذا كان الأمر يهمّك، فأعتقد أنّ هذا شيء جميل. وإن كان غريبًا نوعًا ما.

لم تكن دجو قد استرخت بعد.

– آسفة. فالأمر يبدو مخيفًا بالنسبة إليّ. لديّ... لديّ الكثير لأخسره، أكثر منك.

أمسك تومي بإحدى يديها، وقال:

– كلّا، ليس لديك ما تخسرينه. أنا... كرمى لله دجو، هل لك أن تنظري إليّ، أيّتها المجنونة؟

نظرت إليه رغمًا عنها.

– دجو، أنا موجود هنا. أنا معك في هذه المشكلة.

كان مستوى الأدرينالين قد هبط في جسمي، إذ، فجأة، وجدت نفسي جالسة في غرفة مع أقدم صديقين لي بينما يعترف أحدهما للآخر بأنّه مغرم به، وفجأة، بدا الأمر منطقيًّا. عدت في الذاكرة إلى تلك الشهور التي أمضيناها سويًّا في كاليفورنيا، وتعجّبت كيف لم يخطر هذا الأمر في بالي من قبل. لقد أمضى هذان الشخصان ساعات مع بعضهما بعضًا، ذهبا في رحلات، مارسا رياضة ركوب الأمواج، أعدّا خلطات شنيعة من المشروبات في مرأب والدَيْ تومي. ربّما لم ألاحظ كلّ ذلك لأنّني كنت غارقة في الأحزان وفي الشعور بالذنب. أو ربّما كان السبب ببساطة هو أنّني لم أكن لأتصوّر وجود شخصين أقل تلاؤمًا منهما مع بعضهما بعضًا مثل هذين الشخصين. لكنّ الحبّ لا يحدث وفق قواعد كهذه، كما أدركت في تلك اللحظة. ها هما يتسلّلان من مكان إلى آخر: شخصان أخرقان، ضعيفان، مكشوفان في مواجهة الأذى. غارقان في الحبّ وعاجزان عن فعل أيّ شيء سوى البقاء معًا، رغم كلّ المخاطر. قلت بهدوء:

– حسنًا. ابتسمت، ثمّ تحوّلت ابتسامتي تثاؤبًا. وتابعت: سيستغرق ذلك بعض الوقت. لكنّني سعيدة لأجلكما.

تأمّلت دجو يد تومي التي تلفّ يدها بإحكام، وقالت:

– هذا ما أريد أنا أيضًا. أن أكون سعيدة. هذا كلّ ما يعنيني هذه الأيّام.

أحسست بأنّ قلبي يتشنّج. لم يسبق أن تكلّمت دجو بهذه الطريقة.

تسلّل البرد إلى جسدي، وأنا مرتدية ثياب الجري، لكنّني كنت أودّ لو تستمرّ تلك اللحظة. كنت أحبّ هذين الشخصين. أحببت كونهما يحبّ بعضهما بعضًا بطريقة لم يسبق أن عرفتها. أحببت تحرّقهما لرؤية بعضهما بعضًا إلى درجة دفعت بهما إلى تهريب دجو إلى الشقّة بعد أن أويت أنا إلى الفراش.

– أعتقد أنّ عليّ الذهاب لحزم أمتعتي. أتمنّى لو كان في وسعي البقاء.

قال تومي، وهو يتثاءب بينما كنت أدفع مقعدي نحو الخلف لأقف:

– لا بأس، رغم أنّني... سارة، أنا مضطرّ إلى أن أسألك. هل ينبغي لنا أن نقلق بشأنك؟

– أنا... أجبت. ثمّ خفت صوتي. لقد أفزعت نفسي نوعًا ما أخيرًا.

– وأفزعتنا أيضًا، قالت دجو. كنت غريبة الأطوار تمامًا يا عزيزتي.

– أعتقد أنّك تعرفين بأمر ملعب كرة القدم؟

أومأت برأسها. مسّدت شعري بيدي، وقلت:

– عندما دخلت غرفة تغيير الملابس، دهمتني لحظة مرعبة من الإدراك. شعرت بأنّني استعدت طبيعتي أخيرًا. وشعرت بالخوف.

– ربّما يتعيّن عليك استشارة أحد المعالجين النفسانيّين، اقترحت دجو.

– المعالجون. ابتسمت وقلت: يوجد الكثير منهم في لوس أنجلوس.

– لم يسبق لك أن تهوّرت هكذا من قبل. لا تنسي ذلك، قال تومي بعدما تهدّل حاجبيه قليلًا.

– ولكن، ربّما كان السبب هو أنّه لم يكن لديّ هاتف نقّال عندما قابلت روبن. وربّما لأنّ شبكة الإنترنت لم تكن واسعة الانتشار آنذاك.

– كلّا سارة، أنت لست مخبولة. لو كان نصف ما رويته لنا حقيقيًّا، لكان على إيدي الاتّصال بك.

درت حول طاولة المطبخ وعانقتهما سويًّا. صديقاي العاشقَان. قلت لهما:

– شكرًا لكما، عزيزي تومي وعزيزتي دجو. شكرًا لأنّكما لم تتخلّيا عنّي.

– أنت أقرب صديقة إلى قلبي، قال تومي. ثم أضاف بسرعة: عدا دجو.

عندما خرجت من غرفتي بعد أربعين دقيقة وأنا أحمل حقيبتي، كانا لا يزالان في المطبخ. كانا يتناولان قطع الخبز الأبيض الذي لم تكن زويه تتحمّل أن تأكله. بدت علاقتهما قديمة جدًّا.

وضعت حقيبتي عند الباب، وقلت:

– حسنًا، لقد حان الوقت.

وقف تومي وقال لي:

– اسمعي هارنغتون، آخر ما سأقوله لك قبل أن تغادرينا. أنا... يجب أن أخبرك بأنّه ما زالت تساورني بعض الشكوك بشأن إيدي.

– وأنا أيضًا تومي. وأنا أيضًا، قلت له.

صمت هنيهة، ثمّ أضاف:

– أعتقد... الواقع أنّ لقاءك به في ذلك المكان، وفي ذلك الوقت، يبدو مصادفة شديدة الغرابة.

غرّد طائر أغنيته الأولى على شجرة في الخارج.

– ماذا تعني؟ هل تعرف شيئًا لا أعرفه؟

– لا، بالطبع! أعني، تذكّري ما كنت تفعلين يوم قابلته. كنت تحيين ذكرى الحادث، كنت تسيرين في ممرّ برود رايد. أعتقد أنّ عليك أن تسألي نفسك عمّا كان يفعله إيدي في ذلك المكان هو أيضًا. في ذلك اليوم، من بين كلّ تلك الأيام.

بدأ حاجباه يتّخذان شكلًا خاصًّا. أردف بالسؤال:

– تُرى، هل لديه شيء يخفيه؟

– لا شكّ في أنّه... لا. لا تومي.

تركت الفكرة تدور في ذهني دقيقة أو دقيقتين، ثمّ تجاهلتها كلّيًا. هذا غير ممكن. غير ممكن على الإطلاق.

الفصل السابع والعشرون

عزيزي إيدي،

أكتب إليك هذه الرسالة لأخبرك بأنّني آسفة.

تجاهلتُ كلّ إشاراتك، وأمطرتك بوابل من الرسائل. لم يكن ينبغي أن أكتب إليك، لم يكن ينبغي أن أتّصل بك. وما من شكّ في أنّه لم يكن ينبغي أن أحضر لأراك في مباراة كرة القدم التي كان مخطّطًا أن تشارك فيها ليلة أمس. أعتقد أنّ أصدقاءك أخبروك بما حصل. لا أستطيع التعبير عن مدى الإحراج الذي أشعر به. ورغم يقيني بأنّ اعتذاري لن يغيّر أيّ شيء في الوقت الحالي، فإنّ ذرّة الكرامة التي ما زالت متوفّرة لديّ تدفعني إلى إخبارك بأنّني لا أتصرّف عادةً على هذا النحو.

يبدو، ولأسباب أجهلها تمامًا، أنّ لقاءنا ومن ثمّ صمتك الذي أعقب ذلك قد استثارا الكثير من المشاعر القديمة المرتبطة بحادث السيّارة الذي تعرّضت له قبل تسع عشرة سنة. وأعتقد أنّ ذلك دفعني إلى تصرّفات جنونيّة.

أنا حاليًّا في مطار هيثرو، على وشك ركوب الطائرة المتّجهة إلى مطار لوس أنجلوس. الشمس ساطعة، لكنّني أشعر بحزن عميق لمغادرة البلد، وأنا أعلم أنّني لن أراك ثانية، مع ذلك، أشعر بالراحة لأنّني أعود إلى حيث ينتظرني عملٌ يشغل وقتي، ومجموعةٌ من الأصدقاء، ومحاولةٌ لبدء حياة جديدة كامرأة عازبة. سأفكّر مليًّا في كلّ ما حصل وفي السبب الذي جعلني أتصرّف بهذا الشكل. سأحاول إصلاح الأمور. سأحاول إصلاح نفسي.

لكن، لا يسعني إلّا أن أصارحك بأنّني اعتبرت صمتك وتجاهلك لي بهذا الشكل تصرّفًا جبانًا ومخزيًا، وآمل بأن تفكّر جيّدًا قبل أن تتصرّف بهذا الشكل مع امرأة أخرى. لكنّني أتقبّل فكرة أنّ ما قمتَ به كان خيارك في تلك اللحظة، وأتقبّل أيضًا فكرة أنّه كانت لديك أسباب دفعتك إلى التصرّف على هذا النحو.

أخيرًا، أريد أن أشكرك. كانت الأيّام التي أمضيناها معًا أيّامًا مشرقة في حياتي. وسأتذكّرها مدّة طويلة.

إيدي، اعتنِ بنفسك، وداعًا.

قبلاتي

سارة

الفصل الثامن والعشرون

ملفّ المسوّدات:

لا تذهبي أرجوكِ. لا تسافري.

توقفتُ عن الكتابة إليك كي أتّصل بك، لكنّني لم أستطع.

لا شكّ في أنّك أصبحت في الجوّ الآن. سأخرج لأراقب السماء.

إيدي

حُذِفت في الساعة 10:26 صباحًا.

الجزء الثاني

الفصل التاسع والعشرون

– أهلًا بعودتك إلى الوطن! صرخت دجيني.

رغم أنّني عبرت المحيط الأطلسيّ مرّات عدّة طوال سنوات، بقيت أعاني أثار اختلاف التوقيت. شعرت بضغط كاد يفجّر صدري عندما خرجت من باب الطائرة، لأواجه ضوء الشمس المُبهر، والحرّ الذي يطبق على الأنفاس. وبينما كنت جالسة في سيّارة الأجرة على الطريق السريع، كنت أرى الأشياء محاطة بخطوط متعرّجة. عندما جئت إلى لوس أنجلوس بالطائرة أوّل مرّة في العام 1997، لازمتني القناعة طوال اليومين الأوّلين بأنّني كنت مصابة بعارض صحّي خطير.

عانقتني دجيني بسرعة وهي تقول:

– سارة ماكيه، اشتقت إليك.

كانت تفوح منها رائحة مخبوزات شهيّة.

– دجيني، أنا أيضًا اشتقت إليك. ثمّ أضفت وأنا أداعب فراب، كلب دجيني، بقدم متعبة: مرحبًا فراب.

حاول فراب، وهو اختصار فرابوتشينو، شراب القهوة الباردة الذي لا يمكن لدجيني أن تقاومه، رفع ساقه عليّ، كما يفعل دائمًا، لكنّني تفاديته وقفزت جانبًا في الوقت المناسب تمامًا.

تنهّدت دجيني وقالت:

– فرابي، لماذا تصمّم دائمًا على أن تتبوّل على سارة؟

انحنيت وقبضت على مرفقيها.

– ما النتيجة؟

تفادت النظر في عينيّ.

– أعني اختبار الحمل، أليس من المفروض أن تظهر النتيجة اليوم؟

أشاحت بوجهها قائلة:

– كلّا، غدًا ستظهر النتيجة. أشعر بتوتّر شديد، بالتّالي يُفضَّل عدم التطرّق إلى هذا الموضوع. تعالي، استلقي على هذه الأريكة.

دخلت إلى نعيم الهواء البارد الذي يحمل معه رائحة الشوكولاته، لاحظت أنّ دجيني ابتاعت لوحة فنّيّة جديدة. كانت اللوحة عبارة عن منظر جانبي تجريدي لامرأة حامل مرسوم بألوف بصمات الأصابع الدقيقة. فقد أوصاها المدرّب الذي تتردّد إليه باللجوء إلى التصوّرات البصريّة الإيجابيّة خلال مرحلة التلقيح الاصطناعيّ؛ ولا بدّ أنّ اللوحة كانت جزءًا من استجابة دجيني لوصيّته. كانت اللوحة معلّقة فوق المقعد الذي يجلس عليه خافيير من الخامسة والربع بعد الظهر حتّى العاشرة والنصف مساء. فوق الطاولة الطولانيّة الفاصلة بين غرفة الجلوس والمطبخ، تربّع قالب حلوى بالشوكولاته من طبقتين، وزجاجة شمبانيا داخل دلو صغير.

ابتسمت، وقد تملّكني الإرهاق وكادت تطفر من عينيّ الدموع بينما دلفت دجيني إلى المطبخ، وبدأت تضع قطعًا من المثلّجات في الخلّاط الكهربائيّ.

– دجيني كارميكايل، أنت لطيفة جدًّا، لكنّك كثيرًا ما تسيئين التصرّف. نحن لا ندفع لك مرتّبًا يكفي لتشتري الشمبانيا وتعدّي قوالب الحلوى.

هزّت كتفيها من دون اكتراث كأنّها تقول:

– كيف لي إذًا أن أرحّب بعودتك إلى الوطن؟

أضافت المزيد من المكوّنات إلى الخلّاط، بعضها فقط كان مألوفًا، وشغّلته. صاحت لتغطّي ضجّة الخلّاط:

– طلبت من خافيير الذهاب للعب البلياردو مع أصدقائه كي يتسنّى لنا تبادل ما فاتنا من أخبار بعضنا بعضًا، ولم أسمح لنفسي بأن أرحّب بعودتك من دون احتفال نتناول فيه الحلوى. فهذا خطأ لا يغتفر.

ارتميت على الأريكة الكبيرة المغطّاة بالوسائد المزهّرة، شعرت براحة حادّة قاربت الألم. سأكون في أمان هنا. سأفكّر مليًّا، وسأعيد تقييم الأمور، ومن ثمّ سأمضي في حياتي.

أوقفت دجيني الخلّاط. قالت:

– اخترت نكهة العلكة.

– يا إلهي. حقًّا؟

– أنا أحاول ألّا أفسد الأمور اليوم، قالت وهي تضحك.

بعد بضع ساعات، تجرّعنا خلالها الشراب المخفوق، وتناولنا الكثير من قطع الحلوى، وغصنا داخل علبة كبيرة من رقائق خبز البيتا، استلقيت ثانية وتجشّأتُ. تجشّأت دجيني وهي تضحك.

واعترفت:

– لم أكن أتجشّأ قبل أن أتعرّف إليك.

لكزت قدمها بقدمي، كنت منتفخة البطن لا أقوى على الحراك.

– كان الاحتفال رائعًا! شكرًا.

ابتسمت وهي تفرك بطنها.

– أهلًا وسهلًا. سارة، لا ينبغي أن أشرب الكحول، أمّا أنت فيجب أن تجرّبي بعض الشراب الورديّ الفوّار، أليس كذلك؟

تأمّلتُ الزجاجة واجتاحني رعب حقيقيّ شديد.

– لا أستطيع. شكرًا لك عزيزتي، شربت حتّى ثملت الأسبوع الماضي مع دجو، ومنذ تلك اللحظة لا أستطيع رؤية زجاجة مشروب روحيّ.

قالت، كمن أصيب بصدمة:

– هل أنت جادّة؟! ولا كأسًا صغيرة؟

لم أستطع، ولو مسايرةً.

رويت لها كلّ شيء. حتّى الأحداث المرعبة التي حصلت في ملعب كرة القدم عندما واجهتُ، في اللحظة نفسها، مؤخّرةَ رجل غريب وحقيقةً راسخة تفيد بأنّني فقدت عقلي. لم تتكلّم دجيني، بل اكتفت بإطلاق الأصوات المعبّرة عن الخوف والاستهجان والتنهّدات، بل إنّها عبّرت عن استحسانها عندما أريتها رسالتي الأخيرة إلى إيدي. لم تسخر منّي بسبب أيّ تصرف. لم ترفع حاجبًا لإظهار التعجّب. اكتفت بهزّ رأسها تعبيرًا عن التعاطف، كأنّ كلّ ما فعلته كان مفهومًا. قالت لي:

– لا يمكنك التفريط بأيّ أمل بالعثور على الحبّ. كنتِ على حقّ عندما حاولت فعل كلّ شيء. ثمّ نظرت إليّ، وقالت: لقد وقعت في غرامه، أليس كذلك؟

أومأت برأسي وقلت:

– رغم أنّه لا يفترض أن تتمكّني من الوقوع في الحبّ بعد مجرّد...

ردّت دجيني بهدوء:

– دعك من ذلك. في إمكانك طبعًا الوقوع في الحبّ بعد أسبوع.

قلت، وأنا أعبث بطرف قميصي:

– أعتقد أنّك على حقّ. في أيّ حال، أريد الآن العودة إلى حياتي الطبيعيّة. أريد أن أربح مشروع الملعب التابع للمأوى في فريزنو؛ أريد الحصول على موافقة جورج أتوود في سانتا آنا. حان الوقت للمضيّ قدمًا في حياتي.

– هل تعتقدين ذلك فعلًا؟
– نعم، أعتقد ذلك حقًّا. لن يكون بعد الآن أيّ محاولة للاتّصال بإيدي. بل إنّني في الواقع سأمحو اسمه من قائمة أصدقائي في فيسبوك حالًا، وستكونين أنت شاهدة على ذلك.
قالت دجيني بفتور:
– أعتقد أنّ ذلك أفضل. لكنّه محزن جدًّا. سارة، كنت أظنّ أنّه الحبّ الحقيقيّ بالنسبة إليك.
– وأنا أيضًا كنت أعتقد ذلك.
– مجرّد لقائك به في ذلك التاريخ، في ذلك المكان، يبدو أمرًا بالغ الكمال. يجعلني أرتعد.
التزمتُ الصمت. كنت أحاول نسيان ما قال تومي في هذا الشأن. ولكن من ناحية أخرى، بدا تفسير دجيني أكثر وضوحًا. مصادفة رومانسيّة شديدة الغرابة. توقيت لا يُصدَّق. كانت تلك الفكرة تناسبني أكثر.
– هل أنت بخير؟ نظرت إليها وسألتها.
تنهّدت، ثمّ هزّت رأسها، قائلة:
– أشعر بالحزن لأجلك. كما أنّ جسمي يكاد ينفجر من تأثير الهورمونات.
ارتميت قربها في انتظار عثور فيسبوك على اسم إيدي في قائمة أصدقائي.
شعرت بغثيان. همست:
– لقد محا اسمي من قائمة أصدقائه.
أعدت تحميل صفحته لعلّها توافيني بقصّة مختلفة. لم يكتمل التحميل. برز السؤال: هل تريد إضافة صديق؟
تمتمت دجيني:
– سارة، يا إلهي!
عاودني شعور الصقيع المؤلم داخل صدري، كما لو أنّه لم يفارقني يومًا. ذلك الحنين اللانهائيّ، مثل بئر تهوي فيه الحصى من دون أن تجد القعر.
بلعت ريقي بصعوبة، وأعلنت:
– إذًا، أعتقد أنّ الأمر قد انتهى.
في تلك اللحظة، استعاد فرابوتشينو حيويّته عندما فُتح باب المنزل ودخل خافيير. قال:
– أهلًا سارة!
حيّاني بتلك التحيّة الغريبة التي يستعيض بها عن العناق. لم يكن خافيير يتواصل جسديًّا إلّا مع دجيني ومع السيّارات.
– أهلًا خافيير! كيف حالك؟ شكرًا لأنّك أتحت لنا فرصة البقاء وحدنا الليلة.

أحسست بجسمي متراخيًا مشوّهًا.

قال، وهو يتّجه إلى المطبخ لإحضار زجاجة بيرة:

– على الرحب والسعة.

قبّلته دجيني، ودخلت الحمّام. عاد وجلس في مقعده، وفتح زجاجة البيرة. سألني:

– هل اعتنيتِ بفتاتي؟

– في الواقع، هي التي اعتنت بي. أنت تعرف طبيعتها. خافيير، سأكون إلى جانبها غدًا. في إمكاني البقاء معها طوال النهار إذا كانت بحاجة إليّ.

عبَّ خافيير جرعة كبيرة من زجاجة البيرة، ثمّ سألني، وعيناه ترقبانني بحذر:

– غدًا؟

نظرت إليه. شعرت بأنّ ثمّة شيئًا غير مريح. أجبت:

– نعم... من أجل نتيجة الاختبار.

وضع خافيير زجاجة البيرة على الأرض، أدركت فجأةً ما سيقوله لي.

– النتيجة ظهرت اليوم. لم ينجح الأمر. دجيني ليست حاملًا.

ساد الصمت. ثمّ أضاف:

– أعتقد أنّها كانت ترغب في إتاحة الفرصة لك للحديث عن مشاكلك... أوّلًا. أنت تعرفين طبيعتها.

– يا إلهي. خافيير أنا آسفة جدًّا! يا إلهي، لماذا صدقتُها؟ كنت أعلم أنّ النتيجة ستظهر اليوم.

نظرتُ إلى باب المطبخ. سألتُ خافيير:

– كيف تلقّت الخبر؟

هزّ كتفيه، لكنّ وجهه باح بكلّ ما أريد معرفته. كان يحسّ بالضياع، ينوء بعبء يفوق طاقته. كان الأمل بحصول حمل موجودًا كلّ تلك السنوات، وكانت مهمّة خافيير إبقاء هذا الأمل حيًّا داخل دجيني. وقد حماه ذلك من العبء الثقيل لشعورها بالخوف، ومنحه دورًا فاعلًا. الآن، لم يعد هناك شيء، أمّا زوجته – التي كان يحبّها بكلّ خلايا جسده، رغم مكامن قصوره العاطفيّ – فقد كانت غارقة في لجّة عميقة من الحزن. لم يعد له أيّ دور، أو أيّ أمل يمنحها إيّاه.

– لم تقل الكثير. ساد الصمت في العيادة. لا أعتقد أنّها تسمح لنفسها بالتفكير في الأمر. ليس الآن، في أيّ حال. كنت أعتقد أنّها ستخبرك وتبكي وتعبّر عن مشاعرها، كما تعرفين طبعًا. لهذا، غادرت المنزل. في العادة، عندما لا تستطيع أن تتحدّث معي حول موضوع ما، فإنّها تتحدّث معك فيه.

– لا، لم تفعل. خافيير أنا آسفة جدًّا!

عبّ ما تبقّى من البيرة، وغاص في مقعده ثانية وهو ينظر ساهمًا عبر النافذة.

نظرت إلى الباب. لا شيء. كانت دقّات ساعة الحائط المعلّقة في المطبخ أشبه بصوت قنبلة موقوتة.

مرّت دقائق. قلت فجأةً:

– أعتقد أنّها ذهبت إلى الحمّام عمدًا. ذهبت لتختبئ. كانت تعرف أنّك ستخبرني. علينا... علينا أن نخرجها من الحمّام.

قمت من مكاني بسرعة، لكنّه سبقني. سار إلى المطبخ وقد تهدّل كتفاه.

سرت في المطبخ على غير هدًى، بينما كان هو يقرع باب الحمّام. ناداها:

– حبيبتي، دعيني أدخل...

بعد لحظات من الصمت، فُتح الباب وسمعتُ صوت زوجته اليائس، صديقتي الوفيّة، التي أجّلت التعبير عن مشاعرها الحزينة لكي تهتمّ بمشاعري أنا، سمعتها تشهق ودموع اليأس تنبثق بحرقة من أعماقها. كانت تبكي وهي تقول:

– لا أستطيع أن أتحمّل. لا أستطيع. خافيير، لا أدري ما أفعل.

تلاشى صوت البؤس الإنسانيّ الخالص، الذي لا يمكن احتماله، في طيّات القميص القطنيّ المهلهل الذي كان زوجها يلبسه.

الفصل الثلاثون

بعد أن هدأ المشهد الهستيري أخيرًا، جلست دجيني على الأريكة، بيني وبين خافيير، وشرعت تأكل بنهم ومن دون توقّف كلّ ما عجزنا عن تناوله. تجاهلتُ آثار الإرهاق البالغ الذي كنت أعانيه بسبب اختلاف التوقيت، وجالستها حتّى منتصف الليل، وأنا أشغل نفسي بتناول قطعة الحلوى المتبقّية كي لا يغلبني النعاس.

جاء الصباح أخيرًا: الصباح الحارّ المشرق الذي كنت أحلم فيه، الصباح الأوّل بعد عودتي إلى لوس أنجلوس. خلال الأسبوع الأخير الذي أمضيته في إنجلترا، وُلد لديّ شعور أكيد بأنّ الصباح الأوّل في لوس أنجلوس سيحمل معه التجدُّد والأمل: إحساسًا بالقدرة على رؤية الأمور بالشكل الصحيح، وهو إحساس افتقدته في لندن أو في غلوسترشير، إحساسًا بأنّي سأكون سعيدة. سأضع نصب عينيّ الكثير من الأهداف.

أمّا في الواقع، فقد كنت أحسّ بالتخمة والانزعاج، كما كنت أشعر ببرد قارس بسبب المكيّف. ضممت أطرافي إلى جسمي وأنا مستلقية على سرير الضيوف في شقّة دجيني، كنت مرهقة إلى حدّ عجزت عن النهوض لإطفاء المكيّف. تأمّلت نفسي في المرآة المقابلة. كنت أبدو منتفخة الجسم، شاحبة، معتلّة. وقبل أن أدرك ما كنت أفعله، أمسكت الهاتف لأتحقّق ممّا إذا كان إيدي ردّ على رسالة الوداع التي بعثت بها، لكنّه لم يفعل بالطبع. شعرت بقلبي يكاد ينفجر من الألم.

عندما تفقّدت صفحته في فيسبوك، برز السؤال: هل تريد إضافة صديق؟ أردت التحقّق فقط.

* * *

بعد ساعة أمضيتها في محاولة استعادة صفاء الذهن، غادرت المنزل لممارسة رياضة الجري. لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة، وكان خافيير ودجيني – ولأوّل مرّة – ما زالا غارقين في النوم.

كنت أعلم أنّ الجري ليس محبّذًا بعد عبور المحيط الأطلسي جوًّا، وبعد أمسية حافلة بالاضطراب العاطفي، ناهيك عن الليلة السابقة التي أمضيتها في لندن، والتي لم أذق فيها طعم النوم، أو ميزان الحرارة في شرفة دجيني الذي كان يشير إلى أن الحرارة تناهز 37 درجة مئوية تقريبًا. ولكن، لم يكن في مقدوري الجلوس في هدوء. لم أكن قادرة على الانفراد بنفسي. كنت بحاجة إلى أن أتحرّك بسرعة، كي لا يلتصق بي أيّ شيء.

يجب أن أجري.

بعد الجري مسافة ثلاثمئة متر تقريبًا في جادّة غليnديل، تذكّرت سبب عدم جريي في هذه المدينة. ترنّحت عند زاوية شارع تامبل، وتظاهرت بأنّني أمطط عضلات فخذيّ كي أتمسّك بعمود الإنارة. كانت الحرارة خانقة. نظرت نحو الشمس، كانت تبدو باهتة غائمة الملامح خلف سديم البحر، هززت رأسي. يجب أن أجري.

حاولت ثانية، ولكن عندما ظهر طريق هوليوود السريع، خذلتني ساقاي، ووجدت نفسي أجلس على العشب قرب ملعب للتنس التابع للبلديّة، أشعر بالغثيان والدوار. تظاهرت بأنّني أعيد شدّ رباط حذائي، وأقررتُ بالهزيمة.

شعرت بأنّني أسمع صوت دجو وهي تقول لي أنّني امرأة مخبولة، وتسألني عمّا إذا كنت أشعر بذرّة من الاحترام لجسدي. وافقتها على قولها؛ وافقتها بكلّ جوارحي، وتذكّرت مدى الحزن والأسى اللذين كنت أشعر بهما لدى رؤيتي نساء نحيلات يتسلّقن هضاب غريفيث بارك في طقس حارّ لاهب.

عدت إلى منزل دجيني، استحممت وطلبت سيّارة أجرة. كان واضحًا أنّ دجيني لن تكون قادرة على معاودة العمل قريبًا، ولم أعد أطيق البقاء في منزلها ولو دقيقة.

في طريقي إلى مقرّ مكاتب جمعيّتنا في حيّ إيست هوليوود، وضعت خطّة العرض الذي سأتقدّم به خلال الأسبوع التالي إلى مديري شركة تعمل في مجال رعاية المصابين بأمراض مستعصية في كاليفورنيا. كانت جمعيّتنا اعتادت أن تطلب منها المستشفيات تزويدها بالخدمات إلى درجة لم أعد متمرّسة في مجال المبيعات... ترجّلت من السيّارة في سانتا مونيكا لأنّ جادّة فيرمونت كانت شديدة الازدحام، وأكملت المسافة المتبقّية سيرًا، وأنا أعيد العرض في ذهني بينما كان العرق يتصبّب من ظهري.

فجأةً: إيدي؟

رجل داخل سيّارة أجرة عالقة في زحمة المرور في جادّة فيرمونت. كانت وجهة السيّارة صوب موقع مكتبي مباشرة. كنت متأكدة ممّا رأيت: شعرًا مقصوصًا، نظّارة شمسيّة، قميصًا

قطنيًّا.

إيدي؟

لا. مستحيل.

بدأت أسير نحو السيّارة. كان الرجل، الذي كنت واثقة تمامًا في أنّه إيدي ديفيد، ينظر إلى اللافتات الكثيرة التي تربك أكثر ممّا تساعد، ومن ثمّ ينظر إلى هاتفه للتحقّق من أمر ما.

استؤنفت حركة السير أخيرًا، وبدأ زعيق أبواق السيّارات. كنت في منتصف شارع يتّسع لستّ سيّارات. وفي اللحظة التي وجدت نفسي فيها مضطرّة إلى الابتعاد من السيّارة، رأيت الرجل يخلع نظّارته الشمسيّة وينظر إليّ. ولكن، قبل أن أتمكّن من رؤية عينيه، والتأكّد من أنّه إيدي، اضطررت إلى الجري كي أتفادى الدهس.

إيدي؟

في وقت لاحق من ذلك اليوم، طلب منّي زملائي في العمل العودة إلى المنزل، قائلين «سارة، سنهتمّ نحن بالعمل، اذهبي وخذي قسطًا من الراحة». ولكن بما أنّني لم أكن قادرة على الجلوس من دون حراك، ذهبت إلى المنزل سيرًا. وقفت في التقاطع المزدحم نفسه خمس عشرة دقيقة أراقب السيّارات. حطّت طائرة هليكوبتر للإسعاف على سطح مستشفى الأطفال، ولم ألاحظ.

كان هو. كنت على يقين أنّ الرجل كان إيدي.

الفصل الحادي والثلاثون

سافرت مع روبن جوًّا إلى فريزنو، وقد خيّم الصمت بيننا طوال الرحلة. خارج الطائرة، كانت بقايا أشعّة الشمس عالقة فوق الغيوم؛ أمّا داخل الطائرة، فقد ساد جوّ من التهذيب المصطنع. كان من المقرّر أن نقدّم صباح اليوم التالي عرضًا أمام مجلس إدارة الشركة المتعاقدة في مجال رعاية المصابين بأمراض مستعصية، وكان روبن غاضبًا منّي قبل بدء الرحلة.

صباح يوم الإثنين، حضر روبن إلى المكتب بصحبة كايا، وطلب منّا جميعًا التوجّه إلى قاعة الاجتماعات. كان يتفادى النظر في عينيّ.

بدأ حديثه، قائلًا:

– أحمل أخبارًا سارّة.

– عظيم! أجابت دجيني.

لم تكن على طبيعتها، لكنّها كانت تحاول.

– عندما كنت أنا وكايا في لندن الأسبوع الماضي، بعثت كايا عددًا من الرسائل الإلكترونيّة إلى أحد أصدقائها القدامى، يدعى جيم بوروندو، يدير عددًا من المدارس في لوس أنجلوس التي تُعنى بذوي الاحتياجات الخاصّة. أخبرته كايا بكلّ شيء عن مجال عملنا وأرسلت إليه بعض الأفلام، فسأل عمّا إذا كان في إمكان الأطبّاء المهرّجين العاملين معنا زيارة مدارسه في انتظام.

ساد الصمت فترة وجيزة.

– رائع، قلت له. ولكن... روبن، ليس لدينا عدد كافٍ من العاملين يسمح لنا بقبول التزام من هذا النوع حاليًّا.

– روبن عزيزي، أضافت دجيني، سيتعيّن علينا تحديد الكلفة ووضع مبلغ هدف لتأمين التبرّعات على أساسه. أنا أحتاج...

رفع روبن يده مقاطعًا، وقال متفاخرًا:

– الشركة ستموّل المشروع. ستدفع كامل تكاليفنا. في وسعنا توظيف عناصر جدد وتدريبهم ليصبحوا أطبّاء مهرّجين، وستدفع شركة جيم كلّ التكاليف.

صمتُّ قليلًا، ثمّ قلت:

– ولكن روبن، تتوجّب علينا زيارة المدرسة، وتنظيم اجتماعات. وهناك الكثير من الأمور الأخرى. نحن لا نستطيع أن...

قاطعني روبن بابتسامة تنطوي وبشكل مفاجئ على تحذير.

– قامت كايا بعمل رائع. يُفترض أن تشعروا بالسرور. فقد عدنا ثانية لتوسيع أعمالنا.

بدت دجيني مرهقة ومشتّتة إلى درجة لا تقوى على التدخّل.

رفعت كايا يدها متردّدة، كأنّها في صف دراسي.

– لم أكن أتوقّع فعلًا أن يوافق جيم مباشرة. آمل بألا أكون تسبّبت في تعقيد الأمور.

– سأنظّم برنامجًا لعقد اجتماعات كي نضع خطّة عمل، قال روبن. أمّا الآن، فأعتقد أنّنا مدينون لكايا بالشكر الجزيل.

قال ذلك، وبدأ يصفّق.

شاركناه جميعًا التصفيق. قلت في سرّي: يا لخيبتي في الحياة! يا إلهي، يا لخيبتي!

عقد الاجتماع الأول بعد يومين. ورغم أنّ كلّ شيء بدا أنّه سيسير على ما يرام، ورغم أنّ شركة جيم كانت، بالتأكيد، ستموّل كلّ شيء، بما في ذلك التدريب، لم يفارقني الشعور بالتوجّس. كان كلّ شيء يحدث بسرعة فائقة. وعندما حاولت مناقشة الأمر مع روبن صباح ذلك اليوم، كان ردّه لاذعًا. طلب منّي أن أكون أقلّ انضباطًا وأكثر امتنانًا.

استرقت النظر إليه عندما بدأت الطائرة تحوم فوق فريزنو. كان مستغرقًا في النوم، بدا وجهه مسترخيًا وعلى طبيعته. كنت أعرف هذا الوجه جيّدًا. تلك الأهداب الطويلة الفاحمة السواد؛ شكل حاجبيه المثالي؛ الأوردة في محجري العينين. تأمّلت الوجه المألوف ودهمني شعور مزعج في معدتي. وعندما غيّرت الطائرة اتّجاهها في الهواء، وبدأت شمس الغروب الذهبيّة ترسم أشكالًا هندسيّة على وجه روبن، خطر لي أنّه كان من المفترض أن أكون قد استعدت طبيعتي. كان من المفترض أن أشعر بأنّني على ما يرام.

تناولنا العشاء في ما بعد في مطعم مجاور للفندق يقدّم الستيك، ثمّ ذهبت وجلست قرب حوض السباحة الصغير، الذي لم يسبق أن استُخدم في ما أعتقد. كان الحوض محاطًا بسور معدنيّ مرتفع، وكانت الكراسي المخصّصة للاستلقاء حوله مغطّاة بالفطريّات.

في وقت لاحق من تلك الأمسية، سمحت لنفسي لأوّل مرّة بالتفكير في هدوء في ما قاله تومي عن إيدي الأسبوع الفائت، وبما يمكن أن يعني لقائي به في ذلك المكان، في ذلك الوقت، في ذلك

اليوم. تساءلت عمّا إذا كان إيدي يخفي شيئًا ما. لكنّ ذلك بدا أشبه بنظريّة عبثيّة: إيدي غادر منزله صباح ذلك اليوم لأنّه كان بحاجة إلى فترة من الراحة من والدته، كما أنّه مكث أكثر ممّا كان متوقّعًا في مروج القرية لأنّه صادف الخروف. أمّا الخروج باستنتاجات إضافية بشأن لقائنا فيبدو أمرًا خطأ.

لكنّ المشكلة كانت تتمثّل في أنّني بدأت – أخيرًا – أتوصّل إلى فهْم دقيق ومحدّد للأفكار التي كانت تدور بصمت عند حدود وعيي خلال الأسابيع القليلة المنصرمة. بدأتْ تلك الأفكار تكوِّن شكلًا محدّدًا. ولم أشعر بالارتياح حيال ما رأيت.

عدت إلى الداخل عندما بدأت الصواعق الفضّيّة تتساقط من السماء. كنت عاجزة عن التخلّص من الشعور بوجود أزمة تلوح في الأفق.

في صباح اليوم التالي، جلنا في مأوى رعاية المصابين بأمراض مستعصية قبل عقد الاجتماع.

كنت، شأن أيّ شخص كما أعتقد، أجد قسوة في دور الرعاية من هذا النوع – فلا يوجد سوى عدد ضئيل من الأماكن في هذا العالم تتعامل مع الموت بهذا القدر من اليقين، لكنّني رسمت على وجهي تعبيرًا لا يشي بأيّ مشاعر؛ أخفيت مشاعر الخوف الصامت داخل أعماقي؛ وحرصت على أن أتنفّس ببطء. كنت أعتقد أنّني أتصرّف كما يجب إلى أن دخلنا قاعة التلفزيون، ورأيت فتاة تجلس على مقعد قرب النافذة.

تأمّلتها بإنعام.

– روث؟

كانت تلفّ جسدها ببطّانيّة ناعمة وتبدو شاحبة بلون الشمع ونحيلة إلى حدّ مخيف.

نظرت روث إليّ، وبعد صمت موجع ساد فترة وجيزة، ابتسمتْ.

– يا إلهي، لم أتوقّع هذا!

– روث! تفاجأ روبن وقد وركض ليعانقها.

– احترس، حذّرته روث. عظامي هشّة، ولا أعتقد أنّك تريد أن تكسرني نصفين. أنت تعرف مدى ولع أمّي بالدعاوى القضائيّة.

عانقها روبن برفق؛ ثمّ عانقتها أنا أيضًا.

كانت روث واحدة من أوائل مريضاتنا، وكان ذلك خلال الفترة التي كنّا فيها نحن الاثنين وحدنا، ولم نكن نعرف عن الأطبّاء المهرّجين إلّا القليل. وُلدت روث صغيرة الحجم وخضعت للكثير من العمليّات الجراحيّة، وكنّا ندرك طوال الوقت أنّ الفترة المتوقّعة لبقائها في قيد الحياة – هذا إن ظلّت في قيد الحياة أصلًا – فترة محدودة.

لكنّ تلك الفتاة ناضلت. وكذلك ناضلت والدتها التي كانت تربّيها بمفردها، والتي جمعت المال الكافي الذي مكّنها من الذهاب إلى مستشفى الأطفال في لوس أنجلوس لعلاج وليدتها، لأنّ المستشفى كان فيه طبيب يتمتّع بشهرة عالمية، ومتخصّص في علاج مرض روث الوراثي النادر. وأدّى موقف الطفلة ووالدتها ألّا تتقبّلا رفض الأطبّاء علاجها، مرّة بعد مرّة، إلى إجباري أنا وروبن على مواصلة العمل بشكل دؤوب.

لم أكن معتادة زيارة الأطفال. فقد كنت أجد الموقف شديد الإيلام. لكنّ روث كانت مختلفة، ولم أكن أقوى على مقاومة زيارتها. وحتّى عندما لم تعد زيارة المستشفى جزءًا من عملي، ظللت أتردّد إليها، لأنّني لم أكن قادرة على التوقّف عن زيارتها.

وها هي الآن، بلغت الخامسة عشرة والنصف، ملفوفة ببطّانية صوف زرقاء رُسمت عليها أقمار صغيرة، وشمّاعة كيس المصل جوار مقعدها. بدت ضئيلة هشّة الجسم، كان شعرها الخفيف متقصّفًا. وقفتُ لحظة من دون أن أتحرّك أكاد أختنق من الصدمة.

قلت، وأنا أجلس قربها:

– مفاجأة جميلة.

– ما المفاجأة الجميلة؟ أن تريني أشبه بدجاجة ميتة في مأوى لرعاية المصابين بأمراض مستعصية؟ كان صوتها رفيعًا.

وعندما حاولتُ الاعتراض، قالت:

– هل تعجبك يداي؟ انظري إليهما، ألا تشبهان مخالب الدجاج؟ أرجوك، لا تبالغي. لا أعتقد أنّك تحاولين إخباري بأنّني صبيّة جميلة، إذا كنت تنوين ذلك، اذهبي.

ابتسمتْ بشفتيها المشقّقتين، أحسست بقلبي يتمزّق بعنف.

– إذًا، فقد عدت إلى وطنك، قال لها روبن، إلى فريزنو وشمسها الساطعة؟

– نعم، شعرت بأنّ أقلّ ما يمكن أن أفعله هو أن أموت في وطني. فأمّي المسكينة مرهقة.

شرعتْ تبكي فجأةً. كانت تبكي بصمت، كأنّها لا تمتلك الطاقة الكافية لإصدار ضجّة أو لذرف الدموع. ثمّ قالت:

– هذا الوضع مزر. أين العاملون لديكما؟ أين الأنف الأحمر عندما يحتاج إليه المرء؟

قال روبن وهو يجفّف دموعها بمنديل:

– هذا ما جئنا للتباحث حوله. ولكن، حتّى لو لم ينجح المشروع، فسنحاول إرسال أحد العاملين لدينا لزيارتك. إلّا إذا كنت تعتقدين أنّك أصبحت أكبر من أن يسلّيك ذلك.

قالت بصوت ضعيف:

– كلّا، لا أعتقد ذلك. لم يسبق للعاملين لديكم أن تحدّثوا معي كطفلة. في آخر مرّة رأيت فيها الدكتور زي، قال أنّه سيساعدني في كتابة قصيدة تتلى ليلة السهر عند جثماني. إنّه بارع في صوغ الكلمات عندما لا يتصرّف بأسلوب أخرق. هل يمكنكما إرساله؟

– سيكون ذلك أوّل فكرة نناقشها في اجتماعنا، قلت لها. أنا واثقة في أنّ زي يرغب في زيارتك.

– أحبّ هؤلاء الأشخاص، قالت روث.

استندت إلى ظهر مقعدها، كان الجهد الذي تبذله في الحديث معنا يستنزف طاقتها بسرعة. وأضافت:

– كانوا الشيء الوحيد الثابت طوال تلك السنوات، الأشخاص الوحيدين الأكثر حماقة منّي. ثمّ أردفت، وهي تنظر في اتّجاه روبن: أنا لا أقصد الإساءة. أعرف أنّك بدأت حياتك تعمل مهرّجًا.

ابتسم روبن.

– هل تودّين أن أساعدك في العودة إلى غرفتك؟ سألتها.

لففت البطّانية حول جسدها بإحكام. شعرت بأنّ كتلة صلبة تتكوّن داخل حلقي. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ روث، الفتاة المرحة الذكيّة بشعرها البنّيّ المعقود بشكل ذيل حصان وبعينيها الخضراوين. لماذا تنتهي حياتها في اللحظة التي تبدأ فيها؟ كيف يُعقل ألّا يستطيع أحد أن يفعل شيئًا؟

– نعم، أنا بحاجة إلى أن أنام قليلًا. لعنكما الله، جعلتماني أبكي.

عندما هممنا بمغادرة الغرفة بعد بضع دقائق، مسحت دمعة غاضبة. أمسك روبن يدي، وقال:

– أدرك ما تشعرين به.

بعد أن قدّمنا العرض أمام مجلس الإدارة، خرجنا إلى شرفة مشمسة لارتشاف القهوة. انفرد بي نائب مدير خدمات الرعاية في المأوى في إحدى زوايا الشرفة، ليطرح عليّ أسئلة كثيرة.

كان ينبغي أن أتوقّع ذلك؛ كان ينبغي لي معرفة ذلك من الأسئلة التي طرحها سابقًا. كنّا كثيرًا ما نصادف أشخاصًا يشبهون هذا الرجل، أشخاصًا لا يرون أبعد من الأنوف الحمر، ويرفضون تمييز العاملين لدينا من مهرّجي الحفلات.

استهلّ الرجل، بنظّارته السميكة وذقنه المرتعش وعجرفته الواضحة، كلامه بالقول:

– الموضوع كالآتي: بعض أفراد الفريق العاملين معي أمضوا سنوات في التدريب. وأنا لا أستطيع القول أنّني مرتاح لفكرة عملهم مع... ولنقلها بصراحة، مع مهرّجين.

تبدّدت الحماسة التي قدّمنا بها عرضنا. شعرت برغبة جارفة في الهرب. كرّرت أمامه، وأنا أجبر نفسي على الكلام:

– سيظلّ أفراد طاقمك مسؤولين عن الرعاية الصحّيّة للأطفال.

نظرت إلى طير يقف على الشجرة التي تظلّل الرجل. تابعت حديثي:

– اعتبر العاملين معنا مجرّد عناصر ترفيه آخرين بين العناصر الذين يزورونكم. الفارق الوحيد هو أنّ العاملين معنا أمضوا شهورًا في التدرُّب المتخصّص.

عبس، وهو ينظر إلى فنجان القهوة في يده، قائلًا أنّ أفراد طاقمه حصلوا على تدريب عالي المستوى فعليًّا، ولكن لا حاجة لهم إلى ارتداء ثياب سخيفة أو إلى حمل آلات موسيقيّة. فجأةً – ورغم أنّ السنوات التي أمضيتها في هذا العمل، علّمتني ألّا أتصرّف أبدًا، ومطلقًا، بعصبيّة مع هذا النوع من الأشخاص – وجدت نفسي أتصرّف بعصبيّة معه.

– أنت تركّز على الجانب المرح من عملهم فحسب. لكنّ هناك عددًا لا يحصى من الأطبّاء والممرّضين يقول لنا أنّه تعلّم أساليب مفيدة من العاملين لدينا.

جفل الرجل، وقال:

– هكذا إذًا؟ انعكست الشمس على نظّارته. أنت تقولين لي إذًا أنّ أفراد طاقمنا في إمكانهم أن يتعلّموا من مجموعة ممثّلين فاشلين عاطلين من العمل؟

التفت روبن الذي كان يقف مع مجموعة المديرين.

– هذا بالضبط ما لم أقله، أجبته.

كنت أنظر في عينيه مباشرة، كأنّنا على وشك مبارزة حادّة. ماذا كنت أفعل؟ استرسلت في حديثي:

– ما قصدته – لو أنّك كنت تصغي إليّ فعلًا لعرفت ذلك – هو أنّ التقييم الذي وافانا به المختصّون في المجال الطبّي كان إيجابيًّا لا لبس فيه. لكنّ أولئك المختصّين يتمتّعون بشيء من التواضع.

– سيّدة ماكيه. هل قلتِ فعلًا ما أعتقد أنّني سمعته؟

انضم إلينا روبن بسرعة، وسأل:

– هل في إمكاني المساعدة؟

– لا أعتقد، أجابه الرجل. كانت شريكتك تقول إنّ في إمكان طاقم الرعاية لدينا أن يتعلّم أمورًا من مهرّجيكم. بما في ذلك التواضع، هل تصدّق؟ بالتالي، أنا أحتاج إلى وقت كي أستوعب ما قالت.

– سيّد شرويدر... بدأ روبن الحديث.

قاطعه ذو النظّارة السميكة، قائلًا:

– لديّ فريق أديره. وداعًا.

طار العصفور الذي كان يقف على الشجرة فوقه في اتّجاه الشارع. راقبت العصفور متمنّية لو كنت في رفقته.

ما إن جلسنا في سيّارة الأجرة، حتّى سألني روبن:

– ماذا حصل؟

– آسفة!

– آسفة؟! كان روبن محتدًّا من شدّة الغضب. أعتقد أنّنا خسرنا العقد بسببك. سارة، لو كان الأمر يتعلّق بنا، أو بالنقود، لما كانت هناك مشكلة، لكنّ الأمر لا يقتصر على ذلك. فهو يتعلّق بروث وبكلّ الأطفال الموجودين في دار الرعاية هذه وفي الدور الأربع التي تملكها الشركة.

كنت أسمع من مقدّم السيّارة مقاطع أغانٍ وموسيقى من أميركا اللّاتينيّة. تنفّست بضعة أنفاس بطيئة. لو كنت مكان روبن لغضبت أيضًا.

انفجر غضب روبن أخيرًا.

– سارة، بحقّ الله، ماذا يحدث؟

أنهى السائق مكالمته الهاتفيّة، وراح يصغي إلى حديثنا باهتمام. لكنّ فضوله لم يرتوِ، فلم يكن لديّ ما أقوله.

بعد أن صمت روبن طويلًا، سألني:

– هل للأمر علاقة بي وبكايا؟ كان يثبّت نظره على حركة المرور في الجانب الآخر من الطريق السريع. وتابع: لأنّه إذا كان الوضع كذلك، فعلينا مناقشة الأمر وإيجاد حلّ جذريّ. أنا...

– ليس للأمر علاقة بكايا، قاطعته. رغم أنّني، إذا توخّيت الصدق، أعتقد أنّه عليها التنحّي بعض الشيء.

– ما الأمر إذًا؟ أنت تتصرّفين منذ مدّة بطريقة غير سويّة. سارة، كنت زوجتي مدّة سبع عشرة سنة. ما زلت أعرفك.

– كلّا، أنت لا تعرفني.

عبرت الشارع أمامنا عند إشارة المرور أمّ مع طفليها. كان أحدهما يركل بساقيه داخل عربة أطفال؛ أمّا شقيقته فقد كانت ترقص وهي تسير أمامهما وتحمل بوقًا صغيرًا لامعًا تنفخ فيه بكلّ ما أوتيت من قوّة. كانت هانا تملك بوقًا صغيرًا مثله. وكانت أحيانًا تنفخ فيه داخل أذني إذا استيقظتْ قبلي فأصعق أنا بكلّ كياني. آنذاك، كانت تنتابها نوبة ضحك خارجة عن إرادتها، وتركض في أرجاء المنزل، حاملةً بوقها وهي تطلق صيحات ساخرة وتنفخ فيه وتضحك.

عندما تبدّل لون إشارة المرور، وانطلقت سيّارتنا، اكتشفت أنّني كنت أبكي.

وقفت عند نافذة البوّابة المتّسخة أراقب الطائرات، وهي تدرج على أرض المطار بعد أن حلّ المساء وتحوّل لون السماء إلى لون الصدإ. رنّ هاتف ثلاث مرّات قبل أن أدرك أنّ الرنين صادر من هاتفي.

– دجيني؟

– سارة، الحمدلله أنّك أجبت.

– هل أنت بخير؟

– سأتجاهل هذا السؤال. اسمعي، حصل الآن شيء غريب.

انتظرت لأسمع باقي الحديث. لوّح لي روبن. توارى ما تبقّى من المسافرين خلف البوّابة.

– سارة، رأيت إيدي لتوّي. داخل مبنى جمعيّتنا.

– سارة، أسرعي! ناداني روبن.

أومأت له أن ينتظر، ورفعت يدي في الهواء كأنّني في انتظار سماع رقمي. تابعت دجيني حديثها:

– لقد شاهدت صورته مرّات عدّة. لا مجال للخطإ. إنّه هو. كان يتحدّث مع كارمن موظّفة الاستقبال. عندما ذهبت إلى هناك كان غادر المكان.

– أوه.

تدلّت ذراعاي في الهواء بحركة حمقاء، هرب الدم من عروقي.

– سأل كارمن عمّا إذا كنتِ في المكتب، ثمّ غادر من دون أن يترك رسالة.

– أوه.

– سارة، كان هو. هو بالتأكيد. نظرت ثانية إلى صورته بعد أن غادر. أخبرتني كارمن أنّه يتكلّم بلكنة إنكليزيّة.

– دجيني، هل أنت واثقة؟ هل أنت واثقة تمام الثقة؟

– تمام الثقة.

– هذا حقيقي إذًا.

– سارة؟ ماذا دهاك؟ بدا الغضب على روبن ثانية.

قلت لها بأسى:

– يجب أن أنهي المكالمة. حان وقت صعودي إلى الطائرة.

الفصل الثاني والثلاثون

عزيزي إيدي،

سبق أن وعدتك أن تكون آخر رسالة بعثت بها إليك الأخيرة.

لكنّني، في الواقع، بدأت أتساءل عن هويّتك الحقيقيّة. سألني صديقي تومي مؤخّرًا عمّا إذا كنتُ أعتقد أنّ ثمّة علاقة تربطك بالحادث. آنذاك، صرفت النظر عن تلك الفكرة مباشرة، لكنّ الشكّ بدأ يساورني مؤخّرًا.

هل أنت الرجل الذي جاء إلى مكتبي اليوم؟ هل أنت الرجل الذي رأيتُه عند إشارة المرور الأسبوع الفائت؟ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا؟ ماذا تفعل؟

إيدي، هل تعلم من أكون بالتحديد؟ وهل تعلم لماذا لم أفكّر مطلقًا في العودة إلى إنجلترا؟

هل أنت الشخص الذي أخشى أن تكونه؟

ثمّة احتمال أن تقرأ رسالتي وتفكّر: عمّ تتحدّث هذه المرأة؟ لماذا لا تدعني وشأني؟ هل فقدت عقلها؟

ولكن، ماذا لو لم يكن هذا ما تفكّر فيه؟ ماذا لو كنت تعلم تمامًا عمّا أتحدّث؟

إيدي، أنا أتساءل في استمرار. أنا أتساءل طوال الوقت.

سارة

الفصل الثالث والثلاثون

مقتطف من صحيفة ستراود نيوز أند جورنال
11 يونيو 1997

اعتقلت الشرطة رجلًا له علاقة بالحادث المشؤوم الذي وقع على الطريق A419 قرب فرامبتون مانسيل في وقت سابق من هذا الشهر. أكّد ضابط التحقيق الرئيسيّ، الشرطي جون ميثيرل، ليلة أمس أنّ شابًّا في التاسعة عشرة من بلدة ستراود اعتُقل للاشتباه بأنّه تسبّب في الموت بسبب القيادة المتهوّرة.

وقد أدّى هذا الحادث، الذي دمّر حياة عائلة من سكّان البلدة، إلى تعالي الأصوات المطالِبة باتّخاذ إجراءات أكثر فاعليّة لضبط السرعة في هذا الجزء النائي من الطريق. كما عبّر السكّان عن امتعاضهم بسبب فشل الشرطة في اعتقال الفاعل حتّى الآن.

وكانت شرطة منطقة غلوسترشير، منذ وقوع الحادث، تبحث عن رجل – وُصِف آنذاك بأنّه ذكر في أواخر سنّ المراهقة أو بداية العشرينيّات من العمر – هرب من مسرح الحادث عبر الحقول أو عبر الممرّات التي يستخدمها المشاة في المنطقة. وقد أدّت المعلومات المستجدّة التي وصلت إلى الشرطة يوم الإثنين إلى كشف مكان الرجل، ومن ثمّ إلى اعتقاله.

لم تتمكّن الصحيفة، قبل طبع عدد اليوم، من الحصول على معلومات تؤكّد توجيه التهمة إلى المشتبه به.

الفصل الرابع والثلاثون

كنت مستلقية على سرير الضيوف في منزل دجيني، أصغي إلى خافيير وهو يحمِّل شاحنته خارج المنزل. كان يصدر من المذياع صوت رجل يتكلّم بالإسبانيّة بلهجة سريعة ويصف الحرائق الهائلة المستعرة التي تأكل الأخضر واليابس في هضاب كاليفورنيا. النار تقترب منّا بسرعة. عندما لفظ كلمة «نار» تباطأ صوته كما لو كان يعانق كلّ مقطع من مقاطع الكلمة، وكأنّه لهب يحرق ورقة ببطء. ال- نا-ر.

كانت دجيني تستحمّ، وهي تستمع إلى أغاني ديانا روس، من دون أن تغنّي معها. سمعت أنين سخّان الماء. كانت قطّة الجيران تطلق عويلًا أشبه بعويل الأطفال، ما يعني أن فرابوتشينو في الساحة خارج المنزل.

تقلّبت واستلقيت على ظهري وفركت بطني.

كان هناك رجل، في مكان ما، رجل من دون اسم أمضيت تسع عشرة سنة أفكّر فيه. لم أكن أعرف وجهه أو صوته، ولم أملك أيّ وسيلة للتعرّف إليه سوى اسم عائلته، لكنّني كنت دائمًا أعلم أنّني سأتعرّف إليه عندما يجدني. يكفي أن أنظر في عينيه، وسأعرفه فورًا.

قلت في سرّي، هذا ما يجعل من المحال أن يكون إيدي هو ذلك الرجل. ففي معزل عن كون اسم عائلة إيدي مختلفًا عن الاسم المطلوب؛ فإنّني سأتعرّف إلى هويّة الرجل المذكور لحظة ألقاه. سأعرفه حتمًا.

النار تقترب منّا بسرعة.

ومن دون أيّ إنذار، قمت وهرعت إلى الحمّام وتقيّأت.

– أثار الإفراط في الشرب ليلة العودة إلى العمل! قالت كايا، وقد ارتسمت ابتسامة في عينيها الجميلتين حتّى لا أظنّ أنّها كانت تنتقدني. سارة، تجعلينني أشعر بأنّني مسنّة.

كنت قابعة أمام البرّاد الصغير في المكتب، المليء بأنواع السلطات وبالأطعمة المغلّفة، أغمضت عينَيّ. لم أستطع تناول طعام الغداء الذي أحضرته. لم أستطع حتّى أن أنظر إليه.

– لا ينبغي أن يثير ذلك إعجابك. بل يتوجّب عليك انتقادي. أنا أستحقّ ذلك. ساعدت نفسي على الوقوف.

– مررنا جميعًا في هذه المرحلة.

كانت منحنية فوق شيء ما قرب غلّاية الماء، كأنّها كانت تخفيه عن نظري. أنعمت النظر فوق كتفها بطريقة مخزية، ورأيت ما توقّعته تمامًا، سلطة شهيّة.

قلت في سرّي «ليتها لم تكن لطيفة بهذا الشكل في التعامل معي. أو ليتها لا تتصرّف بهذه الرصانة». كانت تخفي السلطة عنّي فحسب كي لا تجعلني أشعر بالأسى على نفسي. والأهمّ من ذلك كلّه، كنت أتمنّى لو لم تكن هنا في مكتبنا. بالأمس، كان عذرها للمجيء أنّها تحمل لنا أفكارًا معمّقة تودّ مشاركتنا إيّاها، كوّنتْها خلال اجتماع عُقِد أخيرًا في مستشفى الأطفال وحضره جامعو التبرّعات. أمّا اليوم، فلم يكن من تبرير لمجيئها. لقد أتت في الساعة العاشرة، وجلست أمام أحد الحواسيب. حتّى دجيني انزعجت منها.

عدت إلى طاولة مكتبي، وأنا أحمل كوبًا من الماء في إحدى يديّ، بينما كانت اليد الأخرى ترتجف. كان روبن وكايا قد خرجا إلى الشرفة الصغيرة لتناول الغداء.

حاولت قراءة بريدي الإلكترونيّ، لكنّ الكلمات بدت مائعة لا شكل لها. حاولت أن أشرب الماء، لكن معدتي رفضته. شعرت بأنّها تفضّل «الثلج». يجب أن يكون الماء مثلّجًا! جررت قدميّ لأعود إلى المطبخ، لكنّني وجدت صينيّة الثلج فارغة داخل الثلّاجة. عدت لأجلس ثانية إلى طاولة مكتبي وأتفرّج على زوجي وصديقته يتعانقان ويتبادلان القبل. كان روبن يحضن كايا بذراعه. سمعت صوتًا يقول:

– لا أستطيع أن أفعل ذلك.

اكتشفت بعد لحظة أنّه صوتي، أنا من تفوّهت بتلك الكلمات.

كاد يغلبني الضحك. ها أنذا أرتجف وأشعر بالغثيان والدوار، أكلّم نفسي، وأنا جالسة إلى طاولة مكتبي. ماذا يمكن أن يحدث بعد؟ أقلّد أصوات الحيوانات؟ أرسل صورًا عارية؟

ثمّ سمعت نفسي أقول: لا أستطيع. كان صوتي آتيًا من جزء منّي خارج نطاق سيطرتي. لا أستطيع أن أفعل ذلك.

ذهبت مسرعة إلى قاعة الاجتماعات.

قلت لنفسي، وأنا أغلق الباب خلفي: توقّفي عن ذلك. توقّفي فورًا.

درت حول الطاولة متظاهرة بأنّني أبعث برسالة نصيّة إلى أحد الأشخاص؛ نظرت إليهما ثانية. كانت كايا تقبّل جبين روبن. وكانت قطّة شاردة تراقبهما من سطح عيادة حَقْن بوتوكس مجاورة. بدت خلفهما مجموعة من الأبنية العالية في مركز المدينة.

لا أستطيع أن أفعل ذلك.

(توقّفي عن ذلك.)

حاولت التفكير في عقلانيّة، لا بدّ لأيّ امرأة تعيش مشاعر ملتبسة أن تشعر بالضيق عندما ترى زوجها السابق يعيش قصّة حبّ جديدة. إذًا، لا ضير من الشعور بالضيق.

لكنّ الفكرة هي أنّ الأمر لم يكن يتعلّق بروبن وكايا.

النار تقترب منّا بسرعة.

حاولت إيقاف الكلمات التي تسلّلت إلى فمي، لكنّني لم أقوَ على ذلك.

أريد الذهاب إلى وطني.

سَرَت همهمة هادئة في قاعة الاجتماعات. همست: توقّفي عن ذلك.

كانت دموعي حارقة واخزة.

(توقّفي عن ذلك. هنا وطنك.)

كلّا، هنا ليس وطني. ولم يكن مطلقًا إلّا مخبأ لا أكثر.

لكنّني أحبّ هذه المدينة. أحبّها.

(هذا لا يصنع منها وطنًا لك.)

دلفت دجيني بهدوء عبر الباب، وقالت:

– سارة، ماذا يحصل؟ أنت تكلّمين نفسك.

– أعرف.

– هل للأمر علاقة بروبن؟ في وسعي الطلب من كايا مغادرة المكتب، إذا شئت. لا ينبغي لهما التصرّف بهذا الشكل.

أخذت نفسًا طويلًا. وبينما كنت أرتّب الكلمات المناسبة في ذهني، غادرت دجيني الغرفة. تأمّلتُ ظهرها ببلاهة، وأدركتُ متأخّرة ما كانت في صدد القيام به.

نظر إليها روبن وكايا. قالت دجيني شيئًا؛ ابتسم الاثنان، وأومأ كلّ منهما برأسه. عندما دخل روبن من الباب كان يصفّر، ولكن كان هناك شيء ما في وجهه ينبئ بأنّه كان يدرك ما سيحصل.

دار في خلدي، وأنا واهنة القوى، أن المشكلة ليست هنا. لا. لكنّ دجيني كانت بدأت الكلام. وقفت بثقة عند رأس الطاولة، وكانت تتكلّم بصوت لم يسبق لي أن سمعتها تتكلّم به، طوال فترة معرفتي بها، سوى ثلاث أو أربع مرّات.

– كايا، نحن ممتنّون جدًّا لأنّك تساعديننا، لكنّني أعتقد أنّه علينا تحديد المشاريع التي تساعديننا فيها، وأن نرصد ظهور أيّ مهمّة إضافيّة تفوق قدرتنا على إتمامها. لأنّه والحال كذلك، يجب دراسة الوضع. لا يبدو وجودك هنا للمساعدة من حين إلى آخر أمرًا مناسبًا. فلم تأتِ بعدُ الموافقة الرسميّة على ذلك.

ساد الصمت. نظر إليّ روبن بعينين أذهلتهما الصدمة. شحب وجه كايا. قالت:

– بالطبع.

كنت أدرك أنّها لا تدري ما يمكن أن تقول بعد.

– أنا... كنت أحاول مساعدة روبن في بعض الأعمال المتراكمة عليه فقط... وكانت كايت، نائب سارة، تبدو...

كانت تعبث بالخاتم الذي يصل إلى منتصف إصبعها، ولاحظت أنّ يديها كانتا ترتجفان.

«هذه ليست المشكلة وهذا ليس الحلّ. كنت مرهقة. مرهقة إلى درجة اليأس.»

أضافت كايا، بعد فترة صمت قصيرة:

– آسفة، لم أكن أقصد التصرّف على نحو غير ملائم. أدركت الآن أنّني كنت أتردّد إلى المكتب أكثر من اللازم...

ترقرقت الدموع في عينيها.

سِرت نحوها بصورة غريزيّة، لكنّ دجيني أوقفتني قائلة:

– سأتولّى الأمر بنفسي، ثمّ أعطتها منديلًا.

لم تعانقها. كنت أراقب برعب كيف كانت صديقتي تصبّ جامّ غضبها وشعورها بالإحباط على امرأة تبكي قرب طاولة الاجتماعات في مكتبنا.

بدا روبن كمن أصيب بالشلل. تابعت كايا:

– لقد فقدت... المجيء إلى هنا يشعرني بالراحة.

بدأت تتراجع؛ كانت أشبه بحيوان كاد يُدهَس: آسفة. الواقع أنّ المجيء إلى هنا يشعرني بالراحة. لن آتي بعد الآن. أنا...

توجّهت صوب الباب.

أدركت حقيقة الأمر فجأةً. قلت لها في هدوء:

– كايا، انتظري لحظة.

تردّدت. فقلت لها:

– اسمعي، القصّة التي أخبرتني بها يوم قابلتك... (ارتخت قسمات وجهها، أصبحت منتفخة، مثل خيمة نُزعت أعمدتها.) تلك القصّة عن الصبيّ الموجود في جناح الأورام الذي استطاع

المهرّجون العاملون لدينا بثّ البهجة في قلبه... (انهارت الخيمة نهائيًّا، وها هو قد ظهر: كائن بشري مدمّر بالكامل.) هل كان ابنك؟

حدّق فيّ روبن. أخذت كايا نفسًا بطيئًا عميقًا، وأومأت برأسها.

– فوينكس. نعم، كان ابني.

أغمضت عينيّ. يا للمسكينة.

سألني روبن مصعوقًا:

– وكيف عرفت؟

عندما فتحت بريدنا صباح ذلك اليوم، وجدت رسالة من زوجين، بريت ولويز ويست. بعد أربعة أشهر من وفاة ابنهما، تمكّنا أخيرًا من الكتابة؛ قالا أنّها الرسالة الأولى التي يكتبانها. قالا في الرسالة: «شكرًا جزيلًا لما قدّمتموه من مساعدة... لقد جعلتم أسابيعه الأخيرة أفضل بكثير... هل نستطيع مساعدة جمعيتّكم، من حيث المبدأ؟ نودّ المجيء والعمل متطوّعين... نودّ أن نردّ لكم بعضًا من الجميل... أن نشعر بأنّنا نستطيع تقديم مساعدة مفيدة...».

جعلتني الرسالة أتساءل عن السبب الذي يدعو كايا إلى المجيء إلى المكتب. لم أكن على قناعة بأنّ الأمر يتعلّق بروبن فقط.

كنّا قد تلقّينا، قبل بضعة أيّام، مكالمة هاتفيّة تفيد بأنّ أحد الأطفال الذين عملنا معهم أشهرًا قد تحسّن وضعه وبأنّه جاهز للعودة إلى المنزل. أجهشت يومذاك كايا، التي لم تكن قد قابلت الطفل، بالبكاء. سمعتها تقول لنائبتي كايت، التي زفّت إلينا النبأ:

– فرصة ثانية. لقد حظي بفرصة ثانية للحياة. يا له من خبر سعيد!

كان خبرًا سعيدًا بالفعل. غمرتنا البهجة جميعًا. لكنّني ظللت أراقب كايا مدّة طويلة بعد انصراف الجميع لمتابعة أعمالهم، وبدأت أتساءل عمّا إذا كان هناك شخص ما في حياتها لم تتح له فرصة ثانية للنجاة.

وبينما كنت أراقبها، وهي تحاول يائسة شرح دوافعها لدجيني، بدا واضحًا أنّ الطفل الذي أخبرتني عنه يوم لقائنا الأوّل كان طفلها. كانت قد فقدت طفلها وفقدت معه جزءًا لا يعوَّض من روحها. وفي لحظة ما، وعندما استطاعت مغادرة سريرها، عندما استطاعت أن تتنفّس، جاءت إلى قسم العمل التطوّعي – شأن الأبوين اللذين بعثا إلينا برسالة في ذلك اليوم؛ وشأني أنا، وشأن كثرٍ غيري – لأنّ ذلك بدا الطريقة الوحيدة التي يمكن تصوّرها لصوغ الخير من الشيء السيّئ. وللاستمرار في الحياة.

قلت لها:

– أنا آسفة.

أومأت برأسها، ثمّ قالت:

– وأنا أيضًا آسفة، وأعتذر عن مجيئي بكثرة إلى المكتب. افترقت عن زوجي العام الفائت؛ لم نستطع تجاوز المأساة. كنت... وحيدة. هذا لا يعني أنّها مشكلتكم أنتم، ولكن... وجودي هنا يشعرني بالراحة نوعًا ما.

أغمضت عينيّ. كنت مرهقة إلى درجة لا توصف. قلت لها:

– أفهمك.

راقبتهما وهما يغادران الغرفة. كانت دجيني تجلس منهارة عند آخر الطاولة.

سرت نحوها، ووضعت يدي على كتفها. قلت لها في هدوء:

– لا تشعري بالذنب. من أين لك أن تعرفي؟

هزّت رأسها من دون أن تتفوّه بكلمة.

– دجيني، اسمعي، لقد تأثّرت برغبتك في الدفاع عنّي وعن فريق العمل بتلك الطريقة. كنتِ مهذّبة؛ كنتِ لطيفة؛ قدمتِ لها منديلًا. ماذا كان في إمكانك أن تفعلي أكثر؟

– كان في إمكاني التزام الصمت. كان صوتها مثقلًا بالشعور بالذنب. كان في إمكاني أن أدعها وشأنها.

دلّكتُ كتفيها، وأنا أنظر شاردة من النافذة. بدأت إحدى ساقيّ ترتجف، فجلست قربها. قالت بصوت هامس:

– أسوأ ما في الأمر هو أنّني وكايا نعيش الظروف نفسها. هناك جزء مفقود من كلّ واحدة منّا. رغم أنّها رزقت «فعليًّا» بطفل لكنّها حُرِمت منه، و... يا إلهي، هل تتخيّلين؟

بعد أن استعادت هدوءها أخيرًا، أخبرتها بأنّني يجب أن أذهب. قلت لها:

– أعتقد أنّ عليّ زيارة العيادة النهاريّة. أشعر... أشعر بأنّني لا أؤدّي عملي كما يجب. هل أنا مخطئة؟

– كلّا، أجابت. كدت أبتسم من صراحتها. أضافت: ولكن، كيف يمكن الطبيب أن يساعد؟ أنت لن تطلبي أدوية، أليس كذلك؟

صمتّ لحظة. قلت:

– لا، أنا بحاجة فحسب إلى أن... أتحدّث.

– تعرفين طبعًا أنّ في إمكانك الحديث معي، أليس كذلك؟

– أعرف طبعًا. وشكرًا لك ثانية. كنتِ دائمًا لطيفة ومتفهّمة.

– أعرف.

ثمّ تنهّدت وقالت:

– سأعدّ لها أكبر قالب حلوى. وسأصنعه من الخضار، أو من المساحيق الخضراء، أو من موادّ من هذا القبيل. سيكون قالبًا رائعًا.

بعد بضع دقائق، أغلقت الباب خلفي. شعرت بقيظ فترة الغداء في شهر يوليو كأنّه ضربة مكتومة، استندت إلى إطار الباب لأستعيد توازني قليلًا. كنت أرغب في النوم، ولكن، لم يكن في إمكاني تحمُّل الصمت في منزل دجيني وخافيير. كنت أريد الجلوس في مكان بارد، لكنّني لم أكن أستطيع العودة إلى مكان العمل. كنت أريد...

تجمّدت في مكاني.

إيدي. كنت أريد إيدي. لكنّ شيئًا عميقًا داخل دماغي كان من دون شكّ مصابًا بخلل، لأنّ إيدي كان هناك.

هناك.

عبر جادّة فيرمونت. كان في انتظار تبدّل لون إشارة المرور. وكان ينظر إليّ مباشرة.

لا يمكن!

بلى يمكن.

وقفت جامدة كتمثال. نظرت إليه مليًّا. شقّت حافلة مترو طويلة حمراء طريقها بيننا فترة كأنّها ساعات. عندما مضت الحافلة كان لا يزال واقفًا في المكان نفسه ينظر إليّ مباشرة.

شعرت بخدر في جسدي، بينما كنت أنظر إليه. ساد فجأةً هدوء غريب لا يتوافق مع هدير حركة المرور التي تفصل بيننا. تبدّل لون إشارة المرور وظهرت إشارة المشاة البيضاء تدعونني إلى السير في اتّجاهه، لكنّني لم أسِرْ لأنّه كان يسير في اتّجاهي من دون أن يحيد نظره عنّي. كان يرتدي بنطالًا قصيرًا، البنطال ذاته الذي كان يرتديه يوم التقينا أوّل مرة. والفليب فلوب البلاستيكيّة نفسها التي كانت تحدث صوتًا لدى اصطدامها بأرض الشارع الشديدة الحرارة. كانت ذراعاه تتأرجحان، الذراعان اللتان كانتا تعانقانني أثناء نومي كأنّني هديّة.

كان إيدي آتيًا. عبر العالم. عبر الشارع.

فجأةً، استدار، وعاد إلى الجانب الآخر من الشارع. ارتفعت في إشارة المشاة يد حمراء، بدأ العدّ التنازلي، ثلاثة، اثنان، واحد واستؤنفت حركة المرور. نظر إليّ إيدي من فوق كتفه، وسار مبتعدًا منّي بسرعة في الاتّجاه الآخر.

عندما تبدّل لون إشارة المرور ثانية وتمكّنت من عبور الشارع ركضًا، كان قد اختفى في جادّة ليكسنغتون. وقفت عند زاوية جادّتي ليكسنغتون وفيرمونت وقد سمّرني عنف عواطفي في حالة من الذهول. حتّى هذه اللحظة، حتّى بعد أسابيع من الإذلال.

لم يتغيّر شيء. ما زلت أعشق إيدي ديفيد. الفارق هو أنّني أدركت في تلك اللحظة – إذ لم يعد هناك مجال للنكران – أنّني عرفت تمامًا من هو.

انطلقت في اتّجاه العيادة.

كانت الشمس تغيب عن المدينة والشوارع الفضّيّة تمضي في اتّجاه مستقيم نحو الأفق لتغيب داخل السديم والدخان الممزوج بالضباب. وكانت طائرات الهليكوبتر تشارك الطيورَ الجارحة التي تتبع مسار التيّارات الحارّة السماء؛ أمّا المتنزّهون فكانوا يتسلّقون الممرّات المحفورة جوانب الهضاب كالندوب ومن ثمّ يهبطون عبرها.

مضت ساعتان، وربّما أكثر، وأنا جالسة وحدي على مقعدي المفضّل قرب المرصد في حديقة غريفيث بارك. غادر السيّاح في معظمهم المكان، لأنّهم كانوا حريصين على الذهاب قبل حلول الظلام. ظلّ بعض من كانوا يرغبون في التقاط صور لغروب الشمس الجميل. جلست بينهم في هدوء، أحاول نسيان ما قاله الطبيب قبل قليل، لأركّز بدل ذلك على الأسبوع الذي أمضيته مع إيدي. كنت أنتظر مفتاح اللغز ليكشف نفسه أمامي. لم أكن عثرت عليه بعد، لكنّني كنت على وشك العثور. في اللحظة التي تعرف فيها عمّا تبحث، فإنّ ما تجده سيثير الذهول.

استعدت بدقّة مسار الأمور حتّى النهاية، وفي تلك اللحظة، وبينما كانت الشمس تغوص في المحيط الهادئ المحجوب عن نظري، وقد اصطبغت بلون الدم، بدأت أستعيد أحداث الصباح الأخير الذي أمضيناه معًا. الضياء المشرق في الخارج، والشعور بالفقدان ونحن نتبادل عبارات الوداع، والشعور بالإثارة لما سيحدث لاحقًا. كان يتّكئ على عمود الدرج. كانت النافذة مشرّعة، وكنت أشمّ حلاوة زهرة الزعرور، ورائحة النظافة المنبعثة من العشب الدافئ. كانت عيناي مغمضتين، بينما كان يقبّلني ويده على ظهري. وضع أنفه على أنفي وهو مغمض العينين وتحدّثنا. أعطاني زهرة، دوّن أرقام هواتفي، أضافني إلى قائمة أصدقائه في فيسبوك، أعطاني فأرة لأحتفظ بها. ثمّ قال:

– أعتقد أنّني وقعت في غرامك. هل تجاوزت الحدود بقولي هذا؟

– مطلقًا. هذا رائع.

ثمّ غادرت.

تخيّلته يستدير، بعد أن غادرت، ويصعد باقي الدرجات ويلتقط فنجان الشاي الذي تركه في الأعلى. ربّما توقّف ليرتشف منه. كان هاتفه لا يزال في إحدى يديه لأنّنا كنّا قد تبادلنا معلوماتنا المفصّلة توًّا. ربّما جلس قرب النافذة، ونظر إلى صفحتي في فيسبوك. وربّما تصفحها. ثمّ...

التقطت هاتفي.

انتابني شعور غريب بالهدوء، بينما كنت أبحث عن صفحتي. وجدتها بالطبع. كانت هناك رسالة ودّيّة من تومي ستينهام، كان تاريخها يعود إلى الأوّل من يونيو من العام 2016.

هارنغتون، مرحبًا بعودتك إلى الوطن! هل كانت رحلتك هادئة بالطائرة؟
في انتظارك بفارغ الصبر.

عدت لانتعال حذائي. سرت عائدة إلى المرصد وطلبت سيّارة أجرة. وبينما كنت أنتظر وصوله، أخرجت هاتفي وبدأت أكتب. كان جوابي جاهزًا.

الفصل الخامس والثلاثون

إيدي،

أنا أعرف من أنت.

كنت لسنوات أحلم في أنّني أقابلك. كانت أحداث الأحلام تجري في الحوافّ المظلمة من تفكيري، وكنت أنت في تلك الأحلام من دون وجه ومن دون صوت فعليًّا. لكنّك كنت دائمًا هناك، وكان الوضع دائمًا بغيضًا.

ثم ظهرتَ. ظهرتَ في أرض الواقع، في ذلك اليوم من أيّام يونيو. كنتَ جالسًا في مرج في سابرتون مع خروف. كنت تبتسم لي، دعوتني إلى شرب كأس، كنت وسيمًا وطيّبًا. ولم أكن أعرف من تكون البتّة.

يبدو العالم اليوم شبيهًا بما كان عليه في صيف ذلك العام، حين بلغتُ السابعة عشرة. شعور بالمرارة يطبق على حلقي.

يجب أن نتحدّث. وجهًا لوجه. تجد أسفل الرسالة رقم هاتفي الخليوي الأميركي. أرجوك اتّصل بي. في إمكاننا ترتيب موعد.

سارة

الفصل السادس والثلاثون

– سارة ماكيه، أين كنت؟ اتّصلت بك أكثر من مرّة، قالت دجيني.

خلعت صندالي الجلدي وتكوّمت فوق كرسي مرتفع من دون ظهر. أجبتها:

– آسفة. كان هاتفي صامتًا. هل أنت في خير؟

تجاهلت دجيني سؤالي، وهي تسير على مهل لإحضار كوب ماء. سألتني، وهي تقدّم لي الكوب:

– في إمكاني إعداد العصير إذا كنت تفضّلين.

كانت عيناها حمراوين بلون الدم. كنت واثقة في أنّها كانت مستلقية في سريرها مُذ عادت من العمل.

فجأةً، أجهشتُ بالبكاء. عادت دجيني إلى حيث كنت أجلس وسألتني:

– ماذا حصل؟

كانت تفوح من شعرها رائحة شامبو جوز الهند ومن بشرتها رائحة حلوى المارشميلو.

– سارة؟

كيف لي أن أشرح تلك الفوضى البائسة المحزنة لامرأة فقدت توًّا آخر أمل لها بتكوين أسرة؟ لا يمكن حتّى التفكير في ذلك. ماذا كان في وسعها أن تفعل سوى الإصغاء إليّ، ومن ثمّ الشعور بالخوف والانقباض. وبعد ذلك بالعجز لأنّه لم يكن هناك – مطلقًا – ما يمكنها فعْله لحلّ مشكلتي.

– أخبريني، قالت دجيني بصرامة.

بعد صمت طويل، اضطررت إلى الكذب عليها. فأردفت:

– في عيادة الطبيب كانت الأمور جيّدة. نظّفت أنفي بمنديل وتابعت الكلام: حسنًا، يجب إجراء بعض تحاليل الدم، لكنّ الوضع إجمالًا جيّد.

– إذًا...

– ولكن... أنا...

رنّ جرس هاتفي. قلت وأنا أدور في الغرفة على غير هدًى بحثًا عن الهاتف:

– إنه إيدي.

قالت دجيني، التي استعادت فجأةً قدرتها على التجاوب السريع، وهي تنتزع الهاتف من حقيبة يدي وتعطيني إيّاه بسرعة:

– ماذا؟ هل هو إيدي؟

كنت أشعر بضربات مؤلمة داخل صدري لأنّ المتّصل كان إيدي، ولأنّ الوضع كان لا يُحتمل. لم يكن في إمكاني إطلاقًا البقاء معه. لقد وجدته أخيرًا، ولكن لا يوجد لنا أيّ أمل مطلقًا في مستقبل مشترك.

– إيدي؟

ساد صمت قصير، ثمّ سمعته يقول «مرحبًا». صوته كما تخيّلته دائمًا، لكنّه كان حقيقيًّا هذه المرّة. صوت مألوف وغريب، كامل ويسحق القلب من الحسرة. صوته.

أمّا صوتي فقد استطعت التحكّم فيه فترة كافية لأقول له نعم سأقابلك غدًا، ولا بأس بشاطئ سانتا مونيكا؛ كنت سأقابله قرب مكان لتأجير الدرّاجات، جنوب الرصيف البحري، الساعة العاشرة.

– كنت بدأت أشكّ في أنّ وجود لوس أنجلوس على شاطئ المحيط هو مجرّد كذبة.

بدا صوته متعبًا. وأضاف:

– أنا أجوب الشوارع منذ أيّام ولم أرَ المحيط بعد.

انتهت المكالمة، كوّمت جسمي في زاوية أريكة دجيني، وشرعت أبكي كالأطفال.

الفصل السابع والثلاثون

غاليتي،

مرحبًا يا قنفذتي.

مضى أسبوعان تقريبًا على اليوم الذي يُفترض أن تحتفلي فيه بعيد ميلادك، لكنّني ما زلت أفكّر فيك كلّ يوم، وليس في أعياد الميلاد فحسب.

يحلو لي أحيانًا أن أتخيّل ما كنت ستفعلين لو أنّك ما زلت هنا. تخيّلت اليوم أنّك تعيشين في كورنول؛ فنّانة شابّة مفلسة تلطّخ الألوان شعرها. في هذا السيناريو، أتخيّلك تدرسين الفنون الجميلة في فالماوث ثمّ تستأجرين مبنى متداعيًا في قمّة هضبة مع أصدقائك الفنّانين. أتخيّل أنّك مولعة بمناديل الرأس، ونباتيّة على الأرجح، كما أتخيّل أنّك مشغولة في استمرار بالحصول على منح من مجلس الفنون، وأنّك تنظّمين المعارض وتعلّمين الأطفالَ الرسم. أتخيّلك تضجّين حيويّة.

ثمّ أهوي مرّة أخرى في بئر من الحزن. أتذكّر أنّك لست موجودة في بيت المجانين ذاك أعلى الهضبة. أنت في زاوية هادئة في غلوسترشير، همهمة خافتة من ذكرى كانت تكمن فيها يومًا أخت لي أشبه بشعاع الشمس.

أتساءل ما إذا كنت تعرفين ما سأفعل صباح الغد. أتساءل ما إذا كنت تعرفين من سأقابل على الشاطئ. وما إذا عرفتِ، فهل ستغفرين لي.

أنا لا أستطيع ألّا أذهب، يا قنفذتي الصغيرة. يجب أن أعرف كيف كنتِ يوم توفّيت: ماذا فعلتِ، ماذا كنت تقولين، بل وماذا أكلتِ. عندما اضطررت إلى التعرُّف إلى جثّتك، كنت جالسًا في الزاوية وقد كوّمت جسمي، كنت أذوب رويدًا رويدًا. احتجت إلى ساعات كي أتمكّن من النهوض وقيادة السيّارة للعودة إلى البيت. عندما وصلت، وجدت نصف قطعة من الخبز قرب حوض المطبخ. كانت باردة وجافّة، وكانت علامات أسنانك الصغيرة ظاهرة على إحدى زواياها. وكأنّك هممت بقضم لقمة أخيرة قبل أن تبدّلي رأيك وتفعلي أمرًا آخر.

ماذا أكلت أيضًا في ذلك اليوم؟ هل رنّمت أغنية؟ هل بدّلت ثيابك؟ هل كنت سعيدة يا قنفذتي؟

يجب أن أطرح هذه الأسئلة. ويجب أن أفهم لماذا، وبالرغم من كلّ شيء، ما زلت أعشق الإنسانة التي انتزعتك من بيننا؟

أشعر بأنّني أخذلك إلى حدّ شنيع بذهابي إلى موعدي غدًا. آمل بأن تتفهّمي سبب ذهابي.

أحبّك.

أنا

قبلاتي

الفصل الثامن والثلاثون

وقفت أراقب مجموعة من الأطفال يلعبون الكرة الطائرة، بينما كنت أنتظر وصول إيدي. تساءلت في سرّي عمّا إذا كان سيأتي فعلًا، وتساءلت عمّا إذا كان من الأسهل، والأفضل، ألّا يأتي.

كان المدّ بعيدًا والشاطئ هادئًا. وكانت هناك سحابة رقيقة تحمي سانتا مونيكا من أشعة الشمس الحارقة. عبقت في الجوّ رائحة حلوى زكيّة – كرائحة السكّر الذائب، أو رائحة الدونات – أي رائحة الطفولة؛ أيقظتِ الرائحةُ ذكرى قديمة في أعماقي. العطل الطويلة في ديفون. الرمل الخشن، والأجسام التي يكسوها ملح البحر، والصخور الزلقة. نقرات المطر الناعمة على خيمتنا. الهمسات التي كنت أتبادلها مع شقيقتي الصغيرة في وقت متأخّر من الليل، الشقيقة التي كنت أعتقد آنذاك أنّ وجودها في حياتي أمر بدهيّ.

نظرت إلى ساعتي.

في ملعب الكرة الطائرة، كان الأطفال قد أنهوا المباراة وبدأوا حزم أمتعتهم. صدرت قرقعة من الممشى الخشبيّ، بينما كان شابّ لاهث يعبره بزلّاجة. مرّرت أصابعي الرطبة في شعري. ابتلعت ريقي، تثاءبت، أحكمت إطباق قبضتَيّ، ثمّ بسطّتهما. عندما سمعت صوت إيدي، كان آتيًا من مكان ما خلفي.

– سارة؟

تريّثت قبل أن أستدير لأواجهه، الرجل الذي احتلّ تفكيري سنوات.

لكنّني عندما نظرت إليه، لم أرَ سوى إيدي ديفيد. لم أشعر سوى بالأحاسيس التي كنت أشعر بها قبل أن أعرف حقيقة شخصيّته: الحبّ، الحنين، التوق. أحسست بِدَويّ بينما اشتعل جسدي نارًا حارقة.

– مرحبًا.

لم يُجب. كان ينظر في عينيّ مباشرة، تذكّرت يوم قابلته. يوم قلت في سرّي أنّ لون عينيه بلون المحيطات البعيدة: عينين طافحتين بالدفء والطيبة. أمّا اليوم، فقد كانتا باردتين، خاليتين من أيّ معنى. وازنت ثقل جسدي على قدمَيّ. قلت له:

– شكرًا على مجيئك.

هزّ كتفيه قليلًا. ثمّ قال:

– كنت أحاول خلال الأسبوعين الماضيين رؤيتك وتبادل الحديث معك. أنا أقيم مع صديقي ناتان. لكنّني...

خفت صوته ثمّ صمت. هزّ كتفيه.

– بالطبع. أنا أتفهّم ذلك.

مرّت بيننا عائلة يقود أفرادها درّاجات صفراء مستأجرة، كانوا يعبرون الممرّ الخشبّي. عاد إلى الخلف قليلًا، وهو يتأمّلني.

سرنا في اتّجاه الشاطئ، وجلسنا على الرمال في البقعة التي تنحدر نحو البحر. ظللنا فترة جالسين نتأمّل أمواج المحيط الهادئ تتكسّر على الشاطئ؛ مساحات من الرغوة الفضّيّة في رحلة لا تهدأ نحو اللامكان. شبك إيدي أصابعه حول ركبتيه. خلع إحدى فردتي نطّاطاته وغرز أصابع قدمه في الرمل.

أشعرتني صدمة الحنين بالدوار. قال بعد صمت طويل:

– سارة. كانت نظرته باردة كالزجاج. لا أدري ما أقول. أنت...

بسط يديه لا حول ولا قوّة.

ذات يوم، كانت لإيدي شقيقة حلوة تدعى أليكس. طفلة شقراء ذات شعر أجعد وعينين زرقاوين واسعتين. كانت تحبّ الغناء. كانت تضجّ حيويّة ولا تكفّ عن وضع الخطط، مولعة بالحلويات بطعم الفاكهة. كانت أليكس الصديقة الحميمة لشقيقتي. تقلّصت معدتي عندما تذكّرتُ شكلها، وانتظرتُ حصول ما كنت أتوقّعه. قال إيدي:

– لقد قتلتِ شقيقتي.

أخذ نفسًا عميقًا، وأغمضت أنا عينيّ.

كانت آخر مرّة سمعت فيها تلك الكلمات عندما انطلقتْ من المجيب الآلي الموصول بهاتف والدَيّ. وكان ذلك بعد أسبوع أو أسبوعين من الحادث، عندما خرجت هانا من المستشفى. رفضت هانا يومذاك ركوب السيّارة معي؛ بل ورفضت المجيء إلى المنزل. كان المشهد صاخبًا، وفي نهاية المطاف أُحضِرت حافلة مخصّصة لنقل المرضى صعدت هي إليها مع والدتي، بينما ذهبت أنا إلى المنزل مع والدي في سيّارتنا.

عندما وصلنا إلى المنزل، كان الضوء الأحمر يومض في الجهاز – وهي الإشارة التي صرت أخشى رؤيتها منذ ذلك اليوم – وكانت في انتظارنا رسالة من والدة أليكس، التي نُقلت إثر الحادث إلى مصحّ عقلي. بدا صوتها أشبه بالخزف المهشّم. «لن تفلت ابنتكما بجريمتها. لا تستطيع ذلك. سارة قتلت طفلتي. قتلت ابنتي أليكس، وستودَع السجن. سأبذل ما في وسعي لتحقيق ذلك. فهي لا تستحقّ أن تظلّ حرّة. لا يمكنها البقاء حرّة بينما أليكس...»

ردّدت هانا قول الأمّ وهي تعبس باكية في وجهي، «تبذل ما في وسعها لإيداعك السجن». كانت الجروح والكدمات تغطّي جسدها كأنّها آثار وابل من الحصى. «لقد قتلتِ صديقتي الحميمة. أنت لا تستحقّين البقاء إذا كانت هي قد ماتت.» شرعت تبكي. «سارة، أنا أكرهك. أكرهك.» كانت تلك الكلمات آخر ما قالته لي منذ ذلك الحين. مرّت تسع عشرة سنة؛ تسع عشرة سنة، وستّة أسابيع، ويومان، لم توجِّه إليّ هانا خلالها كلمة واحدة، رغم محاولاتي المستميتة، ورغم محاولات التدخّل التي قام بها والداي. قلت بصوت هامس:

– إيدي، أنا آسفة. دلّكت كاحلَيّ بيدين مرتعشتين. وإذا كان في ما سأقوله أيّ عزاء لك، فأنا لم أغفر لنفسي قطّ ما حصل. ولم تغفر لي هانا.

نظر إليّ، ثمّ أشاح بنظره بعيدًا، كأنّني أثرت اشمئزازه، قال:

– صحيح، هانا. سبق ان أخبرتِني بأنّك فقدت شقيقتك.

قلت، وأنا أرسم خطًّا متعرّجًا في الرمل:

– نعم... فقدت شقيقتي. قاطعتني هانا. أخرجتني من حياتها نهائيًّا. لذلك، أنا لا أشعر بأنّ لي أختًا، فعليًّا.

ألقى نظرة سريعة على الخطّ الذي رسمته في الرمل، قال:

– قاطعتْك هانا منذ ذلك اليوم؟

– نهائيًّا. ويعلم الله كم حاولت التواصل معها.

صمت قليلًا، ثمّ قال بصوت يحمل رنّة قاسية:

– لا أستطيع الادّعاء بأنّني فوجئت كما يُفترَض بي. فلم ينقطع التواصل بين هانا ووالدتي. وفي إمكانك أن تتخيّلي الأحاديث التي كانت تدور بينهما. لكنّ هذا ليس موضوعنا. تبقى حقيقة أنه ما زالت لديك شقيقة، وإن كانت لا تريد التواصل معك إطلاقًا، لديك شقيقة.

لم أتفوّه بكلمة. تمنّيت لو أنّني استطعت أن أنطلق بعيدًا وبسرعة. أنا المرأة التي لا يستطيع أن ينظر إليها مباشرة. أنا المرأة التي ظلّ، كما يبدو، يتمنّى موتها طوال سنوات.

– إيدي، همست. أنا آسفة جدًّا لأنّ شقيقتك كانت صديقة شقيقتي الحميمة. أنا آسفة جدًّا لأنّني اصطحبتهما خارج المنزل يومذاك. أنا آسفة جدًّا لأنّ ردود أفعالي لم تكن صحيحة عندما... عندما

قام ذلك الرجل... بلعت ريقي. لا أصدّق أنّك شقيق أليكس.

جفل إيدي، ثمّ قال:

– أريد أن تخبريني بكلّ شيء.

شعرت بمدى الجهد الذي يبذله ليحافظ على نبرة صوته حياديّة.

– أنا... هل أنت واثق في ما تقول؟

بدرت من جسده إشارة توحي بالقبول. جسده القوي الدافئ الجميل الذي لطالما حلمت فيه.

وهكذا أخبرته بكلّ شيء.

خلال ذلك الصيف، بذلتُ جهدًا مضنيًا بائسًا للاحتفاظ بمكانتي في شلّة أصدقاء ماندي وكلير. في الأسابيع التي تلت انتهاء الامتحانات الثانويّة، كان أفراد الشلّة يلتقون كلّ يوم، لكنّهم لم يدعوني إلى تلك اللقاءات سوى مرّات قليلة. وعندما استجمعت شجاعتي وواجهت ماندي بالأمر، قالت:

– حبًّا بالله سارة، لا تحمّلي الموضوع أكثر ممّا يحتمل.

كنّا مراهقات. بالطبع كنت أحمّل الموضوع أكثر ممّا يحتمل.

خلال الفترة التي كانت فيها ماندي وكلير مقرّبتين من بعضهما بعضًا، طوّرتا قواعد سلوكيّة جديدة لم ترغبا في مشاركتي إيّاها، وهكذا كانت الأسابيع الأولى من السنة الأخيرة في المدرسة الثانويّة أشبه بحقل ألغام. كنت أتفوّه بأشياء خطإ، وأتحدّث عن أشخاص خاطئين، وأرتدي ثيابًا خطأ، ولم أكن أدرك ذلك إلّا عندما ألمح نظرات الازدراء الجانبيّة التي كانتا تتبادلانها.

في عيد ميلادي السابع عشر، جئت إلى المدرسة لأكتشف أنّهما ما عادتا تجلسان في زاويتنا المعتادة في الغرفة المشتركة منذ الصف السادس، وانتقلتا للجلوس في مكان آخر. لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا إذا كنت مدعوّة للّحاق بهما.

بدأت ماندي خلال الفصل الدراسي الربيعي مواعدة شابّ من ستراود، المدينة التي كانت مدرستنا فيها. كان اسمه غريغزي، وكان في العشرين من عمره، بالتالي، كان شابًّا «لُقطة»، رغم وجهه البغيض، ووضعه غير القانوني. كادت كلير تموت من شدّة غيرتها، وكانت تمضي معظم وقتها تجرّ نفسها خلفهما. بدأت أفقد الأمل، وكنت متأكّدة من أنّ هذا الوضع سيكون القشّة التي ستقصم ظهر البعير. فقد كانت الفتيات اللواتي يواعدن شبابًا أكبر سنًّا يُعتبرن أرفع مقامًا. فقد كن ناجحات ومستقلّات ولهن تجارب جنسيّة؛ وبالتالي، لا يعانين الكبت الجسدي الذي يعاني منه الطلاب في سنّهن بوجوههم التي تغطّيها البثور.

كنت أفكّر في أنّ ماندي ربّما تسحب معها كلير قبل أن تقطع علاقتها بي، لكنّها حتمًا لن تفكّر فيّ.

في أحد أيّام شهر مارس، ذكرت ماندي عرَضًا، أنّ برادلي ستيوارت يسأل عنّي. كان برادلي ستيوارت ابن عمّ غريغزي. وكان يملك سيّارة أسترا. غمرني سرور يثير الشفقة لأنّه كان أكثر الشبّان وسامة في تلك الشلّة البغيضة.

قلت لها، من دون أن أرفع نظري عن الرقعة التي كنت أنزعها عن زجاجة المياه الغازيّة: «هكذا إذًا؟» كان المهمّ أن أتصرّف بصورة صحيحة: فإذا أظهرتُ اهتمامًا أكثر ممّا ينبغي، ستستغلّ ماندي أيّ كلمة أتفوّه بها لإلحاق الخزي بي لاحقًا. أضفت:

– أعتقد أنّ الشابّ لا بأس به.

– سأجمعكما سويًّا إذًا، قالت مبتهجة.

استشاطت كلير غضبًا، وكانت حينذاك بينها وبين ماندي خصومة. أدركت أنّ هذه الفرصة لم تكن لتسنح لي لولا وجود خصومة بين الفتاتين.

لم أخرج مع برادلي في موعد منفرد، لم يكن أحد يخرج في موعد منفرد تلك الأيّام. كنّا نلتقي في شارع المشاة خارج حانة بليكان، مع المراهقين الآخرين الذين يتردّدون إلى ذلك المكان لتناول المشروبات. كنّا نتناول المشروبات ونحاول أن نبدو أذكياء ومرحين. لا أدري كيف أقنعني برادلي، بشعره الأسود وحذائه الرياضي الأسود وعينيه الثاقبتين، بمرافقته إلى مرأب سيّارات متعدّد الطبقات في شارع لندن، «لشرب كأس». دفعني إلى الجدار وبدأ يقبّلني. وضع يده على قميصي، فسمحت له رغم خشونته وعصبيّته. وضع يده داخل بنطالي الجينز فسمحت له. لم أكن أرغب في ذلك، ولكن لم تكن لدي أيّ تجربة سابقة مع الشبّان، وشعرت بأنّ فرصة كهذه لن تسنح لي ثانية في وقت قريب. حاول ممارسة الجنس معي فرفضت. ثمّ وافقته على علاقة سطحيّة مرتبكة. لم أستمتع بها، لكنّه كان راضيًا، وكان ذلك كافيًا بالنسبة إليّ.

لم يعاود الاتّصال بي. سحقني الألم. ظللت أحدّق في هاتف والدَيّ أيّامًا، واستسلمت في النهاية، حاولت الاتّصال به عندما فقدت القدرة على التحمّل. لم يردّ. ركبت الحافلة وذهبت إلى منزله، قرب ستراود. سرت أمام باب منزله ثلاث مرّات خلال نصف ساعة، غارقة في مياه المطر، يملأني الأمل ويعذّبني اليأس.

قالت لي ماندي ناصحة:

– كان عليك أن تمارسي الجنس معه. فقد ظنّ أنّك مرتبطة بشخص آخر، أو أنّك باردة جنسيًّا.

ضحكت كلير التي كانت استعادت حظوتها لدى ماندي.

شعرت بأنّ الشعور الضئيل باحترام الذات الذي كنت أتمسّك به مُذ استدرجني برادلي إلى المرأب، بدأ يتلاشى بعيدًا. طلبتُ من ماندي أن تخبره بأنّني مستعدّة لتلبية رغباته، كانت تلك كلماتها، وهكذا اتّصل بي.

أصبحنا ثنائيًا نوعًا ما. أقنعت نفسي بأنّ ما يحصل كان حبًّا، ولم أكن أتصوّر أنّني أستحقّ شخصًا أفضل منه. بل إنّني لم أكن أرغب في شخص أفضل منه: أصبحت فردًا ضمن شلّة؛ صرت أنتمي إلى مكان ما، على قدم المساواة مع ماندي، ولم أكن في وارد التراجع عن كلّ ذلك.

غالبًا ما كان برادلي يخبرني عن الفتيات اللواتي كان معجبًا بهنّ، وكنت أشعر بقلبي المراهق يكاد يتجمّد رعبًا. كانت تمضي أيّام من دون أن يتّصل بي، ولم يكن يرافقني إلى موقف الحافلات، ويصرّ أغلب الأحيان على الدخول وحده نادي مالتينغز، وهو ناد يرتاده الباحثون عن علاقات جنسيّة عابرة، ليتصرّف «على طبيعته». وقد اتّخذ هذا القرار أكثر من مرّة ونحن نقف منتظرين دورنا للدخول، وهو يعلم أنّه ليس هناك من مكان أذهب إليه سوى منزله. ويوم نجحت في امتحان قيادة السيّارة، لم يهنّئني. بل اقترح فحسب أن أقود السيّارة إلى منزله لممارسة الجنس.

– يبدو أنّه رجل من الطراز الرفيع، لاحظ إيدي.

هززت كتفي من دون اكتراث.

ألقى عليّ نظرة خاطفة، وتذكّرت الصباح الأوّل الذي أمضيناه سويًّا، عندما جلس أحدنا في مواجهة الآخر إلى طاولة الفطور. أنا وهو ورائحة الخبز والأمل. ثم أشاح بنظره كأنّه لا يتحمّل النظر إليّ. قال بهدوء:

– هل لديك مانع من الانتقال إلى الحديث عن الموضوع الذي نحن في صدده. أتفهّم السبب الذي يدعوك إلى رواية كلّ هذه القصة. ولكن، أنا أريد أن أعرف.

– آسفة، طبعًا لا أمانع.

قاومت مشاعر الرعب التي بدأت تتصاعد داخلي. مضت سنوات مذ تكلّمت عمّا حدث ذلك اليوم.

– أنا... لماذا لا نذهب لنتمشّى قليلًا؟ الحرّ لا يُطاق، ونحن جالسان هنا من دون أن نتحرّك.

بعد لحظة، وقف إيدي وبدأنا السير. سرنا أمام كوخ حارس الشاطئ ذي اللون الأزرق الباهت، ومن ثمّ وصلنا إلى الممشى الخشبي المتّجه جنوبًا إلى شارع فينسيا. كان راكبو الدرّاجات والزلّاجات يمرّون بنا بسرعة؛ والنوارس تحوم فوقنا. أمّا سحابة الصباح فقد تبخّرت وغدا الحرّ خانقًا.

كان ذلك في فصل الصيف، بعد ظهر أحد أيّام الإثنين في شهر يونيو. ذهب والداي إلى مدينة تشيلتنهام لسبب ما، وتركاني في المنزل لكي أرعى هانا بعد عودتها من المدرسة. دعت هانا أليكس للمجيء. بعد مضيّ ساعة، تظاهرت الفتاتان خلالهما أنّهما تكتبان واجباتهما المدرسيّة، قالتا أنّ الملل يكاد يقتلهما، وطلبتا منّي أن أصحبهما في السيّارة إلى ستراود لتناول وجبة من مطعم

بيرغر ستار. رفضت في البداية. ثمّ توصّلنا إلى حلّ وسط بأن نتناول بعض الحلوى في ممرّ برود رايد. كانتا قد أنشأتا مخبأ لهما هناك قبل بضع سنوات، حين كان بناء مخبّأ والعناية به طريقة مألوفة لتمضية النهار. أمّا في تلك اللحظة، التي كانتا فيها قد تجاوزتا هذا النوع من التسلية، فقد أصبحتا ترغبان في الذهاب إلى هناك لسماع الموسيقى وقراءة المجلّات.

جلستُ على بساط قربهما أقرأ كتابًا مدرسيًّا. لم يكن يعنيني حديثهما الهامس حول أحد الصبيان في صفّهما، لكنّهما كانتا في الثانية عشرة، ولم أدعهما تغيبان عن نظري. كانت هانا تحبّ التباهي إلى درجة لا تسمح لها بأن تكون مسؤولة عن سلامتها. لم تكن تدرك مكر الحياة؛ نتائج التظاهر بالشجاعة في سنّ الثانية عشرة.

كان يومًا دافئًا، وكانت السحب تعبر السماء. غمرتني السكينة، بقدر ما كان في إمكاني الإحساس بذلك الشعور آنذاك، إلى أن سمعت صوت سيّارة يصدر من داخلها ضجيج موسيقى صاخب. نظرت وشعرت بقلبي يعلو ثمّ يهوي. كان برادلي اتّصل بي سابقًا وطلب منّي الذهاب لاصطحابه في السيّارة. قال أنّ سيّارته تعطّلت وسألني عمّا إذا كان في استطاعتي المجيء لاصطحابه، وإقراضه بعض المال لإصلاحها.

رفضت كلا الطلبين. كنت أرعى فتاتين في الثانية عشرة من العمر؛ إضافة إلى أنّه كان مدينًا لي بسبعين جنيهًا في تلك اللحظة. قال لي، وهو يسير نحوي متمهّلًا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ندر أن رأيتها:

– استعرت سيّارة غريغزي الجديدة، بعد أن فهمت أنّك أضعف من أن تساعديني في ورطتي.
نظر إلى هانا وأليكس باهتمام وسأل: هل كلّ شيء على ما يرام؟

حملقت فيه الفتاتان، ثمّ قالتا:

– مرحبًا.

– منذ متى يقود غريغزي سيّارة كهذه؟ سألتُه. كانت السيّارة من نوع BMW. صحيح أنّها كانت معدّلة لكي تصبح أقوى، كما يحبّ برادلي وغريغزي سياراتهما أن تكون، لكنّها كانت سيّارة BMW.

– ورث مبلغًا من المال.

ونقر على أنفه إشارة إلى توقُّعه حدوث مشاكل.

ظهرت الحماسة على هانا. وسألتْه:

– هل سقطتْ من فوق شاحنة؟

ضحك برادلي وأجاب:

– كلّا، حصل عليها بطريقة قانونيّة.

لم يستطع أن يبقى هادئًا فترة طويلة. فبعد أن جلس عشر دقائق على البساط، اقترح الذهاب «للسباق» بسيّارتينا.

– لا يمكن في وجود الفتاتين معي، أجبته.

وكنت قد رافقته مرة في وقت متأخّر من إحدى الليالي في سباق ضد غريغزي، جيئة وذهابًا على طريق إيبلي الجانبي. كانت تلك الدقائق العشرون من الأوقات التي شعرت فيها بأقصى درجات الخوف في حياتي. وعندما انتهى السباق في موقف سيّارات سانزبري الجديد، كان رأسي متدلّيًا على صدري، ثمّ أجهشت بالبكاء. ضحك الجميع عليّ، وشاركتْهم ماندي، رغم أنّها لم تكن أقلّ خوفًا منّي.

لكنّ الفكرة بدت رائعة في نظر هانا وأليكس، اللتين كانتا تتأرجحان على العتبة المتذبذبة لسنّ المراهقة. قالت الفتاتان: «فلنذهب للسباق»، وكأنّ والدي أعطاني سيّارة رياضيّة، لا سيّارة عتيقة بحالة مزرية عفّى عليها الزمن.

ألحّت هانا وأليكس كثيرًا، ثمّ انضمّ إليهما برادلي، قائلًا لي أن الطريق ليس سريعًا. إنه مجرّد شارع صغير لا يؤدّي إلى مكان. شرعت أليكس تلوّح بشعرها الأشقر فوق كتفيها وهانا تقلّدها، رغم أنّها لم تكن مقنِعة بقدرها.

لم تكن الحاجة إلى حماية هانا قد تضاءلت مع السنين. بل إنّها تفاقمت مع وصولها إلى مرحلة التحوّل من طفلة متهورة إلى فتاة متبجّحة. هكذا، رفضتُ عرض برادلي مرّة تلو أخرى. ازداد نزق برادلي؛ وازداد توتّري. لم يكن كلانا معتادًا اتّخاذي موقفًا رافضًا.

فجأةً، فقدتُ السيطرة على الموقف. ركضت هانا وهي تضحك، وفتحت باب سيّارة برادلي وجلست في المقعد المجاور لمقعد السائق. ركض برادلي نحو باب السائق بسرعة البرق. بدأت أناديهما وأنا أصرخ، ولكن لم يسمعني أحد منهما لأنّ السيّارة التي استعارها برادلي كانت ثنائيّة العادم وكان هو قد أدار المحرّك. انطلق كالسهم في اتّجاه فرامبتون، وغارت معدتي من مكانها.

– هانا! صرخت، ثمّ ركضت في اتّجاه سيّارتي وخلفي أليكس.

– تبًّا! قالت بهمس. بدت معجبة بما حصل وخائفة. قالت: لقد اختفيا عن الأنظار.

ثبّتُّ حولها الحزام. قلت لها يجب ألّا تتفوّه بالشتائم. تلوت الصلوات. وهكذا انطلقنا، قلت عندما توقّفنا قليلًا على الممرّ الخشبي.

أشاح إيدي بوجهه عنّي، ونظر ساهمًا إلى البحر، وهو يضع يديه في جيبيه.

– يوم التقينا، قلت له، كنتَ جالسًا في مرج القرية لأنّك كنت آتيًا من برود رايد، أليس كذلك؟ كنتَ هناك للسبب ذاته الذي دفعني إلى المجيء إلى هناك.

أومأ برأسه بالإيجاب. قال بصوت متوتّر، مشدود بإحكام كي لا ينهار:

– كانت تلك المرّة الأولى التي جئت فيها في الذكرى السنويّة لوفاتها. في العادة، كنت أمضي هذا اليوم مع والدتي، تجلس لتتصفّح ألبومات الصور وتبكي. ولكن، في ذلك النهار بالتحديد، لم أستطع تمضية اليوم معها. رغبت في أن أكون هناك، في ضوء الشمس، لأستعيد ذكريات حلوة عن شقيقتي الصغيرة.

أنا. أنا من فعلت ذلك. أنا وضعفي، وحماقتي الرهيبة.

– أنا أتمشّى في ذلك الطريق كلّ عام في الثاني من يونيو. وددت لو أضمّه، لو أخفّف ألمه بطريقة أو بأخرى. أذهب إلى هناك، بدل الذهاب عبر الطريق الرئيسي، لأنّ برود رايد كان مملكتهما في ذلك اليوم. حملتا معهما طلاء أظافر ومجلّات، لم تحملا أيّ همّ من هموم العالم. هذا ما أعود إلى إنجلترا لأتذكّره.

ألقى عليّ نظرة سريعة، وسألني:

– ما اسم المجلّات؟ هل تتذكّرين؟ ما اسم طلاء الأظافر؟ ماذا تناولتا؟

– مجلّة ميز، أجبت بهدوء. بالطبع أتذكّر. فلم تفارق أحداث ذلك اليوم تفكيري طوال حياتي كامرأة راشدة.

استعارتا منّي طلاء أظافر، كنت قد حصلت عليه مجّانًا مع إحدى المجلّات؛ اسمه «شوغار بليس». تناولنا شطائر نقانق من صنع ليندا مكارتني، لأنّهما كانتا تأكلان الطعام النباتي، ورقائق الجبن والبصل وعلبة كبيرة من سلطة الفواكه. غير أن أليكس تناولت بعض الحلوى خلسة.

ما زلت أتذكّر أحداث ذلك اليوم كأنّها حصلت أمس؛ الدبابير وهي تحوم فوق الفواكه، نظّارة هانا الجديدة، تدرّجات لون العشب الأخضر.

– تناولتْ نقانق سكيتلز، قال إيدي. أراهن على أنّها طلبت نقانق سكيتلز. كانت وجبتها المفضّلة.

قلت وأنا أتفادى النظر إليه:

– صحيح. طلبت نقانق سكيتلز.

أدركتهما على الطريق الرئيسي. كان برادلي يحاول الانعطاف نحو اليمين، في اتّجاه ستراود، لكنّ رتلًا من السيّارات العالقة خلف جرّار زراعي اعترض طريقه.

قلت لنفسي «حافظي على هدوء أعصابك»، غادرتُ السيّارة وركضت نحو باب الراكب الأمامي. «أخرجي أليكس من السيارة واعتبري الموضوع مجرّد مزحة. سوف يتخطّاه...»

لمحني برادلي، فانعطف بسرعة إلى اليسار والمحرّك يهدر. ركضت عائدة إلى سيّارتي.

– في إمكانك أن تسرعي إذا شئت، قالت أليكس. كانت سيّارة برادلي قد توارت عن الأنظار تقريبًا. في إمكانك أن تفاجئيه وتربكيه. لا يهمّني.

– كلّا، فهو سيبطئ سرعته وينتظرني لكي يسابقني. أنا أعرفه جيّدًا.

كنت أسمع دقّات قلبي تقرع كالطبول داخل أذنيّ. رجوت الله ألّا يحدث مكروه لشقيقتي الصغرى. نظرت إلى عدّاد السرعة. خمسة وثمانين كيلومترًا في الساعة. أبطأت السرعة، ثمّ عدت أسرع. لم أعد أحتمل.

أدارت أليكس جهاز الستيريو. تعالى صوت أفراد فرقة هانسون، وهي مجموعة من الشبان الأميركيّين، يؤدّون أغنية سخيفة من النوع الذي يعلق في البال إلى درجة الملل. ما زلت بعد تسع عشرة سنة لا أستطيع سماعها.

بعد فترة قصيرة مرعبة، رأيت برادلي يسابق الريح في اتّجاهنا في الجانب الآخر من الطريق بسرعة مئة كيلومترًا، أو ربّما أكثر. صرخت، وأنا أومض له بإشارات ضوئيّة: «خفّف السرعة». لا بدّ أنّه أدار السيّارة دورة حادّة في الطريق الذي كان يسير فيه.

– استرخي، قالت أليكس. لوّحت بشعرها بعصبيّة. هانا في أمان.

تجاوزَنا برادلي بسرعة البرق مطلقًا بوق سيّارته، ثمّ أدارها، وهي تحدث صوت احتكاك حادّ، في الجانب الذي كنّا فيه من الطريق. قالت أليكس بدهشة:

– انعطافة بالمكبح اليدوي.

أبطأت سرعة السيّارة حتّى كدت أتوقّف، كنت أراقبه في المرآة. حبست أنفاسي حتّى صوّب اتّجاهه وأصبح خلفنا. رأيتها هناك، في المقعد الأمامي، رأسها أخفض من رأسه. إنّها طفلة صغيرة يا إلهي.

كانت تنظر أمامها مباشرة ساهمة النظرات. لم تكن هانا تجلس في هدوء مماثل إلّا عندما تكون خائفة. سألت أليكس:

– كيف تعرفين الانعطافة بالمكبح اليدوي؟

كنت أقود ببطء وقد أضأتُ أنوار الخطر. «توقَّف أرجوك. أعِدْ لي شقيقتي». فتحت النافذة وأمأت إليه بحدّة صوب حافّة لينتبه.

– أخي أخبرني، فهو في الجامعة، ردّت أليكس.

شعرت لحظة بالغضب لأنّ أخاها – هذا الأحمق – كان يظنّ أنّ تعليم شقيقته الانعطافة بالمكبح اليدوي أمر بارع. خفّف برادلي السرعة قليلًا، ليجعل المحرّك يهدر مسرعًا خلفنا، علا صوت احتكاك بفعل المكابح في اللحظة الأخيرة. شهقت. كرّر الأمر ثانية، وثالثة، ورابعة. حاولت مرّات أن أوقف السيّارة، ولكن عند كلّ محاولة، كان يتجاوزني. هكذا تابعت القيادة كما يشاء هو. لم أكن لأسمح له ثانية بالانطلاق بسرعة البرق وشقيقتي إلى جانبه.

استمرّ برادلي على هذا المنوال إلى أن بدأنا نقترب من بقعة منخفضة في الطريق، لا تبعد كثيرًا من ملتقى الطرق الذي يؤدّي إلى سابرتون ومن الغابات. ولكن في تلك اللحظة، كان في ما يبدو قد شعر بالملل لأنّه لم يُوقف السيّارة عندما سرّعَ محرّك سيّارته خلف سيّارتي؛ بل اصطدم بها. كان الاصطدام خفيفًا لكنّه كان كافيًا لبثّ الذعر في نفسي. فلم يكن مرّ سوى ثلاثة أسابيع من حصولي على رخصة القيادة.

قالت أليكس، التي أصبحت أهدأ من ذي قبل:

– تبًّا!

كانت لا تزال تحاول التظاهر بالحماسة، لكنّ الخوف كان واضحًا على وجهها. فقد كانت أصابعها النحيلة تتشبّث بإحكام بشريط حزام الأمان الرمادي القديم.

هبطنا في المنخفض، كان برادلي في إثري يومض بإشارات ضوئية ويطلق البوق. كان يضحك. ثمّ – ورغم أنّنا كنّا نتجه صوب منعطف غير نافذ – انطلق خارج مساره ليتجاوزني.

كان كلّ شيء يبدو معلّقًا، أشبه بقطرة داخل صنبور، جاهزة لأن تسقط وتتلاشى.

جاءت سيّارة من الجانب الآخر من المنعطف، تمامًا كما كنت أتوقّع.

كان برادلي يسير جانبي. ولم يكن هناك مناص من اصطدامهما.

شقيقتي. هانا.

في تلك اللحظة، استلمتْ منظومةُ الاستجابة للطوارئ في داخلي زمامَ الأمور، هذا ما قلته لرجال الشرطة في ما بعد. أدركت ذلك لأنّ ما حدث لاحقًا لم يكن تصرّفًا اختياريًّا؛ بل حدَثَ من تلقاء نفسه. أصدر دماغي أمرًا إلى ذراعيّ لتنحرفا بالسيّارة في اتجاه اليسار، وانحرفت السيّارة.

عندما علّمني والدي قيادة السيّارة، قال لي إذا فقدتِ السيطرة على السيّارة، إياك والتوجّه نحو شجرة. اتّجهي نحو جدار أو نحو سور. لأنّهما سوف يفسحا المجال. لكنّ الشجرة لن تفسح المجال أبدًا.

لم تفسح الشجرة المجال عندما اصطدم بها مقدّم السيّارة الأيمن، حيث كانت تجلس أليكس والاس الصغيرة الجميلة بشعرها الأشقر المنكوش والطلاء الذي يلطّخ أظافرها، ومعها شطيرة نقانق سكيتلز.

لم تفسح الشجرة المجال، بل استسلمت أليكس.

أجبرت نفسي على النظر إلى إيدي، لكنّه كان يشيح بوجهه عنّي وينظر إلى البحر. انسابت على خدّه ببطء دمعة لامعة مسحها بسرعة، وهو يقرص أرنبة أنفه. بعد ثوانٍ، ترك يده تنزل وتساقطت دموعه معها. وقف هناك يبكي، ذلك الرجل الضخم الطيّب. عاودني ثانية شعور الاشمئزاز من نفسي، بصورة أقوى من الماضي. عاودتني الرغبة اليائسة في القيام بشيء ما،

بتغيير شيء ما، وعاودني الإحساس بالقنوط لعجزي عن القيام بأي شيء. مضى الزمن مخلِّفًا أليكس وراءه، تاركًا إيدي مدمّرًا، وشقيقتي عاجزة عن مسامحتي.

قال إيدي في النهاية:

– أمضيت سنوات أتساءل ماذا يمكن أن أفعل لو قابلتك يومًا؟

مسح عينيه بذراعه واستدار ليواجهني. أضاف: كرهتكِ. لم أستطع أن أصدّق أنّ ذلك الحثالة أودع السجن وظللت أنت حرّة طليقة.

أومأت برأسي، لأنّني كرهت نفسي أيضًا. قلت، وأنا أدرك عبث كلماتي:

– سألت رجال الشرطة لماذا لم يعاقبوني، فكانوا يجيبون دائمًا بأنّني لم أفعل ما يخالف القانون. لم أكن أقود السيّارة بتهوّر.

قال إيدي بصوت خالٍ من أيّ تعبير:

– أذكر ذلك. كان على الموظّف المكلّف الاتّصال بنا شرح هذه الفكرة لنا. لكنّ ذلك لم يُقنع والدتي.

أغمضتُ عينَيّ، لأنّني كنت أعرف ما سيقول.

– كلّ ما أعرفه هو أنّك اخترت إنقاذ شقيقتك، والنتيجة أنّ شقيقتي ماتت.

لففت ذراعَيّ حول جسمي. قلت هامسة:

– لم يكن ذلك خيارًا اتّخذته. خنقتني العبرات. إيدي. لم يكن ذلك خيارًا اتّخذته في كامل وعيي.

– ربّما. لكنّ هذا ما حصل، قال متنهّدًا.

جاء رجال الشرطة إلى مكان الحادث. قالوا أنّ سيّارة BMW كانت مسروقة.

لماذا صدّقت ما أخبرني به برادلي؟ لماذا أصغيت لأيّ شيء قاله؟ غمرني شعور مقزّز بالرعب عندما تذكّرت كلّ ما منحتُه إيّاه. عذريّتي. عواطفي. احترامي لذاتي. وفي النهاية، حياة طفلة صغيرة. صديقة شقيقتي الحميمة.

قال أحد الشهود أنّه رأى السائق يعدو في الحقول، بعيدًا من مكان الحادث. من كان ذلك الرجل؟ سألني والدي، مرتبكًا:

– من كان ذلك الرجل؟

كان يجلس قرب سريري ممسكًا يدي. وكانت والدتي تجلس في الجهة المقابلة، درعًا بشريًّا يحول بين رجال الشرطة وابنتها.

– صديقي برادلي.

– من؟! بدا والدي في حيرة كبيرة. لديك صديق؟ منذ متى؟ ولماذا لم تخبرينا؟

أدرت رأسي ودفنته في الوسادة وبكيت، لأنّه بدا واضحًا آنذاك. بدا واضحًا جدًّا أنّ برادلي كان وضيعًا – كان منذ البداية وضيعًا – واضحًا إلى درجة أنّني كنت أعي ذلك في أعماقي، تحت تلك الطبقات السميكة من قلق المراهقة.

ربّما كان ما فعلته قد أنقذ شقيقتي الصغرى من الموت، لكنّه لم ينقذها من الأذى. كان برادلي قد انحرف بالسيّارة إلى الحيّز الذي تركته أنا، فضربت سيّارته المسروقة ظهر سيارتي بالجانب الذي كانت تجلس فيه هانا. أجريت لها عمليّتان جراحيّتان خلال يومين. كانت في الجناح الذي يعلو جناحي، مصابة بارتجاج وبجروح بالغة، صامتة أوّل مرّة في حياتها.

أعطيت رجال الشرطة اسم برادلي، لكنّهم لم يتمكّنوا من العثور عليه. قلت لهم:

– حاولوا تفتيش منزل غريغزي.

قُبض عليه في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم.

بعد أن سُمح لي بمغادرة سريري مكثتُ قرب سرير هانا كلّ يوم مدّة أسبوعين إلى أن سُمح لها بمغادرة المستشفى. لم أذهب إلى المدرسة خلال تلك الفترة؛ ونادرًا ما كنت أذهب إلى المنزل. لم يعلق في ذاكرتي شيء سوى الأصوات الهادئة الصادرة من الآلات والهمهمة في جناح الأطفال الذي يعجّ بالمرضى، والخوف الذي تملّكني عندما صدر صوت غريب من إحدى الآلات الموصولة في جسم هانا، والشعور بالذنب الذي كان كالنار المشتعلة داخل صدري. كانت تمضي معظم الوقت نائمة؛ أحيانًا، كانت تصرخ قائلة أنّها تكرهني.

أصرّ رجال الشرطة على عدم وجود أيّ تهمة يمكن أن توجَّه إليّ، رغم إصرار أسرة أليكس المستميت على معاقبتي. تفاقم شعوري بالذنب. شهدتُ ضدّ برادلي في محكمة غلوسترشير وتعرّضت للتأنيب لأنّني رجوت القاضي أن يحاكمني أيضًا.

لم أكن أعرف أسرة أليكس. فقد كان والداي يصطحبانها معظم الوقت من وإلى منزلها أيّام العطل، والسبب – كما قالت والدتي – أنّ والدة أليكس كانت تعيش معاناة أحيانًا. أصيبت الأمّ منذ الحادثة بانهيار نفسي كامل، كما ذُكر في المحكمة. كأنّه لم يكفِها أن تربّي وحدها ولديها مُذ كانت أليكس صغيرة، فاضطرّ ابنها إلى ترك جامعته للاعتناء بها. لم يحضر أيٌّ منهما المحاكمة.

خلال سير المحاكمة، نظرت إلى أحد أعضاء لجنة المحلّفين. كان امرأة في سنّ والدتي تقريبًا، أي كان في إمكانها أن تتخيّل معنى فقدان طفل. نظرت إليّ مباشرة، وكان تعبير وجهها يقول: ما حصل خطأك أنت أيضًا، أيّتها الحقيرة الصغيرة. هذا خطأك أيضًا.

تمكّنت كارول والاس من الاتّصال بنا هاتفيًّا ثلاث مرّات قبل أن تكتشف الممرّضات في المصحّ النفسي أنّها لم تكن تتّصل بابنها. لم يعد يُسمح لها باستخدام الهاتف بعد ذلك. قالت لوالدي ذات يوم أنّني قاتلة، وقالتها مرّتين عبر المجيب الآلي. لم يعد الجيران يوجّهون دعوات العشاء إلى

والدَيّ، ولم يعودوا يبادلونهما الحديث إذا صادفوهما في الطريق. لم يلقوا باللوم عليّ، لا أعتقد ذلك؛ كلّ ما في الأمر أنّهم لم يعرفوا ما يمكن أن يقولوا لأيّ منّا. قال والدي: أحيانًا، قد يكون الفيل أكبر من أن تتّسع له الغرفة.

لم تعد هانا تقبل الجلوس إلى المائدة في وجودي. كان الناس يحدّقون في والدَيّ في مركز التسوّق. وظلّت صورة أليكس تشغل صفحات الصحف المحلّيّة وقتًا طويلًا. عدت إلى المدرسة، ولكن خلال ساعات أدركت أنّ أمري انتهى هناك. كان الجميع حولي يتهامسون. قالت كلير أنّه ينبغي إيداعي السجن بتهمة القتل غير المتعمّد. أمّا ماندي فقد قاطعتني تمامًا لأنّني أرسلت رجال الشرطة للقبض على ابن عمّ غريغزي. بل إنّ هناك مدرّسين كانوا يتفادون النظر في عينيّ.

في إحدى الليالي، جلس والداي معي وأخبراني بأنّهما عرضا المنزل للبيع. سألاني عن رأيي في الانتقال إلى ليسترشير. كانت والدتي نشأت فيها، فقالت:

– ألا تظنّين أنّ انطلاقة جديدة يمكن أن تفيدنا جميعًا؟ كان القلق والإرهاق باديين بوضوح على وجهها. أضافت: أنا واثقة في أنّنا سنتمكّن من إيجاد مكان لائق لك لمتابعة دراستك.

كانت والدتي مدرّسة. وكانت تعرف جيّدًا أنّ الأمر كان مستحيلًا. في تلك اللحظة أدركت مدى اليأس الذي كانت تشعر به.

صعدت إلى غرفتي في الطابق العلوي واتّصلت بتومي. في اليوم التالي، سافرت إلى لوس أنجلوس.

سافرت كي تتمكّن أسرة أليكس من أن تعيش أحزانها بسلام، من دون أن تضطرّ إلى رؤيتي مصادفة في مكان ما. سافرت كي لا يضطرّ والداي إلى الانتقال كلّ تلك المسافة الطويلة لتتاح لهما فرصة البدء من جديد من دون أن يخيّم على حياتهما الظلّ الهائل لابنتهما الذي يجثم فوق كلّ شيء. سافرت لأجد ملاذًا في مكان لا يعرف فيه أحد ما فعلت، مكان لا أكون فيه «تلك الفتاة».

لكنّ الأهمّ من كلّ ذلك هو أنّني سافرت إلى لوس أنجلوس كي أصبح المرأة التي تمنّيت أن أكونها يوم قابلت برادلي. قويّة وواثقة في نفسي، لا أخشى أحدًا. امرأة لا تخاف أبدًا، أبدًا، أن تقول «لا».

أصبحنا قريبين من شارع فينسيا، كان الممرّ الخشبي يمتدّ وسط متاجر وأكشاك تبيع هدايا زهيدة الثمن ومحالّ رسم الوشوم بالحنّة. كان صوت الموسيقى يضجّ عبر مكبّر صوت في مكان ما؛ وتحت أشجار النخيل استلقى أشخاص مشرّدين غارقين في النوم. أعطيت رجلًا يحمل حقيبة ظهر مليئة بالرقع بعض الدولارات. كان إيدي ينظر إليّ ووجهه لا يحمل أيّ تعبير. قال:

– أريد أن أجلس. أريد أن أتناول شيئًا.

جلسنا خارج حانة، حيث أصبحنا عرضة لنظرات امرأة مجنونة تحمل ببّغاء وعازف أكورديون متجوّل. لم يجب إيدي عن أيّ من أسئلة المرأة المجنونة، واكتفى بالتحديق بنظرات جوفاء في الشحّاذ الذي يعزف الأكورديون وهو يترنّح حولنا. قلت له:

– في إمكاني أن آخذك إلى جادّة آبوت كيني إذا شئت. فهي قريبة وأكثر أناقة وترفًا إذا كانت هذه الحانة لا تعجبك.

كان روبن يحبّ جادّة آبوت كيني.

– كلّا، شكرًا. بدا في وهلة أنّه على وشك الابتسام. سألني: ومتى كنت أنا مولعًا بالترف؟

هززت كتفي، وقد شعرت فجأةً بالحرج. قلت:

– لم تتح لي فرصة لأعرف.

رمقني بنظرة جانبيّة، رأيت دفئًا كامنًا في مكان ما. قال:

– أعتقد أنّنا نعرف بعضنا بعضًا إلى درجة كافية.

قلت له في سرّي أنا أحبّك. إيدي، أنا أحبّك ولا أدري ما أفعل.

وصلت الحلوى التي طلبها. تخيّلت حياتي المقبلة مرتسمة أمامي من دون إيدي، وشعرت بدوار من شدّة الفزع. ثمّ تخيّلته، قبل سنوات، يتصوّر حياته المقبلة مرتسمة أمامه من دون شقيقته.

تناول الحلوى بصمت.

– أنشأتُ جمعيّتي الخيريّة إكرامًا لأليكس.

– خطر لي ذلك.

قلت وأنا أعبث بقطعة جلد جافّة قرب ظفري:

– إكرامًا لأليكس وهانا. هانا لديها أطفال حاليًّا. رأيت صورهم. كنت أرسل إليهم الهدايا في أعياد ميلادهم، لكنّها بعثت لي برسالة عن طريق والدَيّ تطلب منّي الامتناع عن ذلك. أحزن ذلك والدَيّ كثيرًا. بذلا ما في وسعهما لمصالحتنا. كانا يعتقدان أنّها ستعود إلى رشدها في نهاية المطاف. ربّما حصل ذلك لو أنّني بقيت في إنجلترا... لا أعرف. كانت طفلة عنيدة. وأعتقد أنّها أصبحت امرأة عنيدة.

كان إيدي ينظر إلى الشاطئ. قال:

– عليك ألّا تستهيني بتأثير والدتي فيها. فهي لم تتوقّف عن كراهيتك. أحيانًا، كانت هذه الكراهية هي الشيء الوحيد الذي يساعدها في تجاوز محنتها.

حاولت ألّا أتخيّل منزل والدة إيدي، بجدرانه التي ما زالت تحمل آثار الغضب القديم، مثل بقع النيكوتين. حاولت ألّا أتخيّل شقيقتي هناك مع كارول والاس؛ الكلمات التي كانتا تتفوّهان بها؛ فناجين الشاي التي كانتا تشربانها. والغريب أنّ تلك الصورة كانت تثير في نفسي نوعًا من الراحة

أيضًا. راحة مبعثها احتمال أن يكون رفض شقيقتي المطلق لي قد حصل بسبب تحريض شخص آخر. التفتُّ نحوه وسألته:

– هل تعتقد أنّ ذلك كان له دور؟ كان شعوري باليأس واضحًا. هل تعتقد أنّ والدتك كانت تحرّضها ضدّي طوال تلك السنوات؟

هزّ إيدي كتفيه. قال:

– أنا لا أعرف شقيقتك معرفة جيّدة. لكنّني أعرف والدتي. ربّما كان ردّ فعلي نحوك مختلفًا لو أنّني لم أكن أسمع ما كانت والدتي تقوله طوال تسع عشرة سنة.

بدا أنّه كان يهمّ بإضافة شيء ما، لكنّه صمت.

– ظللت منذ ذلك الحادث، أقاوم الاقتراب من الأطفال. رفضت أيّ عمل ينطوي على رعاية أطفال، رفضت مجالسة الأطفال، وكنت أذهب مع روبن في زيارات إلى أجنحة المستشفيات عندما لا يكون لديّ خيار آخر فقط. صمتُّ قليلًا، ثمّ أضفت:

– حتّى أنّني رفضت إنجاب طفل منه. جعلني ألجأ إلى العلاج النفسي، لكنّ ذلك لم يغيّر رأيي. عندما كنت أرى طفلًا، أيّ طفل، كنت أرى فيه شقيقتك. بالتالي، أبتعد تمامًا. كان ذلك الحلّ الأسهل بالنسبة إليّ.

تناول إيدي آخر قطعة من كعكته، وأسند جبهته إلى يده. وأسرّ لي:

– كنت أتمنّى لو أنّك استخدمت اسم عائلتك عندما التقينا. تمنّيت لو أنّك قلت: أنا سارة هارنغتون.

اقتلعتُ قطعة الجلد الجافّ لتخلّف وراءها شريطًا زهريًّا واخزًا. وأجبته:

– لن أستخدم اسم هارنغتون، حتّى بعد الطلاق. لا أريد أن أكون سارة هارنغتون ثانية.

كان إيدي يسحق آخر فتات الحلوى بإصبعه ليرفعها من الطبق. ردّ قائلًا:

– كان من شأن ذلك أن يوفّر علينا الكثير من الألم.

أومأت برأسي موافقة.

– كان والداك ينويان الانتقال إلى ليسترشير. فقد كانت هناك لافتة كتب عليها «للبيع» معلّقة في نهاية شارعكم طوال أسابيع.

– أعرف. لكنّني سافرت إلى لوس أنجلوس، وكنت أنا المشكلة. فشلت المفاوضات مع المشتري وقرّرا البقاء. وأعتقد أنّه بدا واضحًا آنذاك أنّني لن أعود.

ساد صمت طويل. عندما ثقلت وطأة الصمت، سألته:

– هل لي أن أسألك لماذا تطلق على نفسك اسم إيدي ديفيد؟ اسمك بالطبع هو إيدي والاس.

– ديفيد هو اسمي الثاني. بدأت استخدامه بعد الحادثة. فقد ظلّ كلّ الناس فترة طويلة، يتعرّفون إلى اسمي، ومن ثمّ يبدأ... لا أدري... نوع من التعاطف الخانق، عندما يدرك الناس من أكون. بالتالي، كان من الأسهل أن أصبح إيدي ديفيد. لا أحد يعرفه. كما أنّه لا يوجد من يعرف سارة ماكيه.

بعد هنيهة، استدار ونظر إليّ، ثمّ حوّل نظره عنّي، كالمياه التي تعود مسرعة إلى البحر. قال:

– كنت سأضحّي بأيّ شيء كي أكتشف هويّتك قبل فوات الأوان. لا أكاد أصدّق أنّنا لم نستشعر الصلة. هرش رأسه، وأضاف: هل تعلمين أنّهم أطلقوا سراحه بعد خمس سنوات؟

– وسمعت أنّه انتقل إلى بورتسماوث، قلت وقد أومأت برأسي.

لم يقل إيدي شيئًا.

– كانت صفحتي في فيسبوك، أليس كذلك؟ قرأتَ رسالة من تومي دعاني فيها باسم هارنغتون.

– دخلت الصفحة بعد عشرين ثانية تقريبًا من خروجك من المنزل. خلال الدقيقتين اللتين مضتا قبل أن أستوعب الصدمة، مرّ في ذهني خاطر واحد. «مستحيل. لا يمكن. تظاهر بأنّك لم تر الرسالة. دع الأمر يمرّ، لأنّه لا يمكنك ألا تكون معها. ورغم أنّ مدّة علاقتنا لم تتجاوز الأسبوع، إلا أنكِ أصبحتِ...» احمرّ وجهه، ثمّ أنهى كلامه: «أصبحتِ كلّ شيء». هذا ما دار في ذهني.

جلسنا صامتين فترة طويلة. كانت دقّات قلبي تتسارع. وكانت وجنتا إيدي محمرّتين قليلًا.

بعد ذلك، روى لي مأساة والدته، حالة الاكتئاب التي كانت تعانيها، والتي تفاقمت إثر موت أليكس، ثمّ تدهورت وأصبحت وضعًا نفسيًّا معقّدًا لم تشف منه. أخبرني بأنّها انتقلت إلى سابرتون عندما اجتازت أسوأ مراحل المرض، لأنّها كانت تريد أن تكون «أقرب» إلى ابنتها المتوفّاة. تخلّى إيدي عن أحلامه في العودة إلى الجامعة بعد أن أدرك أنّ والدته أضعف من أن تواصل الحياة في مفردها، وانتقل ليعيش معها فترة. أقنع فرانك، المزارع صاحب الخراف، بأن يؤجّره زريبة بقر متداعية تقع عند حافّة غابة سيكاريدج، وحوّلها تدريجيًا إلى ورشة، ومن ثمّ منزلًا خاصًّا به، عندما أصبحت والدته قادرة على العيش في مفردها.

– موّل والدي مشروع المنزل. بعد أن هجرنا، أصبح المال بالنسبة إليه يمثل الحلّ لكلّ شيء. لم يستطع حمل نفسه على الاتّصال بنا بعد انتهاء مراسم جنازة أليكس، أو على المجيء لزيارتنا. كان يكتفي بإرسال المال. بالتالي، شعرتُ بأنّ لا مشكلة في إنفاقه.

أخبرني كيف أمضى اليوم الذي اكتشف فيه هويّتي. كيف شعر بأنّ الأشجار خارج منزله بدت أنّها ستنهار فوقه عندما عرف أنّني سارة هارنغتون، الفتاة التي قتلت شقيقته. أخبرني كيف ألغى إجازته إلى إسبانيا. كيف أوقف تنفيذ الأعمال المكلّف بها. وكيف ذهب ذات يوم ليتفقّد والدته فوجدها غائبة عن الوعي بفعل الأدوية، وشعوره بالذنب حين جلس يراقبها، وهي نائمة.

– كان الأمر سيبدو كارثيًّا لو أنّها اكتشفت علاقتنا. رغم أنّ العلاقة تبدو كارثيّة وإن لم تدرِ بها. وجدت نفسي عالقًا في وضع صعب. توقّفت عن تصفّح فيسبوك وعن تفقّد بريدي الإلكترونيّ، وعن رؤية أيّ شيء. انعزلت تمامًا. صرت أمشي كثيرًا. أمضيت ساعات في التفكير وفي الحديث مع نفسي. طقطق أصابعه. وتابع:

– إلى أن حضر صديقي آلان ليتحقّق من أنّني ما زلت حيًّا، وأخبرني بأنّك اتّصلت به.

– كان ينبغي أن أردّ على رسالتك، قال متنهّدًا. آسف لأنني لم أردّ. كنت على حقّ. هذه ليست بطريقة للتعامل مع أيّ شخص. بدأت أكتب لك أكثر من مرّة، لكنّني لم أكن أثق في نفسي بما يكفي لأكلّمك.

حاولت ألّا أتخيّل ما يمكن أن يكون قال لي.

– لكنّني أحببت قصّة حياتك. أحببت رسائلك. كنت أتشوّق إليها عندما تتأخّر. كنت أقرأها مرارًا.

بلعت ريقي. حاولت ألّا أستخلص أيّ معنى ممّا قال. سألته متردّدة:

– هل اتّصلت بي؟

هزّ رأسه نافيًا.

– هل أنت متأكّد؟ فقد تلقّيت بعض المكالمات الصامتة. كما تلقّيت رسالة تطلب منّي الابتعاد منك.

بدا حائرًا. قال:

– صحيح. لقد أخبرتِني بهذا الأمر أليس كذلك؟ في إحدى الرسائل؟ آسف، لم ألقِ بالًا لهذه القصّة. ظننت أنّها من بنات أفكارك.

جفلتُ. سألني:

– هل تكرّر الأمر؟

– كلّا، ولكن خطر في بالي... اسمع، تساءلت آنذاك عمّا إذا كانت والدتك هي المتّصلة. هل هناك أيّ طريقة يمكنها اكتشاف علاقتنا؟ لقد رأيت امرأة على الممرّ الموازي للقناة بين منزل والدَيّ ومنزلك... وعندما رافقت تومي إلى الاحتفال في المدرسة، رأيت شخصًا يرتدي المعطف ذاته. أعني أنّني لست واثقة في أنّه كان الشخص نفسه، لكنّني متأكّدة إلى حدّ كبير من ذلك. لم يصدر من المرأة أيّ تصرّف غريب، ولكن دهمني شعور في المرّتين بأنّني كنت هدفًا لنظرات شخص ما. وقد تكون نظرات عدائيّة.

كتّف إيدي ذراعيه وقال في هدوء:

– أمر غريب فعلًا. ولكن، لا يمكن «مطلقًا» أن تكون والدتي. ليس لديها أدنى فكرة عنك. في أيّ حال، هي... خفت صوته قليلًا، ثمّ قال: هي عاجزة عن القيام بأمر من هذا النوع. مكالمات صامتة، تتبُّع أشخاص. هذا يتجاوز إمكاناتها. بل إنّ مجرد التفكير في القيام بأمر مماثل، من شأنه أن يسبّب لها ضغطًا نفسيًّا هائلًا. والواقع أنّها قد تنهار.

– هل من شخص آخر يمكن أن يكون المتّصل؟

– لا، ردّ وقد بدا شديد الحيرة. صدّقته. تابع: كان الشخص الوحيد الذي أخبرته هو صديقي آلان وزوجته، جيا. وأيضًا مارتن زميلي في فريق كرة القدم فهو قرأ أيضًا رسالتك في فيسبوك. لكنّني أخبرتهم بالأمر لأنّني أثق في أنّهم سيحفظون السرّ.

انحنى، وقد ارتسمت على وجهه علامات التركيز. لا بدّ أنّه لم يتوصّل إلى شيء، لأنّه هزّ كتفيه بعد دقائق واستوى في وقفته. قال:

– أنا لا أعرف فعلًا، لكنّها لم تكن والدتي. في إمكانك أن تكوني واثقة في ذلك.

– لا مشكلة.

خلعت إحدى فردتي النطّاطات ورفعت قدمي إلى الكرسي الذي كنت أجلس عليه. بدت التعاسة ثانية على إيدي. ضغط بإصبعه على حافّة طبقه فارتفع ليقف على الحافّة كالصحن الطائر. شرع يدير الطبق يمنة ويسرة. سألته بعد لحظة:

– إيدي، لماذا أنت هنا؟ لماذا جئت؟

نظر إليّ وأطال النظر، شعرت بأنّ معدتي صارت في حلقي.

– جئت لأنّك بعثت لي برسالة تقولين فيها أنّك عائدة إلى لوس أنجلوس، شعرت بالذعر. لا شكّ أن الغضب كان ما زال يتملّكني، لكنّني لم أستطع أن أدعك تخرجين من حياتي هكذا، بهذه البساطة. أو أقلّه، ليس قبل أن أتحدّث إليك. أن أسمع وجهة نظرك. كنت أعلم أنّ وجهة نظر والدتي لا يمكن أن تكون الوحيدة حول هذا الموضوع.

– فهمت.

– اشتريت بطاقة سفر وبعثت برسالة إلى صديقي ناتان أسأله عمّا إذا كنت أستطيع المبيت عنده. اتّصلت بخالتي وطلبت منها المجيء للإقامة مع والدتي. والواقع أنّني كنت في تلك الفترة أراقب نفسي كأنّني أراقب شخصًا آخر. كنت أعلم أنّه لا ينبغي لي المجيء، لكنّني لم أستطع منع نفسي. ولم أستطع منعك أيضًا. فقد كنت ركبت الطائرة عندما بعثت لي بالرسالة.

لكنّه عندما وصل إلى لوس أنجلوس، وجد نفسه عاجزًا عن الحركة. جاء ليقابلني ثلاث مرّات؛ وفي المرّات الثلاث دفعه الشعور بالذنب إزاء شقيقته إلى معاودة الهرب ليغيب في زحمة المدينة. غصت في مقعدي. كان مجرّد الحديث معي بمثابة خيانة لذكرى شقيقته.

سألني عندما أشرت طالبة فاتورة الحساب:

– لماذا لم تخبريني عن ماضيك كلّه؟ لقد أخبرتني الكثير عن ماضيك. لماذا لم تتطرّقي قطّ إلى ما حدث؟

سحبت النقود من حافظتي. وأجبته:

– أنا لا أروي للناس ما حدث، هذا كلّ ما في الأمر. كانت صديقتي دجيني هي آخر شخص أخبرته، وكان ذلك قبل سبع عشرة سنة. لو أنّنا... على فرض أنّنا... تنحنحت وتابعت الكلام: لو أنّ علاقتنا استمرّت، كنت لا شكّ سأروي لك ما حدث. والواقع أنّني كنت على وشك أن أروي لك كلّ شيء في الليلة الأخيرة التي أمضيناها سويًّا، لكنّ أمورًا أخرى حالت دون ذلك.

بدا إيدي غارقًا في التفكير. قال:

– على عكسي أنا. فقد كنت معتادًا إخبار الناس بما حدث. كنت أغلب الأحيان مضطرًّا إلى ذلك بسبب تقلّبات مزاج والدتي. ولكن، خلال الأسبوع الذي أمضيته معك، كان شعوري مختلفًا عن أيّ شيء آخر سبق لي أن أحسست به. لم أكن إيدي، ابن كارولين، الرجل الذي فقد شقيقته، والذي كان مضطرًّا إلى تمضية معظم وقته في رعاية والدته. كنت أنا، كنت على سجيّتي. أعاد هاتفه إلى جيبه، وتابع: لأوّل مرّة منذ سنوات، لم أفكّر في الماضي قطّ. إلى ذلك، كانت والدتي برفقة شقيقتها في تلك الفترة، لأنّني كنت أنوي الذهاب إلى إسبانيا، بالتالي، لم أكن مضطرًّا إلى القلق بشأنها. وقف وقد علت وجهه ابتسامة غريبة. وأعلن:

– أما المفارقة المضحكة فهي المرأة التي كنت معها آنذاك.

تركت بعض الدولارات على الطاولة، وسرنا نحو الماء. كانت الأمواج الصغيرة تطوّق أقدامنا بهدوء، ومن ثمّ تتراجع لتغيب في الامتداد الأزرق اللامتناهي للمحيط الهادئ. وكان الأفق يتماوج ويومض بضوء باهت.

دسست يدي في جيبي. أخرجت الفأرة. مرّرت إبهامي عليها مرّة أخيرة قبل أن أقدّمها إلى إيدي على راحة يدي. نظر إليها طويلًا، ثمّ قال:

– لقد صنعتها لأليكس في عيد ميلادها الثاني. كانت هذه الفأرة أوّل تمثال نجحت في حفره على الخشب.

التقطها برفق وقرّبها من وجهه كأنّه يتعرّف إلى شكلها من جديد. تخيّلته يحفر كتلة صغيرة من الخشب، ربّما في مرأب والده، أو على طاولة المطبخ، وشعرت بقلبي ينفطر. صبي صغير مستدير الوجه يحفر فأرة خشبيّة لشقيقته الرضيعة.

– كانت أليكس في طفولتها تظنّ الفأرة قنفذًا، لكنّها آنذاك لم تكن تستطيع لفظ كلمة «قنفذ»، فكانت تقول «قفّذ»، وكان ذلك يضحكني. صرت أناديها قنفذ؛ ولصق فيها هذا الاسم.

أعاد تعليق المفاتيح بالفأرة، ووضعها في جيبه. نفد ما في جعبتي من أساليب تفادي الموضوع. لم تهدأ حركة البحر. صمتنا كلانا.

وقفنا نراقب طيور النورس وزمار الليل وهي تحوم حول العائلات التي كانت تتنزّه، غمرتنا إحدى الموجات بسرعة لم نتمكّن من تفاديها. ابتلّ بنطاله القصير. ابتلّت تنّورتي. غلبنا الضحك، اختلّ توازنه وكاد يقع، شممت رائحته لحظة: رائحة بشرته، شعره النظيف، رائحته هو المميّزة.

قال بعد فترة من الصمت:

– سأعود غدًا إلى إنجلترا. أنا مسرور لأنّنا تبادلنا هذا الحديث، لكنّني لا أعتقد أنّ هناك أيّ شيء آخر يمكننا أن نقوله أو نفعله.

قلت في سرّي يائسةً: كلّا! لا تستطيع إنهاء علاقتنا بهذه البساطة. فهي كامنة هنا. ثمة شيء يربط بيننا. موجود هنا في الهواء الذي يسري بيننا.

لم أتفوّه بكلمة، فالقرار لم يكن قراري. لقد قدت سيّارة تجلس أليكس داخلها وصدمت بها شجرة وتوفّيت أليكس جانبي مباشرة. لن يستطيع الزمن تغيير تلك الحقيقة. لن يستطيع أيّ شيء تغييرها.

أمسك يدَيّ وفتح قبضتَيّ المطبقتين. كانت أظافري المغروزة قد تركت آثارًا بيضاء عميقة بشكل الهلال على راحتَيّ، قال:

– لا يمكننا مطلقًا العودة إلى ما كنّا عليه يوم التقينا أوّل مرّة. مرَّر إبهامه على آثار أظافري مثل أب يدعك ركبة طفلة مجروحة. وأضاف: انتهى الأمر. سارة، أنت تدركين هذه الحقيقة، أليس كذلك؟

أومأت برأسي، وارتسم على وجهي تعبير الموافقة، أو بالأحرى، الرضا. ترك يدَيّ ونظر لحظة إلى البحر. ثمّ، ومن دون مقدّمات، انحنى وقبّلني.

مرّت لحظات قبل أن أستوعب ما كان يحصل. قبل أن أصدّق أنّ وجهه كان فعلًا ملتصقًا بوجهي. فمه، دفئه، أنفاسه، تمامًا كما تخيّلت مئات المرّات قبل تلك اللحظة. لم أتحرّك أبدًا هنيهة. ثمّ بدأت أقبّله وقد غمرتني البهجة. ضمّني بقوة، تمامًا كما ضمّني في المرّة الأولى. راح يقبّلني بشغف، وأنا أبادله القبل بالشغف نفسه. تلاشى وجود النوارس الحائمة وزعيق الأطفال.

ولكن، عندما بدأت أفقد السيطرة على نفسي كلّيًا، وضع ذقنه فوق رأسي. سمعت صوت أنفاسه، سريعة ومضطربة. ثمّ قال:

– وداعًا سارة. اعتنِي بنفسك.

أفلتني من بين ذراعيه ومضى.

نظرت إليه وهو يبتعد. كانت ذراعاي متدلّيتين إلى جانبي. سار مبتعدًا. سار بعيدًا، بعيدًا.

انتظرت إلى أن وصل إلى الممشى الخشبي، عندذاك قلت بصوت عال الكلمات التي كنت عاجزة عن قولها قبل ذلك الحين، ولا حتى لنفسي.

– إيدي، أنا حامل.

حملت الريح كلماتي بعيدًا، تمامًا كما كنت أرغب.

الفصل التاسع والثلاثون

وضعتُ يدي على بطني. «أنا حامل. هناك طفل في أحشائي.»

كانت دجيني تخبر خافيير عن باحث سلوفاني في علم الوراثة قابلتْه في غرفة الانتظار داخل عيادة العلاج بالإبر الصينيّة في اليوم السابق. أصغى خافيير باهتمام إلى زوجته، محاولًا في الوقت ذاته الانتباه إلى السيّدة التي توزّع طلبات الزبائن من خلف المنضدة. فقد نادت صاحب الرقم أربعة وثمانين، بينما كان الرقم المدوّن على بطاقتنا المكوّرة بين أصابع خافيير، سبعة وثمانين.

تخيّلت الخلايا وهي تنقسم طوال الأسابيع الماضية. خلايا سارة وخلايا إيدي. خلايا سارة وإيدي تنقسم إلى المزيد من خلايا سارة وإيدي. قرأت في الإنترنت أنّ الجنين يكون في هذه المرحلة بحجم ثمرة الفراولة. ورأيت في الصفحة نفسها صورة طفل صغير مرسومة بواسطة الحاسوب. تأمّلت الصورة دقائق خلتها ساعات، وانتابتني مشاعر لم يسبق لي أن أحسست بها، مشاعر لم أستطع حتّى تحديدها.

أنا حامل في الأسبوع التاسع.

لكنّنا توخّينا الحذر في كلّ مرّة. كيف لي أن أكون حاملًا وقد خسرت من وزني كيلوغرامًا ونصف الكيلوغرام؟

قالت لي الطبيبة:

– قلتِ لي أنّك تعانين فقدان الشهيّة. وفقدان الوزن أمر شائع بسبب الغثيان الصباحي.

غثيان، إرهاق، اضطراب هرمونات، فقدان شهيّة، عجز عن التفكير الصافي. أظنّ أنّ المفاجأة الحقيقيّة لم تكمن في كوني حاملًا، بل في عجزي عن ملاحظة كلّ تلك الإشارات الواضحة.

وصلني طرد صباح ذلك اليوم. كنت مستلقية في سريري أملأ الاستمارة اللازمة لإجراء مسح بالموجات فوق الصوتيّة. كنت أشعر بأنّني انتُزعت من الواقع إلى درجة أنّني تساءلت لحظة عمّا

إذا كان إيدي داخل الطرد، يجلس ملتفًّا على نفسه جاهزًا للقفز فجأةً لدى فتحه وهو يصرخ: لقد غيّرت رأيي! أنا أريد البقاء معك طبعًا، المرأة التي قتلت أختي الصغرى. هيّا نؤسّس عائلة.

بدل ذلك، وجدت لعبة في شكل خروف، بحوافر جلديّة صغيرة وفراء صوفي. كانت هناك ورقة معلّقة بخيط مربوط حول رقبة الخروف كُتب عليها، بخطّ إيدي: لوسي. كما وجدت رسالة داخل ظرف تفوح منه رائحة عصير الفاكهة. أخرجت الظرف.

جلست على مقعد في شرفة دجيني، وأخذت أتأمّل الفوضى القذرة التي أحدثتها وحدات المكيّفات وأطباق استقبال الأقمار الاصطناعية الممتدّة أسفل الشرفة. مرّرت أصابعي فوق الفراغات الدقيقة التي خلّفها قلم إيدي في المكان الذي كتب فيه اسمي. كنت أعرف مضمون الرسالة. أدركت أنّها نقطة النهاية التي تضع حدًّا لعلاقة انتهت قبل تسع عشرة سنة من بدايتها. لكنّني رغبت في بضع دقائق أخرى قبل رؤية نقطة النهاية. بضع دقائق أخرى من حالة الإنكار الثمينة المسمومة.

جلست لحظة أتأمّل قطّة كانت تتأمّلني أيضًا. بدأت أسحب تلك الأنفاس البطيئة الهادئة كأيّ إنسانة تدرك أنّ القصّة انتهت، تدرك أنّها هُزِمت فعلًا. عندما ابتعدت القطّة منّي بازدراء رافعة ذيلها في الهواء، أدخلت إبهامي في الفجوة الموجودة أعلى الظرف.

عزيزتي سارة،

شكرًا على حديثك الصادق البارحة. شعرت بالراحة عندما علمت أنّ أليكس كانت سعيدة في ذلك اليوم.

كنت أودّ القول أنّ الأمور على ما يرام، لكنّها ليست كذلك، ولا يمكن أن تكون.

لهذا، أعتقد أنّ من الأفضل ألّا نتواصل بعد الآن، فاستمرار صداقتنا سوف يسبّب الإرباك لكلينا. مع ذلك، ورغم كلّ شيء، أتمنّى لك الخير، سارة هارنغتون.

سوف أتذكّر دائمًا الوقت الذي أمضيناه معًا. لقد كان كلّ شيء بالنسبة إليّ.

يا لها من مصادفة رهيبة، أليس كذلك؟! من بين كلّ الناس في هذا العالم.

في أيّ حال، أردت أن أرسل إليك هديّة صغيرة ترسم ابتسامة على وجهك. فأنا أعرف كم كان الوضع قاسيًا بالنسبة إليك أيضًا.

سارة، أتمنّى لك السعادة.

اعتنِي بنفسك.

إيدي

قرأت الرسالة ثلاث مرّات قبل أن أطويها وأعيدها إلى الظرف.

«سارة، أتمنّى لك السعادة. اعتنِي بنفسك.»

أسندت رأسي إلى الجدار الخارجي لمنزل دجيني، وتأمّلت السماء. كانت تبدو هادئة مترقّبة وقد تناثرت فيها سحب بيضاء. مرّ سرب من الطيور يحلّق عاليًا، وخلف الطيور، كانت طائرة تعلو في الجوّ.

لم أكن قد أخبرت دجيني بأمر الحمل. لم أستطع تحمّل الموقف؛ لم أقوَ على إخبارها بأنّني حملت رغم استخدام مانع الحمل، في حين أنّها ما زالت ومنذ عشر سنوات لا تبخل بذرّة من مواردها العاطفيّة والجسديّة والماليّة في سبيل تأسيس أسرتها.

تأمّلت بطني، محاوِلةً تخيُّل البدايات الصغيرة لإنسان ينمو داخله. دهمني إحساس غريب في قلبي، شعرت بأنّ شيئًا يطبق على صدري. هل كان سعادة؟ أم ذعرًا؟ أخبرني الطبيب بأنّ الجنين أصبح له قلب مستقلّ. رغم كلّ ما قدّمتُه له من سوء تغذية وكحول وضغط نفسي. أصبح له قلبه الصغير الخاصّ الذي ينبض بسرعة تعادل ضعف سرعة نبضات قلبي، وسأراه بعد ظهر يوم غد على شاشة المسح بالموجات فوق الصوتيّة.

عدت لتأمّل السماء. هل أصبح إيدي في الجوّ؟ أم إنّه ينتظر عند البوّابة لركوب الطائرة؟ هممت بالوقوف عن المقعد، ثمّ عدلت. يجب أن أذهب إلى المطار. يجب أن أجده. يجب أن أحمله على تغيير رأيه من أجل الطفل، أن أقنعه بأنّني...

«بأنّني ماذا؟» بأنّني لست سارة هارنغتون؟ بأنّني لم أندفع في ذلك اليوم بسيّارة فيها شقيقته لتصطدم بشجرة؟

جلست أنقر بأصابعي على فخذَيّ، إلى أن أطلق خافيير فرابوتشينو نحو الساحة، فتبوّل على ساقي. شرعت أضحك، ثمّ استرسلت في البكاء وأنا أتساءل كيف لي أن أنجب طفلًا، أنا التي أمضيت حياتي كراشدة أتفادى الأطفال؟ أتساءل كيف يمكنني أن آتي بإنسان إلى هذا العالم، وأنا أعلم أنّ والده لا يريد أن تربطه بي أيّ علاقة؟ مع ذلك، كنت أعلم أنّ أوان التراجع قد فات، وأنّني كنت أرغب في هذا الطفل بشكل لم أتمكّن أنا من فهمه.

راوحت هذا الوضع النفسي ساعات. عندما استيقظت دجيني أخيرًا من نومها، حاولتْ التخفيف عنّي والاعتناء بي، ولكن لم يعد في مقدورها تقديم المزيد. جلسنا قرابة الساعتين يخيّم علينا صمت كئيب.

عندما شعر خافيير بأنّه لم يعد قادرًا على تحمّل هذا الوضع الانفعالي دقيقة أخرى، عرض علينا الذهاب إلى نيبتونز نيت في ماليبو – وهو مقهى يقصده راكبو الدرّاجات – لأكل السمك المقلي. كان ذلك بالنسبة إليه يمثِّل حلًّا لكلّ المشاكل المستعصية. وبينما كانت السيّارة تجتاز

المسافة على امتداد الساحل، كان هو منحنيًا فوق المقود، من دون أن نعرف ما إذا كان بهدف الإسراع بنا إلى حيث الطعام اللذيذ، أم لحماية نفسه من فوضى المشاعر المحيطة به.

وها نحن الآن، محشورون كسمك السردين داخل كشك. كان المطعم مزدحمًا، والطاولات مشغولة بالكامل. أمام المدخل، احتشد الناس في انتظار طاولة فارغة. كنّا نحن الجالسين نتجاهلهم رغم أنّهم كانوا يحدّقون فينا بغرابة. غاب صوت الموسيقى خلف ضجيج محادثات الجالسين التي تصمّ الآذان، وهدير محرّكات درّاجات هارلي-ديفيدسون في الخارج، وأزيز قلي صيد اليوم من الأسماك وهي تلامس الزيت الحارّ. لا شكّ في أنّ الوضع كان أبعد ما يكون من الهدوء، لكنّه كان وسيلة ناجعة بشكل من الأشكال.

نادت السيّدة من خلف المنضدة: سبعة وثمانين!، فقفز خافيير من مقعده وهو يصرخ بصوت أجشّ ينمّ عن الارتياح: نعم، نعم!

لم يكن من عادة دجيني الإقرار بمحدوديّة قدرات زوجها الانفعالية، لكنّها سمحت لنفسها في ذلك اليوم، ولأجلي أنا، برفع عينيها في استهجان، ثمّ نظرت إليّ بإنعام وسألتني عن نواياي بشأن إيدي. قلت لها:

– لا شيء. ليس في وسعي فعل أيّ شيء، دجيني. أنت تعرفين ذلك، وأنا أعرف ذلك. حتّى خافيير يعلم ذلك.

وضع خافيير بهدوء سلّة الأسماك والثمار البحرية على الطاولة بيننا. أعطى كلّ منّا زجاجة مشروب غازي. وبعد أن أطلق تنهيدة ارتياح عالية، شرع يتناول وجبته من القريدس والحبّار والبطاطا المقليّة المتبّلة بالجبن والتوابل الحارّة، وهو يعلم أنّه سيكون في مأمن من الطلبات لبعض الوقت. سألتني دجيني:

– ألم يترك أيّ مجال للعودة؟ ولا حتّى بصيص أمل؟

– ولا بقدر ذرّة غبار. اسمعي دجيني، سأكرّر ما قلته سابقًا مرّة أخيرة، تخيّلي لو أنّها كانت شقيقتك نانسي. تخيّلي أنّ رجلًا قاد سيّارة فيها نانسي الحلوة وصدم بها شجرة. هل يمكنك التفكير في إقامة علاقة معه؟ هل يمكنك فعلًا؟

وضعت دجيني الشوكة والسكّين على الطاولة، مهزومة.

صاحت السيّدة من خلف المنضدة: أربعة وتسعين!

تناولتُ محارة بالشوكة.

تساءلت في سرّي فجأةً: هل ينبغي لي تناول طعام كهذا؟ كنت واثقة في أنّني رأيت صديقات لي حوامل يتجنّبن تناول المحار. نظرت إلى الوجبة أمامي. طعام بحري ومحار وكوب كبير من المشروب الغازي. ألم يكن الكافيين ممنوعًا أيضًا؟

شعرت ثانية بالتغييرات الهائلة التي طرأت على حياتي. أنا حامل في الأسبوع التاسع!

قالت دجيني ببطء:

– تناولي بعض المحار يا سارة قبل أن آتي عليها جميعًا. أشعر بالنهم.

رفضت.

– لكنّك تحبّين المحار.

– أعرف... لكنّني لا أشعر بالرغبة في تناولها اليوم.

– حقًّا؟ في الأقلّ، تناولي بعضًا من تتبيلة الجبنة الزرقاء مع البطاطا المقليّة. أعتقد أنّها جبنة حقيقيّة. إنّها لذيذة.

– سأكتفي بالكاتشب. في وسعك تناولها.

ضحكت دجيني وقالت:

– سارة ماكيه، أنت لا تطيقين الكاتشب. والآن لا تأكلين المحار ولا الجبنة الزرقاء – من يسمع ذلك فسيتبادر إلى ذهنه أنّك حامل. اسمعي، عزيزتي، لا تحاولي تجويع نفسك. هذا لن يفيد بشيء، كما أنّ الحياة ستصبح بائسة تمامًا من دون طعام لذيذ.

ضحكت بصوت مرتفع. أخذت محارة لأبرهن لها أنّني بخير، وأنّني لست حاملًا بالتأكيد، لكنّني لم أستطع تناولها. لم أستطع حمل نفسي على تناولها. كان في أحشائي طفل في حجم ثمرة الفراولة في طور النمو، طفل لم أخطّط لإنجابه ولم أتمنّ إنجابه، مع ذلك، لم أستطع تناول المحارة. علت وجه دجيني تقطيبة خفيفة.

قلت بصوت جافّ، وأنا أتكلّف المرح:

– الأفضل أن تتجاهليني.

– شهيّتي مفتوحة اليوم، قال خافيير وهو ينظر إلينا.

– إذا كنتِ حاملًا، أردفت دجيني، فسيكون ذلك سخرية القدر، أليس كذلك؟

– لا، تصوّريّ!

تابعت دجيني تناول طعامها، لكنّها نظرت إليّ بعد بضع ثوان وقالت:

– أنت لستِ حاملًا، أليس كذلك؟

– لا، بالطبع أنا...

لم أستطع أن أكذب عليها. التزمت الصمت. وضعت دجيني الشوكة على الطاولة، وسألتني:

– سارة، أنت لست حاملًا، أليس كذلك؟

شعرت بالدماء الحارّة تندفع إلى وجهي. أطرقت رأسي، ثمّ نظرت إلى الأعلى، إلى كلّ مكان، محاولةً تفادي النظر إلى دجيني.

– لم يكن ذلك السبب في أنّك... لم يكن ذلك سبب مرضك؟ الطبيبة؟
تأمّلني خافيير. كان تعبير وجهه يقول: إيّاك... إيّاك أن...
كانت دجيني تراقبني، بدأت الدموع تترقرق في عينيها. قالت:
– لمَ لا تقولين شيء؟ لمَ لا تجيبين؟
أغمضت عينَيّ. قلت:
– دجيني، يا إلهي، دجيني، أنا...
رفعتْ يدها إلى فمها. كانت تتأمّلني بريبة. امتلأت عيناها بدموع غزيرة ما لبثت أن انسابت على خدّيها.
– لا، أنت لست... لا يمكن أن تكوني حا... يا إلهي! سارة.
أحاط خافيير كتفي زوجته بذراعه كأنّه يحميها. تنفّس نفسًا عميقًا، ونظر إليّ. ظهر على وجهه أوّل انفعال حقيقيّ أراه مُذ عرفته، منذ خمس عشرة سنة: كان غضبًا عارمًا.
– دجيني. عزيزتي. قلت بهدوء. أصغِ إليّ. عندما ذهبت إلى عيادة الطبيبة قالت لي... أجرت بعض التحاليل، وقالت... دجيني، أنا آسفة جدًا.
– أنت حامل.
– أنا... نعم، لا أستطيع أن أعبّر لك عن مدى أسفي.
قطع حبل الصمت الذي ساد بيننا رنينُ جرس هاتفي.
– إيدي؟ سألتني دجيني هامسة.
لم تستسلم حتّى عندما وجّهت إليها صديقتها ضربة صاعقة.
– لا أعرف. فقد محوت رقمه. لكنّ الرقم من المملكة المتّحدة.
– أجيبي. أجيبي على المكالمة، قالت بصوت خافت. فهو والد طفلك رغم كلّ شيء.
عندما وصلت إلى مدخل المطعم المزدحم بالناس وأنا أحمل هاتفي بيدي، خطر لي أنّني يجب أن أستدير لكي أرى وجه دجيني مرّة أخيرة. مرّة أخيرة، قبل ماذا؟
استدرت من دون أن أعرف السبب، لكنّ امرأة بدينة كانت تجلس على أحد المقاعد المثبّتة في المكان، وقد حجبت دجيني عن ناظريّ.
تابعت سيري، ورحت أشقّ طريقي بين موائد الجالسين على شرفة المطعم. سرت بين راكبي الدرّاجات والدرّاجات في اتّجاه الطريق السريع. تساءلت ما إذا كان في وسع دجيني تجاوز الأمر. إن كانت صداقتنا ستصمد أمام هذا الامتحان.
أجبت على المكالمة، وأنا أشعر بالسأم.
مرّت بضع ثوان من الصمت بينما الصوت يئز عبر الكابلات في أعماق المحيط الأطلسي. ثم:

– سارة؟
– نعم.
بعد لحظة، سمعت الصوت يقول:
– أنا هانا.
– هانا؟
– نعم... هانا هارنغتون.
مددت يدي لأسند نفسي، ولكن لم يكن هناك ما أستند إليه. أمسكت الهاتف بكلتا يدي لأنّه كان الشيء الوحيد الصلب بمتناول يدي.
– هانا؟
– نعم.
– هانا شقيقتي؟
– نعم.
سادت لحظة صمت.
– أعتقد أنّ الأمر يشكّل صدمة لك.
قلت هامسة:
– صوتك. صوتك. تمسّكت بالهاتف بقوّة أكبر. بدأتْ تقول شيئًا، لكنّ صوتها غاب وسط الموجة المفاجئة من الدرّاجات الناريّة التي اندفعت نحو موقف السيّارات، والتي كانت جميعها مزودة بمحرّكات فائقة القوّة. قلت:
– آسفة، هانا، ماذا قلت؟
– هل تسمعينني الآن؟ أنا أصرخ كي تسمعيني...
أوقف الدرّاجاتِ راكبوها وبدأوا يصدرون ضجيجًا من دون أيّ سبب. اجتاحني غضب جامح. صرخت:
– اصمتوا! توقّفوا رجاء!
إلى الجانب الآخر من الطريق، كان هناك ممرّ هادئ يؤدّي إلى البحر البعيد. وبينما كانت الحافلات تهدر على الطريق السريع أمامي، ومحرّكات الدرّاجات تتسارع خلفي، فكّرت يائسة، يجب أن أعبر الطريق، يجب أن أعبر الطريق، حالًا!
– أأنتِ معي؟
– نعم! هل تسمعينني؟
– تقريبًا. ما الذي يجري حولك؟

كنت أعرف شكل هانا: فقد اعتاد والداي أن يرسلا إليّ صورها إلى أن غدت رؤية تلك الصور تشعرني بالألم! كان من المستحيل أن أتخيّل أنّ المرأة التي رأيتها في الصور هي المرأة ذاتها التي تكلّمني في تلك اللحظة! المرأة التي تزوّجت رجلًا أجعد الشعر ورزقت طفلين، والتي تقتني كلبًا. شقيقتي الصغرى.

– هانا، اسمعي، سأعبر الطريق. أنا في مطعم يؤمّه راكبو الدرّاجات الناريّة؛ هناك الكثير من الضجيج، ولكن في الجانب الآخر سيكون الوضع أهدأ...

– هل أنت من راكبي الدرّاجات الناريّة؟

شعرتُ بشبح ابتسامة في صوتها.

– كلّا، لست من راكبي الدرّاجات النارّية. أنا... انتظري، سأعبر إلى الطرف الآخر. لا تقفلي السمّاعة رجاء. كانت هناك ثغرة في حركة المرور المتّجهة جنوبًا. ولسبب لا يمكن تفسيره، لم أستدر لرؤية جانب الطريق المتّجه شمالًا. ركضت من دون تفكير. نحو البحر، نحو هانا.

لم أسمع شيئًا؛ لم أرَ شيئًا. لم أسمع القرقعة المخيفة من الشاحنة التي كانت تعبر الطريق بسرعة هائلة. لم أسمع صوت المكابح، ولا صرخات الذعر من شرفة فوقي. لم أسمع صوتي الذي خرج عنوة في صرخة صادرة من حلقي، ثمّ خَفَتَ فجأةً وصَمَتّ، مثل سيّارة إسعاف أوقفت صوت صفّارتها لأنّها لم تعد تفيد بشيء، لم أسمع العويل الصادر من فم دجيني وهي تدفع الناس حولها لتخرج من المطعم.

لم أسمع شيئًا.

الجزء الثالث

الفصل الأربعون

إيدي

غاليتي،

الساعة الآن الثالثة والدقيقة السابعة والثلاثين فجرًا، أي بعد ثماني عشرة ساعة من هبوط طائرتي في مطار هيثرو.

لم يكن هناك أحد في انتظاري، بالطبع، لأنّ أمّي هي الوحيدة التي تعرف موعد عودتي. تصنّعتُ اللّامبالاة بينما كنت أجيل نظري على الأعداد الكبيرة من بطاقات الترحيب التي لم يكن اسمي في أيّ منها. بدأت أصفّر لحن إحدى أغاني بووي.

اتصلت بوالدتي وأنا في طريقي إلى مرأب لونغ ستاي. بدا، ولأسباب أجهلها، كأنّ غيابي هذه المرّة قد شقَّ عليها أكثر من المعتاد. ربّما كان بُعْد المسافة هو ما أثّر في معنويّاتها، فلم تكن المرّة الأولى التي أتغيّب فيها أسبوعين. قالت أنّها لم تذق طعم النوم تلك الليلة من شدّة قلقها من تعرُّض طائرتي للسقوط. أضافت: كان الوضع فظيعًا. أشعر بالإرهاق ولا أستطيع الكلام إلّا بصعوبة. لا بدّ أنّها شفيت بسرعة لأنّها تحدّثت مدّة عشر دقائق أخبرتني خلالها بالأمور التي قصّرت فيها شقيقتها في غيابي. تصوّر أنّها لم تتخلّص بعد من الموادّ القابلة للتدوير. ما زالت تلك الموادّ قرب البوّابة. لا أتحمّل النظر من النافذة. إيدي، هل يمكنك المرور لزيارتي أثناء ذهابك إلى منزلك؟

مسكينة خالتي مارغريت.

يبدو أنّ والدتي أصيبت بنوبة ذعر عندما حاولت مارغريت اصطحابها إلى موعدها مع طبيبها النفساني، وبالتالي، سيتعيّن عليّ اصطحابها إلى الطبيب خلال الأسبوع المقبل. قالت إنّها شعرت أنها عاجزة عن تحمُّل السيّارات والمستشفيات والناس، خصوصًا في غيابي. حفلت المحادثة بعبارات ترمي إلى إشعاري بالذنب لأنّني

تركتها وسافرت – رغم أنّها تقول دائمًا أنّ عليّ الالتفات إلى حياتي الخاصّة – وحياتها بالطبع، لأنّها تعلم أنّ هذا ما سيحصل عندما ألتفت إلى حياتي.

تسلّمتُ سيّارتي اللاند روفر من المرأب، وانطلقت على الطريق السريع عائدًا إلى غلوسترشير، إلى سابرتون، إلى هذه الحياة. استمعت إلى المذياع فترة وجيزة كي أتوقّف عن التفكير في سارة. توقّفت عند محطّة ميمبوري سيرفيسيز لابتياع شطيرة جبن.

عندما كنت متّجهًا صوب طريق سيرينسستر، حدث أمر غريب: لم أبطئ سرعة السيّارة عند منعطف سابرتون. بل لم أعطِ إشارة بهذا المعنى؛ تجاوزت المنعطف. تابعت سيري إلى الطريق الجانبي المؤدّي إلى فرامبتون، لكنّني لم أترجّل هناك أيضًا. وجدت نفسي أقود السيّارة إلى موقع مينشنهامبتون كومون. أوقفت السيّارة عند الخزّان وتناولت بعض المثلّجات، ثمّ سرت حول قرية أمبرلي، بعد ذلك ذهبت إلى حانة بلاك هورس وشربت كأسًا. جلست هناك ساعتين تقريبًا أسهم النظر في وادي وود تشيستر.

لم أكن أعرف بالضبط ما يدور في ذهني. بدا كلّ شيء منفصلًا عنّي على نحو غريب، كأنّني أراقب نفسي في شاشة دارة تلفزيونيّة مغلقة. كلّ ما كنت أعرفه آنذاك هو أنّني لا أستطيع الذهاب لزيارة والدتي.

خلال ذلك الوقت، كانت والدتي بعثت لي برسائل نصّيّة عدّة واتّصلت بي هاتفيًّا مرّات عدّة، فقد خشيَت أن أكون تعرّضت لحادث مرور على الطريق السريع. طمأنتها أنّني بخير وأنّني تأخّرت بسبب بعض الأمور التي كان عليّ ترتيبها، قلت لها ذلك، لأنّني فعلًا لم أكن أدري ما كنت أفعل، لا لأنّني كنت أخفي عنها شيئًا محدّدًا. عند الساعة الرابعة تقريبًا، عدت إلى تقاطع توم لونغر بوست، وهنا بدا الأمر مقلقًا، لأنّني، وبدل الانعطاف يمينًا في اتّجاه سابرتون، وجدت نفسي أنعطف يسارًا في اتّجاه بلدة ستراود.

ذهبت لشرب كأس في حانة غولدن فليس، ومن ثمّ مررت لزيارة آلان وزوجته جيا. كان الزوجان في غاية اللطف، لم يبخلا عليّ بالدعم النفسي. قدّما لي كوبًا من الشاي الذي كانت تشربه ابنتهما ليلي، وأكّدا لي أنّني تصرّفت على نحو صائب عندما هجرت سارة. لم يخطر في بال أيّ منهما أنّني كنت أختبئ من والدتي.

رفضت ليلي أن تأوي إلى فراشها. جلست على ركبتي ترسم حوريّات. مُذ قابلت سارة صار ينتابني إحساس غريب، فقد صرت أتنفّس بصعوبة عندما أمضي الوقت مع ليلي، صرت أشعر بحزن عميق يخالط مشاعر الحبّ والحنان التي أكنّها لابنة صديقي الصغيرة. أعتقد أنّ سارة حرّرت شيئًا ما كان حبيسًا في داخلي. فبعد سنوات من تجاهل الفكرة، بدأتُ أتخيّل نفسي أبًا لطفل من صلبي. رسمتْ ليلي حوريّة على يدي بالحبر، شعرتُ بأنّ أخدودًا فُتِح داخل روحي، كما ينشقّ صدع في قاع محيط.

بعثت برسالة نصّيّة إلى والدتي قلت فيها أنّ أمرًا استجدّ مع آلان، وأنّني لن أتمكّن من زيارتها في تلك الليلة. وعدتها بأن آتي صباح اليوم التالي. لم تكن سعيدة بالطبع عندما قرأتْها، ومع ذلك تقبّلت الأمر. لكنّ هذا لا يعني أنّني كنت معتادًا ترْكها تنتظرني من دون أن أحضر.

أحسست بالارتياح وبالقنوط عندما فتحتُ باب منزلي أخيرًا. كنت أحبّ ذلك البيت أكثر ممّا أحبّ القرميد والملاط، لكنه أيضًا يسبب لي الشعور بالكآبة لأنّه يذكّرني بوقائع حياتي. بالنسبة إلى شخص غريب، كان بيتي النائي يعكس الحياة الرائعة. كؤوس الشراب المنعش بينما تضيء الشمس رؤوس الأشجار. عشاء مكوّنًا من طبق خضار عضويّة قُطِفت باليد بينما الطيور في أعشاشها. مياه كوتسولد الرائعة كالكريستال، التي سُحبت توًّا من باطن الأرض.

لا يدري الناس إطلاقًا نوع القيود التي تكبّل حياتي. وحتّى لو أخبرتهم بنوع الحياة التي أعيشها مع والدتي، فلن يصدّقوني.

بعد قليل، رتّبت ورشتي قليلًا، وهيّأت اللوح الأبيض المُعَدّ للعمل، لكي أباشر العمل في اليوم التالي. لم أحضّر وجبة العشاء. عندما دخلت المطبخ، دهمتني ذكرياتي مع سارة في ذلك المكان، نطهو ونتحدّث ونضحك، وأفكارنا تسرح بجموح نحو المستقبل. لم أجد في نفسي القدرة على الطهو بمفردي صامتًا. تناولت وجبة هنديّة جاهزة وأويت إلى الفراش. بينما كنت أنظّف أسناني، ذكّرت نفسي بأنّ الابتعاد من سارة كان تصرّفًا صائبًا. لاحظت أنّ الشمس لوّحتني قليل.

بعد ذلك، استلقيت تحت الفتحة الموجودة في السقف، كانت النجوم تصعد فوق القبّة السماوية ببطء، هنّأتُ نفسي على ثباتي في موقفي وعزم تصميمي وقوّة إرادتي. قلت لنفسي أحسنت صنعًا. لم يكن الأمر سهلًا، مع ذلك كان يتوجّب عليك القيام به.

ولكن، كلما طالت ساعات الأرق، تضاءل يقيني بكلّ ذلك.

قمت من فراشي فترة وجيزة، وحاولت مشاهدة التلفزيون كي أنصرف عن التفكير في الموضوع. ولكن، كلّ ما تسنّى لي مشاهدته هو تقرير إخباري حول حادث سير جماعي على الطريق السريع تسبّب في الكثير من الإصابات الخطرة والوفيّات، وسرعان ما تراءى لي أنّني أسمع صوتًا داخليًّا يسألني: ما شعورك لو أنّ سارة توفّيت؟ (فكرة مفيدة فعلًا)، ماذا لو تلقّيت مكالمة هاتفيّة تفيد بأنّها توفّيت إثر حادث سير جماعي؟ أو علقت وسط تبادل إطلاق نار بين أفراد عصابات؟ أو دهستها شاحنة؟ هل سيستمرّ شعورك بأنّ ما فعلْتَه كان تصرّفًا صائبًا؟

أطفأت جهاز التلفاز وعدت إلى سريري، لكنّ الفكرة لم تفارقني. كانت أشبه بخطّاف صدئ يشدّ أحاسيسي ويجذبها. ماذا لو توفّيت سارة، هل سيستمرّ الشعور بأنّ ما فعلتَه كان تصرّفًا صائبًا؟

وهنا تكمن المشكلة يا أليكس، لأنّني أعرف صدقًا أنّ شعوري سيكون مختلفًا. إذا توفّيت سارة، سوف أندم على ما فعلت ما حييت.

لقد عشت حياة لا بأس بها خلال السنوات العشرين الماضية. جاهدت لأخرج من حالة الحزن وأعيش حياتي، لكنّني سمحت لوالدتي بأن تحظى بالأهمّيّة القصوى في حياتي، لأنّني كنت أشعر بألّا خيار أمامي. فهل ثمّة

كائن بشري محترم يحجم عن رعاية والدته إذا كانت بحاجة إلى من يساعدها؟ لكنّني حين تركتُ سارة عند شاطئ البحر، شعرت بأنّ شيئًا ما تغيّر في داخلي. بدا أنّ اعتبار والدتي الأولويّة في حياتي لم يكن أمرًا صائبًا. وما زال يبدو كذلك.

الساعة الآن الثالثة والدقيقة الثامنة والخمسين فجرًا. أصلّي كي أنام. فعليًّا.

أنا

قبلاتي

الفصل الحادي والأربعون

– الرجل الجالس هناك لا يكفّ عن التحديق فيّ.

نظرتُ إلى والدتي، وقد جلست مستندة إلى ظهر المقعد، وهي تمدّ رقبتها إلى الأمام كالسلحفاة. ثمّ نظرتُ إلى الرجل، الذي كان ضخمًا كريه الشكل، هائل الجسم، يشغل ثلاثة مقاعد ويعبُّ من دون توقّف مشروبًا غازيًّا من زجاجة سعة ليترين. فوق رأسه، كانت ذبابة ضخمة تصطدم في النافذة، مرّة بعد مرّة من دون كلل، مثل طفل يكرّر طرفة مدّة نصف ساعة لأنّها أضحكت شخصًا ما.

راقبتُ الرجل فترة وجيزة، لم يكن ينظر إلى والدتي. كان يقرأ نشرة لدائرة الصحّة الوطنيّة عنوانها «فلنتكلّم».

– إنّه لا يحدّق فيك يا أمّي. ولكن، في إمكاننا الجلوس هناك إذا أردت.

أشرتُ إلى صفّ من الكراسي الخضراء لا تواجِه ذلك الرجل البريء كلّيًّا، لكنّني كنت أدرك أنّها لن توافق. في نهاية الصفّ الذي كنّا نجلس فيه، جلست سيّدة ورضيعها النائم في عربته الصغيرة، ولم تكن والدتي تتحمّل وجود أطفال في تلك الفترة. في الشهر الماضي، أغلقت على نفسها باب الحمّام في عيادة طبيب الصحّة العامّة، لأنّ طفلًا أعطاها قطعة من لعبة تركيب كان يلهو بها.

قالت، في نهاية الأمر:

– أعتقد أنّني سأبقى هنا. إيدي، أنا آسفة، لا أريد إحداث جلبة، ولكن هل لك أن تستمرّ في مراقبته؟

أومأت برأسي مغمض العينين. كان الجوّ شديد الحرّ، لكنّه لم يكن الدفء الذي ترسله أشعّة الشمس خارج المبنى، بل الحرارة التي تبعث الارتخاء في غرفة الانتظار، والصادرة عن الأنفاس المتوتّرة والأجساد الكسولة المترهّلة.

– هل اشتقت إلى البحر؟ سألت والدتي. كانت تتكلّم باللهجة التي تلجأ إلى استخدامها عندما تخشى أن تكون قد ضايقتني. لهجة تتّسم بمسحة من الرقّة غير المعتادة والتلاعب المبالَغ به بالنبرة. أعني شاطئ سانتا مونيكا؟

– لا، لا أشعر بالشوق أبدًا. هل أخبرتك كيف أمضيت وقتي هناك؟

أومأت برأسها، وهي تلقي نظرة سريعة على الرجل الذي يتناول المشروب الغازي، ثمّ عادت لتنظر في وجهي. قالت:

– يبدو أنّك قد استمتعت.

تساءلتُ في سرّي عن الكذبة الخرقاء التي أخبرتها بها، تحت تأثير اختلاف التوقيت في المنطقة الزمنيّة، ووصفت فيها اليوم الذي أمضيته على الشاطئ. لا أستطيع تحمّل الكذب عليها. يصعب تجاهل قسوة الحياة على والدتي، وبالتالي، تبدو قسوتي معها أكثر مدعاة إلى الاشمئزاز، رغم أنّني أقسو عليها أحيانًا من أجل مصلحتها.

أشاحت بوجهها عنّي، وعادت أفكاري إلى الموكب الجنائزي الذي رأيناه قبل مجيئنا، كان الموكب متوجّهًا إلى فرامبتون مانسيل. امتلأت عربة الموتى بالزهور البرّيّة بشكل باقات وأغصان تتدلّى على جوانب النعش، كأنّها تتدلّى من على حافّة جدول. سارت خلف العربة ثلاث سيارات سوداء فارغة. قلت في نفسي: لا بدّ أنّ الميت في سنّ الشباب. فالمسنّون نادرًا ما يحضر جنازاتهم عدد كبير من الناس. تساءلت عن الميت الذي كان الموكب ذاهبًا لإحضاره. من هي العائلة الثكلى البائسة المجتمعة في منزل قريب، يرتشف أفرادها القهوة حتّى آخر قطرة في الفناجين، ويهيّئون ثيابهم السوداء غير المريحة، وهم يتساءلون بلا انقطاع: كيف يمكن أن يحصل لنا أمر كهذا؟

ألقيت نظرة جانبية على والدتي أثناء مرور الموكب، آملًا بألّا يسبّب لها ذلك المنظر انهيارًا.

رأيت تعبيرًا بشعًا على وجهها. قالت، وقد بدا عليها سرور، بل حقد، لا يليق بالمشهد:

– انظر، يبدو أنّهم متّجهون إلى فرامبتون مانسيل. آمل بأن تكون تلك الفتاة، سارة، هي الميتة. ثمّ نظرتْ إليّ في انتظار موافقتي على كلامها.

عجزت بضع دقائق عن التفوّه بكلمة. بدأتُ أتنفّس من فمي – وهذا أحد أساليب إدارة إيدي للاستجابة لحالات الطوارئ – كنت أتذكّره جيّدًا لأنّني اعتدت أن ألجأ إليه في الأسابيع التي تلت وفاة أليكس. شعرت بالغثيان، كنت فعلًا على وشك التقيّؤ. أحسست بأنّ طوقًا يطبق على صدري. حاولت بكلّ جهدي تجاهل ما قالت والدتي، لكنّني لم أفلح.

قلت في نفسي، وأنا أشعر بوهن، لا عجب إذًا أنّ سارة انتقلت إلى الجانب الآخر من العالم. كيف لها أن تتابع حياتها هنا؟

هدأت الذبابة الضخمة التي كانت تصطدم في النافذة لوهلة، وبدأت أفكّر كم كانت سارة ستحبّ فكرة الأزهار البرّيّة على النعش. كانت تحضر باقات الزهور البرّيّة إلى منزلي خلال الأسبوع الذي أمضيناه معًا، وتملأ بها كلّ كأس موجودة في البيت، ثمّ تسألني، وهي تبتسم للأزهار: هل من شيء أجمل من الأزهار؟

كنت أقول في سرّي: نعم يوجد. أنت أجمل مَن دخل هذا المنزل.

كانت سارة، وباستثناء صديقي باز الذي يعمل في وحدة التاريخ الطبيعي في بريستول، أوّل شخص أقابله دون الستّين من العمر، يعرف الكثير من المعلومات حول الحيوانات والنباتات البرّيّة. تذكّرتُ كيف كان صوتها يعلو بحماسة عندما أجريت لها اختبارًا حول الطيور المذكورة في كتاب دار كولينز جم. «خازن الجوز! القليعي!» وتذكّرتُ كيف أطلقت بعد ذلك ضحكة مليئة بالمكر الجميل والحيويّة.

يا إلهي، الأمر مؤلم. مؤلم أكثر ممّا تصوّرت.

استدرت لأنظر إلى والدتي، ولأقنع نفسي بأنّ سارة «هي» آخر امرأة على سطح الأرض ينبغي لي إقامة علاقة معها. قلت: هذه والدتك، امرأة تتلقّى علاجًا نفسيًّا منذ عشرين سنة تقريبًا. امرأة لم تعد تتذكّر ماهية الحياة وإيقاع العالم، لأنّها معزولة تمامًا. وهي بحاجة إليك.

تظاهرتْ والدتي بأنّها تريح رأسها بين يديها، كأنّ التعب أنهكها، لكنّها كانت تراقب الرجل الذي يتناول المشروب الغازي من خلال أصابعها. قلتُ لها:

– أمي، لا تقلقي، كلّ شيء على ما يرام.

لا أعتقد أنّها سمعتني.

عندما زرت آلان آخر مرّة، نصحني بالانتساب إلى موقع تندر للمواعدة. قلت له أنّني سأنتسب، لأنّ ذلك كان الجواب الذي يرغب في سماعه، ثمّ ذهبت إلى الحمام كأنّني أرغب في التخلّص من مشاعر الرعب التي انتابتني، كما أتخلّص من أيّ قذارة. موقع تندر؟ لا أحد يحذّرك من أن الحياة تبقى معقّدة حتّى عندما تتصرّف بطريقة صائبة. ومن أنّك لن تحصل على أيّ جائزة لقاء ما فعلت، سوى شعور مبهم بالثبات الأخلاقي. كان مضى على عودتي من لوس أنجلوس أحد عشر يومًا، وكنت أشعر بأنّني أسوأ حالًا ممّا كنت عليه يوم تركت سارة واقفة على الشاطئ.

موقع تندر؟ بالله عليك!

تساءلت والدتي:

– أين أرون؟ مضى وقت طويل ونحن في انتظاره.

نظرت إلى ساعتي. كان مضى عشر دقائق من انتظارنا.

– إيدي، هل تعتقد أنّه غائب بسبب المرض؟ هل تعتقد أنّه ترك العمل؟ اكتسى وجهها غلالة من الكآبة لمجرّد الفكرة.

شبكت يدها بمرفقي، وقلت:

– لا أعتقد. أظنّ أنّه قد تأخّر. لا تقلقي.

كان أرون، الطبيب النفساني لوالدتي، أحد شخصين فقط، من خارج نطاق أفراد العائلة، يمكن والدتي التحدّث معهما من دون أن ترتبك. الشخص الآخر هو ديريك، الممرّض النفساني في العيادة المحلّيّة التي تتردّد عليها، وهو أفضلنا جميعًا في التعامل معها. ثمّة شخص آخر يتردّد عليها، فرانسيس، المسؤولة في كنيسة الرعيّة، وتزورها عندما تستطيع، لأنّ والدتي صارت تشعر بأنّها تتعرّض للضغط النفسي إذا قصدت الكنيسة في وجود أشخاص كثر. بالطبع، كانت هناك هانا هارنغتون، شقيقة سارة، التي اعتادت أن تزورها من حين لآخر، رغم أنّ والدتي لم تعد تذكرها منذ زمن طويل، وبالتالي، لا أدري ما إذا كانت تلك الزيارات قد انقطعت. ولكن لم يكن في إمكان فرانسيس ولا هانا المكوث طويلًا. فبعد نصف ساعة من أيّ زيارة، كانت والدتي تبدأ أعمال التنظيف، وهي تنظر بقلق نحو الساعة كأنّها مضطرّة إلى الذهاب إلى مكان ما.

كانت قدرة أرون على إقناع والدتي برأيه نابعة إلى حدّ ما من كونه رجلًا لطيفًا فعلًا وناجحًا في عمله. ولكن هناك سبب آخر وهو أنّها كانت، في اعتقادي، مولعة به إلى حدّ ما، وإن بصورة خجولة. لا شكّ في أنّه لم يترك العمل، ولم يكن مريضًا. فلو كان الأمر كذلك لأُلغي موعدنا، أو، على الأرجح، لأُرسل الطبيب النفسي في العيادة المحلّيّة ليحلّ مكانه. لكنّ الفكرة كانت ترسّخت داخل عقلها، تمامًا مثلما ترسّخت الأفكار المثيرة للحنق حول سارة داخل عقلي.

ماذا لو توفّيت سارة؟ هل سيستمرّ الشعور بأنّ ما فعلته كان أمرًا صائبًا؟ ظلّ هذا السؤال يتسرّب داخل كلّ شيء، مثل الرطوبة. من أين ظهر هذا السؤال؟ ولماذا لا أستطيع إقصاءه من تفكيري؟

حاولت بقوّة إقناع نفسي: سارة بخير. لا بدّ أنّها نائمة الآن، وهي تبعد آلاف الأميال في منزل صديقتها الصغير. نائمة تتنفّس في هدوء. أطرافها متراخية والسكينة على وجهها.

عندما أدركت أنّني كنت أتخيّل نفسي مستلقيًا جوارها، وأمدّ ذراعي بتكاسل لأحيط خصرها، وقفتُ وقلت لوالدتي: سأذهب وأتحقّق كم بقي من الوقت.

أدركت السيّدة الجالسة في مكتب الاستقبال أنّني لا أسأل من أجل نفسي. كانت البطاقة التي تعرّف بها مكتوبًا عليها سو. قالت بصوت عال كي تسمع والدتي: دوركم هو التالي. كانت خلفها صورة معلّقة لأسرتها. رجل لطيف المظهر وطفلان يرتدي أحدهما زيًّا في شكل أسد. تساءلت ما إذا كانت سو تنظر إلى العائلات الشبيهة بعائلتي، وتقول في سرّها: الحمدلله أنّني لا أعيش حياة

تشبه حياتهم. هذا تقريبًا ما قالته آخر فتاة صادقتها، جيما، عندما انفصلنا. وضعت جيما حدًّا لعلاقتنا بعد ثلاثة أشهر لأنّها لم تستطع أن تتحمّل ذهابي على وجه السرعة، مرّة في الأسبوع، لمعالجة حالة طارئة تظهر عند والدتي.

شعرت بالأسف لفترة بسبب انفصالي عن جيما – فقد كانت الفتاة الثالثة، خلال ستّ سنوات، التي خارت عواطفها بسبب مطالب والدتي – لكنّني صادفتها في بريستول قبل بضعة أشهر، كانت تمسك يد رجل عرّفني بنفسه. كان اسمه تاي، وقال أنّه يعمل في مجال رسومات جدران الشوارع. كان يعقص شعره بشكل كعكة. أدركت، عندما كنت أبادل جيما الدعابات المتكلّفة، ونحن واقفان على الرصيف، أنّنا لم نكن مفتونين ببعضنا بعضًا.

مفتونان ببعضنا بعضًا – مثلي ومثل سارة – هذا ما يجب أن يشعر به العشّاق. هذا هو القدر من الجمال الذي ينبغي أن تصل إليه العلاقات.

عندما عدت لأجلس في مقعدي، كانت والدتي تتفحّص شعرها في مرآة جيب صغيرة. كان الشكل الخارجي لتسريحة شعرها، يومذاك، أشبه بكرة الركبي. قالت لي:

– إنّها تسريحة خليّة النحل، هكذا كنت أصفّف شعري في الستّينيّات. تأملتْ شعرها، ثمّ سألتني: هل تعتقد أنّ في الأمر مبالغة؟

– إطلاقًا يا أمّي. التسريحة جميلة.

والواقع أنّ الخليّة كانت، أوّلًا، مجوّفة وثانيًا، مائلة نحو اليمين مثل برج بيزا، لكنّني كنت أدرك أنّها صفّفت شعرها بهذا الشكل لتلفت نظر أرون.

أعادت المرآة إلى مكانها، وبدأت تعبث بهاتفها. بعد لحظات، أدركت أنّها كانت تتظاهر بإرسال رسالة نصّيّة إلى شخص ما كي تستطيع، خلسة، التقاط صور للرجل المسكين الجالس في الزاوية، لتُستخدم، في اعتقادي، دليلًا بعد أن يقتلها بوحشيّة. شعرت بأنّه إذا لم يحضر أرون سوبوري بسرعة، بقسمات وجهه الهنديّة الجميلة وابتسامته الودود، فلن يمضي النهار على خير. وكنت مضطرًّا فعلًا للعودة إلى العمل.

ثمّ سمعنا صوت ديريك يقول:

– مرحبًا كارول. سار ديريك متمهّلًا – فهو لا يسرع الخطى أبدًا – وصافحني وجلس إلى جانب والدتي من الناحية الأخرى. سألها: كيف أحوالك اليوم؟ مدّ ساقيه إلى الأمام، شعرتُ بأنّها بدأت تسترخي، وتخبره بأنّها أسوأ من ذي قبل، إذا كانت صادقة.

– تسريحة شعرك رائعة. قال لها بعد أن فرغت من الكلام.

– هل تعتقد ذلك؟ أجابته مبتسمة.

– بالطبع كارول، إنّها رائعة.

شكرًا لله على وجود ديريك في حياتنا. فهو يزورها مرّة كلّ أسبوعين. ويخطر لي أحيانًا أنّه أشبه بساحر، فهو يلاحظ أشياء لا يلاحظها أحد غيره؛ ويدفعها إلى الكلام عندما يعجز الجميع عن التواصل معها. كما أنّه لا يفقد السيطرة على أعصابه مهما ساء مزاجها.

سألتني سارة ذات يوم: هل هناك تشخيص محدّد لحالة والدتك؟ كنت قد فرغت توًّا من جزّ عشب مرجة الفسحة أمام بيتي، وكنت آمل سرًّا بأن تغريها رائحة العشب المقصوص حديثًا بالعودة إلى إنجلترا. عندما انتهيت، جلسنا نشرب منقوع الزنجبيل البارد، وكانت هي تتنشّق رائحة الجوّ بسعادة، ثمّ التفتت إليّ وسألتني عن والدتي، مباشرة، من دون لفّ ولا دوران، جعلني ذلك أحبّها أكثر.

مع ذلك، لم أكن في البداية، راغبًا في الإجابة. كنت أودّ أن أظلّ الرجل صاحب البيت الحجري في كوتسولد، الذي يتقن صنع الخبز وإعداد منقوع الزنجبيل، والذي يعيش حياة رائعة، لا الرجل الذي يتلقّى الكثير من المكالمات الهاتفيّة من والدته ويردّ عليها. لكنّ سؤالها كان منطقيًّا، بالتالي، يستحقّ ردًّا منطقيًّا.

هكذا، هيّأت نفسي لسرد قائمة التشخيصات التي خرج بها الأطباء طوال سنوات: اكتئاب مزمن؛ اضطراب حصر نفسي عامّ؛ اضطراب شخصيّة من الدرجة C، يتأرجح بين القلق والاعتماد على الغير والوسواس القهري؛ واضطراب الإجهاد النفسي اللاحق الصدمات؛ اكتئاب ذهاني قد يكون ثنائيّ القطب... لكنّي ما إن فتحت فمي حتّى اجتاحتني موجة من الملل. فخلال كلّ ذلك المسار، جاءت لحظة فقدت فيها الأمل بكلّ تلك الأسماء، فالأسماء كانت تمنحني الأمل بالشفاء، أو في الأقل بالتحسّن، لكنّ والدتي ظلّت مريضة طوال عشرين سنة.

قلت لها في النهاية: إنّها تتحسّن بصعوبة. ولو لم تأت خالتي للإقامة معها هذا الأسبوع، فأعتقد أنّني كنت سأمضي الوقت في الردّ على مكالماتها. أو ربّما الذهاب إليها أحيانًا.

وددت لو أنّني أخبرتها بالمزيد. ولكن، ماذا كان ذلك سيغيّر سوى إنهاء علاقتنا؟ كان كلّ منّا سيتوصّل خلال دقائق إلى معرفة حقيقة الآخر، ولم أكن لأختبر الشعور بهذا القدر من السعادة، من اليقين.

– السيّدة والاس؟ رفعت رأسي؛ رفعت والدتي يدها بسرعة لتطمئنّ على خليّة النحل، أو طابة الركبي المستقرّة فوق رأسها، ثمّ التصقت بي وقد غلبها الحياء فجأةً، بينما كنت أنا وديريك نقودها نحو أرون عبر الباب المفتوح.

الفصل الثاني والأربعون

بعد بضع ساعات، وجدت نفسي حرًّا.

سرت تحت رذاذ المطر في ذلك المساء، أدندن بعض الألحان. سرت في دروب المشاة، لكنّني أحيانًا فضّلت السير في أزقّة ضيّقة. كان كلّ شيء مبلّلًا؛ الأرض، الإسفلت، أوراق الشجر، وحتّى أنا. من حين لآخر، كانت قطرات المطر تتساقط من حافّة قلنسوتي.

ركلت بقدمي حجرًا اعترض طريقي، وبدأت أفكّر في جلسة والدتي مع الطبيب في ذلك اليوم. كان أرون يرغب في إدخال تعديلات على أدوية والدتي، استنادًا إلى تقارير ديريك الأخيرة. بدت الفكرة صائبة. فقد كان واضحًا أنّ وضعها يتدهور بسرعة إلى حالة البارانويا. ظننت بداية أنّ الأمر مجرّد ردّ فعل موقّت على غيابي، لكنّ ديريك أخبرني بأنّه لاحظ إشارات مقلقة قبل سفري.

أدركت منذ سنوات كثيرة أنّ لا وجود للمعجزات، بالتالي، لم أكن أتوقّع تغيّرًا مهمًّا في وضع والدتي، ولكن إذا حالفنا الحظّ، فقد تؤدّي توليفة الأدوية الجديدة التي سيصفها أرون إلى إبطاء حركة الانهيار السريع، وتفادي كارثة، وهو أكثر ما كنت أتمنّاه. فمهما بلغت براعة الفريق المشرف على صحّتها النفسيّة، ومهما بلغت دقّة التشخيصات ونجاعة الأدوية التي تتناولها، فلن يستطيع أحد زرع دماغ جديد في رأس والدتي.

كان أفضل ما يمكن أن أطمح إليه هو أنها عادت من مقابلة طبيبها وهي تتمتّع بمعنويّات جيّدة، بل رائعة. والواقع أنّني أقنعتها بمرافقتي لتناول الشاي والحلوى في مدينة تشيلتنهام. تناولتْ فطيرة رقيقة كبيرة الحجم، ولم يساورها الشكّ في سوى رجل واحد فقط يتآمر لقتلها. بل إنّها ضحكت من نفسها.

عندما أوصلتها إلى منزلها كي يتسنّى لي الذهاب إلى ورشتي، قالت لي أنّني أفضل الرجال على سطح الأرض وأكثرهم وسامة، وأنّها لا تستطيع التعبير عن مدى فخرها بي.

كان الوضع جيّدًا.

اتّصل بي ديريك لاحقًا، وسألني:
– كيف أحوالك؟
– جيّدة، أجبته.
– هل أنت واثق؟
قال أنّني أبدو مرهقًا، وأضاف:
– تذكّر إيدي، أنا دائمًا جاهز لمساعدتك إذا كنت تعاني أيّ ضيق.

وصلت إلى بيسلي بعد نصف ساعة، وانهمر المطر غزيرًا كأنّ بوّابات السماء فُتحت. قلت لغراب كان واقفًا على عمود: رائع! طار الغراب، والأرجح إلى مكان أجمل. راودني شعور بالحسد. صحيح أنّ والدتي تعدّت مرحلة الخطر مؤقّتًا، ولكن لم يتغيّر شيء في حياتي. أنا لست حرًّا، ولا أستطيع إقامة علاقة مع سارة. ليس في وسع ديريك فعْل أيّ شيء لتغيير هذا الوضع، لأنّ الحلّ لا يتطلّب خبرة في مجال الصحّة النفسيّة.

قال آلان بعد بضع دقائق:
– إد، الحقيقة أنّني لا أعتقد أنّك تساعد نفسك بما يكفي.

بيّن وجهه أقسى تعبير يمكن أن يرتسم على وجهه، ومع ذلك لم يكن قاسيًا على الإطلاق. آلان من ألطف الأشخاص الذين قابلتهم في حياتي، وأكثرهم دفئًا في الحديث. في تلك الليلة، كانت تفوح منه رائحة الفراولة الممتزجة بالحموضة، كما تناثرت على كنزته بقع زهريّة. فقد تملّكت ليلي نوبة غضب شديدة رمت عليه خلالها اللبن المنكّه بالفراولة، عندما قال لها أنّه لن يستطيع أن يقرأ لها قصّة قبل النوم.

ابتسمت له، رغم أنّني كنت أعيش أكثر لحظات حياتي كآبة. قلت:
– أعرف. امنحني أسبوعًا أو أسبوعين لأتجاوز قصّتي مع...
لم أستطع لفظ اسمها.
– ... مع تلك السيّدة... وبعد ذلك سأتصرّف.
– السيّدة؟
تجلّى لطف آلان عندما تمالك نفسه ولم يضحك.

كان طلب منّي المجيء إلى الحانة لمناقشة ترتيبات الاحتفال بعيد ميلادي الأربعين، بعد أقلّ من أربعة أسابيع. لم أكن أعددت شيئًا، وقال آلان أنّه يشعر «بالقلق». بعث لي برسالة نصّيّة في اليوم السابق، قال فيها: **فكّر في بعض الخطط، واحرص على ألّا تطيل لحيتك.**

اختار حانة «بير» في بيسلي للمداخلة تلك. الحانة قديمة وجميلة، كما أنّها تذكّرنا بأيّام شبابنا الذهبيّة، مع أنّها لم تكن مناسبة لكلينا، حيث كان يتحتّم علينا في ما بعد تقاسم أجرة سيّارة من أجل

العودة، كما كان يتحتّم على آلان العودة في اليوم التالي لإحضار سيّارته. لكنّ آلان كان سينتقل إلى القرية بعد فترة وجيزة، ورغب في المجيء إلى الحانة ليتذوّق البيرة فيها. أمّا أنا، فكنت سعيدًا بالمجيء إليها بعد أيّام أمضيتها في المستشفيات وصناعة المطابخ.

كانت هانا هارنغتون تسكن قرب الحانة. وقد سبقت لي مصادفتها في ستراود قبل بضع سنوات في متجر لبيع المواد الغذائيّة الصحّيّة. من بين كلّ الأماكن. كنت أبتاع طعامًا لا يمكن أن يُسمّى صحّيًّا، رقائق الموز، أمّا هي فكانت محمّلة بمشترياتها من نخالة الشوفان، وكلّ أنواع الأطعمة التي أصبحت، بشكل غريب، من ضرورات الحياة بالنسبة إلى الأشخاص من الطبقة المتوسّطة. كانت تلك هي المرّة الرابعة أو الخامسة التي أراها فيها منذ وفاة أليكس، وقد دُهِشت – كالعادة – من الشبه بين هانا ابنة الثانية عشرة وهانا المرأة الناضجة.

تساءلت كثيرًا كم كان مظهر شقيقتي سيتغيّر لو أنّها ظلت في قيد الحياة.

أخبرتني هانا بأنّها وزوجها نالا موافقة على طلبهما الحصول على منزل في بيسلي. ناقشنا أسعار البيوت وأجور البنّائين، ثمّ ذهب كلّ منّا في سبيله. تمنّيت لو أنّها أخبرتني يومذاك بأنّ سارة انتقلت إلى أميركا. تمنّيت لو أنّها قالت: هل تتذكّر شقيقتي الكبرى الشرّيرة؟ لقد سافرت إلى الخارج قبل سنوات، ولا داعي بعد الآن لأن تقلق أنت وكارول بشأن رؤيتها ثانية.

وضع آلان كأسًا أمامي وجلس. سألني:

– هل تفكّر في السيّدة؟

– نعم، حاوِلْ أن توقفني عن التفكير فيها.

هوى على ساعدي بشبه ضربة كاراتيه، قائلًا:

– إيدي، توقّف، توقّف في هذه اللحظة.

ثمّ نظر إليّ، رأيت في عينيه ذلك الافتتان المتوحّش الذي نراه في عيون المتزوّجين منذ سنوات. سألني:

– فيمَ كنتَ تفكّر؟ هل كان هناك أشخاص عراة؟

– لا، ابتسمت وأجبته.

– ماذا إذًا؟

– كنت أفكّر فحسب في كيفيّة تفادي كلّ ذلك. كيف كان في إمكاني إدراك الحقيقة خلال ثوان، لو أنّني علمت فحسب أنّها سافرت إلى أميركا.

بدا آلان شديد الاهتمام بما أقول. عبَّ جرعة كبيرة من كأسه، لاحظت أنّ بقع اللبن تجاوزت بنطاله القصير. كانت هناك بقعة زهريّة على شعر ساقه.

– حتّى لو أدركتَ الحقيقة، لم تكن لتستطيع وضع حدّ للأمر. فقد أخبرتَني بأنّك شعرت بانجذاب نحوها منذ اللحظات الأولى.

تذكّرت الدقائق القليلة الأولى في صحبة سارة. كم كانت ذكيّة ومرحة وحلوة. تذكّرت كيف أطلتُ المزاح عمدًا حول الخروف لأنّني كنت أريد أن يطول بنا الحديث.

– لكنّني وضعت حدًّا للأمر لحظة اكتشافي الحقيقة. وكنت لحظتذاك قد أُغرمت بها وانتهى الأمر. اسمع أيّها التافه، طلبتُ منك إيقافي عن التفكير فيها.

– طبعًا. أنا آسف، قال لي وقد أطلق ضحكة.

آلان هو ذلك الشخص الذي يعتقد الناس أنّني أشبهه. مسترخٍ وواثق في نفسه، لا يتأثّر كثيرًا بما يحصل حوله. رجل يبدو دائمًا أنّه يغالب الضحك، حتّى لو فاته القطار – وهذا ما يحصل غالبًا – أو فَقَدَ حافظة نقوده – وهذا أيضًا ما يحصل معه غالبًا. أصبحنا صديقين يوم رأيته يحشر إصبعه في إحدى فتحتي أنفه أثناء إلقاء خطاب الترحيب في المدرسة الثانويّة، وبدل أن يحمرّ وجهه خجلًا، ابتسم لي وتابع ما كان يفعل. في ما بعد، تحدّاني في لعبة ورق، ولم يكترث البتّة عندما تغلّبت عليه.

لم نناقش أمر صداقتنا، لأنّنا كنّا مشغولين تمامًا بركل الكرات والتظاهر بعدم رؤية أيّ من الفتيات، لكنّنا أصبحنا صديقين حميمين. شركاء في ارتكاب الجرائم؛ وفي إثارة المشاكل، وهو ما كان يحدث غالبًا. بل إنّنا طُردنا من مدرستنا بعض الوقت، عندما حضَّرنا مادّة شبيهة بالقيء ورميناها من نافذة الحمّام على الأساتذة المتمرّدين على التقاليد، الذين يدخّنون ويرتدون السترات الجلديّة ولا يقصون شعورهم إلّا نادرًا. ظننت يومذاك أنّ والدتي ستقتلني، لكنّها ما إن دخلنا السيّارة حتّى ضحكت. كانت تضحك كثيرًا في تلك الأيّام. قالت لي: أنتما مجرّد صبيّين.

بعد ثلاثين سنة تقريبًا، يبدو أنّني وآلان لم نتغيّر كثيرًا.

لكنّني لم أعد أشبه آلان. فقد غاب إيدي البسيط ذو الطبع الصبياني، بالتأكيد، عندما وجدتُ والدتي أوّل مرّة غائبة عن الوعي غارقة في القيء ومحاطة بعلب الأدوية. وإذا لم يغب إيدي بعد تلك الحادثة، فلا بد أنّه غاب إلى الأبد بعد المرّة الثانية أو الثالثة التي وجدتُها فيها في الحمّام وقد قطعت شرايين معصميها وخيوط الدم تسيل مع الماء. وإذا لم تكن المحاولات الثلاث الأولى كافية لإنهائي تمامًا، فقد تكفّلت المرّة الرابعة بذلك، بعد مضي سنوات من خروجها من المصحّ النفسي، وبعد فترة طويلة ظننتُ فيها أنّني انتهيت من الرحلات في سيارات الإسعاف وبنود قانون الصحّة النفسيّة، والليالي الطويلة التي كنت أبحث فيها عن العملات المعدنيّة كي أضعها في جهاز بيع المشروبات في المستشفى.

مع ذلك، أنا لا أريد تقديم انطباع خاطئ عن حياتي: فلم تكن السنوات العشرون الماضية سيّئة قطّ. لديّ الكثير من الأصدقاء، وحياة اجتماعيّة لائقة بالنسبة إلى ناسك يعيش ويعمل في مكان ناءٍ، بل كانت لديّ صديقات. أمارس عملًا أحبّه، وأعيش في مكان جميل، وعندما أرغب في مغادرة مدينتي، لديّ خالة صبور مستعدّة للإقامة مع والدتي.

ثمّ قابلت سارة، فتذكّرت نكهة الحياة. الرقّة، السهولة، الضحك. غنَّت لي الحياة في تلك الفترة أعذب ألحانها.

تساءلتُ كثيرًا عمّا إذا كنت قدّمت لسارة نسخة مزيّفة من إيدي ديفيد خلال الأسبوع الذي أمضيناه معًا. نسخة أكثر سعادة وتلقائيّة. لكنّني لا أعتقد أنّ هذا ما حصل. كلّ ما في الأمر أنّ سارة رأت شخصيّتي التي كنت قد نسيتها منذ زمن طويل؛ شخصيّة كانت سارة وحدها قادرة على إحيائها.

تنهّد آلان، وقال، وهو ينحني ليحكّ بأظافره بقعة اللبن الجافة عن ساقه:

– إد، يؤسفني أن أقول لك أنّ الأمر صعب.

قلت له في حزم أنني سأتجاوز الأمر.

عببت جرعة كبيرة من كأس البيرة، واستندت إلى ظهر المقعد. كنت جاهزًا للحديث حول المشاكل التي تواجهها ليلي في مدرستها الابتدائيّة، أو عن الخبر الصادم الذي سمعناه عن زوجة صديقنا تيم الحامل التي تخونه.

لكنّ آلان لم يكن قد أنهى الحديث حول مشكلتي.

– إد، هل أنت واثق في ما تقول؟ اعذرني، لكنّك لا تبدو كمن يستطيع تجاوز الأمر. تبدو في وضع رهيب.

أخذني قولُه على حين غرّة. قلت له، بلهجة أقرب إلى السؤال:

– نعم، أنا واثق. ولكن، بغضّ النظر عن كلّ شيء، هل لديّ خيار آخر؟ استمرار علاقتي بسارة سيقضي على والدتي. وأنا أعني ذلك حرفيًّا.

جفل آلان لسماع ذلك.

– أعرف. أنا لا أخالفك الرأي. ولكن لم يكن ذلك سؤالي. سألتك ما إذا كنت واثقًا في أنّك ستتجاوز الأمر.

نظر في عينيّ مباشرة، وشعرت بشيء يعتمل داخل صدري، تحت جلدي مباشرة. مضت سنوات وسنوات على ذلك الشعور وهو يستميت للانطلاق خارجًا، لا يحول دون انطلاقه سوى طبقة رقيقة من الجلد. قلت بعد هنيهة:

– لا، لست واثقًا.

أومأ برأسه. كان يدرك ذلك.

– أنا أقف متأرجحًا على الحافّة، عند تلك الحافّة اللعينة، ولا أدري ما أفعل.

أدرتُ كأسي حول نفسها مرّات عدّة، محاولًا مقاومة الدموع الحارّة التي كادت تنهمر من عينَيّ.

– أنا لا أستطيع النوم. أعجز عن التركيز. كلّ ما أفعله هو التفكير في سارة. أشعر بأنّني... يائس، فأنا أعرف أنّني وضعتُ حدًّا لاحتمال حصول أيّ شيء. منذ عودتي من لوس أنجلوس، بدأت أشعر بأنّني لم أعد قادرًا على رعاية والدتي. غالبًا ما أجد نفسي أفكّر في أنّه لم يعد في وسعي الاستمرار. ولكن، آلان، هذا ليس خيارًا مطروحًا، فماذا ستفعل هي إذا فقدتُ أعصابي أنا وهربت؟ أنا... تبًّا.

وافقني آلان في هدوء:

– تبًّا.

لم أعد أقوى على الكلام. شرب آلان من كأسه، ثمّ أسرّ لي:

– إد، كثيرًا ما أتساءل عمّا إذا كنتَ بحاجة إلى من يساعدك في رعاية والدتك. أخبرتني جيا عن صديقة لها أمضت خمس عشرة سنة في رعاية زوجها. قصّة محزنة – فقد سقط عن درّاجته، وهو حاليًّا مصاب بشلل كامل... في أيّ حال، في الشهر الماضي، أصيبت هذه المرأة بانهيار. لم يعد في استطاعتها فعل المزيد. لم يعد في وسعها الاستمرار. لكن هذا لا يعني أنّها لم تعد تحبّه. فهي تعبده.

سكت قليلًا، ثمّ عبّ جرعة أخرى، وتابع حديثه:

– دفعني ذلك إلى التفكير فيك يا صديقي. أعني، لا بدّ أنّ ذلك يحمّلك فوق طاقتك، وأنا أعني ذلك جدّيًّا.

صدر منّي صوت لا ينمّ عن شيء، لأنّني لم أكن راغبًا في إجراء تلك المحادثة. كانت جيما آخر شخص حاول إجراء محادثة من هذا النوع معي. حاولتْ أن تخبرني بأنّه سيُقضى عليّ إن لم أسعَ إلى المزيد من الحرّيّة الشخصيّة. وفضّلت يومذاك أن أعتبر كلامها انتقادًا لوالدتي. وقع بيننا شجار، لكنّني كنت أدرك في قرارة نفسي أنّها ربّما كانت على حقّ.

– مع ذلك، قلت له، لا يوجد من يمكنه فعل ما أفعله أنا. الأمر هنا لا يقتصر على كون والدتي بحاجة إلى مَن يساعدها على الاستحمام أو يعدّ لها الطعام. هي بحاجة فقط إلى شخص تثق فيه تتحدّث معه بالهاتف، أو شخص يأتي ليراها عندما يتملّكها الارتباك. أنا أصطحبها للتسوّق، أخلّص بعض الأمور، أتحدّث معها. أنا صديقها، ولست مجرّد شخص يرعاها.

أومأ آلان برأسه، لكنّني لم أكن واثقًا في أنّه يرى الموضوع من المنظار نفسه. قال:

– فكّر في الأمر. إد، أمّا بالنسبة إلى سارة... فقد كان تصرّفك صائبًا. فعلت الشيء «الوحيد» الذي يمكنك فعله.

– هكذا إذًا؟

– تذكّر روميو وجولييت. أو طوني وماريّا.

في العادة، كان حبّ آلان للمسرحيّات الغنائيّة يسلّيني، أما في تلك الليلة، فلم يكن مزاجي في وارد الحديث عن مسرحيّة «قصّة الحيّ الغربي».

مضى آلان في حديثه:

– كانا يدركان أنّ حبّهما غلطة، لكنّهما استمرّا رغم ذلك وأفضى بهما الأمر إلى الموت. أمّا أنت فقد كنت أكثر ذكاء. قاومت مشاعر الحبّ، وهذا يتطلّب شجاعة كبيرة.

– آلان، لا بدّ أنّ سماع ذلك أمر رائع. شكرًا. لكنّ المشكلة الحقيقيّة هي أنّني مضطرّ إلى التوقّف عن حبّها، لكنّني لا أعرف كيف.

بدت على آلان علامات التفكير العميق، قال:

– تساءلت كثيرًا كيف يمكن فعل ذلك؟ كيف تحمل نفسك على الانسحاب من غرام شخص ما؟ ما الذي يمكن أن تقوم به فعليًّا؟ لماذا لا تُصدِر مجموعة هينز دليلًا حول هذا الموضوع؟

وبينما كان ينعم التفكير في السؤال، كانت خصلات شعره الأشقر تتدلّى من جوانب رأسه بشكل مضحك. لم يسبق لآلان قطّ أن وجد نفسه مضطرًّا إلى التوقّف عن حبّ امرأة. فقد تزوّج جيا منذ تسع سنوات، ما يعني أنّ علاقتهما دامت تسع عشرة سنة. قبل جيا، كانت هناك شيللي التي سحق آلان قلبها، وشعر بالذنب كثيرًا. إضافة إلى بضع فتيات من المدرسة اقتصرت علاقته بهنّ على إرضاء غرائزه كمراهق.

كيف تتوقّف عن حبّ شخص ما؟ لم يكن حبّي لسارة مجرّد تكرار لتجربة عشتها قبلًا؛ كان حبًّا زرعته في قلبي وسقيته من عشقي. وعندما تبادلنا عبارات الوداع، كان قد غدا واقعًا، مثلها هي تمامًا.

كيف يمكنني قتل تلك المشاعر؟ حتّى لو تركتُ للزمن مهمّة إخماد تلك المشاعر ببطء، فستبقى آثارها متناثرة في كلّ أنحاء كياني. ضحكتها الطبيعيّة المفاجِئة، شعرها المبعثر على الوسادة. صوت ثغاء الخروف، ومنظر الفأرة بين أصابعها النحيلة.

قلت بعد فترة من الصمت:

– ليست لديّ أدنى فكرة كيف تتوقّف عن حبّ شخص ما. كان آلان يراقبني. تابعت: أعتقد أنّ في الإمكان الجلوس والانتظار... لا أدري. انتظار أن يهدأ جيَشَان العواطف؟ حاليًّا، أنا أشعر بأنّني قِدْر يعمل بالبخار.

– ربّما هذا ما جعل كثيرين من الشعراء يتحدّثون عن القلب المحطّم. فهذا يساعد في تصريف البخار. أشبه بعمليّة فصد الدم. التخلّص السريع من العواطف المحمومة.

– هذا صحيح، قلت متنهّدًا. التخلّص السريع يبدو تعبيرًا مناسبًا. إطلاق العواطف.

ساد الصمت هنيهة، ثمّ صدر صوت شخير، شرعنا نضحك. قال آلان:

– إذا شئت الابتعاد لتطلق ما في داخلك في سرعة، فلن أمانع.

وقف متّجهًا نحو البار. نظرت إلى كاحليه، وابتسمت. كانت بنية آلان عادية، لكنّ كاحليه كانا من النحول بحيث يمكن تطويقهما باليد. وعندما أفعل ذلك أحيانًا، يشعر بالامتعاض.

سمعت هدير برّاد المشروبات. وفي المطبخ البعيد، كان هناك شخص ينظّف الأطباق.

نظرت إلى ساعتي، كانت الثامنة والدقيقة الأربعين. تساءلت ماذا تتناول سارة في وجبة العشاء، ثمّ شعرت بأنّني لا أستطيع تحمّل تلك الأفكار.

عاد آلان يحمل كأسين، ثمّ جلس وفرك يديه مسرورًا بفكرة قطع اللحم التي طلبها. شعرت في تلك اللحظة بأنّني لا أرغب في أكثر من أن أكون آلان. آلان غلوفر، الذي تفوح منه رائحة لبن خفيفة، المستقرّ في حياته، الذي لا تشغله سوى مسؤولية إسعاد ابنته الصغيرة الجميلة. قلت له:

– سأذهب إلى الحمّام.

عند عودتي إلى الطاولة، لاحظت أنّ رجلًا وامرأة شغلا الطاولة الموجودة في الزاوية. كانا يرتديان ثيابًا سوداء، وبدا واضحًا أنّهما في وضع غير عادي. كانا صامتين، رغم أنّ المرأة كانت تتمسّك بالرجل كأنّهما يسيران وسط ريح عاتية.

لاحظت في تلك اللحظة أنّ المرأة كانت تبكي، خطر في بالي أنّني أعرفها. أبطأت سيري قليلًا لأتمكّن من رؤيتها بشكل أوضح، وأدركت بعد ثوان أنّها هانا هارنغتون، شقيقة سارة. كانت قريبة منّي، تجلس ملتصقة برجل تصوّرت أنّه زوجها. كان وجهها محمرًّا وقسماته مشوبة بالحزن، لكنّني عرفتها. ظِلٌّ لسارة. مثلما كانت على الشاطئ عندما تركتُها، مذهولة، بائسة، صامتة تمامًا.

لم ترني هانا، وسرت بسرعة إلى طاولتنا. أخبرت آلان عن موكب سيّارات الجنازة الذي شاهدته متّجهًا نحو قرية سارة، ثمّ شعرت باضطراب في معدتي دفعني إلى القول فجأةً أنّه، وبما أنّ هانا تبكي، فلا بدّ أن يكون الميت شخصًا مقرّبًا من أسرة سارة. همست:

– يمكن أن تكون سارة جاءت لتحضر الجنازة، شعرت بأنّ صوتي قارب حدّ الجنون. قلت: آلان، يمكن أن تكون سارة في بعد بضعة كيلومترات من هنا!

ظهر القلق على آلان، ثمّ ردّ:

– إيّاك أن تذهب للبحث عنها.

وصلت قطع اللحم بسرعة، وانتهى الأمر بأن تناول آلان وجبتي.

وقفت بعد قليل لأحضر المزيد من المشروب، ولاحظت أنّ هانا وزوجها غادرا المكان. لم أستطع التوقّف عن التفكير في هويّة المتوفّى. وفي لحظة مرعبة، خطر لي احتمال أن تكون سارة ذاتها هي المتوفّاة.

كانت الفكرة حمقاء، بالطبع، لكنّني لم أتمكّن من التخلّص منها طوال فترة المساء. فقد تماشت مع الأفكار التي شغلتني بقوّة بعد عودتي من لوس أنجلوس، مع الصوت الذي ما انفكّ يسألني: ماذا لو توفّيت سارة، هل سيستمرّ الشعور بأنّ ما فعلتَه كان تصرّفًا صائبًا؟

أحسست بأنّني ثملت إلى حدّ يثير الحرج، فقد صرت أضرب بقبضة يدي الطاولة احتجاجًا على القنوط الذي يغلّف الأشياء.

أنا لست رجلًا يضرب بقبضته الطاولة. عندما قال آلان أنّه يجدر به العودة معي إلى منزلي ليشرب الويسكي ويشاهد الألعاب الأولمبيّة، لم أناقشه. فلو كنت أنا مكانه، لم أكن لأترك صديقي ليتصرّف على هواه في تلك الأمسية.

الفصل الثالث والأربعون

غاليتي،

كفى! يجب أن أنسى سارة. ليس فقط أن أتّخذ قرار نسيانها، ومن ثمّ أمضي وقتي في التفكير فيها. لا. يجب أن أضع حدًّا للأفكار مجرّد أن تبدأ الظهور. ليس لأنّها عديمة الجدوى، بل لأنّها خطيرة أيضًا. فما إن يُسمح لها بالدخول حتّى تنتشر أسرع من الفيروسات ويصبح من المستحيل السيطرة عليها. وعندما أنظر إلى والدتي، أدرك إلى أين يمكن أن تؤدّي بي تلك الأفكار.

إذًا، انتهى الأمر يا قنفذتي. حان الوقت لأضع قيد التنفيذ فكرة امتلاك الخيار التي لا أنفكّ أتبجّح بها.

شكرًا لأنّك الشاهد على ذلك. وكما هي العادة.

أنا
قبلاتي

أعدت قراءة الرسالة قبل أن أتناول الظرف، كأنّني أحاول التشبّث بسارة بضع دقائق إضافيّة. كانت أشعّة شمس الصباح الباكر تدخل من النافذة وتتسلّل إلى الأشياء المتناثرة الموجودة دائمًا على طاولة مكتبي: كاتالوغات غطّاها الغبار، فواتير، مسطرة، عدد لانهائيّ من أقلام الرصاص وقصاصات الورق الصغيرة، أكواب شاي بارد. رغم كلّ تلك العقبات، تسلّل شعاع رفيع من الضوء ليحطّ على قطعة الورق الأرجوانيّة المستطيلة التي كتبت عليها رسالتي. بدا الشعاع يشير إلى الرسالة، وينتقل بين الحروف مع حركة الأشجار خارجًا. ثمّ عبرتِ السماءَ سحابة أخفت الرسالة بالكامل، وأعادتها إلى لون الصباح الرمادي الباهت.

أخرجت ظرفًا أرجوانيًّا، وفي تلك اللحظة صدر صرير من الأعلى يعلن استيقاظ آلان، ثمّ سمعت صوتًا مكتومًا يقول: إد، إد!

كان النعاس قد استولى على آلان، وهو مستلق على الأريكة يحاول كتابة رسالة نصّيّة إلى جيا يشرح فيها وضعي النفسي. كتب: «ينبغي أن أراقبه»، ثمّ غطّ في ثبات عميق. أنهيت كتابة الرسالة وأرسلتها إلى جيا كيلا تقلق. كتبت: «ثمل تمامًا في الحانة. من الأفضل أن أبقى جانبه». كانت جيا متسامحة بشأن علاقتي بآلان.

كان آلان يشخر أحيانًا أثناء نومه. فاز الفريق GB للغطس المتزامن للرجال. جلستُ على الأريكة أحاول ألّا أفكّر في سارة.

سمعت وقع الأقدام الخافتة لرجل مخمور آتية من الأعلى. الآن، سيأتي آلان إلى المطبخ كدبّ جائع، يسعى خلف رائحة أيّ شيء لذيذ يمكنه وضع مخالبه عليه. وسيرغب في كوب كبير من الشاي، وأربع قطع، في الأقل، من الخبز المحمّص، ومن ثمّ سيحتاج إلى توصيلة في السيّارة إلى عمله. وسيحتاج أيضًا، على الأرجح، إلى ثياب، فقد كانت ثيابه مغطّاة باللبن المنكّه بالفراولة.

سأقدّم له تلك الأشياء في كلّ سرور، فآلان صديق حقيقيّ. فقد شعر ليلة أمس بأنّني بحاجة إلى رفقة. بأنّني سأشعر بالتعاسة بسبب سارة. كما أدرك بطريقة ما أنّني لست في وضع نفسي جيّد مع والدتي. بالتالي، فإنّ أقلّ ما يمكنني أن أفعله هو إعداد الخبز المحمّص له.

عدت إلى الرسالة، أدخلتها في الظرف وكتبت عليه اسم أليكس، ثمّ ذهبت في هدوء، كي لا يسمعني آلان، نحو الأدراج الموجودة أسفل طاولة الورشة. فتحت الدّرج المكتوب عليه «منحوتات».

داخل الدّرج، كومة كبيرة من الأوراق الأرجوانيّة. صندوق كنزي الحزين؛ السرّ الذي أخفيه داخل حنايا النفس. ها هو الدّرج يمتلئ ثانية: كانت رسائل في الخلف على وشك الانزلاق إلى الدرج الأسفل، حيث أضع المنحوتات فعلًا. أزحتها بحذر إلى مقدّم الدّرج. قد يبدو الأمر سخيفًا، لكنّني كنت لا أطيق فكرة ضياع أيٍّ من تلك الرسائل، أو انثنائها أو تغضّنها، أو إصابتها بضرر من أيّ نوع.

شرعت أتأمّلها وأنا أتنفّس ببطء.

أنا لا أكتب تلك الرسائل طوال الوقت – ربّما مرّة كلّ أسبوعين، وربّما تطول الفترة إذا كنت مشغولًا. لكن هذا هو الدّرج الثالث الذي ملأته بالرسائل خلال السنوات العشرين الماضية. غاصت يدي بين الرسائل بلطف وخجل. تخيّلت الناس وهم يتساءلون: ما شأنه؟ هل ما زال يتمسّك بفتاة ميتة؟ يجب أن يخضع للعلاج النفساني.

كانت سيّدة تدعى جاين بوروز، تعمل مستشارة لحالات فقدان أشخاص أعزّاء، هي التي اقترحت عليّ كتابة رسائل لشقيقتي المتوفّاة. فلم أكن قادرًا على تحمُّل فكرة استحالة الحديث معها بعد تلك اللحظة؛ كانت مجرّد الفكرة تُشعِرُني بالدوار من شدّة الفزع. قالت جاين:

– اكتب إليها رسالة، صف لها مشاعرك، أخبرها بمدى اشتياقك إليها. قل لها الأشياء التي كنت ستقولها لو أنّك كنت تعلم ما سيحدث.

خلال الساعات التي كنت أمضيها صامتًا وأنا أقود سيّارتي بين مبنى المحكمة والعيادة النفسانيّة والبيت الذي أمضيت فيه طفولتي، والذي أضحى خاليًا، كنت أجد العزاء في تلك الرسائل. كان لديّ أصدقاء بالطبع، بل إنّني تعرّفت بفتاة أصبحت صديقتي في برمنغهام، حيث أنهيت سنتي الدراسيّة الأولى في الجامعة. كانت خالتي مارغريت تتّصل بنا هاتفيًّا كلّ يوم، وحضر والدي من كمبريا للمساعدة في ترتيبات جنازة ابنته. ولكن، لم يكن هناك أيّ شخص يعلم كيف يتصرّف معي، لم يعرف أحد ماذا يمكن أن يقول لي. لم يتمكّن أحد من أصدقائي ورغم صدق نواياهم، من مساعدتي، وهربت صديقتي من المشهد بكامله لحظة أتيح لها ذلك بالصورة اللائقة. أما والدي، فقد كان يتفادى مشاعر الحزن بتمضية جلّ وقته في الحديث مع زوجته بالهاتف.

كتبت الرسالة الأولى في غرفتي الخالية، في مقرّ إقامتي في الجامعة، يوم ذهبت لآتي بأغراضي. كانت والدتي آنذاك في قسم احتجاز المرضى النفسانيّين الخطرين. ولم يكن هناك أيّ مجال لأعود إلى الجامعة من أجل السنة الدراسية الثانية.

لكنّني بعد كتابة الرسالة، تمكّنت من النوم. نمت طوال الليل. ورغم أنّني بكيت صباح اليوم التالي عندما رأيت الظرف الأرجواني، شعرت بأنّ الضغط داخلي... خَفَّ قليلًا. كأنّني أحدثت ثقبًا سمح بتسرّب جزء من الضغط الحبيس. كتبت ليلتذاك رسالة أخرى، عندما أفرغت حقائبي إثر عودتي إلى غلوسترشير، ولم أوقف الكتابة منذ تلك اللحظة.

حجزت موعدًا لرؤية جاين خلال بضعة أيّام. فقد كانت لا تزال تمارس مهنتها من منزلها في شارع رودبورو. لم يتغيّر صوتها، تذكّرتني وقالت أنّها كانت مسرورة في اتّصالي بها. قلت لها أنّني أودّ رؤيتها لأنّ علاقتي بسارة هارنغتون قد نكأت بعض «الجروح القديمة»، لكنّني لا أدري ما إذا كان ذلك كلّ ما في الأمر. فقد كنت أشعر – بل شعرت منذ أن عدت – بأنّ كلّ شيء كان يحصل بشكل خطأ. وكأنّني عدت إلى حياة غير حياتي، وإلى سرير غير سريري، وإلى حذاء ليس حذائي.

أما الأمر المقلق فعلًا فهو الشعور بأنّ كلّ شيء كان خطأ مدّة عشرين سنة تقريبًا، من دون أن أدرك ذلك.

استدرت ونظرت إلى ورشتي، إلى بيتي الآمن، إلى الملاذ الذي ألجأ إليه. البيت الذي بنيت كلّ جزء فيه بنفسي بمشاعر الغضب واليأس. شربت فيه ألوف أكواب الشاي، غنّيت فيه مع الألحان الآتية عبر المذياع، سحبت عددًا لا يحصى من شظايا الخشب من جسمي، عاشرت نساء تحت تأثير المشروب. لا أدري ما كنت سأفعل من دون وجود هذا البيت.

والواقع أنّني أدين بهذا الفضل لوالدتي. كان والدي من أراد في الأصل أن أغوص في عالم الخشب وأعشقه، ومن ثمّ كان هو من عارض بشدّة أن اتّخذ النجارة مهنة لي. ولم يُوقف، طوال السنوات العشر التي مضت مُذ هرب مع فيكتوريا الوجه القذر – وهو الاسم الذي ابتكره لها آلان حينذاك، ولقي رواجًا لدى الجميع – ومن ثمّ موت أليكس، التدخّل في شؤون حياتي وقراراتي كأنّه لا يزال يتربّع على رأس المائدة في المنزل. جنّ جنونه عندما أخبرته بأنّني أفكّر في الالتحاق بدورة لأتعلّم صنع الأثاث، بدل التقدّم للامتحانات. قال لي وهو يصرخ عبر الهاتف: أنت تتمتّع بعقل أكاديمي. إيّاك أن تجرؤ على التفريط به. سوف تدمّر مستقبلك المهني.

كانت والدتي، في تلك الأيّام، لا تزال قادرة على خوض مشاجرة. اختطفت سماعة الهاتف من يدي وقالت له: وما العيب إن لم يرغب في أن يكون محاسبًا؟ كان صوتها يتهدّج من شدّة الغضب. وأضافت: نيل، هل رأيت القطع التي صنعها؟ الأرجح أنّك لم ترها لأنّك لا تأتي إلى هنا إلّا نادرًا. اسمع ما سأقوله لك، ابننا يتمتّع بموهبة نادرة. كفّ عن إزعاجه.

ابتاعت لي أوّل مسحج كان رقمه 7، وكان أداة مستعمَلة رائعة. ما زلت أستخدمها إلى اليوم. بالتالي، عندما أفكّر في ما أملك، أشعر دائمًا بالامتنان لها.

قال آلان:

– صباح الخير. بدا صوته مشوّشًا. كان يقف عند أسفل الدرج وهو يرتدي سرواله وفردة جورب واحدة. إيدي، أودّ أن أشرب فنجانًا من الشاي، وأن آكل خبزًا محمّصًا، وأحتاج إلى توصيلة في السيّارة. هل في إمكانك مساعدتي؟

بعد ساعة تقريبًا، أوقفت السيّارة أمام منزله في أعلى ستراود. أبقيت المحرّك شغّالًا بينما هرع هو إلى المنزل لارتداء ثياب لائقة بالعمل، فقد رفض في فتور ارتداء أيّ من ثيابي. أخذت أتأمّل المقبرة في أسفل الوادي، لوحة يتقاطع فيها الشعور بالفقدان مع الشعور بالحبّ. لم يكن هناك أحد في المقبرة سوى قطّة تسير في حذر على طول صفّ من شواهد القبور.

ابتسمت. قطّة نموذجيّة. لماذا السير باحترام فوق العشب، إذا كان ممكنًا السير من دون مراعاة أحد فوق قبر كائن بشريّ؟

بدأ جرس كنيسة يقرع في مكان ما – لا بدّ أنّها الساعة التاسعة – تذكّرت فجأةً موكب الجنازة الذي مرّ أمسِ. سيّارة الموتى اللمّاعة الهادئة التي تبعث الاضطراب في النفس على جميع الأصعدة. قسمات وجه السائق المستقرّة، وأكداس الزهور البرّيّة التي تتدلّى على أطراف التابوت، والإحساس العنيف بالخوف الذي ينتابنا لدى رؤية أيّ شيء يذكِّر بفناء البشر. عقدت ذراعيّ فوق صدري، شعرت بالقلق فجأةً.

من المتوفّى؟ من يكون؟

ثمّ تذكرت الوعد الذي قطعته لشقيقتي، قبل تسعين دقيقة فقط. لن أعود إلى التفكير في سارة. ليس الآن. أبدًا. أبعدت سارة من أفكاري، وركّزت اهتمامي قسرًا على خطّة العمل لذلك اليوم. البند الأوّل: شطيرة لحم من المقهى الكائن جانب الطريق في أستون داون.

نظرتُ إلى القطّة، وحاولت جذب اهتمامها، لكنّها كانت منشغلة بالتخطيط للانقضاض على فأر مسكين.

الفصل الرابع والأربعون

بعد ستّة أسابيع

حلّ الخريف. رائحته تعبق في الهواء، خامًا وقويّةً. لطالما بدا لي أنّه فصل اعتذار غريب. كأنّه يشعر بشيء من الإحراج، لأنّه يطيح أحلام الصيف ليفسح المجال أمام فصل آخر، شاق وقاس.

لكنّني، شخصيًّا، لا أمانع حلول فصل الشتاء. فعندما يضرب الصقيع الأرض، وترمي الأشجار بظلالها المديدة على التراب العاري، يكتسي هذا الوادي طابعًا روحانيًّا فاتنًا. أحبّ منظر الدخان الذي يتلوّى صاعدًا من مدخنة وحيدة، والضوء الشاحب في نافذة بعيدة، كأنّه مشهد من قصص الأطفال الخرافيّة. أحبّ صفاقة أصدقائي عندما يأتون من دون دعوة للجلوس أمام نار موقدي وتناول أطباق اليخنة الوفيرة اللذيذة، التي يعتقدون، كما يبدو، أنّني أطهوها دائمًا لأنّني أعيش في بيت ريفي.

الغريب في الأمر أنّ والدتي أيضًا تبدو أكثر سعادة في الشتاء. والسبب كما أعتقد هو أنّ البقاء في المنزل يصبح مقبولًا أكثر عندما تتدنّى درجات الحرارة. ففي الصيف، يتوقّع الجميع مزيدًا من الأنشطة الاجتماعيّة والمناسبات في الهواء الطلق، في حين أنّ والدتي لا تحتاج في فصل الشتاء إلى تبرير انعزالها عن الحياة، أو إلى الدفاع عنه.

في ذلك اليوم، كنت أرتدي بنطالًا قصيرًا، فلم يكن شهر سبتمبر قد انتهى بعد، وأصعد منحدر تلّ غابة سيكاريدج، المغطّى بخليط الروث وأوراق الشجر. ارتديت البنطال القصير والكنزة القطنيّة، اللذين لم أستطع بعد إقناع نفسي بغسلهما، فقد كانت سارة آخر من ارتداهما.

أسرعت سيري. أحسست بحرقة خفيفة في عضلات باطن ساقي، وأنا أسير بسرعة صاعدًا التلّ، محاولًا قدر المستطاع ألّا تغوص قدماي داخل الطبقة اللزجة السميكة التي تغطي أرض

الغابة. بدأت أرنّم أغنية. كانت الطيورُ الجمهورَ الوحيد الذي يمكنه سماعي، ولا شكّ في أنّها اعتقدت أنّني مصاب بمسّ.

وصلت إلى نهاية الأغنية، حين تبدأ مغنّيتها الصراخ. شرعتُ أضحك. لا شكّ في أنّ حياتي لم تكن هادئة ومستقرّة في تلك الفترة، لكنّ تفادي التفكير في أمور لا تجدي نفعًا كان يتيح لي من دون شكّ فسحة من الراحة.

المشكلة أن جاين بوروز لم تكن توافقني فعليًّا على خطّة إبعاد سارة من مخيّلتي. كانت جلساتي معها ترفع معنويّاتي، وتشعرني بأنّني لست وحيدًا. ومع ذلك، لم توقف إغاظتي في كلّ جلسة. لم أكن أتصوّر كيف تمكن إغاظة شخص ما بأسلوب لطيف ومهذّب ومحترم، لكنّ هذا ما كانت جاين تفعله.

كانت الجلسة في ذلك اليوم غير مسبوقة.

عندما بلغتُ نهاية شارع رودبورو، حيث جاين، صادفت هانا هارنغتون، وهي ترجع سيّارتها إلى الخلف خارجةً من الموقف المخصّص لزوّار جاين. كانت هانا تركّز انتباهها لتفادي الاصطدام بسيّارة أخرى مركونة، وبالتالي لم تلاحظ وجودي. لكنّني نظرت إليها مليًّا. كان منظرها هو نفسه كما رأيتها آخر مرّة: آثار الدموع على وجهها، مرهقة وتائهة.

تساءلتُ عمّا يجعل هانا تتردّد إلى جاين، وسرعان ما برزت مخاوفي القديمة بعنف ثانية. ماذا لو كان المتوفّى أحد والدَيْ سارة؟ لا بدّ أن تكون سارة مضطربة جدًّا والحال كذلك. فقد أخبرتني في رسائلها بمدى شعورها بالذنب لأنّها أصرّت، طوال تلك السنوات، على العيش بعيدة آلاف الكيلومترات. قرّرت أن واجبي أن أساعدها.

قلت لجاين فور وصولي:

– أرغب في الاتّصال بسارة هارنغتون. هل يمكنني الاتّصال بها هنا، وفي حضورك؟

– تعال، اجلس، ردّت بهدوء.

تخيّلت أن تعجبها الفكرة وتسمح لي بذلك.

خلال بضع دقائق، هدأت أعصابي واقتنعتُ بأنّه لا يحقّ لي الاتّصال بسارة هارنغتون، لكنّ ذلك قادنا بالضرورة إلى الحديث عنها. سألتني جاين عمّا إذا كانت محاولة الكفّ عن التفكير في سارة ساعدتني على نسيانها.

أجبت بعناد:

– نعم. ربما. كلّا.

تحدّثنا عن أسلوب نسيان شخص ما. قلت لها أنّني مللت إخفاقي في نسيانها، وأنّني لا أعرف ما يمكن أن أفعل أكثر من ذلك. تمتمتُ بصوت خافت:

– أريد أن أكون سعيدًا. أن أكون حرًّا.

ضحكت جاين حين شكوت لها عدم وجود كتيّب يرشدنا إلى كيفية الكفّ عن حبّ شخص ما. اعترفتُ لها بأنّ آلان هو صاحب تلك الطرفة. ألقت عليّ نظرة لا تعبير فيها، ثمّ قالت:

– إيدي، بما أنّنا نتكلّم عن تحرير أنفسنا، ما رأيك في فكرة التحرُّر في ما يتّصل بعلاقتك بوالدتك؟ ما سيكون شعورك عندما تتخيّل التحرُّر من واجباتك تجاهها؟

شعرتُ بصدمة، طلبت منها تكرار ما قالت.

قالت بلهجة ودّيّة:

– ما شعورك إزاء فكرة تخفيف ذلك العبء؟ هكذا وصفتَ الأمر الأسبوع الماضي. دعني أتأكّد... نظرتْ في دفتر ملاحظاتها. قلتَ، عبئًا مروّعًا.

شعرت بالدم الحارّ يندفع إلى وجهي. جذبتُ خيطًا فالتًا من أريكتها، من دون أن أجرؤ على مواجهة نظراتها. كيف تجرؤ هي على إثارة هذا الموضوع؟

– إيدي، أودّ أن أذكّرك بأنّه ليس ثمة ما يدعو إلى الخجل، إطلاقًا، في الشعور بأنّ الأمر صعب. فالأشخاص الذين يعتنون بأحد أفراد عائلتهم يشعرون، من دون شكّ، بحبّ كبير تجاه هذا الشخص وبالإخلاص له، لكنّهم أيضًا يشعرون بالاستياء واليأس والوحدة، وبمشاعر أخرى كثيرة لا يرغبون في أن يعرفها المريض. بل إنّهم يصلّون أحيانًا للحصول على لحظة راحة هم في أمسّ الحاجة إليها، أو إلى إعادة التفكير في ترتيبات رعاية المريض.

ثبّتُّ نظري في الأرض. شعرت لحظتذاك بالرغبة في الصراخ. لا تتدخّلي! أنتِ تتحدّثين عن والدتي! لكنّني ظللت صامتًا.

– فيمَ تفكّر؟ سألتني.

لم يكن من طبعي الغضب، فقد اضطررت مع الوقت إلى تعلُّم كيفيّة ضبط أعصابي رأفة بوالدتي. لكنّ غضبًا جامحًا اجتاحني في تلك اللحظة. غضبٌ منعني من إدراك ما كانت جاين تحاول فعله لأجلي. منعني من الشعور بالامتنان لأنّها أجّلت إثارة الموضوع أسابيع. تملّكتني الرغبة في الإمساك بالمزهريّة الجميلة المليئة بأزهار فم السمكة، الموضوعة فوق رفّ الموقد، وقذفها إلى الجدار.

قلت لها، وهي المستشارة التي تتمتّع بخبرة سبع وثلاثين سنة:

– أنت لا تدركين الوضع.

إذا كانت جاين قد شعرت بصدمة، فقد تمكّنت من إخفاء مشاعرها جيّدًا.

تابعتُ كلامي، وقد ارتفعت نبرة صوتي:

– كيف تجرؤين على اقتراح الهروب والتخلّي عنها؟ لقد حاولت والدتي الانتحار أكثر من مرّة! مطبخها يبدو أشبه بمركز تركيب الأدوية في مستشفى. جاين، إنّها أضعف شخص أعرفه، وهي إلى جانب ذلك، والدتي. هل والدتك موجودة؟ هل تقومين برعايتها؟

تطلّب منّي الاعتذار واستعادة هدوئي نصف ساعة تقريبًا. طرحت جاين أسئلة لطيفة ومحترمة، أجبت عنها بكلمات مقتضبة، لكنّها لم تتوقّف. كانت تدفعني في رفق، عبر تلك الأسئلة الذكيّة، إلى الاعتراف بأنّني على وشك الوصول إلى نقطة الانهيار في علاقتي بوالدتي. وفي حياتي ككلّ. كانت تدفعني في رفق إلى الاعتراف، على مضض، بأنّ مشاعر الحزن هي التي منعتني من التصرُّف في وقت سابق.

بدت جاين مقتنعة بأنّه في إمكان ديريك مساعدتي في إيجاد حلّ. فلم تكفّ عن ترداد:

– إيدي، هذا من صميم عمله. فهو الممرّض المحلّي المسؤول عن الحالات النفسيّة، وهو موجود لمساعدتكما.

ظللتُ أكرّر أنّني لا يمكن أن أسلّم ديريك والدتي. مهما كان شخصًا رائعًا. قلت لها:

– أنا الشخص الوحيد الذي ترغب في الاتّصال به عندما تكون بحاجة إلى مساعدة. لا يوجد من تثق فيه غيري.

– هل أنت متأكّد؟

– أنا متأكّد. فلو أخبرتُها بأنّها لا تستطيع الاتّصال بي – حتّى لو قلت لها أنّها لا تستطيع الاتّصال بي كثيرًا – فلن تلْقي بالًا إلى ما أقول وستتابع الاتّصال كالسابق، أو أنّها ستصاب بنوبة مرضيّة خطيرة. أنت تعرفين تاريخها. وتعرفين أنّني لست أبالغ من باب التشاؤم.

عندما انتهى وقت جلستنا، لم نكن حقّقنا تقدّمًا حقيقيًّا، لكنّني وعدتها بالمجيء في الأسبوع المقبل من دون أن تنتابني أيّ نوبة غضب.

ضحكت جاين، وقالت أنّني أتجاوب بصورة جيّدة.

بلغت أخيرًا قمّة التلّة. وقفت تحت شجرة الزان التي جئتُ لتفقّدها – لا تبعد سوى أمتار من الحذاء الغامض ذي الساق الطويلة – في شهر يونيو الماضي، حين كنت أتجوّل سيرًا في الريف، تراودني أفكار غاضبة ومشوّشة حول سارة. لاحظت أنّ الشجرة كانت تعاني موت الأطراف، لكنّ وضعها بدا أسوأ في ذلك اليوم. خطر في بالي أنّ للخنافس علاقة بالأمر، فلم يكن على لحاء الشجرة ما يشير إلى وجود عامل ممرض، لكنّ وضعها العام كان ميؤوسًا منه من دون أيّ شكّ. وضعت يدي على جذعها بحزن، وأنا أتخيّل منشارًا سلسليًّا يزمجر وهو يقطع هذا المخلوق المهيب.

شعرت بأنّه لا يجوز أن أبقى صامتًا، فقلت للشجرة:

– أنا آسف. وشكرًا على الأوكسجين وعلى كلّ شيء.

تفقّدت الأشجار المحيطة بها – كان الحذاء ذو الساق الطويلة في مكانه – ثمّ سلكت طريق العودة ونزلت منحدر التلّ، وأنا أضع يدَيَّ في جيبَيّ. حاولتْ أفكاري الانزلاق صوب سارة، وزيارة شقيقتها مستشارةً في مشاعر الحزن، لكنّني قاومت تلك الأفكار. أجبرت نفسي على التفكير في الشجرة. فالشجرة مشكلة أعرف كيف أحلّها. سأتّصل غدًا بالمسؤولين في الدائرة التي تُعنى بالحياة البرّيّة في غلوسترشير، لأعرف ما إذا كانوا بحاجة إلى مساعدة في قطع الشجرة.

عندما وصلت إلى البيت، كنت قد استعدت حالتي النفسية الطبيعية.

دخلت المنزل لأجد والدتي تقف قرب الدّرج الذي يحتوي على الرسائل الأرجوانيّة. الدرج السرّي الذي أودع فيه الرسائل التي لا يعلم بها أحد في العالم سوى جاين. أدركتُ فورًا أنّ والدتي كانت تقرأ، «وفي كلّ هدوء»، إحدى رسائلي إلى أليكس. كانت تمسك الرسالة بإحدى يديها وقد ارتسم على وجهها تعبير بغيض.

مضت لحظة قبل أن أتأكّد أنّ ما أراه يحدث فعلًا. قبل أن أتأكّد أنّ والدتي – والدتي العزيزة – تنتهك خصوصيّتي على هذا النحو. قلبت والدتي الرسالة لتقرأ ما كُتِب خلف الصفحة، لم يعد لديّ أدنى شكّ.

تحوّل شعور عدم التصديق في بطء إلى إحساس بغضب جامح. قلت لها، وقد أحكمتُ قبضتي على إطار الباب، مثل ملزمة الشدّ:

– أمّي؟

أخفت الرسالة خلف ظهرها في لحظة، واستدارت نحوي.

استعدت في ذهني الرسالة النصّيّة التي بعثتُ بها إليها قبل ذهابي: **سأذهب لأتمشّى. لا تقلقي، سوف أترك هاتفي في البيت لأحظى ببعض الهدوء. سأعود خلال بضع ساعات.**

كان من عادتي أن أحدّد وقتًا أطول ممّا أحتاج كي لا تصاب بالذعر.

– مرحبًا يا عزيزي. قالتها بالصوت نفسه الذي تستخدمه عندما تشعر بأنّها تجاوزت حدودها معي. عدتَ بسرعة.

– ماذا تفعلين؟

– أنا...

ساد صمت مرعب، وثقيل، بينما كانت هي تفكّر في ما يمكن أن تقوله لي. كان كلّ شيء ساكنًا. حتّى الأشجار في الخارج لم تُصدِر أيّ حركة، كأنّها في انتظار تأكيد حدوث الخيانة. لم تتمكّن من إخباري بالحقيقة.

– سمعتُ صوتًا. كانت تتلاعب بنبرة صوتها، كأنّها في برنامج تلفزيوني خاصّ بالأطفال. بدا أنّه صوت فأر. هل عانيتَ أخيرًا مشكلة بسبب الفئران؟ كان الصوت صادرًا من هنا. كنت أتطفّل في المكان... فتحت بعض الأدراج. آمل بأنّك لا تمانع...

استرسلتْ في الكلام على هذا النحو إلى أن صرخت، أو بالأحرى خرت كالثور:

– متى بدأتِ قراءة رسائلي؟

ساد صمت أشبه بصمت القبور. قالت بعد فترة:

– وجدت بعض الرسائل، قبل لحظة وصولك. لم أقرأها. ألقيت نظرة خاطفة على إحداها، ثمّ فكّرت في أنّ الأمر لا يعنيني، وكنت أعيدها إلى مكانها عندما...

– لا تكذبي! منذ متى بدأتِ قراءة رسائلي؟

وضعتْ يدها على وجهها، وبدأت ترفع نظّارتها، ثمّ غيّرت رأيها وتركت النظّارة على أنفها مائلة، مثل أرجوحة نوّاسة. نظرتُ إليها ولم أر والدتي. رأيت غضبًا عارمًا، حنقًا هائلًا ملتهبًا.

سألتها مرّة ثالثة:

– منذ متى بدأتِ قراءة رسائلي؟ لا أتذكّر أنّني كلّمتها في هذه اللهجة سابقًا. لا تكذبي. لا تعودي إلى الكذب. أمّي، أطلب منك وبكلّ جدّيّة، لا تكذبي.

لم أكن مستعدًّا لما حدث بعد ذلك. كنت أتوقّع أن تبكي، أن تنهار وتقع على الأرض، طالبة منّي الغفران، لكنّها استدارت فجأةً، وهي ترمي الرسالة في الهواء، كأنّها بطاقة موقف سيّارات، أو شيء يحقّر وجودها. سقطت الرسالة على الأرض تتهادى ببطء يمينًا وشمالًا. وقالت:

– كما كذبتَ أنت عليّ؟ كما كذبت عليّ يوم سافرت إلى لوس أنجلوس لتمضية «عطلة»، ولرؤية صديقك ناتان، ولممارسة رياضة ركوب الأمواج؟ كما كذبتَ عليّ عندما قلتَ أنّ آلان يعاني وضعًا «طارئًا» يوم وصولك؟

تسمّرتُ في مكاني عندما سارتْ في هدوء وتأنٍّ، ووضعت يدها على لوح منضدة العمل الموجودة وسط هذا الجزء من الورشة، وتابعت:

– كما كذبتَ علي بشأن تلك... تلك «الفتاة»؟

تأمّلتني بنظرة متوحّشة، كأنّها تبحث عن ابنها في وجه قاتلٍ ارتكب سلسلة جرائم.

– إيدي، كيف أمكنك ذلك؟ كيف استطعتَ معاشرتها؟ كيف استطعت خيانة شقيقتك بتلك الطريقة؟

لا بدّ أنّها بدأت قراءة رسائلي منذ أشهر.

لا عجب إذًا أنّ شعورها بالارتياب والاضطهاد ازداد منذ عودتي من لوس أنجلوس، وازداد تشبّثها بي. ولا عجب أنّها بذلت ما في وسعها لمنعي من السفر. في العادة، عندما أخبرها بأنّني

أخطّط للذهاب في رحلة، تبدو عليها مظاهر السرور، لأنّ ذلك يسمح لها بإقناع نفسها بأنّني ما زلت أعيش حياتي الخاصّة. أمّا في تلك المرّة، فقد تصرّفتْ كأنّني سأهاجر إلى أستراليا.

– تلك الفتاة، قالت وهي ترتعد. بدت أنّها تتحدّث عن شخص اغتصب أو اعتدى جنسيًّا على طفل، لا عن سارة هارنغتون. رغم أنّني أعتقد أنّ والدتي لم تكن تميّز سارة من أولئك، من حيث الإجرام الأخلاقي. أضافت: كنت أعني ما قلتُ ذلك اليوم. أتمنّى لو كانت هي في ذلك النعش.

– أمّي، إكرامًا لله! قلت لاهثًا.

كادت الدهشة تخنق صوتي.

– بعد كلّ ما عانيتِه من ألم، تتمنّين الألم ذاته لشخص آخر؟ هل أنتِ جادّة؟

أصدرت صوتًا ينمّ عن عدم الاكتراث. بدأت أفكاري تتقافز في جميع الاتّجاهات، لتلاحظ الإشارات في كلّ مكان. هذا ما جعلها تمرض ثانية. فهي تعرف بأمر سارة منذ أشهر.

سألتُها في هدوء:

– هل أنت من اتّصلت بها بالهاتف؟ هل أنت من بعث إليها برسالة تهديد؟ هل هذا ما جعلك تطلبين جهاز هاتف جديدًا في شهر يوليو الماضي؟

فقد قالت لي يومذاك أنّها تتلقّى مكالمات تسويق. إيدي، إنّهم يضايقونني. أنا بحاجة إلى رقم هاتف جديد.

– نعم، أنا من اتّصلت بها. ولست بنادمة. كانت ترتدي كنزة زهريّة. ولسبب ما، ضاعَفَ هذا اللون قبحَ الموقف.

– هل ذهبتِ إلى مدرستها القديمة في ذلك اليوم؟ هل كمنتِ لها عند القناة قرب منزل والديها عندما كانت تزور القرية؟

قالت، بصوت أقرب إلى الصراخ:

– نعم، كان على أحد منّا أن يتصرّف. لم يكن في استطاعتي أن أسمح لها بإفسادك. أنت كلّ من تبقّى لي.

وإذ لم أجبها، عادت لتكرّر:

– كان على أحد أن يتصرّف. وبدا واضحًا أنّك لن تتصرّف. كنت تتسكّع بكآبة وتخبر شقيقتك المسكينة بمدى «حبّك» للمرأة التي قتَلَتْها...

خَفَتَ صوتُها إلى أن اختفى. عاودت الكلام بصوت أشبه بالهسيس. لم أعد قادرًا على سماع ما تقوله. كلّ ما تمكّنت من التفكير فيه هو الرغبة في سؤالها: هل لديك أدنى فكرة عمّا عانيتُه كي أحميك من هذا الموقف؟ كم شعرتُ بالوحدة؟ هل لديك أدنى فكرة بِمَا ضحّيت كي أحافظ على سلامتك النفسيّة؟

لاحظت أنّها توقّفت عن الكلام، وأنّ عينيها كانتا واسعتين مغرورقتين بالدموع.

سمعتني أسألها، رغم معرفتي الجواب:

– كيف حصلتِ على رقم هاتف سارة؟ كيف علمتِ أنّها ستكون في مدرستها القديمة في ذلك اليوم؟ هل كنتِ تفتّشين هاتفي، أيضًا؟

ردّت بالإيجاب، واعترفت:

– وتلك غلطتك أنت، إيدي، فلا تغضب منّي إذًا. كنتُ مضطرّة إلى التدخّل بصورةٍ ما. كان عليّ أن أحاول حماية أليكس من... «من هذه».

انسابت عبرة من عينها، لكنّ صوتها ظلّ ثابتًا. كررتْ ما قالت:

– إنّها غلطتك. أنت من تحبّ الكلام عن امتلاك الخيار! كان لديك الخيار، واخترت تلك المرأة. «تلك الفتاة».

هززت رأسي، وأنا أشعر بالغثيان. ما زالت مشاعر الكراهية داخلها مهتاجة، قاتلة، تمامًا مثلما كانت في الأسابيع التي تلت موت أليكس، لم تتغيّر بعد مرور كلّ تلك السنين.

عادت لتكرّر ثانية:

– هذه غلطتك. ولن أعتذر.

عندما قالت ذلك، شعرتُ بأنّ ثقبًا انفتح في جلدي. تلك الطبقات الرقيقة المشدودة سنوات كثيرة، تخلّت عن مقاومتها وبدأت تنزف. اندفع منها كلُّ الاستياء والغضب والوحدة والقلق والخوف، كلّ شيء – كل ما يخطر في البال، كما يندفع الماء من أنبوب ضخم أصابه انفجار. أدركتُ في تلك اللحظة أنّه لا يمكنني الاستمرار على هذا النحو. قضي الأمر.

استندت إلى الباب منهك القوى. عندما استعدت قدرتي على الكلام، بدا صوتي رتيبًا، كأنّني أقرأ النشرة الجوّيّة الخاصّة بالملاحة البحريّة.

قلت بصوت خالٍ من أيّ تعبير (وكأنّني أقول وضْعُ خليج بسكاي: جيّد)، كلّا يا أمّي، لا تلوميني، أنا لست مسؤولًا عن تصرّفاتك. أنا لست مسؤولًا عن مشاعرك، أو عن أفكارك، لأنّك السبب في كلّ ذلك. أنا لست مسؤولًا عن أيّ شيء. أنتِ اخترتِ قراءة رسائلي. اخترتِ إزعاج سارة من دون توقّف. أنت اخترتِ تحويل كلّ ما مررت فيه خلال الأشهر القليلة الماضية – وهو أشبه بالجحيم – خيانة عظمى. فعلتِ كلّ ذلك وحدك؛ أنا لم أفعل شيئًا.

شرعتْ تبكي بحرقة، رغم ما كان يعتريها من غضب.

– أمّي، أنا لست مسؤولًا عن مرضك. ولا حتّى سارة مسؤولة. لقد بذلتُ ما في وسعي من أجلك، كلّ ما أقدر عليه، في حين أنّك اقتحمتِ الفسحة الصغيرة الوحيدة من الخصوصيّة التي كنت أتصوّر أنّني ما زلت أتمتع بها.

هزّت رأسها.

– نعم، قابلتُ سارة. نعم، أُغرمت بها. لكنّني تخلّيت عنها في الدقيقة نفسها، لا بل في الثانية نفسها التي اكتشفتُ فيها الحقيقة. وكلّ ما فعلتُه منذ تلك اللحظة، كان في سبيل مصلحتك أنتِ، لا مصلحتي أنا، بل مصلحتك أنتِ. وما زلتِ تلومينني؟

تأمّلتها، وهي تفكّر في فعل ما. بدأت تشعر بالذعر. هذا لا يعني أنّها أصغت إلى ما قلت، أو حتّى فكّرت فيه، أو أدركتْ – لا سمح الله – أنّني قد أكون على حقّ؛ كلّ ما في الأمر أنّها كانت معتادة أن أستسلم لدى بلوغنا هذه المرحلة، ولكن بدأ يتّضح لها أنّني لن أستسلم هذه المرّة.

ثمّ فعلت ما كنت أتوقع: عادت إلى اتّخاذ وضع الضحّيّة.

قالت، وقد بدأت الدموع تنهمر على وجنتيها:

– إيدي، لا بأس. إنّها غلطتي. أن أعيش هذه الحياة البائسة، أن أكون محتجزة في بيتي، أتجرّع تلك الأدوية الكريهة. كلّ ذلك غلطتي أنا.

تأمّلتْ وجهي، لكنّني لم أحرّك ساكنًا. تابعتْ كلامها: في إمكانك التفكير كما تشاء، إيدي، لكنّك لن تدرك أبدًا مدى قسوة الحياة عليّ.

شعرتُ بأنّ قولها يظلمني، فقد أمضيتُ تسع عشرة سنة لم أتوقف فيها يومًا عن رعايتها.

وقفنا في مواجهة بعضنا بعضًا، مثل بيدقين على رقعة شطرنج. كانت والدتي هي من حوّلت نظرها أوّلًا. فعلتْ ذلك، من دون ريب، كي تشعرني بأنّني الطرف المعتدي. نظرتْ، والبؤس بادٍ عليها، إلى لوح العمل بينما كانت الدموع تنهمر من عينيها فوق الأخاديد العميقة وأثار المنشار على اللوح.

قالت في نهاية الأمر، مثلما كنتُ أتوقّع:

– إيدي، لا تتركني. أنا آسفة بسبب ما فعلت. لقد أرهقني التفكير فيك و... فيها. دمّرني.

أغمضتُ عينيّ. كرّرت ما قالته:

– إيدي، لا تتركني.

دُرتُ حول لوح العمل وعانقتها. كانت مثل عصفور دوري صغير، سريعة العطب. ضممتها بقوّة وفكّرت في صديقتي جيما. كانت عاجزة تمامًا عن فهْم لحظة كهذه. اللحظة التي توصلني فيها والدتي إلى أقصى درجات التحمّل، وتظلّ مهمّتي أنا، رغم ذلك، بَثُّ الطمأنينة في نفسها، والتأكيد أنّ الأمور على ما يرام. كانت فكرة الاستسلام للأمر الواقع غير مفهومة كلّيًا بالنسبة إلى جيما. لكنّني أعتقد أنّها، مثل معظم الناس، لم تعش تجربة تكون فيها مسؤولة عن الصحّة النفسيّة لإنسان ما. فهي لم تفقد شقيقتها، ولم تشعر بعد ذلك بأنّها تكاد تفقد والدتها.

لكن هذه المرّة كانت مختلفة. كنت أعانق والدتي لأنّني كنت مضطرًّا، أمّا في داخلي، فقد تغيّر المشهد برمّته.

كان المطر ينهمر عندما حملتها إلى السيّارة وأوصلتها إلى بيتها. كانت السحب الرماديّة تتدافع بسرعة في السماء، كالأفكار الغاضبة. اعتذرت بصمت من سارة، حيثما كانت. قلت لها «أنا لا أتمنّى لك الموت، بل السعادة».

عندما وصلنا إلى منزلها، رفعتُ درجة حرارة التدفئة وأعددت لها الخبز المحمّص قبل أن تأوي إلى فراشها. أعطيتها حبّة منوّم وأمسكت يدها إلى أن استغرقت في النوم. لم يكن قد سبقت لي تجربة حمل طفل على النوم، لكنّني تخيّلت أنّ الشعور في وضع كهذا يشبه شعوري في تلك اللحظة. بدت والدتي، وهي مستلقية في سريرها، يائسة ومسالمة، في الوقت ذاته، تمسّكت بيدي كأنّها بطّانيّة تمدّها بشعور الأمان والحماية. كانت تختلج من حين لآخر، وتتنفّس بهدوء وبصوت خافت لا يكاد يسمع.

غادرت منزلها، واتّصلت بديريك. تركت رسالة على المجيب الآلي أقول فيها صراحةً أنّني لم أعد قادرًا على فعل المزيد، وأنّني بحاجة إلى مساعدته.

عندما عدت إلى منزلي، شاهدت ثلاث حلقات من مسلسل على نتفليكس – وبما أنّني كنت عاجزًا عن النوم، رغم ما كنت أعانيه من إرهاق، أمضيت الشطر الأكبر من الليل جالسًا على مقعد الحديقة متدثّرًا باللحاف، أبادل السنجاب ستيف حديثًا من طرف واحد.

الفصل الخامس والأربعون

ديسمبر، بعد ثلاثة أشهر

غاليتي،

حلّ عيد الميلاد!

أشكر الله على انتهاء هذا العام.

هذه رسالتي الأولى لك منذ أكثر من ثلاثة أشهر. أعتقد أنّ أمورًا عدّة شغلت تفكيري. إضافة إلى انشغالي بمحاولة إحداث تغيير في وضع والدتنا من دون أن تشعر بذلك. كانت تلك خطّة ديريك: تحرير إيدي خلسة. طبعًا، كان ديريك رائعًا في معالجة الأمر.

حدَّد ديريك موعدًا مع فرانسيس، المسؤولة في كنيسة الرعيّة، التي اعتادت زيارة والدتنا منذ سنوات. قالت فرانسيس أنّ هناك أشخاصًا في الجوار تسعدهم زيارة أبناء الرعيّة الذين يعيشون في عزلة. وقد شرح ديريك أنّ المطلوب هو بناء صداقة بين والدتنا وأحد المتطوّعين – مهما تطلّب ذلك من وقت – حتّى تشعر نحوه بالثقة، وترغب في نهاية المطاف في اصطحابه إلى التسوّق أو إلى موعد دوري مع طبيبها. ينبغي أن يكون شخصًا، غيري أنا، تستطيع الاتّصال به والبوح له بمكنونات صدرها، أي شخص يحدث خرقًا في عزلتها، لا أكثر.

هكذا، بدأ رجل يدعى فيلكس زيارة والدتنا، إلى جانب فرانسيس، مرّة في الأسبوع. كان فيلكس جنديًّا شارك في حرب الخليج، وفقد ذراعه خلالها. ثمّ هجرته زوجته لأنّها لم تستطع التأقلم مع الوضع. وبعد ذلك، فقد ابنه في حرب العراق في العام 2006. فيلكس يعرف جيّدًا شعور الألم وفقدان عزيز. مع ذلك، لن تصدّقي يا قنفذتي: فيلكس رجل في غاية المرح. قابلته مرّتين فقط، لكنّه من أكثر الرجال الذين قابلتهم إيجابيّة. الإصغاء إلى حديثه مع والدتنا يثير العجب، فهي تستجيب لكلّ شيء بطريقة سلبيّة، بينما لا يفارق التفاؤل فيلكس. أحيانًا، عندما أسمعه يتحدّث، أكاد أقرأ أفكارها وهي تتساءل في سرّها، هل فقد الرجل عقله تمامًا؟

قال لي ديريك قبل أيّام:

– امنحها بضعة أسابيع أخرى، أعتقد أنّها ستبدأ خلال فترة وجيزة الخروج من المنزل معه.

أكثر من هذا، فقد أقنعها ديريك بتمضية عيد الميلاد مع شقيقتها كي تتاح لي فترة راحة.

هكذا... بدأتُ، في بطء وثبات، أحصل على فسحة أرحب في حياتي. على مجال أوسع للتنفّس. أحيانًا، أستعيد ذكرياتي، كيف كنت قبل أن يحصل كلّ ذلك. كيف شعرت خلال الأسبوع الذي أمضيته مع سارة. كيف كنت في مطلع شبابي، فيغمرني شعور بالسعادة.

في أيّ حال، ها أنذا، يوم عيد الميلاد، في غرفة الضيوف الجديدة في منزل آلان، في بيسلي. الساعة الآن الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين فجرًا. لقد استيقظت ليلي وشرعت تقرع باب غرفة والديها. البارحة، فقدت عقلي تمامًا، وابتعت لها هدايا تملأ جرابًا بكامله. قال لي آلان أنّني رجل حقير أناني، وأنّني جعلته يبدو مقصِّرًا في حقّ ابنته.

أما الآن، أنظر من النافذة التي لم تُركَّب لها ستائر بعد، إلى السماء الرماديّة وأفكّر فيك. أليكس، يا أعزّ وأغلى من لديّ.

لا أعلم ما إذا كنتِ موجودة معي، إن كنتِ تطلّين من فوق كتفي، طوال تلك السنوات، لتقرإي الكلمات التي كتبتها لك. أو إذا كنتِ مجرّد رفرفة من طاقة استُنْفِدَت. مع ذلك، ومهما كان، أتمنّى أن تكوني علمتِ كم كنتِ محبوبة، وكم يفتقدك الجميع بحرقة.

لا أعلم ما إذا كنتُ سأستطيع المضيّ في حياتي حتّى الآن من دونك، أو من دون هذه الرسائل. فقد كنتِ في مماتك مثلما كنتِ في حياتك: لطيفة، نابضة بالحياة، حنونًا، صديقة. كنت أشعر بك من خلال هذه الصفحات الأرجوانيّة. كنت أشعر بحيويّتك وسخافاتك وضجيجك وطيبتك وبراءتك وعذوبتك. جعلتِني أتابع مسيرتي الشاقّة. ساعدتِني على التنفّس في الوقت الذي كانت الحياة تحاول خنقي.

ولكن، آن الأوان كي أعتمد على نفسي، كما تقول جاين. كي أستقلّ. وهكذا، يا قنفذتي، ستكون هذه رسالتي الأخيرة لك.

سأكون على ما يرام. جاين واثقة في ذلك، وأنا أيضًا واثق. والواقع أنّه ينبغي عليّ أن أكون على ما يرام؛ ففي كلّ يوم يتراءى لي، في شخص والدتنا، ما يمكن أن يكون البديل.

بل إنّني بدأت أستسلم لإلحاح آلان بأنّ عليّ بدء مواعدة نساء أخريات. الواقع أنّني لا أرغب في ذلك، لكنّني تقبّلت فكرة أنّه يتحتّم عليّ، في الأقلّ، أن أتيح لنفسي فرصة حبّ امرأة أخرى.

الفكرة كالتالي: والدتنا غير قادرة على التغيُّر، لكنّني قادر على ذلك. وسأتغيّر. سوف أسعى لذلك خلال هذا الشتاء. سأُنهي الأعمال التي كُلِّفت بها، وسألتزم أعمالًا أخرى. سأنظّم ورشات صيفيّة أدرّب فيها شبابًا على

مهنتي. سأنتسب إلى موقع تيندر السخيف هذا. سأمارس تمارين رياضيّة لتحسين لياقتي البدنيّة أيضًا، وأطوّر مهاراتي في أعمال البناء؛ سأكون العرّاب الرائع لابنة آلان، ليلي. سأفعل كلّ ذلك والابتسامة تعلو وجهي، لأنّ تلك هي الشخصيّة التي يتصوّر الناس أنّني أتمتّع بها، وهذه هي الشخصيّة التي سأستعيدها.

هذا هو وعدي، يا قنفذتي. وعدي لك ولنفسي.

لن أنساك، يا أليكس هيلي والاس، يومًا واحدًا. سأحبّك حتّى نهاية العمر. سأفتقدك دائمًا، وسأظلّ شقيقك الأكبر.

شكرًا على وجودك معي، في حياتك وفي مماتك.

شكرًا، ووداعًا يا قنفذتي الحبيبة.

أنا

قبلاتي

الفصل السادس والأربعون

مطلع شهر مارس، بعد ثلاثة أشهر

كان ذلك هو اليوم الذي غيّر حياتي إلى الأبد. كنت أتهيّأ للخروج في أوّل موعد ضربه لي موقع تيندر. حوّلني التوتر شبهَ أبله. كان آلان يبعث لي برسالة كلّ ساعة ليطمئنّ إلى أنّني لم أتراجع، لكنّ رسائله لم تكن لتخفّف من توتّري. اسم الفتاة هيذر، شعرها جميل ومظهرها يدلّ على أنها ذكيّة ومرحة. لم أكن أرغب في الذهاب رغم ذلك. بل خطر لي أن أُدخل مسمارًا في يدي كي يتسنّى لي الاعتذار بأنّني سأمضي فترة بعد الظهر في غرفة الطوارئ.

لم أعترف بذلك لآلان.

صادف يومذاك عيد ميلاد والدتي السابع والستين، وقد دعوتها لتناول الغداء في ستراود. جلسنا في مقهى ويثيز يارد، الذي كانت والدتي تعتبره مكانًا آمنًا، لأنّه، على الأرجح، يتوارى خلف زقاق ضيّق مرصوف بالحجارة، حيث لا يراه أحد. بدت والدتي يومذاك راغبة في الحديث أكثر من المعتاد. كان فيلكس اصطحبها للتسوّق في اليوم السابق، وهو أفضل منّي في هذا الشأن. عيبه الوحيد هو أنّه لا يستطيع حمل الكثير من أكياس التسوّق لأنّ له ذراعًا واحدة فقط.

وينبغي عليّ الاعتراف بكلّ أمانة بأنّني لم أكن أصغي لها بكليّتي، فقد كنت أتخيّل فترات الصمت الرهيبة التي كانت في انتظاري مساء ذلك اليوم، والضحكات المصطنعة، ما منعني من أن ألاحظ صمت والدتي المفاجئ.

نظرتُ إليها. كانت جامدة في مكانها تنظر إلى يمينها وملعقة الحساء تحوم فوق الطبق. التفتُّ إلى الجهة التي كانت تنظر إليها.

لم أتمكّن من التعرّف إليهما بادئ الأمر. كانا كأيّ شخصين في منتصف العمر يتناولان طبقًا من السلطة. كانت المرأة ترتدي قميصًا من القماش رُسمت عليه مربّعات، وتتحدّث بهاتفها النقّال.

أمّا الرجل فكان يرتدي سترة من نسيج مضلّع ويراقبها أثناء حديثها. توقّف كلاهما عن تناول الطعام، تمامًا كما فعلت والدتي. نظرتُ إلى الرجل وراودني شعور غامض بأنّني أعرفه، ولكنّني لم أتعرّف إليه فعلًا.

عندما نظرت إلى والدتي، أدركت تمامًا هويّة الرجل وزوجته. الشخصان الوحيدان اللذان كان في إمكانهما إحداث ذلك التأثير فيها. سقطت ملعقتها في صحن الحساء؛ وبدأت تغوص فيها رويدًا رويدًا مثل مؤخّر سفينة تغرق.

نظرتُ ثانية إلى والدَيْ سارة هارنغتون. تعرفّت إليهما في تلك اللحظة، فأنا أعرفهما بالطبع. كانا غالبًا ما يأتيان إلى منزلنا لاصطحاب أليكس لتلعب مع ابنتهما، أو لإحضار هانا لتمضية فترة بعد الظهر في منزلنا. أتذكّر أنّهما شخصان ودودان، حتّى أنّني كنت أحيانًا أرغب في الذهاب وتمضية بعد الظهر في فرامبتون مانسيل أيضًا. بدا الزوجان شديدي الارتباط ببعضهما بعضًا؛ عائلة حقيقيّة، في حين أنّ عائلتي كانت مكوَّنة من والد بعيد مئات الكيلومترات ينتظر مولودًا جديدًا، ووالدة أقعدتها مشاعر المرارة والاكتئاب.

راودتني فكرتان محدّدتان: الأولى، كيف سأتصرّف مع والدتي؟ فليس في مقدورها البقاء هنا، لا تفصلها عن مايكل وباتسي هارنغتون سوى طاولتين. والفكرة الثانية، إذا كان مايكل وباتسي هارنغتون ما زالا في قيد الحياة، فمن هو الشخص الذي توفّي في العام السابق؟

سمعت المرأة تقول: «نحن قادمان». وقف الاثنان وغادرا المقهى من دون أن يعيدا مقعديهما إلى مكانيهما، أو يعتذرا إلى السيّدة الواقفة وراء منضدة الحساب في المقهى. كانت والدة سارة ترتدي معطفها وهي تسير مسرعة في الزقاق المؤدّي إلى شارع هاي ستريت. جلست أنا ووالدتي من دون أن نحرّك ساكنًا بضع دقائق، صامتين وسط همهمة الأحاديث وقرقعة أدوات المائدة. علا صوت جهاز خفق الحليب، عند ذلك، نظر كلّ منّا إلى الآخر.

* * *

ذهبنا بعد ذلك إلى سوق المنتجات الزراعيّة في سيرينسستر رود لشراء حساء نأكله في منزل والدتي: بعد أن غادر الزوجان هارنغتون المقهى، قالت أنّ غداء يوم عيد ميلادها قد أفسد وأنّها لن تأكل أيّ شيء.

لم يتعدَّ حديثنا حولهما الحوار الآتي:

– هل أنت على ما يرام؟

– لا أرغب في الحديث عن الأمر.

لم أضغط عليها، لكنّني لم أستطع التفكير في موضوع آخر. والدا سارة. الشخصان اللذان جاءا بها إلى هذا العالم. إلى أين كانا متّجهَيْن؟ هل حدث أيّ مكروه؟ يبدو أنّ المكالمة الهاتفيّة لم تكن تحمل خبرًا سارًّا.

كانت سارة تشبه والدتها، رغم أنّها فعليًّا تشبه والدها أيضًا. كان في إمكاني تأمُّل وجهيهما ساعات، بحثًا عن أيّ تفصيل من تفاصيل وجهها، مهما كان ضئيلًا.

عدنا إلى منزل والدتي، سخّنت الحساء، ووضعت رغيف خبزٍ زكيّ الرائحة معدّ من العجينة المخمّرة على المشواة، رغم علمي أنّها لن تأكل. بدت غاضبة منّي، لكنني لم أعرف السبب. هل كان من المفترض أن أذهب إلى حيث يجلس والدا سارة وأوجّه لهما بضع لكمات لأنّهما جاءا بها إلى هذا العالم؟ وقفتُ في مطبخ والدتي أشعر بقلق وبفراغ في داخلي. تساءلت ثانية عن الشخص الذي توفّى في شهر أغسطس الماضي. في آخر الحديقة، وتحت شجرة الخوخ، كان حوض صغير من العشب الذهبي، برزت بعض أزهار السيلاندين بجرأة بين بقع العشب المتناثرة. تذكّرت منظر الأزهار البرّيّة على التابوت واضطررت إلى التخلّص من تلك الأفكار بحزم لأنّني شعرت بالخوف من المنحى الذي سلكَتْه.

رفضت والدتي أن تأكل، كما توقّعت. كرّرت ما قالت:

– لقد أفسدا يومي. فقدت شهيّتي.

– لا مشكلة، قلت لها. سآكل حصّتي. في إمكانك تسخين حسائك إذا رغبتِ في تناوله لاحقًا.

– سأصاب بالتسمّم. لا يمكن تسخين الطعام مرّتين.

كدت أقول لها:

– أمّي، إنه حساء الطماطم.

لكنّني التزمت الصمت. فلا فائدة من الكلام معها.

هكذا، شرعت أتناول الحساء وحدي وأغمّس فيه قطعًا كبيرة من الخبز المدهون بالزبدة. عندما فرغت، غسلت يدَيَّ وقدّمت لوالدتي هديّتها. قالت أنّها ستفتحها لاحقًا. ثمّ ارتديت معطفي وقلت لها:

– في وسعي البقاء لتبادل الحديث إن شئتِ.

كانت تقبع مستكينة كقطّة في زاوية أريكتها.

أجابت بصوت جافّ:

– أنا بخير. شكرًا على مجيئك.

اقتربت منها وقبّلتها.

– إلى اللقاء أمّي. عيد ميلاد سعيدًا.

توقّفتُ لحظة عند الباب. قلت لها:

– أحبّك.

عندما بلغتُ الباب الأمامي، نادتني:

– إيدي؟

– نعم؟

عدت أدراجي، لم أكن أعلم أنّ تلك اللحظة ستغيّر كلّ شيء.

– ثمّة أمر ينبغي لك أن تعرفه، قالت من دون أن تنظر إليّ.

جلستُ في حذر على الكرسيّ المواجه لها. بدت من خلف كتفيها صورة لأليكس جالسة على أرجوحة، التُقطت قبل فترة وجيزة من دخولها المدرسة الابتدائيّة. بدت في الصورة وهي تصرخ من شدّة السعادة وتطير في اتّجاه المصوِّر. كانت البهجة تغمرها. كنت أتساءل طوال سنوات عمّا إذا كانت والدتي قد تعمّدت الحمل بها في محاولة منها لمنع والدي من هجرها – فقد كانت علاقته بفيكتوريا الوجه القذر قد طالت في ما يبدو – ولكنّني كنت كلّما نظرت إلى تلك الصورة، تذكّرت أنّ ذلك لم يكن مهمًّا. فلم تُدخِل أليكس إلى حياتنا سوى البهجة، سواء في وجود والدي أو في غيابه.

بعد فترة من الصمت، عادت والدتي لتكرّر:

– رؤية الزوجين هارنغتون قبل قليل أفسدت يومي.

كانت تقضم أظافرها.

– أعلم، قلت بسأم. سبق أن قلتِ لي ذلك.

تلفّتت حولها، مرّرت يدها على حافّة الطاولة جانب الأريكة لترى ما إذا كان هناك غبار عليها. قالت:

– لا أدري كيف أمكنهما مسامحة ابنتهما تلك...

وقفتُ لأذهب، لكنّني لاحظت على وجهها تعبيرًا دفعني إلى معاودة الجلوس على ذراع المقعد. شعرت بأنّها تعرف شيئًا ما. قلت لها:

– أمّي، هناك شيء تودّين إخباري به، ما هو؟

قالت، متجاهلة سؤالي:

– هانا، في الأقلّ، أثبتت أنّها فتاة طيّبة. أنت تعرف طبعًا أنّها ما زالت تزورني. ما زال أمري يعنيها، حتّى لو لم يعني والداها. توقّفت عن الكلام، وهي تطبق يديها في إحكام، ثمّ تمد أصابعها. وتابعت: رغم أنّني في الواقع لم أرها منذ عيد الميلاد. حصل بيننا خلاف بسيط.

– بشأن ماذا؟

استمرّت في تفادي النظر إليّ، ثمّ قالت:

– بشأن تلك الشرّيرة شقيقتها.

انحنيت إلى الأمام، نظرت إليها بإنعام، وسألت:

– سارة؟ ماذا قالت عن سارة؟

هزّت كتفيها من دون اكتراث. بدا وجهها متوتّرًا، وشعرت فجأةً بأنّ الخوف يكاد يصعقني ممّا يمكن أن تكون والدتي تخفيه.

– أمي؟ شعرت بدقّات قلبي عنيفة. لا بدّ أن يكون لخروج والدَيْ سارة السريع من المقهى اليوم علاقة بذلك. أمّي، أخبريني أرجوك.

تنهّدت ومدّت ساقيها لتعدل جلستها على الأريكة، كمن يجلس في مقابلة، شبكت أصابعها بأناقة في حجرها، وقالت:

– زارتني هانا قبل عيد الميلاد بفترة وجيزة. أخبرتني أنّ لديها خبرًا قد يزعجني. وكانت على حقّ في ما قالت.

توقّفتْ عن الكلام، كأنّها لا تستطيع إيجاد الكلمات المناسبة، شعرتُ بالغثيان. ماذا حصل لسارة؟! يا إلهي، ماذا حصل لسارة؟! كانت يداي تتحرّكان كالعناكب، تحاولان الإمساك بشيء لا أعرفه.

– ماذا قالت لك؟ سألتها.

صمتت.

– أمّي، الأمر مهمّ جدًّا، أخبريني.

أطبقت فكّيها بإحكام وانتفخ صدغاها. لم أستطع أن أتذكّر متى كانت آخر مرّة شعرت فيها بالقلق إلى هذا الحدّ. قالت في النهاية:

– سارة عادت إلى إنجلترا في أغسطس الماضي.

احتقن وجهي بالدم، استندت إلى ظهر مقعدي. ظننت أنّها ستخبرني... أنّها ستقول...

كنت قد تساءلت مرارًا عن المتوفّى في تلك الجنازة. تساءلت عن الشخص الذي كانت تلك الزهور البرّيّة الجميلة تعبّر عن الأسى في وفاته. بذلت أقصى جهدي لتحويل أفكاري عن النظريّات العصابيّة، لكنّ تلك الأسئلة الخبيثة لم تبارح ذهني. ماذا لو ماتت سارة؟ ماذا لو كان جثمان سارة داخل النعش؟

سارة حيّة وسالمة. وهي في إنجلترا.

تطلّب منّي الأمر بعض الوقت لاستيعاب ما قيل. قلت لوالدتي، وأنا أستوي في جلستي:

– انتظري لحظة. أمي، هل قلتِ أنّها انتقلت للعيش هنا؟ في إنجلترا؟

قفزت والدتي عن الأريكة بنشاط قلّما لاحظته فيها. وقفت أمامي وقد تصلّب جسدها الصغير من شدّة الغضب. قالت بصوت كالفحيح:

– كيف يمكنك أن تبدو مسرورًا إلى هذا الحدّ؟ إيدي، انظر إلى وجهك. ماذا دهاك؟ هي...

– أين هي؟ قاطعتها. أين كانت تقيم خلال هذه الفترة؟

هزّت والدتي رأسها، وسارت نحو النافذة. تمتمت قائلة:

– في منزل والديها، كما فهمت. بعد هنيهة، استدارت وعادت إلى الأريكة، وهي تنظر إلى صورة أليكس. راودني الشكّ في أنّني المقصود بتلك الحركة: انظر إلى شقيقتك المسكينة.

– إنها تعيش مع والديها، كأيّ مخلوق طفيلي. مفلسة و... في ما يبدو... حامل. رفعت يدها بسرعة لتغلق فمها، كأنّها لم تكن ترغب في قول ذلك. بعد فترة من الصمت، جلستْ ثانية، وأغمضت عينيها وغاصت في الأريكة. كانت ترتجف. قالت: ما أعنيه هو أنّها إذا كانت قد بلغت هذه السنّ، ولم ترتّب شؤون حياتها كما ينبغي، فماذا تبقى لها من أمل؟

قلت وأنا أحدّق فيها:

– حامل؟! سارة حامل؟

شعرتُ بألم حادّ، كأنّها أدخلتْ سكّينًا بين أضلاعي.

لم تجب والدتي.

– أمي!

قالت مؤكّدة، وهي تومئ برأسها باشمئزاز واضح:

– نعم، حامل.

حاولت أن أقول «لا»، لكنّ الكلمة لم تخرج من فمي.

لا، لا، لا.

لا يمكن سارة أن تكون حاملًا بطفل رجل آخر. غامت صورة والدتي، وشعرت بأنّ رأسي يكاد ينفجر من شدّة البؤس، مئات الأطياف من البؤس بدأت تتناثر في كلّ الاتّجاهات. ثمّ هدأ الاضطراب، وظهر شعور آخر: الأمل. كانت سرعة الإحساس بكلّ تلك المشاعر تصيبني بالدوار. لكنّ شعور الأمل ظلّ مستقرًّا ثانيتين، ثلاث، أربع، خمس ثوان... لم يتلاشَ الأمل. بدأت الفكرة تراودني: قد يكون طفلي أنا. يمكن أن يكون طفلي.

خرجت الكلمات من فم والدتي بصعوبة:

– عادت لأنّ جدّها توفّي. كان الموكب الجنائزيّ الذي رأيناه، هو جنازته على الأرجح.

شعرتُ بارتياح لأنّ المتوفّى كان جدّها، لكنّني كنت في حالة من الصدمة، لم تسمح لي بالشعور بالذنب لهذا الشعور. سارة حامل، وقد يكون طفلي.

– أمي، هل تعرفين المزيد؟ أخبريني أرجوك.

حملتْ طبق حسائها، الذي كان لا يزال مليئًا، واتّجهت صوب المطبخ. سرت خلفها ككلب مطيع.

– أمّي.

في النهاية، قالت بصوت لا يكاد يُسمع:

– كانت هانا هي التي اتّصلت بشقيقتها لتنقل إليها الخبر المحزن، ويبدو أنّ صدمة سماع صوت هانا بالهاتف كادت تقتلها، فقد كانت تسير في الطريق، وكادت شاحنة تدهسها، يا لها من فتاة حمقاء. ولكن... وضعتْ صحن الحساء وأجالت بصرها في المطبخ النظيف. في أيّ حال، انحرفت الشاحنة، ونجت هي.

توقّفت والدتي عن الكلام. بدا عليها الاضطراب؛ تقطّعت أنفاسها، ولم تعد تقوى على البقاء مكانها. لم أعد أستطيع أنا أيضًا البقاء مكاني. سارة في إنجلترا، وهي حامل. تبعتُ والدتي إلى غرفة الجلوس، لاحظت أنّها صارت تجد صعوبة في التقاط أنفاسها.

بدأتُ، بصورة آليّة ومن دون أيّ مشاعر أشرح لها أحد تمارين ديريك التي تساعد على التنفّس. أرشدتها إلى كيفيّة أخذ نفس بطيء وطويل، ثمّ تساءلت في سرّي، لماذا كشفَتِ السرّ في هذا التوقيت، بعد أن أخفتْه أشهرًا. لم يكن من مصلحتها أن تخبرني بعودة سارة، ناهيك بكونها حاملًا. فهي تكره حتّى احتمال تفكيري في سارة هارنغتون.

خطر في بالي أنّ الأمر ربّما يتعلّق برؤية والدَيْ سارة. بمغادرتهما المقهى على عجل. تأمّلتُ والدتي يائسًا، وهي تعاود التنفّس في صورة طبيعيّة. شعرتُ بالرغبة في الصراخ: أخبريني! أخبريني كلّ شيء. لكنّني لجأتُ إلى اللطف:

– هل تعرفين المزيد؟ حول وضعها؟ حول ما يحصل معها؟

– أعتقد أنّها تعيش حالة اكتئاب عميق. لم تخبر أحدًا بهوّية والد الطفل.

عادت براعم الأمل لتتفتّح.

– كانت الجنازة أوّل مناسبة ترى فيها شقيقتها منذ عشرين سنة. أخبرتني هانا بأنّها اتّفقت مع شقيقتها...على أنّهما خسرتا ما يكفي حتّى الآن. وقرّرتا ترميم العلاقة.

بدا الاشمئزاز على والدتي وهي تتفوّه بتلك الكلمات، وفهمت أنا في تلك اللحظة سبب خلافها مع هانا. فقد تمكّنت سنوات من إبقاء هانا على قناعة بوجهة نظرها، فلا بدّ أنّها تشعر الآن بأنّ ما حصل هو بمثابة طعنة نجلاء.

– إذًا، سارة كانت هنا طوال هذا الوقت تقيم في فرامبتون مانسيل؟ مدّة ستّة أشهر؟

أومأت برأسها، وهي تنظر إليّ، ثمّ قالت:

– أفهم من سؤالك أنّك لم ترها.
أعتقد أنّه بدا واضحًا على وجهي أنّني لم أرَها.
– أمّي، هل أنت واثقة تمامًا في أنّها حامل؟
شعرت بجفاف في حلقي وأنا أقول تلك الكلمات.
نظرت إليّ، وقد ارتسمت على وجهها علامات خيبة الأمل. أدركتْ تمامًا ما يعني ذلك بالنسبة إليّ. أجابت:
– واثقة تمامًا.
– متى الموعد؟ أعني موعد ولادة الطفل؟
حرّكت يديها حركة دائريّة، وقالت:
– لا أدري.
بدا واضحًا أنّها تكذب.
ومهما كان السبب الذي دفعها إلى إخباري بكلّ ذلك، فلا بدّ أنّه أثار حربًا ضروسًا داخل رأسها. عادت لأداء تمرين التنفّس.
ألححت عليها، لم أستطع تحمّل ما يحصل:
– ألا تعرفين، حقًّا! متى يحلّ موعد الولادة؟ ثمّ أضفت: أليست لديك أدنى فكرة؟ سأعرف في أيّ حال. إذًا، أخبريني أنت.
أغمضت عينيها، ثمّ ردّت:
– في السابع والعشرين من فبراير. أي قبل ستّة أيّام. ما يعني أنّ الحمل قد حصل في شهر يونيو من العام الفائت.
كانت الكلمات تخرج من فمها بصعوبة.
ساد صمت مطبق.
– ولا أحد يعرف الوالد؟
قالت وهي تزمّ شفتيها:
– أعتقد أنّه رجل ما، غريب.
لكنّها لم تكن تعني ذلك فعلًا. فهي تدرك تمامًا إلى ما يشير التاريخان المذكوران.
كنت أرتعد، وأنا أجثم على الأرض في مواجهتها. لم أتمكّن من التحكّم في ساقَيّ، فانزلقت ووقعت على مؤخّرتي. جلست على السجّادة قبالتها، كطفل ينتظر سماع قصّة. قلت:
– أمّي، هل أخبرتِني بالأمر لأنّك تعتقدين أنّه طفلي؟ هل تعتقدين ذلك؟
فتحت عينيها، كانتا مغرورقتين بالدموع. قالت بصوت ضعيف:

– لا أستطيع السماح لسارة هارنغتون بإنجاب حفيدي. إيدي، لا أستطيع تقبُّل ذلك... لكنّني... ارتعش صوتها. لكنّني لا أستطيع منع نفسي من التفكير في أنّ الطفل قد يكون أبصر النور الآن، وقد يكون...

نظرتُ إليها، رغم أنّني لم أعد أراها. سارة. طفلي. كان كلّ شيء يتمايل أمامي مثل حقل ذرة. حاولتُ تنظيم أفكاري.

– لماذا في رأيك غادر والداها المقهى على عجل؟ هل تعتقدين أنّ مكروهًا قد حدث؟

كنت مضطرًّا إلى الاستناد بقوّة إلى ذراعي اليمنى كي أبقى مستقيمًا في جلستي.

جاءني صوت والدتي، من مكان ما أمامي:

– لا أعرف. لكنّني أشعر منذ تلك اللحظة بقلق بالغ. لهذا، قرّرت أن أخبرك.

استأنفتْ تمارين التنفّس البطيء مرّة ثالثة.

وضعتُ يدًا مرتجفة على ركبتها، وهي تتنفّس. يجب أن أجد سارة. قلت لها:

– أمّي... ساعديني.

بعد فترة من الصمت، تنفّست والدتي نفسًا طويلًا، وأشارت إلى الهاتف الذي كان يتربّع على الطاولة الصغيرة.

– رقم آل هارنغتون لا يزال هناك على الأرجح. في الدفتر.

وقفتُ وعبرتُ الغرفة مُدرِكًا هول المبادرة التي صدرت منها، كنت أعلم ما كلّفَتها. لا تزال والدتي إنسانة طيّبة. لا تزال قادرة على الحبّ، مهما بلغ مقدار الكآبة التي تغلّف حياتها.

كانت قد مرّت سنوات كثيرة مُذ أحسست نحوها بذلك الشعور.

كان الرقم لا يزال موجودًا في الدفتر. تحت رقمَيْ نيجل هارلن، وهو محاسب وصديق لوالدي، وشركة هاريس للسباكة في سيرينسستر. كان الرقم مكتوبًا في عجل بيد أمّ مشغولة كانت تعيش في زمن آخر: باتسي هارنغتون – والدة هانا، من مجموعة اللعب – 01285...

بدأت أدوّن الرقم في هاتفي، فتعرّف إليه طبعًا. فقد أعطتني سارة الرقم في شهر يونيو الماضي، عندما كان الطفل مجرّد بضع خلايا.

قلت في حذر:

– أمّي، يجب أن أذهب. هل ثمّة مشكلة في ذلك؟ يجب أن أذهب وأعرف ما حصل. إذا احتجتِ إلى أحد، فلديك رقم الطوارئ، ورقم ديريك ورقم فيلكس. ولكن، أمّي، ستكونين على ما يرام. يجب أن أذهب. يجب أن...

كاد صوتي يتلاشى. قبّلت رأس والدتي وسرت، وساقاي ترتعشان نحو السيّارة.

التزمت والدتي الصمت. كانت تعلم أنّ الطفل ربّما يكون حفيدها، وهذا أهمّ من أيّ شيء آخر. هي لا تستطيع قول ذلك – تفضّل الموت على الاعتراف بذلك – لكنّها كانت ترغب فعلًا في أن أذهب لأعرف ما حصل.

عندما ردّ آلان على مكالمتي، قال:

– أتمنّى ألّا تكون قد اتّصلت بي لأنّك تخشى الذهاب إلى الموعد. إيد، أنا أتكلّم جدّيًا.

– سارة رزقت طفلًا، قلت له. أو ربّما هي على وشك الولادة. أنا متأكّد أنّ الطفل طفلي. حاولتُ الاتصال بوالديها، لكن لم يجب أحد. أريد رقم هاتف هانا الجوّال. هل الرقم معك؟

صمت طويل.

– ماذا؟

كان يأكل كعادته. هو يعمل في مكتب هندسة، ولم يكن زملاؤه يصدّقون حجم كمّيّة المؤن التي يحتفظ بها في مكتبه «لأوقات الملمّات».

– هل أنت جادّ في ما تقول؟

– نعم.

قال بعد تفكير مطوّل:

– يا إلهي.

– أريد رقم هانا.

– يا صديقي، أنت تعلم أنّه ليس في وسعي إعطاؤك أيّ تفصيل عن زبون.

كان آلان يعمل مؤخرًا في تصميم غرفة غسيل خلف منزل هانا في بيسلي. عندما أخبرني عن عمله في هذا المشروع، اتّفقنا على عدم مناقشة هذا الأمر، لكنّني في تلك اللحظة تجاهلت هذا الاتّفاق.

قلت له بسرعة:

– كانت جيا ترافق هانا لارتشاف القهوة بعد صفوف اليوغا (قبل سبع سنوات). لا بدّ أنّ الرقم في حوزة جيا. إذا أعطيتني أنت الرقم من الحاسوب أمامك بدل الاتّصال بزوجتك، فإنّك ستوفّر وقتًا، لا أكثر. آلان، أنا أتكلّم جدّيًا، أعطني الرقم.

بدأ آلان يهمس، كأنّ الهمس سيخفّف وطأة ما يرتكبه في مكتبه الفارغ. قال:

– لا بأس. ولكن، هل يمكنك إرسال رسالة نصّيّة إلى جيا تطلب فيها الرقم، حيث يصبح في استطاعتي أن أقول: كلّا، لقد أخذ الرقم من زوجتي، في حال سؤالي عن الموضوع؟

قلت بصوت أقرب إلى الصراخ:

– آلان، أعطني الرقم اللعين!

أعطاني الرقم.

– أفهم من ذلك أنّك لن تذهب إلى الموعد، تنهّد قائلًا.

كان هاتف هانا مقفلًا. بدا صوتها في المجيب الصوتي شبيهًا بصوت سارة إلى حدّ يبعث الاضطراب. لكنّه كان أكثر نشاطًا وعمليًّا، أي شبيهًا على الأرجح بصوت سارة عندما تتحدّث في مؤتمر أو في مقابلة تلفزيونيّة.

«طفل! طفلي أنا!» عاودني الدوار. كانت السحب البيضاء مكفهرّة. لم تكفّ يداي عن الارتجاف.

نظرت إلى ساعتي: كانت الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين عصرًا. خطر في بالي أنّ ولدَيْ هانا لا بدّ أنّهما أنهيا الدوام المدرسي. وإذا ما حالفني الحظّ، فحتمًا ستمرّ هانا أو زوجها لاصطحابهما. كانت المشاعر تموج في داخلي بسرعة لا تسمح لي تحديدها. لم أكن أعلم لحظتذاك سوى أنّني يجب أن أجدها.

أدرت محرّك سيّارتي، وتوجّهت إلى بيسلي. حاولت ألّا أفكّر في والدتي التي كانت وحدها في المنزل، تصارع أفكارًا هي بمثابة كابوس بالنسبة إليها. ثمّ تذكّرت أنها كانت تعرف بالأمر منذ ثلاثة أشهر. ثلاثة أشهر لعينة.

ثمّ عدت وذكّرت نفسي بأنّها أخبرتني في نهاية المطاف، توجّب عليّ أن أذكّر نفسي بذلك. لقد منعها مقتها لسارة من الإحساس بالألم العميق – الألم الذي لا يُحتمل – فترة طويلة من الزمن. كان ذلك أفضل دواء لها. بالتالي، فإنّ تلك الإيماءة نحو الهاتف، تلك الموافقة التي صدرت رغمًا عنها، كانت مبادرة لا ينبغي التقليل من أهمّيتها.

كانت مشاهد الريف الشتائيّة تمرّ بسرعة، بائسة يقطر منها المطر. حاولت أن أتخيّل هانا وهي تواجه شقيقتها بعد كلّ تلك السنوات التي كانت فيها والدتي توسوس لها بأفكار شرّيرة. تصوّرت سارة وهي لا تقلّ عنها خوفًا وأملًا. وهي تستميت لتقول ما ينبغي قوله، لكي تستعيد هانا.

لا عجب إذًا في أنّ سارة لم تخبر أحدًا بهويّة الأب. فقد كان ذلك يبدو أشبه بإلقاء قنبلة يدويّة وسط أفراد عائلة يحاولون رأب صدع.

عندما بلغتُ أطراف بيسلي، في الساعة الثالثة والدقيقة الحادية والخمسين، بدأتُ أتمتم:

– أرجوك يا إلهي ألّا تكون لدى هانا مربّية أطفال. أرجوك، لتكن هانا هي التي تردّ عندما يُقرع جرس الباب، أو زوجها.

كنت أقود السيّارة بسرعة جنونيّة، ولدهشتي، لم أكن أبالي. انكشفت حقيقة الأشهر القليلة الماضية، التي اتّسمت بالرصانة والرزانة والتصرّفات الصائبة، لتظهر دلائل الجنون والمازوشيّة التي كانت كامنة على الدوام. فمنذ أقلّ من خمس عشرة دقيقة فقط، علمت أنّ سارة كانت حاملًا

بطفلي، وها أنذا قد نسيت كلّ الوعود التي قطعتها على نفسي بالابتعاد منها. كلّ ما كان يهمّني في تلك اللحظة هو أن أراها.

طفل. سارة حامل بطفلي.

عرفت زوج هانا لحظة فتح الباب، فقد تذكّرته منذ تلك الليلة التي ضربتُ فيها بقبضتي طاولة الحانة. صرخ: سميلي! بينما كان كلب أسود من نوع لابرادور سبقه واقترب منّي، وهو يعضّ بطّانيّة رثّة. قفز الكلب عليّ، وهو يحرّك ذنبه بحركة تنمّ عن السرور.

صرخ الرجل:

– سميلي، توقّف.

أمسك طوق الكلب، وحاول جاهدًا إبعاده منّي.

– سميلي؟ سألت بتعجّب.

صدر منّي شيء أقرب ما يمكن إلى الضحك منذ ساعات عدّة.

ابتسم الرجل ابتسامة تشبه الاعتذار:

– كان من الخطإ السماح للأولاد بتسميته. هل أستطيع مساعدتك بشيء؟

اندفع سميلي نحوي ثانية بقوّة، بدأتُ أمسّد شعره بيدي، محاولًا شرح الفكرة المستحيلة لرجل غريب تمامًا.

– آسف، نعم أنا بحاجة إلى المساعدة. اسمي إيدي والاس. أعرف هانا منذ سنوات، وهي...

– طبعًا. أعرف من أنت. أنت الشقيق الأكبر لصديقة هانا أيّام الطفولة...

توقّف عن الكلام فجأةً وقد بدا عليه الحرج، لم أعرف ما إذا كان مبعث حرجه نسيان اسم أليكس، أم لأنّه لم يكن راغبًا في إثارة ذكرى شقيقتي المتوفّاة.

– اسمها أليكس، قلت له.

لم يكن لديّ وقت أضيّعه في فترات صمت محرجة.

أومأ برأسه. صدر من داخل المنزل صوت خبطة مكتومة، وصراخ أطفال. التفت إلى الخلف بقلق، لكنّه اطمأنّ عندما بدأ طفل يصرخ معلنًا الاستعداد للموت بالسيف.

استدار نحوي، وشعرت أنا بقنوط كاد يوصلني إلى الجنون. كنت بحاجة إلى الحصول على المعلومات، وبسرعة.

بدأ سميلي يشتمّ أعلى فخذيّ.

– قد يبدو ما أقوله غريبًا، ولكن... أعتقد أنّ شقيقة هانا ربّما أنجبت طفلًا، أو أنّها ستلد طفلًا. أعني أنّها ربّما تكون في هذه اللحظة على وشك الولادة...

ابتسم الرجل، وقال:

– فعلًا. هانا الآن معها في المستشفى. مسكينة سارة، فهي تعاني آلام المخاض منذ يومين. هل أنت صديقها؟

سكتَ محاوِلًا التوفيق بين كوني إيدي والاس واحتمال كوني صديقًا لسارة. تحوّل ارتباكه قلقًا عندما أدرك أنّه ربّما أخبرني بشيء لا يحقّ لي الاطّلاع عليه.

بقيت وقتًا عاجزًا عن الكلام، وقفت أمسّد شعر سميلي. ابتسم لي الكلب وبادلته الابتسام، رغمًا عنّي، ثمّ توجّهت بالكلام إلى زوج هانا. لم يكن هناك وقت لاختلاق عذر لن يقتنع به البتّة. قلت له:

– لا، لست صديقًا لها، في تعبير أدقّ... أنا أكثر من صديق، أنا والد الطفل.

ساد الصمت.

تأمّلني الرجل هنيهة.

– عفوًا؟

– علمت بالأمر قبل ثلاثين دقيقة فقط...

قطّب الرجل حاجبيه. لم يكن في إمكانه استيعاب فكرة أنّني والد طفل سارة. بلعت ريقي.

– إنّها قصّة طويلة، ولم أكن لأقرع باب منزلك لو أنّني لم أكن واثقًا في أنّ الطفل هو طفلي.

ساد الصمت.

– اسمعني أرجوك، أنا مجرّد رجل محترم اكتشف توًّا أنّه أصبح أبًا، أو يكاد. لن أفرض نفسي بالقوّة على سارة، ولن أفعل أيّ شيء، أريد فقط... لم أعد أستطيع الكلام، شعرت بالرعب لأنّ صوتي بدأ ينهار. أريد فقط أن أكون قربها. إذا كان ذلك ممكنًا.

– بالطبع، قال الرجل في النهاية.

قعد سميلي عند قدمي، وهو يتأمّلني. أدركت أنّني قد خيّبت أمله.

– أنا لا أقصد أن أحمّلك المزيد من الضغط من دون جدوى، لكنّني أكاد أفقد عقلي، أريد الذهاب إلى المستشفى، وتقديم ما أمكن من المساعدة، أو التعبير لها عن حبّي، أو... لا أدري. وقد خطر لي أنّه في وسعك إخباري بما إذا كانت سارة في مستشفى ستراود أو مستشفى غلوستر، أو في مكان آخر.

عقد الرجل ذراعيه لحظة، ثمّ قال أخيرًا:

– أريد أن أخبر هانا. آمل أن تتفهّم الأمر.

كنت أتفهّم بالطبع. كما كنت أرغب أيضًا في توجيه لكمة له.

تنفّست نفسًا عميقًا، وأومأت برأسي موافقًا. قلت:

– أتفهّم بالطبع. ولكن إن كانت هذه المعلومة تفيد بشيء، فهاتف هانا مقفل. حاولتُ الاتصال بها قبل قليل.

أومأ الرجل برأسه وقال:

– نعم، هاتفها مغلق في الأغلب.

لكنّه أصرّ على الاتّصال بها، انسحب إلى الممرّ حتّى لا أسمعه وهو يقول: «لن تصدّقي ما حصل...».

عاد بعد بضع دقائق. قال:

– لم تردّ.

كان يحرّك الهاتف بيده إلى الأعلى وإلى الأسفل، وهو لا يدري ما يفعل. فهِم الموقف، كأب – لاحظتُ أنّه يرغب في مساعدتي، لكنّ الوضع لم يكن عاديًّا.

تملّكني الهلع. قد لا يخبرني في أيّ مستشفى.

– أعتقد أنّ في إمكاني الذهاب إلى ستراود أو غلوستر... ولكن، هل لك أن تخبرني بوضعها في المخاض في الأقلّ؟

في تلك اللحظة، كنت سأقبل بأيّ معلومة. أيّ فتات يرغب في رميه عن الطاولة. تنهّد سميلي، وأسند رأسه الكبير المربع الشكل إلى فخذي.

صمت الرجل، ثمّ قال:

– كلّ ما أعرفه هو أنّها تعاني آلام المخاض منذ يومين. لهذا، نُقِلت من وحدة التوليد إلى قسم تكون فيه تحت إشراف الأطبّاء المستشارين.

– ماذا يعني ذلك؟

– لقد خضنا هذه التجربة يوم ولادة إلسا، وكان يعني أنّ الأمور لم تكن تسير على ما يرام. لكنّ وضعها قد يكون مختلفًا، فقد تكون منهكة وبحاجة إلى مسكّن للألم. لا داعي للقلق.

– أرجوك، أخبرني أين سارة. كان صوتي مرتفعًا، لكنّني أعتقد أنّني بدوت مجرّد إنسان يائس، لا رجلًا مهدِّدًا أو فاقد العقل. أرجوك. أنا رجل طبيعي. لا أعاني اضطرابًا عقليًّا. أريد أن أكون قربها فقط.

تنهّد وغلبه يأسي.

– لا بأس... لا بأس. في مستشفى غلوستر رويال. أعتقد أنّ قسم التوليد هناك اسمه المركز النسائي. ولكن يجب أن أحذّرك، لن يسمحوا لك بالدخول ما لم تسمح لهم سارة بذلك. سأبعث برسالة إلى هانا أعلمها بالأمر. الواقع أنّه لا ينبغي لي فعْل ذلك، ولكن... لو كنتُ أنا مكانك، أنت تعرف طبعًا.

شعرت بالاطمئنان. مددت يدي من دون وعي إلى رأس سميلي الأسود اللامع. كان الرأس كتلة دافئة مطمئنة ونتنة مثل اسمه. قلت للرجل بصوت خافت:

– شكرًا، شكرًا جزيلًا.

سمعت صوتًّا طفوليًّا آتيًا من الطابق العلوي. خلف الرجل، برز رأس طفلة مقلوبًا فوق الدرج، كان شعرها المائل إلى الحمرة ينسدل في اتّجاهنا. سألت:

– أبي، من هذا الرجل؟

قال لي الرجل متجاهلًا ابنته:

– أتمنّى لك حظًّا طيّبًا.

كانت تلك إلسا، ابنة شقيقة سارة، التي كانت تظنّ أنّها لن تراها مطلقًا. انحنى الرجل قليلًا، وصافحني قائلًا:

– اسمي هاميش.

– وأنا إيدي، رغم أنّني سبق أن أخبرته باسمي. لا يسعني التعبير عن مدى امتناني لك.

ثمّ انطلقت.

الفصل السابع والأربعون

شعرت بأنّ مدّة النصف ساعة التي قدت فيها السيّارة كانت أطول نصف ساعة في حياتي. عندما وصلت إلى الطريق السريع، كنت أقود بسرعة جنونيّة.

بينما كنت أنتظر في أحد الطرق الثانويّة، دار في خلدي أنّ أليكس كانت ستحبّ أن يكون لها ابن أخ أو ابنة أخ. (إلى متى ستظلّ إشارة المرور حمراء؟) وكانت ستحبّ، على وجه الخصوص، أن يكون لها ابن أخ أو ابنة أخ من أقرباء هانا.

وماذا عنّي؟ بالطبع، كنت أرغب في طفل. لطالما عرفت ذلك، لكنّ الفكرة لم تكن تبدو ممكنة قطّ، إلى أن قابلت سارة. بعد ذلك، لم تعد الفكرة تبدو حلمًا بعيدًا، بل بدأت تتحوَّل رغبة واضحة.

بينما كنت أقود السيّارة بسرعة مخيفة لأخرج من الطريق الدائري، فكّرت: أنا أحبّها. لقد جعلتْ كلّ شيء يبدو ممكنًا.

كانت سارة هارنغتون حاملًا بطفلي، طوال أشهر، إضافة إلى حزنها واكتئابها وفقدان جدّها. انتقلت إلى الجانب الآخر من العالم، عادت إلى المكان الذي كانت تظنّ أنّها لن تعود إليه مطلقًا، وتمكّنتْ من مداواة الجرح الذي مزّق عائلتها. فعلت كلّ ذلك وحدها. فقد كانت تدرك أنّني لا أريد حتّى صداقتها.

تذكّرت الحزن الكبير الذي ارتسم في عينيها عندما تحدّثت عن هانا ووالديها، وتساءلتُ في سرّي كيف جرت الأمور مع هاتين المرأتين وهما تحاولان ترميم علاقتهما في تلك الظروف الاستثنائيّة. تمنّيت أن يكون ذلك أسعد سارة. كما تمنّيت أن يكون وجود هانا معها أثناء ولادتها يعني أنّ علاقتهما قد توثّقت كما تستحقّان. توثّقتْ كما ينبغي لشقيقتين.

قرأت على لافتة في الطريق: المستشفى يبعد 1.5 كيلومتر. إنها مسافة بعيدة. مررت في السيّارة تحت جسر قطار، ثمّ صعدت تلًّا وأنا ألعن حركة المرور. كنت أقود السيّارة في بطء، مررت بمحلّ لبيع السمك المقلي والبطاطا المقليّة. كان رجل يقف خارج المحلّ في نور النهار

الخافت، بينما يتدلّى من معصمه كيس بلاستيكيّ مليء بالرزم الورقيّة الدافئة. كان الرجل يتحدّث بالهاتف ويضحك، غافلًا كلّيًا عن الرجل المستميت العالق في حركة مرور بطيئة، داخل سيّارة لاند روفر.

بعد دقيقة أو أكثر قليلًا، ظهرت لافتة كُتب عليها أنّ المستشفى تقع على بعد نصف كيلومتر فقط، لكنّ المسافة ظلّت تبدو بعيدة بالنسبة إليّ. أضاءت إشارة مرور أخرى باللون الأحمر. لم أعد أتمالك أعصابي وتدفّقت الشتائم من فمي.

ساد الهدوء في السيّارة يقاطعه بعض نبضات ووميض المؤشّر القديم الطراز. تخيّلت سارة، سارة حبيبتي الجميلة، منهكة القوى على السرير في مكان ما. فكّرت في كلّ مشاهد الولادة التي رأيتها في الأفلام: صرخات مرعبة، قابلات مذعورات، أطبّاء يصرخون، قرع أجراس حالات الطوارئ. شعرت بأنّ أحدًا جرف أحشائي. أفقدني الذعر إحساسي بكياني. ماذا لو حصل مكروه؟

انعطفت نحو اليسار. ذكّرت نفسي بأنّ الولادات الخالية من المضاعفات تحدث طوال اليوم، كلّ يوم – وبأنّ الولادات يجب أن تكون كذلك، وإلّا لكان الجنس البشري قد انقرض. ظهر أخيرًا مبنى المستشفى البنّي اللون.

كان المستشفى يعجّ بالناس. فالوعكات الصحّيّة والأمراض، في ما أعتقد، مجال لا ينقطع العمل فيه لحظة. كان هناك أشخاص عدّة يعبرون الشارع أمامي. وفي كلّ مكان، كانت ثمّة مطبّات للسرعة. وجدت موقف السيّارات الأوّل مشغولًا بالكامل، كدت أصرخ. رغبت في الاندفاع نحو أقرب مدخل وترك سيّارتي هناك.

أدركت أخيرًا شعور سارة يوم انطلقت في سيّارتها لتلحق بصديقها وبأختها الصغرى. أحسست بالرعب الذي تملّكها، بغريزتها التي جعلتها تدور بسرعة للابتعاد من الطريق لتمنع وقوع حادث سيّارة لم تكن هانا لتخرج منه في قيد الحياة. عرفت أنّها انحرفت في السيّارة لا لأنّها لم تكترث لمصير أليكس، بل لأنّ الحبّ والخوف جعلاها تدير عجلة القيادة. الحبّ ذاته والخوف اللذان كنت أشعر بهما نحوها في تلك اللحظة. ففي سبيل أن تظلّ هي سالمة، لم أكن أتورّع عن القيام بأيّ شيء. لم أكن لأتورع عن إقفال مدخل موقف سيّارات المستشفى بسيّارتي، وعن تجاوز حدود السرعة المسموحة. ولو أنّني وجدت نفسي في الوضع نفسه الذي وجدت سارة نفسها فيه، في العام 1997، لكنت قد انحرفت يسارًا أيضًا، إذا كان من شأن ذلك إنقاذ حياة الشخص الذي أحبّه أكثر من أيّ شخص آخر.

الفصل الثامن والأربعون

كان هاميش على حقّ: لقد رفضوا السماح لي بالدخول. بل إنّ السيّدة التي أجابتني عبر نظام الاتّصال الداخلي دُهِشت عندما حاولتُ أن أطلب الدخول. سألتُها:

– هل يوجد مكان أستطيع الانتظار فيه؟ لقد أخبرتُ شقيقة سارة أنّني موجود في المستشفى... الواقع أنّني الوالد، إن كان لذلك أيّ أهمّيّة... أو في الأقلّ، أعتقد أنّني الوالد...

وهنا، لم تعد السيّدة تردّ على استفساراتي. خيّل إليّ أنّها تتّصل بالمسؤولين عن الأمن.

وجدت فسحة انتظار صغيرة عند مدخل المركز النسائي، وجلست أسفل السلّم الكهربائي في مواجهة صفّ من المصاعد، كنت على الأرجح سأتعرّض للاعتقال إذا حاولت استخدام أيّ منها. عندما واجهت الواقع في ممرّ المستشفى المضاء بمصابيح طولانيّة – المليء بالعائلات الحقيقية وبالأزواج والزوجات الحقيقيّين – اتّضحت لي فجأةً حماقة هذه المغامرة بصورة جليّة إلى درجة كادت تضحكني.

ماذا كنت آمل؟ أن تبعد هانا عن شقيقتها وهي تلد لتقرأ الرسائل النصّيّة التي وردتْها، أو لتجيب عن بعض الرسائل الإلكترونيّة مثلًا؟ أن تقرأ رسالة هاميش وتقول: هذا رائع! الوالد هو إيدي والاس إذًا! وقد حضر إلى المستشفى، ما أجمل ذلك! ومن ثمّ تظهر فجأةً لتدعوني إلى الدخول؟

وضعت رأسي بين يديّ، وتساءلت عمّا إذا كان هاميش يفعل الشيء نفسه في بيسلي.

إذا كان ثمّة أمل لي باستعادة سارة، فسيتطلّب الأمر أكثر من مجرّد الاندفاع إلى مستشفى غلوستر رويال. فقد أمضت ستّة أشهر لا تفصلها عنّي سوى مسافة كيلومتر تقريبًا. كانت لديها فترة ستّة أشهر لتتّصل بي، لتخبرني بأنّني سأصبح أبًا، ولم أسمع لها صوتًا.

ورغم إدراكي أنّ لا فائدة من الانتظار، فقد ظللت جالسًا. لم أقوَ على المغادرة. لا أستطيع التخلّي عنها ثانية.

سمعت صوت فتْح باب المصعد، كدت أقفز في مكاني، بالطبع لم تخرج سارة من المصعد وبيدها طفل، بل خرج منه رجل يبدو عليه الإرهاق يعلّق في رقبته شريطًا يحمل بطاقة التعريف به، وتبرز من جيبه علبة سجائر.

«نحن نملك الخيار»، هكذا قلت لها يوم التقينا أوّل مرّة. نحن لسنا مجرّد ضحايا حياتنا، بل نستطيع اختيار أن نعيش سعداء. رغم ذلك، اخترتُ ألّا أكون سعيدًا، رغم كلّ ما قلت. تركتُ سارة هارنغتون، والحبّ الذي جمع بيننا، الذي لا يمكن الإنسان أن يصادفه إلّا مرّة واحدة في حياته، واخترتُ الواجب. اخترت أن أعيش نصف حياة.

مرّت ساعة، ثمّ ساعتان، ثمّ ثلاث ساعات. كان الناس يجيئون ويذهبون، يُدخِلون معهم هبّات من الهواء المثلج الذي سرعان ما يتحوّل هواء حبيسًا. تعطّل مصباح كهربائي؛ كان يصدر ضوءًا متقطّعًا، لكنّ رجلًا أسرع لإصلاحه قبل أن أفكّر في إخبار أحد. تلوت صلوات صامتة من أجل النظام الوطني للخدمات الصحّيّة. من أجل سارة. من أجل والدتي، التي لم يخطر في بالي أن أتخيّل مشاعرها إزاء هذا الوضع. ربّما جاء فيلكس لزيارتها. فيلكس في روحه المرحة وإصراره على موقف إيجابي، من دون الاكتراث لما تسبّبه له الحياة من معاناة.

أغرق الظلام مبنى المركز النسائي. بعد فترة وجيزة، انضمّت إليّ في فسحة الانتظار أسرة مؤلّفة من أمّ وأب وطفل. كان الطفل ذا شعر أشقر كثيف أجعد يحيط بوجهه الصغير الذي تطلّ منه سيماء الشقاوة. أعجبني وجهه فورًا. قيّم الطفل وضع ردهة الانتظار، وأصدر حكمه عليها بأنّها مملّة، ثمّ سأل والدته عمّا ستفعله في هذا الشأن. كانت الوالدة منشغلة بالتحدّث بهاتفها. قالت شيئًا ما لزوجها حول ساعات الزيارة.

كاد قلبي يتوقّف عن الخفقان عندما سمعت الطفل يسأل والدته:

– أمّي، لماذا لا يوجد أب لطفل سارة؟ لماذا ترافقها شقيقتها وليس والد الطفل؟

أطرقت رأسي، وأحسست بالدم الحارّ يكاد يحرق وجهي.

– عزيزي، ردّت الأمّ، إيّاك والتحدّث إلى سارة في هذا الشأن. إذا استطعنا رؤيتها، يمكن سؤالها عن أيّ شيء ما عدا مسألة الأب. رودي، هل سمعت ما أقول؟

– سمعت، ولكن...

– إذا وعدتني بأنّك لن تسألها فسأصحبك إلى معمل المثلّجات غدًا، المعمل الذي أخبرتك عنه، قرب ستراود.

أحسست بقلبي يدقّ بعنف. نظرت خلسة إلى الصبيّ، لكنّه لم يلاحظ وجودي.

– هل هو الرجل الذي حطّم قلبها؟ الرجل الذي أبكاها لأنّه لم يتّصل؟

شعرت بأنّ جلدي يتمزّق.

تلقّت المرأة – دجو صديقة سارة – مكالمة بهاتفها. سارت نحو المصاعد كي تردّ، وشرع رودي يلعب مع والده. لكنّه لم يكن والده، فبعد أن هزمه في لعبة يدويّة خمس مرّات على التوالي، ناداه باسم تومي.

تومي! صديق طفولة سارة. شعرت بأنّ الوضع لا ينطبق على ما أخبرتني به سارة عندما روت لي قصّة حياتها. فقد حفظتُ تلك الرسائل عن ظهر قلب: لم تقل لي سارة قطّ أنّ تومي ودجو كانا زوجين. لعلّي لم أفهم رسائلها جيّدًا؟ تمنّيت لو أنّني أعرف المزيد حول سارة وحياتها. تمنّيت لو أنّني أعرف ما تناولت على الفطور صبيحة اليوم الذي شعرتْ فيه بآلام المخاض. كيف كان وضعها أثناء الحمل، ماذا تعني لها استعادة علاقتها بشقيقتها بعد كلّ تلك السنوات؟ تمنّيت لو أعلم أنّها في خير.

عندما عادت دجو، بدأت تلملم حاجاتهم. التقت عيناها بعيني تومي، من فوق رأس رودي، وهزّت رأسها.

– أمّي، لماذا نغادر المستشفى؟ أمّي، أريد أن أرى سارة.

– سنذهب للإقامة في منزل والدَيْ سارة. اتّصلا بنا للتوّ ودعوانا للمبيت في منزلهما. تأخّر الوقت، ويجب أن تأوي إلى الفراش، كما أنّ سارة لا تستطيع استقبال أيّ زائر اليوم. وقد لا تكون قادرة على رؤيتنا غدًا أيضًا.

– متى تمكننا رؤية سارة؟

– لا أدري، أجابته دجو. كان وجهها لا يبدي أيّ تعبير.

تبع ذلك مشهد بغيض: كان واضحًا أنّ رودي يحبّ سارة، ولم يكن ينوي الذهاب. لكنّه ارتدى معطفه في النهاية وهو يتميّز غيظًا. كانوا على وشك الخروج عندما مرّ تومي قربي، وبدر منه ردّ فعل مفاجئ. تابع سيره، ثمّ توقّف ثانية، عرفت أنّه كان ينظر إليّ. بعد هنيهة، نظرت إليه، كنت يائسًا. إذا كان تبادل حديث مربك إلى حدّ مروع مع أقدم صديق لسارة سيساعدني فسأجري هذا الحديث.

قال لي، عندما تقابلت نظراتنا:

– آسف، ظننتك شخصًا آخر...

استدار مرّة ثانية، ثمّ توقّف. قال:

– لا، أنت... هل أنت إيدي؟

استدارت دجو، التي كانت عند أسفل السلّم الكهربائي، بسرعة. تأمّلتني. كان الاثنان يتأمّلانني. نظر رودي نحوي من دون أن يفهم ما يحصل، كان غاضبًا إلى درجة أنّه لم يلاحظ شيئًا. سمعت

دجو تتفوّه ببعض الشتائم – رغم أنّني لم أعرف ما إذا كان ذلك بسبب الغضب أو الصدمة – ثمّ خرجت مع ابنها عبر الباب الآلي.

وقفت ومددت يدي لتومي، صافحني، وإن بعد تردّد. سألني:

– كيف عرفت؟ هل اتّصلت بك سارة؟

احمرّ وجهه، لم أعرف السبب. أنا الذي كان حريٌّ بي الشعور بالخجل.

– علمتُ بعد ظهر اليوم. إنّها قصة طويلة. لكنّني أعتقد أنّ هانا تعلم بوجودي هنا.

قبل أن يقرّر ما يقول، اندفعتُ إلى الكلام بسرعة، ومن دون تفكير:

– كيف حالها؟ هل هي بخير؟ هل وُلِد الطفل؟ هل سارة في صحّة جيّدة؟ أنا آسف، أعرف أنّني أبدو كمجنون، وأعرف كم سبّبتُ لسارة من آلام في الصيف الماضي، لكنّني... لا أستطيع التحمّل أكثر من ذلك. أريد فقط أن أعرف أنها في خير.

احمرّ وجه تومي أكثر. بدأ حاجباه يتحرّكان من تلقاء نفسيهما، كمن يفكّر في إلقاء خطاب، أو في حلّ أحجية. قال أخيرًا:

– أقسم لك إنّي لا أعرف. لقد تحدثتْ دجو مع والدة سارة. وأعتقد أنّها لم تشأ إخباري بما استجدّ في وجود رودي.

– هل هذا يعني أنّ الوضع سيّئ؟

بدا تومي مرتبكًا ومنزعجًا. كرّر ما قال:

– لا أعرف. آمل بألّا يكون الوضع سيّئًا. أعني أنّ والديها كانا هنا قبل قليل، ثمّ غادرا إلى المنزل، ربّما كان الأمر مجرّد... اسمع، عليّ أن أذهب. أنا... خفت صوته، ثمّ صمت، تراجع نحو الباب، قال: آسف يا صديقي، ثمّ ذهب.

حلّ منتصف الليل. بدأتُ أذرع المكان جيئة وذهابًا، كما يفعل الناس في الأفلام. فهمت الوضع الآن. كان معنى الجلوس هو أن تظلّ ساكنًا مكانك بينما يقوم شخص بضغط حديد محمّى فوق جلدك.

كان يجلس معي في فسحة الانتظار رجل عجوز يرتدي منامته. لم نتبادل أيّ حديث. كان يبدو قلقًا مثلي. ربّما كان جَدًّا. وكان مثلي، لا يستطيع فعل شيء، سوى التثاؤب وهزّ ركبتيه، ومراقبة مدخل وحدة الولادة من حين لآخر.

خيّل إليّ أنّ المطهر، أي المنطقة الفاصلة بين الجحيم والفردوس، لا بدّ أن يكون شبيهًا بوضعي آنذاك. تأجيل أبدي، انتظار متوتّر بأقصى درجات الخوف. لا شيء يتحرّك سوى عقارب الساعة.

كان آلان يحاول طمأنتي طوال الوقت، لم يتوقّف عن إرسال مقالات تتحدّث عن الولادة. كتب يقول أنّ جيا طلبت منه إخباري بأنّ الولادة ليست بالضرورة تلك المشاهد المفزعة التي نشاهدها في شاشة التلفاز، وأنّ هناك نساء يلدن طوال اليوم، وفي كلّ أنحاء العالم. قالت جيا أيضًا أنّ عليّ تجاهل كلّ تلك الدراما المبالغ فيها وتخيُّل سارة وهي تتنفّس أنفاسًا طويلة بطيئة، ثمّ وهي تأتي بطفل إلى هذا العالم وهي تتنفّس في بطء.

قالت أشياء كثيرة من هذا النوع. كان من المفترض أن أفكّر فيها بصورة جدّيّة لو لم يكن وضعي في غاية السوء.

دفعني اليأس إلى العودة إلى قراءة رسائل سارة التي بعثتْ بها إليّ في الصيف الماضي. قرأتها جميعًا، بدءًا بالرسائل التي أرسلتْها يوم غادرت البيت، وصولًا إلى الرسالة التي بعثت بها قبل يوم من لقائنا على شاطئ سانتا مونيكا. قرأتُ الرسائل مرّتين وثلاثًا، في محاولة للعثور على شيء كنت أعلم أنّ الرسائل لن تقوله لي.

فُتِح باب وحدة الولادة، وتسارعت ضربات قلبي. خرجت إحدى العاملات في المستشفى، معتمرة قبّعتها، وهي تتثاءب، دسّت يديها في جيبي معطفها. مرَّت بنا من دون أن تلقي علينا نظرة. كان الإرهاق يبدو واضحًا عليها.

لم أعد قادرًا على الاحتمال.

عدت إلى قراءة الرسالة الأولى التي كتبتها سارة، بعد عشرين دقيقة من تبادل عبارات الوداع. كانت الرسالة تقول:

عدت إلى المنزل. أمضيت معك وقتًا رائعًا. أشكرك على كلّ شيء. قبلاتي.

بدأت أردّ عليها، كتبت:

أنا أيضًا أمضيت وقتًا رائعًا. الواقع أنّني أمضيت أفضل أسبوع في حياتي. لا أستطيع تصديق ما حصل.

كتبتْ هي بعد ساعتين من الرسالة الأولى:

أنا الآن في طريقي إلى ليستر. أفكّر فيك.

رددت:

كنت أفكّر فيك أيضًا. ومع أنّني أعترف بأنّ أفكاري لم تكن في مستوى جمال أفكارك ودقّتها، في تلك المرحلة، فإنّني أريدك أن تعلمي أنّني، في أعماق نفسي، شعرت بأنّني أحبّك إلى حدّ اليأس. وهذا ما جعل الأمر مؤلمًا، شعرت بأنّني مغرم بك بكلّ جوارحي، أحبّك بجنون. لم أستطع أن أصدّق أنّك موجودة. ولا أستطيع حتّى الآن.

ثمّ بدأ القلق يشوب رسائلها:

مرحبًا، هل أنت بخير؟ هل وصلتَ إلى غاتويك في الوقت المناسب؟

بلعت ريقي. بدا الأمر مؤلمًا، فقد لاحظت كيف بدأت مشاعر الوجل تظهر في الرسائل، وعرفت أنّه كان في وسعي وضع حدّ لها.

قرأتُ بضع رسائل أخرى، ثمّ توقّفت، غمرني شعور عارم بالذنب.

كتبتُ لها:

أنت أفضل وأجمل إنسانة عرفتها في حياتي. أدركتُ ذلك منذ اليوم الأوّل الذي أمضيناه معًا. كنت تستغرقين في النوم، وكنت أنا أفكّر: أريد أن أتزوّج هذه المرأة.

ثمّ كتبتُ وأعتقد أنني كنت أبكي:

سارة، أنا أحبّك. أتمنّى لو كنت معك، لأخفف عنك. لا أريد سوى أن تكوني أنت والطفل في خير.

آسف لأنّني لم أكن قربك. أتمنّى لو كنت معك. أتمنّى لو كنّا سويًّا في هذه الفترة. كان عليّ أن أتحلّى بالشجاعة، كان عليّ أن أثق في قدرتي على إيجاد حلٍّ ما مع والدتي. كان يجب ألّا أدع شيئًا يقف عائقًا بيننا.

كنت أبكي فعلًا. سقطت دمعة سخيّة على شاشة هاتفي. حاولت تنظيف الشاشة بطرف كمّي القذر، لكنّ الشاشة أصبحت غائمة. سقطت دمعة أخرى وأدركت أنّني كنت على وشك النحيب بصوت عال. وقفت وعدت إلى السير. غادرت المستشفى. كان الهواء قطبيًّا باردًا، لكنّه جمّد الدموع في عينيّ مباشرة. ظللت واقفًا في الخارج. كان موقف السيّارات هادئًا، وكانت الأضواء النحاسيّة والأشجار العارية من الأوراق تتأرجح بفعل النسمات اللاذعة.

أودّ لو أمنحك كلّ ذرّة أملكها من القوّة والشجاعة، رغم علمي أنّك لن تكوني بحاجة إليها. سارة هارنغتون، أنت امرأة استثنائيّة. أفضل امرأة عرفتها على الإطلاق.

بدأت أصابعي ترتجف. كان البرد يخترق فتحة معطفي الصوفي كالسكاكين، رغم أنّني لم أعد آبه بنفسي.

أرجوكِ، عندما تجدين نفسك جاهزة لتقبّل الفكرة، هل يمكننا المحاولة من جديد؟ هل نستطيع نسيان كلّ ما حصل – حتّى الأمور التي كنت أظنّ أنّنا لن نتجاوزها؟ هل يمكننا البدء من جديد؟ لا يمكن شيئًا أن يسعدني أكثر من وجودي معك. أنت، أنا، هذا الطفل. عائلة صغيرة.
سارة هارنغتون، أنا أحبّك.

علا زعيق صفّارة سيّارة إسعاف، صفعتني هبّة ريح، تجمّد الدم في العروق جانب وجهي.

أحبّك. وأنا آسف.

الفصل التاسع والأربعون

سارة

أدور في بطء وأحوم فوق حياتي. أرى أشكالًا سداسيّة وثُمانِيّة، قد تكون بلاطات السقف، أو تفصيلًا صغيرًا من الشيء الذي كنت أستند إليه بذراعي، ذلك الكرسي...

كان هناك الكثير من تفاصيل الأثاث الدقيقة، أشياء تأمّلتها بإنعام حتّى تضخّمت واتّخذت أشكالًا، ثمّ بدأت تتراقص: أشكالًا صغيرة ملوّنة متغيِّرة ملأت السماء. أوقاتًا سعيدة، صورًا تحمل روحيّة إيجابيّة. أيّ شيء يمكنه حثّ هرمون الأوكسيتوسين. هذا ما كان يُفترَض بي التفكير فيه. استعدت في ذهني أوقاتًا سعيدة. ها هو الحصان الصغير البدين الذي كانت جارة تومي تربّيه.

ومضة ألم. دفق صاعق من الألم. ولكن: أنا أثق في جسدي. أكرّر هذه الجملة، هكذا قيل لي. أنا أثق في جسدي. فهو سيجيئني بطفلي.

ها هو هوغو. قطّ تومي، الذي لم يشرب ما يكفي من الماء خلال الصيف.

عادت القابلة لتفعل شيئًا ما في جوفي. أحكمت الأربطة. منذ نقلي إلى هذه الغرفة، بدأ الأطبّاء مراقبة نبضات قلب طفلي بجهاز أشبه بأجهزة التجارب المخبريّة. عندما لاحظت القابلة التعبير الذي ارتسم على وجهي، قالت تذكِّرني: جهاز تحسّس للتقلّصات، وآخر للطفل. أومأتُ برأسي محاوِلةً العودة إلى ذكريات سعيدة.

ها هي طفلة تدعى هانا في الثانية عشرة من عمرها. تضع رباطًا معلّقًا في رقبتها؛ عينها متورّمة محاطة بأثار كدمات خضراء، تغطّي الجروح والندوب كلّ أنحاء جسدها. ماتت صديقتها الحميمة، وهي تكرهني.

لا، هذه ليست بذكريات سعيدة. بحثتُ داخل طبقات الألم والإرهاق عن ذكرى أكثر سعادةّ. شهيق وأعد إلى الأربعة، زفير وأعد إلى الستّة. أو لعلّها ثمانية؟ كان يقال لي في صفوف الإعداد

للولادة: ثقي في جسدك. ثقي في جسدك وفي عمليّة المخاض.

لكنّني دخلت ما يشبه النفق، نفقًا عميقًا، حيث لم أعد أدرِي أين أنا. أعتقد أنّ هذا بفعل العقاقير. صحيح: فقد حقنوني بإبرة في فخذي، وهناك ذلك الشيء القريب من فمي. أقبض عليه في إحكام وأتنفّس مستعيدةً قصصًا جميلة بينما أتسلّق جبلًا آخر. يعوم ذلك الشيء، هناك من يحاول إبعاده منّي، أتمسّك به بقوّة.

ها هي غرفة تملأها الأجهزة الطبّيّة، وتلك هي الفتاة ذاتها، هانا، لكنّها تبدو مختلفة الآن: عادت لتكون شقيقتي من جديد، غدت امرأة لها أسرة ومهنة. وهي ترافقني أثناء ولادتي. كانت تخضع لجلسات علاج نفساني، فهي لا تستطيع مسامحة نفسها. تقول أنّها عاملتني بقسوة.

لكنّها لم تقْسُ عليّ. لم تكن طوال حياتها قاسية. هانا تقبع في أعماق الذكريات السعيدة وهي تساعدني في الخروج من النفق. كنت أتنفّس، وأنا أستعيد مشاعر الذهول التي استولت عليّ لحظة رأيتها أوّل مرّة، عندما حضرتْ إلى منزل والدَيّ صباح يوم جنازة جدّي. كيف تماسكتْ وهي تتظاهر بالصلابة أمامي، ثمّ انهارت، وتذكّرت البهجة الروحانيّة التي غمرتني عندما عانقتُ شقيقتي أوّل مرّة منذ عشرين سنة تقريبًا.

يتراءى لي المزيد من الأشكال؛ كأنّها دفتر قصاصات الذكريات، يتراقص أمامي. لا أعي تمامًا وجود الأشخاص في الغرفة، وما يفعلون في جسدي، والأوامر اللطيفة التي يصدرونها.

تذكّرت يوم كنّا أنا وهانا في مقهى في ستراود، في أوّل موعد لنا كامرأتين راشدتين. تذكّرت فترات الصمت والضحكات المتوتّرة. تذكّرتُ الاعتذارات التي بدرت من كلينا، وتذكّرتُ والدي وهو يبكي عندما أخبرتُه بأنّ هانا دعتني إلى زيارتها في منزلها للتعرّف إلى أسرتها.

ولكن... طفلي. أين طفلي؟

مرّة أخرى، يغور البحر نحو أعماقه، ويغنّي طائر الوقواق ألحانه في غابة مظلمة. إيدي يضحك. أُفحَصُ ثانية. هناك أشخاص كثيرون، يراقبون شاشة تظهر عليها خطوط متعرّجة...

أين طفلي؟

طفلي، الذي كوّنته مع إيدي.

إيدي، كم أحببته.

إيدي. هذا الاسم الذي لا تنفكّ هانا تكرّره. إنّها تقول لي شيئًا عن إيدي. قالت أنّه في الخارج. بدت مصدومة، مذهولة. لكنّني في تلك اللحظة كنت مضطرّة إلى الإصغاء للطبيبة التي سحبت من جسمي الأنبوب، وبدأت تتحدّث في بطء ووضوح. قالت:

– أخشى أنّنا لن نستطيع الانتظار أكثر من ذلك... علينا إخراج الطفل: لم يتوسّع عنق الرحم بالكامل... عيّنة دم الجنين تشير إلى... الأوكسجين... معدّل ضربات القلب... سارة، هل تَعين ما

أقول؟

سألتُ:

– إيدي؟ هل هو في الخارج؟

لكنّ الأطبّاء تابعوا كلامهم، ثمّ بدأ سريري يتحرّك؛ كان يغادر الغرفة.

يتلاشى النفق. هناك بلاطات في السقف. تقول لي هانا وهي تقرّب فمها من أذني:

– لقد وافقتِ على إجراء عمليّة قيصريّة. الجنين يناضل للخروج. سارة، لا تقلقي، هذا يحدث كثيرًا. أنتِ في طريقك إلى غرفة الجراحة، وسيخرج الطفل خلال دقائق، سيكون كل شيء على ما يرام...

سألتها عن إيدي، فقد تراءى لي أنّ ما قالته كان واحدة من تلك الصور الملوَّنة المتغيّرة التي تخيّلتُها داخل النفق. شعرت بوهن شديد.

نقص في الأوكسجين؟

لكنّ ما قالته هانا كان حقيقة، وليس مجرّد أوهام خطرت لي داخل النفق: إيدي كان في انتظاري. هو خارج قسم الولادة. بعث بالكثير من الرسائل إلى هاتفي؛ يقول فيها أنّه يحبّني. قالت هانا:

– إنّه يكرّر أسفه. بدت مذهولة. تمتمت: إيدي والاس هو والد طفلك. أعني، ماذا؟

أمسكها شخص من كوعها، وطلب منها ارتداء الثياب الخاصّة بغرفة العمليّات.

إيدي يقول أنّه يحبّني. طفلي في خطر.

تحلّق الأطبّاء فوق رأسي، كان الكلّ يتحدّثون، وكان عليّ الإصغاء.

الفصل الخمسون

إيدي

كنت أجلس مستقيم الظهر: فُتح باب جناح الولادة. أدركت أنّني كنت نائمًا. كان وضعي بائسًا. فقد كنت أرتجف من البرد. لماذا لم أُحضر معي قبّعة، أو قفّازات؟ لماذا لم أخطّط لمجيئي بصورة أفضل؟ لماذا تصرّفتُ في حماقة في كلّ ما فعلت منذ اللحظة التي غادرتْ فيها سارة البيت في يونيو الماضي؟

سألت السيّدة الواقفة عند الباب، وكانت ترتدي ثياب غرفة الجراحة:

– هل هناك من يدعى إيدي والاس؟

– نعم! أنا.

توقّفتْ هنيهة، ثمّ أومأت لي برأسها في اتّجاه المصاعد، حيث يمكننا الحديث من دون أن يسمع الرجل الموجود معي في فسحة الانتظار. كان قد استسلم للنّوم هو أيضًا، لكنّه بدأ في تلك اللحظة يرمقني بنظرات تشي بالغيرة.

انطلقت أحاسيس الخوف في كلّ أنحاء جسمي، كالأسهم التي كنّا نراها في الأفلام العلميّة المدرسيّة. سرت نحوها في بطء شديد. كانت تنتظرني وهي تشبك ذراعيها، رأيتها تنظر إلى الأرض.

شعرتْ بسرعة بأنّني لست مرتاحًا لوضعها.

وشعرتْ بسرعة أكبر بأنّها إذا نقلت إليّ خبرًا سيّئًا، فلن تعود حياتي أبدًا إلى سابقها.

خلال الثواني القليلة الأولى، لم أتمكّن من سماع ما تقول، فقد أصابني الهلع بالصمم.

كرّرتْ ما قالتْ عندما شعرت بأنّني لم أستوعب شيئًا:

– إنّه صبيّ. ابتسمتْ وأردفتْ: سارة أنجبت طفلًا جميلًا قبل ساعة تقريبًا. حاليًّا، نحن نجري بعض الفحوصات للأمّ وللطفل، لكنّ سارة طلبت منّي إخبارك بأنّ المولود صبيّ وأنّه في صحّة جيّدة تمامًا.

تأمّلتها بدهشة بالغة:

– صبيًّا؟ صبيًّا؟ سارة في وضع جيّد؟ أنجبتْ صبيًّا؟

ابتسمت، ثمّ أردفَتْ:

– إنّها مرهقة، لكنّها في خير. بذلتْ جهدًا كبيرًا فعلًا.

– وهي التي طلبت منك أن تخبريني؟ هي تعلم أنّني كنت هنا؟

أومأتْ برأسها. قالت:

– كانت تعلم أنّك هنا. علمتْ بذلك، ونحن ننقلها إلى غرفة العمليّات لإجراء عمليّة قيصريّة. أخبرتْها شقيقتُها. إيدي، ابنك جميل فعلًا. طفل صغير رائع الجمال.

انحنيت، صدر منّي صوت أقرب إلى النشيج، لا أدري ما إذا كان يعبّر عن الدهشة، أو عن الفرح أو الراحة أو التعجّب، أو عن ملايين الأحاسيس التي لا أجد لها اسمًا. بدا أقرب إلى صوت الضحك. ويمكن أن يكون ضحكًا. غطّيت وجهي بيديّ وشرعت أبكي.

وضعت السيّدة يدها على ظهري وقالت:

– مبروك، إيدي، مبروك.

شعرتُ بأنّها كانت تبتسم.

تمكّنتُ أخيرًا من الوقوف. كانت تهمّ بالذهاب. بدا الأمر لا يُصدَّق. كانت ذاهبة لتوليد المزيد من الكائنات الحيّة إلى العالم. كانت ترى في هذه المعجزة أمرًا عاديًّا.

صبيّ. ابني.

– سارة تتعافى في غرفتها، وهي بحاجة إلى البقاء في جناح ما بعد الولادة بضعة أيّام. الواقع أنّه ليس في إمكانك المجيء لرؤيتها الليلة، تبدأ زيارات ذلك الجناح الساعة الثانية من بعد الظهر. غير أنّ الأمر، بالطبع، يعود إلى سارة.

أومأتُ بسرور بالغ، كالأبله، وهمستُ لها، وهي تسير عائدة إلى الداخل:

– شكرًا. شكرًا جزيلًا لك. أرجوك، أخبريها بأنّني أحبّها. أنّني فخور جدًّا بها. أنّني...

لم يسبق لي البكاء بهذا الشكل مذ علمت بموت شقيقتي الصغرى. لكنّ ذلك كان أسوأ يوم في حياتي، بينما أنا اليوم أعيش أسعد أيّام حياتي.

بعد فترة ليست بقصيرة، غادرتُ المستشفى وأنا أترنّح. كانت الريح قد هدأت، وبدأ يتسرّب من خلال سماء الليل الحالكة لونٌ رمادي فاتح. ساد الصمتُ المكان، لم يكن يُسمَع سوى صوتي وأنا

أبكي وأنشج. لم يكن يُسمَع حتّى صوتُ محرّك سيّارة من بعد، كنت وحدي مع ذلك الخبر الهائل الذي يبعث الدوار. همستُ، في ذلك الخواء الذي يسبق الفجر: أصبحتُ أبًا، أبًا لصبيّ صغير!

كرّرت هذه الجملة مرّات عدّة، فقد خلا ذهني من أيّ كلمة أخرى. استندت إلى الجدار البارد للمركز النسائي، وحاولت إعادة ضبط رؤيتي إلى الكون من حولي، حيث تستوعب هذه المعجزة الجديدة، لكنّ ذلك بدا مستحيلًا: لم أستطع أن أتخيّل شيئًا. لم أستطع أن أحسب شيئًا. لم أستطع أن أصدّق شيئًا. لم أستطع أن أفعل شيئًا.

دخلت سيّارة وحيدة إلى موقف السيّارات، سارت على مهل نحو القسم المخصّص لسيّارات ذوي الحاجات الخاصّة. الحياة تستمرّ. العالم يستيقظ من سباته. العالم يضمّ ابني. هذا كلّه موجود لأجله. هذا الهواء، هذا الفجر، هذا الرجل الباكي الذي سيناديه يومًا ما «أبي».

شعرت برجرجة الهاتف في جيبي، ورأيت اسم سارة وكلمة «رسالة»، انهارت أعصابي ثانية، لم أستطع أن أتمالك نفسي وشرعت أبكي حتّى قبل أن أقرأ الرسالة.

كتبتْ:

إنّه جميل! أجمل من رأيت في حياتي.

حدّقتُ في شاشة الهاتف، وقد تقطّعت أنفاسي، بينما كانت تكتب رسالة أخرى.

إنّه يشبهك.

أرجوك، تعال غدًا لرؤية ابننا.

ثمّ كتبتْ رسالة أخيرة:

أنا أيضًا أحبّك.

الفصل الحادي والخمسون

سارة

اليوم هو الثاني من يونيو. يوم آخر في التاريخ نفسه أمضيه في برود رايد، للمرّة العشرين. تذكّرت هذا وأنا أحاول ربط شعري بشريط مطّاطي. تهبّ اليوم نسمات قويّة تدفع السحب بسرعة في السماء، لتتكاثف وتصبح حلزونيّة الشكل. ترفع النسمات خصلات شعري لتراقصها في الهواء.

تذكّرت العام الذي هطل فيه مطر غزير جعل نبات القرّيص ينحني ليلامس الأرض، والعام الذي رفعت فيه الرياح العنيفة القبّعة عن رأسي. تذكّرت العام الفائت، عندما كان الجوّ حارًّا إلى درجة جعلت الهواء حولي يبدو مضغوطًا، حين قبعت الطيور بسكون فوق الأشجار عاجزة عن التحليق. كان ذلك هو العام الذي قابلتُ فيه إيدي. حين بدأ كلّ شيء.

إيدي. إيدي الذي أحبّه. ابتسمتُ، رغم كلّ ما أحسّه من إرهاق، ورغم حرماني النوم مدّة لا يمكن تخيّلها. ابتسمتُ، وبدأت معدتي تتّسع ثمّ تضيق.

ما زال الإحساس نفسه يدهمني، بعد عام كامل من مصادفته في المرج المحيط بالقرية. هو يقول أنّه يشعر بالإحساس ذاته أيضًا، وأنا أعلم أنّه صادق لأنّني أرى ذلك في قسمات وجهه. أتساءل أحيانًا ما إذا كان ما نشعر به هو مجرّد أثر تخلّف في أعقاب المعركة التي خضناها كي نبقى معًا. والأغلب، في اعتقادي، أنّ السبب هو أنّه هذا ما يجب أن نشعر به.

تنفّس أليكس بصوت مسموع، ودفن وجهه في صدري بقوّة، كأنّه يشعر بما يعتمل في قلب والدته من عاطفة متّقدة. ما زال نائمًا بعمق، رغم الأشخاص الكثر الذين كانوا يحاولون تحريكه والتودّد إليه خلال الساعات الماضية. أحطته بذراعيّ وهو ملفوف في العلّاقة، وقبّلت رأسه الصغير الدافئ مرّات ومرّات. كان ضمُّه بين ذراعَيّ – رغم كلّ ما أشعر به من وهن يجعلني

أتمنّى النوم ولو في وعاء إطعام الكلاب – يشبه إضاءة مصباح. لم أكن أتصوّر أنّ في إمكاني حبّ أيّ شيء أو أيّ شخص بهذا المقدار.

في اليوم التالي لولادة أليكس، وعندما دخل إيدي غرفتي، حاملًا لعبة بشكل سنجاب، ويداه ترتعشان، شاحب الوجه لهول الموقف، أدركت أنّنا تجاوزنا العقبات في علاقتنا. أعطيته ابنه، فوقف يحدّق فيه مذهولًا. لم يتمالك نفسه وشرع يبكي. أطلق على أليكس اسم «البطل الشجاع». في ما بعد، وعندما انتزعت الممرّضة الطفل من بين ذراعيه، نظر إليّ بضع دقائق، ثمّ قال أنّه يحبّني. قال أنّه سيكون لي، مهما حصل، إذا وافقتُ على العودة إليه.

عندما سُمح لي بمغادرة المستشفى، عاد إيدي معي إلى منزل والدَيّ. بعد بضعة أسابيع، انتقلنا للإقامة في منزله. صنع مهدًا للطفل وعلّق الفأرة الخشبيّة أعلاه. كانت أسعد أيّام حياتي. رغم رفْض والدته التحدّث معه بشأني، ورغم أنّها كانت تمطره بمكالماتها الهاتفيّة طوال اليوم، ورغم أنّني كنت مفلسة، ورغم أنّ سقف البيت بدأ يدلف، ورغم إصابتي بالتهاب الثدي الذي سبّب لي آلامًا مبرحة. في الصباح الذي أعقب الليلة الأولى التي أمضيناها في المنزل، لم نقم من الفراش فور استيقاظنا. مكثنا في السرير مع ابننا، أرضعته، ثمّ صرنا نعانقه وهو يغرق في نومه ثمّ يستيقظ، ونقبّله، ونغيّر له حفّاضاته ونبتسم له.

في البداية، كان إيدي يردّ على مكالمتين، أو ثلاث، من والدته كلّ يوم، وسرعان ما أصبح يردّ على مكالمة واحدة فقط. لم يكن ذلك سهلًا عليه – قال ذات صباح عندما استيقظ ليجد ثلاث مكالمات في انتظاره، أنّ الأمر قاسٍ لا يحتمل. المكالمات الليليّة هي الأسوأ. بدأت يداه ترتجفان وهو يتّصل بها، وقد استوى في السرير بينما كنت أجلس على كرسي أرضع أليكس، ثمّ مضى لزيارتها على الفور. عندما عاد، قال أنّها في خير. كلّ ما في الأمر أنّها لم تنم جيّدًا تلك الليلة. لكنها، ومنذ عشرين سنة، تمضي ليلة لا تنام فيها جيّدًا مرّة في الشهر، في الأقلّ، وها هي ذي، حيّة ترزق. يجب أن يكون هناك سبب أكثر إقناعًا لاتّصالاتها.

رغم سنواتٍ أمضيتُها في تصوّرات مؤلمة حول شقاء عائلة والاس، فإنّ مدى المسؤوليّات التي كان إيدي يتحمَّل عِبْئها إزاء والدته شكَّل لي صدمة. لكنّه عندما اعتذر عن عدد مكالماتها الهاتفيّة، وعن عدد زياراته إيّاها في منزلها، طلبتُ منه ألّا يشعر بأنّه مدين بالاعتذار. قلت له أنّني، بين كلّ نساء الأرض، كنت في الموقع الذي أتفهّم فيه هذا الوضع، بكلّ تأكيد.

شعرتُ أيضًا بأنّ شيئًا ما قد استجدّ على إيدي وغطّى على مرض والدته، وهو الأبوّة. الأبوّة بكلّ ما تنطوي عليه من انفعالات وغرائز يصعب وصفها. دخل أليكس حياة إيدي. هو مخلوق صغير دافئ يبدو كمن يحاول حلّ ألغاز العالم. ومن دون أن يوجّه كلمة واحدة إلى والده – بل ومن دون أن يرفع إصبعًا واحدة – غيّر نطاق مسؤوليّات إيدي إلى الأبد.

عندما تتّصل به والدته الآن، يلغي المكالمة، ويبعث إليها برسالة نصّيّة لاحقًا، لأنّ جلّ اهتمامه ينصبّ على أليكس، وعليَّ أنا أيضًا. قال لي ذات يوم:

– عليّ أن أصلّي كي تظلّ والدتي في خير، ولكي يظلّ ما يمكنني تقديمه إليها، في الوقت الحالي، كافيًا. سارة، أنا لا أستطيع تقديم المزيد. ولن أقدّم المزيد. هذا الرجل الصغير بحاجة إليّ، وهو من يجب أن أحافظ على حياته.

مع ذلك، شعرتُ بأنّه تألم لأنّ والدته لم تحضر اليوم. كنت أعلم أنّها لن تحضر؛ وهو أيضًا كان يعلم ذلك – فهي رأت أليكس ستّ مرّات خلال ثلاثة أشهر، وفي كلّ مرّة كانت تصرّ على أن يكون إيدي وحده معه – لكنّ انحناءة كتفيه عندما اضطررنا إلى بدء الاحتفال من دونها، فطرتْ قلبي.

عندما أخبرتني دجيني أنّها وخافيير يخطّطان للمجيء في شهر يونيو، قرّرنا إقامة حفل ترحيب بولادة أليكس. فبما أنّ إيدي وأنا لم نكن من المتديّنين، لم تُتح للطفل معموديّة، هكذا خطّطنا لإقامة حفل صغير من أجله. حفل لا يضمّ سوى بضعة أصدقاء، يلقون بضع كلمات، ثمّ ننصرف إلى الموضوع الجدّي، وهو الطعام والشراب.

كانت الأشهر العشرة الماضية قاسية بالنسبة إلى دجيني. كنّا نتكلّم مرّتين في الأسبوع في الأقلّ. مرَّت لحظات صعبة لا تحتمل، تفطر القلوب، لكنّها في اعتقادي تجاوزت المرحلة الأسوأ. بدت بحالة لا بأس بها عندما وصلا صباح اليوم السابق. وكانت أخبرتني سابقًا أنّهما يشعران بأنّهما قد أصبحا مستعدَّيْن لتصوّر شكل حياتهما المستقبليّة من دون أطفال – قالت لي، ربّما سنسافر – بل إنّها بدأت تفكّر في نيل شهادة دراسات عليا في «مجال مثير للاهتمام». لا بدّ أنّ روبن المسكين سيصاب بالخبل إن خسرها هي أيضًا.

كانت إقامة الحفل في برود رايد، في الثاني من يونيو، فكرة إيدي. فهناك كان مخبأ هانا وأليكس. بدت لي الفكرة رائعة.

لكنّ الحفل، وعلى غرار كلّ أحداث علاقتنا، لم يمرّ مرور الكرام. فقد التهم سميلي، كلب شقيقتي، معظم كمّيّة الطعام المعدّ للاحتفال – بما في ذلك كعكة الشوكولاته الضخمة – هكذا هرع به هاميش إلى الطبيب البيطري الإسعافي، ولم يتوقّف أولاد هانا عن البكاء خشية أن يموت الكلب لكثرة ما أكل. أمّا آلان صديق إيدي الحميم، فقد كان مضطربًا بشأن الكلمة التي كان سيلقيها. عبّ بضع زجاجات من البيرة، وعندما كنّا في انتظاره ليقف ويلقي الكلمة، كان هو يغطّ في نوم عميق. قاطعته زوجته ولم تعد تكلمه. بعد ذلك، ضُبِط رودي وهو يقبّل الابنة الكبرى لإحدى صديقاتي في جلسات اليوغا الخاصّة بالحمل والأمومة، داخل كهف خفيّ تغطّيه أعشاب برّيّة، رغم أنّه كان في الثامنة من عمره، أي في السنّ التي يُفترض فيها أن يعتبر الفتيات، وللعامين المقبلين، مصدرًا

للإزعاج، ورغم أنّ صديقتي عبَّرت في الأسبوع الماضي عن مدى سعادتها لأنّ ابنتها لم تكن مثل معظم أطفال هذه الأيّام، فلم تكن العلاقات الجنسيّة تشغل أفكارها.

لم تتمالك دجو نفسها من الضحك، رغم أنّ ذلك لم يخفّف وطأة الموقف.

مع ذلك، كان الكلُّ موجودين، عدا هاميش، وبالطبع، والدة إيدي. دجيني وخافيير، شقيقتي وأسرتها، آلان وجيا، اللذان كانا في غاية الودّ معي – وتومي ودجو، اللذان كانا يعيشان قصّة حبّهما الخاصّة. بدا الاثنان سعيدين كما لم أرهما من قبل، رغم أنّ شون تسبّب في بعض المشكلات عندما أخبرتْه دجو بعلاقتها بتومي. لكنّها حصلت على ما لم يسبق لها الحصول عليه: المشاركة الحقيقيّة. ولا بدّ أنّها ستعرف كيف تتعامل مع الموضوع.

بالطبع، كان والداي حاضرَيْن، يراقبان بسعادة غامرة كلّ تفاصيل العلاقة المستجدّة بين ابنتيهما. وهما لا يصدّقان أنّني عدت، وتمكّنت، أنا وهانا، من استرجاع صداقتنا، وأنّنا اجتمعنا أخيرًا أسرة. وهما، بالطبع، مهووسَيْن بأليكس. بل إنّ والدي ألَّف مقطوعة خاصّة له، تُعزف على التشيلو. وكنت أشعر بأنّه سيعزفها خلال الحفل في وقت لاحق.

تناولت فطيرة أخرى في الوقت المتاح لي – لأنّ أليكس سيصحو في أيّ لحظة – وبحثت عن إيدي.

كان هناك. يسير في اتّجاهنا، واضعًا يديه في جيبيه ويبتسم. لا أعتقد أنّني سأملُّ يومًا من رؤية ضحكته. قال:

– مرحبًا.

قبّلني، مرّة، ثمّ مرّة أخرى. نظر إلى ابننا الصغير. همس في أذنه: مرحبًا أيّها «البطل الشجاع». بدأ أليكس يصحو، بالتأكيد. فتح عينيه نصف فتحة، قطّب جبينه، ثمّ نطحني برأسه في صدري، وسرعان ما عاود النوم. قبّل والدُه أعلى رأسه، الذي كانت تفوح منه أزكى رائحة في العالم، ثمّ قضم قطعة من فطيرتي.

استيقظ أليكس ثانية، لكن في هذه المرّة، بدا كأنّه سيظلّ مستيقظًا. نظر بعيون غائمة إلى والده، الذي بدا وجهه أشبه بيقطينة مبتسمة تثير الضحك تلوح أمام ناظري الطفل – وبعد التفكير بضع دقائق – ابتسم. انهار إيدي متأثّرًا بعواطفه، كما يحصل دائمًا.

بدأ إخراج طفله من العلّاقة، وفجأةً حضرني منظرنا في العام المنصرم، شخصان ينظران إلى بعضهما بعضًا من فوق خروف شارد. أحسست بدفق الأمل والتوقّعات، بالمسار الذي لم يتوقّف لحل ألغاز الماضي، التي لم نكن نعي وجودها. تغيّر الكثير منذ ذلك الحين؛ وكانت الأيّام المقبلة تحمل لنا المزيد. ولكن، لم يعد هناك شيء يمكنه أن يعيقني بعد الآن. لن تكون هناك زوايا معتمة، ولا انهيار وشيك. لن يكون هناك سوى الحياة.

من كان يتصوّر أنّ إيدي والاس سيكون الحلّ؟ وأنّ إيدي، من بين كلّ الناس، هو من سيضع حدًّا لهروبي؟ سيساعدني في البقاء في مكاني، في التنفّس، في محبّة نفسي؟ من كان ليتخيّل أنّ إيدي والاس، الذي اختبأت منه سنوات، هو من سيجعلني أرغب، وبكلّ كياني، في العودة؟ سيسمح لي بضرب جذوري في الأرض والانتماء، أخيرًا، إلى مكان ما؟

رفعت رأسي، رأيت كارول والاس.

كانت تقف عند حافّة المكان الذي نجلس فيه، تشبك ذراعها بذراع شخص يتدلّى كمّه الآخر فارغًا إلى جانب جسمه. لا بدّ أنّه فيلكس. تجمّدت مكاني وتسارعت دقّات قلبي. لم أكن واثقة في أنّني تهيّأت للحظة كهذه. بل إنّني، وبدافع أنانيّ، لم أكن أرغب في لحظة كهذه. لا أستطيع مواجهة موقف متفجّر، وبالتحديد، يوم حفل أليكس.

لكنّها جاءت، وبدأت تشقّ طريقها بين الحاضرين، متّجهة نحوي مباشرة.

قلت في سرّي، لا بدّ أنّها متوجِّهة نحو إيدي. وهي حتّى لن تنظر إليّ. كان إيدي يحمل أليكس فوق رأسه ويضحك بسبب ما ارتسم على وجه ابنه من الدهشة والارتباك. راقبتُ مشهد كارول ووالدتي عندما التقت نظراتهما. استوقفتها والدتي ومسّت ذراعها برفق، ثمّ قالت لها شيئًا ما وابتسمت. بدت كارول في حالة صدمة. نظرتْ بدهشة إلى والدتي، وهي تقف مرتبكة جامدة مكانها، ثمّ أجابتها بعد جهد. شعرتُ بأنّ شبه ابتسامة ارتسمت على وجهها، وإن كانت مقتضبة. قالت أمّي شيئًا آخر، وأشارت إلى الحاضرين في النزهة، ابتسم لها فيلكس في ودّ وأومأ برأسه شاكرًا، ثمّ نظر إلى كارول، لكنّها كانت استدارت نحوي أنا وإيدي، وتابعت المسير.

قلت في هدوء:

– إيدي، والدتك هنا.

كان إيدي لا يزال منشغلًا بالحديث مع ابنه.

استدار بسرعة، وشعرت بأنّ جسده اتّخذ وضعيّة الحذر والترقّب. ساد صمت مقلق، وهو يفكّر في ما يمكن أن يفعله. بدأ، وخلال لحظة، يسير لاعتراضها قبل أن تصل إليّ، ثمّ توقّف. وقف بحزم وأمسك يدي، وضمّ أليكس بقوّة بيده الأخرى، وإبهامه يتحرّك فوق النسيج القطني الناعم لثيابه الصغيرة.

نظرتُ إليه. كانت عروق صدغه تنبض بقوّة، وكان عنقه مشدودًا، أدركت أنّه يودّ الاندفاع، يودّ الهجوم عليها. لكنّه لبث واقفًا في مكانه. أمسك يدي بقوّة أكبر. كان كمن يقول لها: نحن زوجان، أحببتُ تصرّفه هذا. لم أعد وحدي. صرنا اثنين معًا.

كانت كارول تنظر إلى ابنها وهي تتابع مسيرها، تخلّف عنها فيلكس. ابتسم لي في ودّ، لكنّ ذلك لم يكن كافيًا لطمأنتي بأنّ الأمور تسير على ما يرام. رأيت والدَيّ، من خلف كتفيه، يراقبان ما

يحدث. دجو كانت تراقب المشهد، وآلان كان يراقبه أيضًا. والواقع أنّ كلّ الحاضرين كانوا يراقبون ما يحدث، رغم أنّهم كانوا في معظمهم يتظاهرون بعكس ذلك.

قالت كارول عندما وقفت أمامنا:

– مرحبًا، عزيزي إيدي. في تلك اللحظة فقط، أدركتْ أنّ فيلكس لم يكن جانبها. نظرتْ هي إلى الخلف بقلق، لكنّه لم يتحرّك، ويبدو أنّها قرّرت البقاء مكانها. تابعت الكلام: فكّرت في المجيء لرؤية أليكس في يومه الخاصّ.

ازدادت شدّة قبضة إيدي على يدي. بدأت أشعر بالألم.

قال هو، وقد بدا عليه الاسترخاء والبهجة كأنّ كلّ شيء على ما يرام:

– أهلًا أمّي.

قلت في سرّي، كم أنت لطيف. أنت تفعل ذلك منذ سنوات. جعلتَها تشعر بالأمان، مهما كانت المشاعر التي تعتمل داخل نفسك. أنت رجل استثنائيّ. همس لابنه:

– أليكس، جدّتك هنا.

كان أليكس جائعًا، يحاول بلوغ صدر إيدي رغم أنّه لن يجد حليبًا هناك.

سأل إيدي والدته:

– هل تودّين معانقته؟ أعتقد أنّه سرعان ما سيبدأ بطلب الرضاعة، ولكن يمكننا أن نحظى ببضع لحظات من الهدوء.

لم تنظر كارول إليّ، لكنّها ابتسمت وفتحت ذراعيها. سلّمها إيدي طفلنا بحذر ولطف. انتظر إلى أن أمسكتْ به؛ ثمّ قبّل ابنه في أعلى رأسه.

عاد إلى الخلف، وأمسك يدي ثانية. ارتسمت على وجه كارول ابتسامة لم أكن لأتخيّل أن أراها ترتسم على وجهها، ذلك الوجه الذي لم يبارح تفكيري سنوات. همستْ للطفل:

– مرحبًا يا حبيبي. اغرورقت عيناها بالدموع، عرفتُ في تلك اللحظة أنّ إيدي ورث منها عينيه الزرقاوين الجميلتين. مرحبًا أيّها الصبيّ الجميل! أليكس، هل تعلم كم تحبّك جدّتك؟ جدّتك تحبّك بصدق.

مدّ إيدي يده وضغط على إحدى قدمي أليكس الصغيرتين المكتنزتين، ثمّ ألقى عليّ نظرة جانبيّة، وأحكم قبضته على يدي.

قال بصوت هادئ:

– أمّي، أعرّفك بسارة. والدة طفلي.

ساد صمت طويل، كانت كارول والاس خلاله تتمتم بكلمات غير مفهومة لأليكس، الذي بدأ يتلوّى محاولًا النزول عن صدرها. ترك إيدي يدي وأحاطني بذراعه. لم تنظر كارول إلينا. عادت

لتتمتم لأليكس:

– يا لك من صبيّ صغير لطيف.

– أمّي...

نظرتْ إليّ كارول والاس في بطء وتردّد. نظرتْ إليّ من فوق رأس ابني، عبر عشرين سنة من الألم الذي بدأتُ الآن فقط أتفهّمه لأنني أصبحت أمًّا. ابتسمتْ ثانية، بل جزءًا من الثانية، ثمّ قالت بصوت مرتجف:

– شكرًا لك لأنّك وهبتني حفيدًا. شكرًا سارة لأنّك منحتِنا هذا الصبيّ الصغير.

قبّلتْ أليكس، ثمّ ابتعدتْ منّا، إلى مكانها الآمن قرب فيلكس، واستأنفا حديثهما. هدأت الريح؛ صارت أشعّة الشمس أكثر دفئًا. خلع الحاضرون ستراتهم وكنزاتهم. كان العشب يتمايل بعنف كأنّ طفلًا يختبئ داخله. رفرفت مجموعة صغيرة من الفراشات فوق الأعشاب البرّيّة المحيطة بنا، لتفصلنا عن الماضي، عن القصص التي كنا نرويها لبعضنا بعضًا طوال سنوات.

أحطّت خصر إيدي بذراعيّ، وشعرت به يبتسم.